تأليف
الدكتور عبد الفتاح إسماعيل شلبي
أستاذ الدراسات القرآنية واللغوية
بجامعة أم القرى - مكة المكرمة

أبو علي الفارسي

حياته، ومكانته بين أئمة التفسير العربية وآثاره في القراءات والنحو



الناشر
دار المطبوعات الحديثة
تلفون ٦٨٩١٦٦٠ - ٦٤٣٣٠١١ - ص.ب ١٦٦٢٥
جدة - المملكة العربية السعودية

تطلب جميع منشوراتنا من مكتبات دار المطبوعات الحديثة
جدة - سوق الندى - جانب مكتبة مرزا ت: ٦٤٣٣٠١١
جدة - حي الجامعة - سوق الأمير متعب التجاري ت: ٦٨٩١٦٦٠
المدينة المنورة - شارع السيحانية - المتفرع من شارع أبي ذر ٨٣٦٣٢٤٨
جدة - المملكة العربية السعودية ص. ب ١٦٦٢٥

الطبعة الثالثة
١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م



الناشر
دار المطبوعات الحديثة
المملكة العربية السعودية - جدة - ص.ب. ١٦٦٢٥ - تلفون: ٦٨٩١٦٦٠

أبو علي الفارسي

حياته، ومكانته بين أئمة التفسير العربية
وآثاره في القراءات والنحو

تأليف

الدكتور عبد الفتاح إسماعيل شلبي
أستاذ الدراسات القرآنية واللغوية
بجامعة أم القرى - مكة المكرمة



بسم الله الرحمن الرحيم

« هذا الكتاب رسالة دكتوراه ، نوقشت علنا بكلية دار العلوم جامعة القاهرة فى مساء الأربعاء (٨ من جمادى الآخرة ١٣٧٦ هـ - ٩ من يناير ١٩٥٧) ومثلت ثلاث من جامعاتنا فى المناقشة : فقد اشترك فيها السادة الأساتذة : على النجدى ناصف أستاذ اللغة العربية بكلية دار العلوم مشرفا ، وعباس حسن أستاذ اللغة العربية بكلية دار العلوم ، ومصطفى السقا وكيل كلية الآداب سابقاً (جامعة القاهرة) والدكتور عبد العزيز برهام وكيل كلية الآداب (جامعة الإسكندرية) وفضيلة الشيخ محمد المدنى رئيس قسم الدراسات الإسلامية بكلية دار العلوم ، والأستاذ بكلية الشريعة بالجامع الأزهر - سابقاً » .

وبعد مناقشة دامت سبع ساعات ونصف أعلن منح صاحب الرسالة درجة الدكتوراه فى اللغة العربية بمرتبة الشرف .

فهرس مجمل

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

بقلم الأستاذ الكبير علي النجدي ناصف أستاذ اللغة العربية بكلية دار العلوم

هذا أبو علي الفارسي كما وجده الصديق الكريم الدكتور عبد الفتاح شلبي بعد رحلة طويلة مضنية في بطون الاسفار المطبوع منها والمخطوط، وهذه آثاره في القراءات والنحو كما تمثلت له، بعد ما أحصاها عدا، والتمسها في مظانها بحثا، ثم عكف عليها فأشبعها دراسة ونقدا.

وإن بحثاً موضوعه أبو علي الفارسي وآثاره في القراءات والنحو، وواضعه باحث جامعي أيّد، أوتي مثل ما أوتي الدكتور شلبي من كفاية ومواهب - لحقيق أن يكون بحثا قيما جليلا - له بين أنداده من البحوث منزلة كالتي كانت للشيخ أبي علي بين أنداده من العلماء.

لقد كان الفارسي في المائة الرابعة وبين علمائها كما كان سيبويه في المائة الثانية وبين علمائها، مثلا عالياً للأستاذية العاملة المنتجة، والغزارة العلمية الدافقة، والقدرة الذهنية الفائقة على التبويب والتصنيف، وكان كلاهما كذلك حلقة وضاءة باهرة، في سلسلة الثقافة العربية الخالدة، وصلت الخلف بالسلف، وحملت علم الأولين إلى الآخرين.

ظهر أبو علي وقد ازدهرت النهضة، وآتت أكلها يانعاً جنيا. وظهر سيبويه وما تزال النهضة نامية مطردة، تشتد في طلب الغاية من النضج والاكتمال، فأقبل كلاهما على الأئمة من المعاصرين وغير المعاصرين، يأخذ منهم، ويستوعب كل ما عندهم

حتى إذا تضلع منه ريا وأدرك أربا ، انصرف إليه يمحصه ، ويقلب النظر فيه ، وإنه خلال هذا وذاك ليضيف إليه ويستخلص منه ما شاء الله أن يضيف ويستخلص، ولما أن رضى عنه واطمأن إليه ، خرج به على الناس علماً منظما ، وعملا مقدما ، وأثراً جديداً أو أشبه بالجديد من كل مقتبس أو منقول . وقد أعجب الناس بحجة الفارسى وبراعته فى التأليف ، كما أعجبوا من قبل بكتاب سيبويه وبراعته كذلك فى التأليف ؛ إذ رأوا الحجة فى بابها كالكتاب فى بابه : فالحجة تدعم القراءات وتحتج لها ، وتنفى الشُّبَهَ عنها بما فيها من النصوص الشاهدة ، والبحوث البارعة ، والأدلة الناصعة. والكتاب يكفل للناس عصمة الألسنة أن تجرى بلحن أو تحريف فى تلاوة كلام الله ؛ بما يرفع للنحو من قواعد ، ويؤصل من أصول ويفرع من فروع ، ويقرر من مسائل .

وإذاً لقد بذل كلاهما للدين من نفسه ، وخدمه جاهداً بعلمه ، وأدرك من دنياه الغاية التى كان يجمع عليها سلف هذه الأمة الكريمة فى علم ما يعلمون : أن يجعلوه قربى إلى الله ، ووسيلة يخدمون بها دينه الحنيف فى ناحية من نواحيه .

ولم يكن الفارسى قبل اليوم معروفاً على مقدار ما تستوجبه مكانته العالية وآثاره الباقية ، وما يقتضيه البر به والإنصاف له وحسن الاعتراف بفضله ، فما كان الرجل فيما أعلم إلا أشتاتاً من الآراء المرددة ، والأنباء المرسلة ، والترجمات المقتضبة ، وما كانت كتبه كذلك إلا مجرد أسماء نقرؤها فى كتب التراجم والفهارس ، ثم لا نكاد نعرف منها أو نعرف عنها إلا اليسير .

وما كان منتظراً فى عهد الركود والجمود أن يكون حظ الفارسى خيراً من هذا الحظ ، ولا أن يكون نصيبه من الدرس والبحث غير هذا النصيب من الإغفال والإهمال ، فقد كان الرجل فى جلالة بحوثه ، وعمق فلسفته أبعد منالا ، وأعسر متناولا من أن يستشرفه أو يتطاول إليه باحث أو ناشر إلا فى عهد توثب ونهوض .

فلهذا نرى الدكتور عبد الفتاح شلبى دون غيره يختص به ، وينبعث فى طلبه ، وفى هذا العصر على التعيين ، ولا أرى أن هذا وذاك لمجرد المصادفة والاتفاق ، ولكنه فى الواقع للمناسبة المواتية بين الفارسى وصاحبه ، ثم بين الفارسى والوقت الذى قدر له أن يبعث فيه : فالدكتور عبد الفتاح شلبى باحث جلد ، متمكن فى دراسته جم النشاط ، وافر الإخلاص . والعهد عهد القومية العربية فى تجمعها ونهوضها

واتجاهها إلى الغاية المشتركة فى الهدف البعيد ، فمن دلائل التوفيق لها ، وهى تجمع الكلمة ، وتأخذ الأهبة أن تذكر أمسها فى يومها ، وتأخذ من ماضيها لحاضرها ؛ وأن تمضى فى هذه السبيل قدما إن شاء الله .

لقد بعث الله الشيخ الفارسى فى هذا البحث العتيد ، ورده علينا بعد ألف عام خلقاً سويا ، نراه فى شخصه ونفسه ، وفى عواطفه وحسه ، وفى هواه ورشده ، وفى آرائه وعقيدته ، وفى تفكيره وفلسفته ، وفى بيئته وعصره ، وفى الينابيع التى استقى منها ، والإضافات التى أضافها ، وفى مدى ما انتفع الخالفون به ، وأفادوا منه . وهذه آثاره فى القراءات والنحو قد أحصيت ، وحقق عددها ، وعينت أماكن وجودها ، وأوتى كل منها حقه من العرض ، والدرس ، والتحليل ، والنقد فى أناة وحكمة وإنصاف .

وعجيب حقاً أن يكون ذلك كله على رأس الألف الثانية لوفاته (رحمة الله عليه) ، فهل ترى الأقدار كما قال الدكتور عبد الفتاح شلبى فى تلخيص الرسالة ، قد تولت عنا تكريمه ، فحددت لنا موعده ، وندبت منا له ، على نحو ما يفعل الناس فى إحياء ذكرى العظماء الخالدين ؟

وظاهرة أخرى قد تكون من ظواهر تكريم الأقدار للفارسى ، وتهيئة الأسباب المواتية لجعل بعثه كاملا : أنها جعلت ثقافته متصلة متشابكة ، لا تخرج عن حيز اللغة والنحو ، ولا تبعد منهما شيئاً ؛ ليدرسه الباحث جملة واحدة ، وعلى منهج واحد ، فيفيد من جانب لجانب ، ويأخذ من هذا لذاك . فما أظن أن باحثاً صبوراً مقتدراً يتصدى لدراسة الفارسى فيأخذ أثره فى النحو أو القراءات ، ويدع الآخر لباحث غيره ؛ لأنه فى أحد الأثرين لا بد ملم بالأثر الآخر وقائل فيه ، وإلا كان درسه مشطوراً أو مبتوراً ؛ لأن الفارسى (رحمه الله) لم يعمل للقراءات من ناحية الرواية والسند ، ولكن من ناحية الاستدلال والاحتجاج ، وكان معوله طبعاً فى هذا وذاك على النحو وبحوثه ، واللغة ونصوصها .

وبعد ، فإن لى فى هذا المقام أمنيتين : عامة ، وخاصة ، فأما العامة : فأن تتوالى أمثال هذه البحوث القيمة ، نحيى بها مجد سلفنا العظيم ، فى ذلك مدد متصل النهضة ، وإضافة ثمينة إلى الثقافة ، وفخر صادق لنا واعتزاز . ولا بأس أن تدور كلها أو معظمها أول الأمر على أعلام الدولة فى البلاد الشرقية ، ثم تدور بعد ذلك

على الأعلام فى سائر الأقطار ، ولا سيما مصر ، فلا شرق بين العرب اليوم ولا غرب؛ ولكنهم أمة واحدة فى أقطار متعددة . رفعت من بينها الحواجز ، وزالت الحدود . ثم إن النهضة إنما نشأت وازدهرت فى الشرق حيث حاضرة الخلافة ومستقر السلطان . فنحن إذ نبدأ بدراسة أعلام الشرق ونثنى بدراسة الأقطار الأخرى إنما نبدأ الدرس من أوله ، ونتناوله من أصله ، ثم نجرى فى تتبعه على سنن من المنطق واطراد النهج .

وأما الخاصة فإلى السيد الدكتور عبد الفتاح أن يعكف على آثار الفارسى ، فيعيد قراءتها ، ويحقق نصوصها ، ثم يخرجها للناس إخراجاً عصريا ؛ ليفيد منها علماء اليوم والغد كما أفاد منها علماء الأمس . وبذلك يكون قد أوفى كل حق الفارسى عليه .

والرغبة إلى الله تعالى ان يوفقه فى الإخراج كما وفقه فى التأليف ، وأن يمده دائماً بعون منه وتأييد ؟

على النجدى ناصف

يوم الجمعة { ١٣ من شعبان سنة ١٣٧٦
١٥ من مارس سنة ١٩٥٧ }

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الموضوع — أهدافه — منهج البحث فيه — مصادره

أحمدك اللهم على توفيقك حمد الشاكرين ، وأصلى وأسلم على خاتم رسلك وصحابته أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وبعد :

فموضوع هذا البحث « أبو على الفارسي وأثره فى القراءات والنحو » وأول صلتى بأبى على كانت فى هذه الآراء التى يذكرها له النحاة فى مختلف المسائل النحوية مبثوثة فى كتبهم هنا وهناك ، ولم تكن هذه الآراء حين ذاك تثير منى الاهتمام وإن كانت تومىء إلى تفرد أبى على بالرأى فى هذه المسائل فى كثرة ظاهرة .

ثم كان إعدادى لبحث الماجستير ، فتوثقت الصلة بينى وبين الرجل ؛ إذ كنت مستعيناً بكتابه الحجة على تحقيق الموضوع الذى أكتب فيه ، وسارت الأيام خفافا أو ثقالا وشخصية الرجل ماثلة أمام ناظرى وفى خاطرى ، والزمن يزيدها عندى إجلالا وتوقيراً وقدرا ، وأحسست أن ديناً فى عنقى يزداد ثقله كلما تأكدت الصلة بينى وبين أبى على ، ولم يكن لهذا الدين من وفاء إلا أن أجعل الشيخ موضع الدرس فى هذه المرحلة من مراحل دراستى العالية

ودفعنى إلى ذلك - أيضاً - أنى رأيت جمهرة الباحثين من حولى يترجمون للشعراء والأدباء ، ويؤلفون الكتب فى الأعلام من رجال التاريخ ، ويقدمون الرسائل العلمية فى هؤلاء وهؤلاء ، وقد صرفوا جهودهم إليهم مشكورين على كل حال - غير محتفلين بأمثال أبى على من العلماء الذين كان لهم فى الثقافة الإسلامية والدراسات العربية أثر مذكور ، وفضل غير منكور .

ثم رأيت أن المكتبة العربية لم تحظ عن أبى على وترجمته وآثاره بشىء ذى خطر

فنى عُظْم هذه الآثار المطبوعة تراجم قصيرة مأخوذ بعضها من بعض ، يعتمد فيها المؤلفون اللاحقون على ما قال السابقون . بل إنك لتجد أمراً عجباً : دائرة المعارف الإسلامية تغفل ترجمة الرجل ، وكل من وجدى والبستانى يذكر ترجمة قصيرة لا تنفع غلة ، ولا تشير إلى الفراهة العقلية لأبى على ، وجورجى زيدان يشير إليه عابراً فيجعله من مشهورى النحاة الذين لم تصله من مؤلفاتهم ما يستحق الذكر !! (١) على حين يعطى تلميذه ابن جنى فضل اهتمام وصدارة وتنويه .

وتحتفل مجلة « المقتطف » فتوسع صدرها لصاحبى فيترجم له أحد كتابها (٢) ترجمة تدل على معرفة لقدره ، وإن كانت تأخذ الطابع العام للتراجم التقليدية التى جرى عليها الأقدمون فيما يكتبون .

وتحقق كتب ابن جنى تلميذ أبى على ، ولا تتوجه الجهود إلى الشيخ مع أنه هو الذى صنع تلميذه على عينه . وسقاه من فيضه ، ونشأه واصطفاه .

ويبرز أبو على فى الدراسات الحديثة فينوه به فى الكتب المحدثة ، والمجلات الأدبية ، ومجمع اللغة العربية ، فلا يخلو ذلك التنويه من قصور فى فهم آراء الشيخ ؛ مبعثه أن أحداً من هؤلاء المحدثين لم ينقطع له ، ولم يتخصص فى دراسته .

ثم كانت التفاتة مباركة من صفوة علمائنا ومن طلاب الدراسات العالية إلى تراثنا النحوى القديم والذين صنعوه ، فترجم أستاذنا لسيبويه ، وقدمت رسائل فى الخليل والفراء والزمخشرى وغيرهم من النحاة وعلى الرغم من هذه الجهود فالميدان لا يزال فسيحاً للجهاد والصيال .

* * *

ورأيت فى موضوعى اتصالا بالدراسات القرآنية ، وهى أنفع للناس ، وأخلد على الزمن ، وأحق ما تبذل فيه الجهود ، وأكرم ما يتوفر عليه الباحثون .

* * *

وأمر آخر توفى أبو على سنة ٣٧٧ هـ ، وإذن فنحن الآن على أبواب الذكرى الألفية لذلك الرجل ، فهل أنصفته الأقدار بأن جعلته موضوع دراسة جامعية عالية

---

(١) انظر تاريخ آداب اللغة العربية الجزء الثانى : /٣٠٣ و ٣٠٤ .

(٢) هو الأستاذ عبد الله أمين أحد نظار المعلمين السابقين . والترجمة فى عدد مايو ١٩٥١

توضع موضع البحث والمناقشة على ملأ من الناس ، وبذلك يكرم الرجل أجل التكريم فى ذكراه ؛ كفاء ما قدم من آثار ولقاء ما مت به إلى كتاب الله من صلة أى صلة ؟

* * *

من أجل ذلكم ، ومن أجل التمرس الخالص بالبحث العلمى ، وهو فى ذاته هدف كريم ـ أحببت أن ألقى بدلوى فى الدلاء ، وأن أؤدى بعض الحق نحو رجل من رجالات العلم ، فأجلى شخصيته ، وأتعرف مكانته بين السالفين والخالفين والعلماء من طبقته المعاصرين فى القراءات والنحو جميعا . ولم يكن من الميسور لو قصرت الموضوع على جانب واحد أن أستقل ببحثه دون التعرض إلى الجانب الآخر بالدرس فالفنان يلتقيان عند أبى على متلازمين كالخدنين ، وعلى أية حال لم تتأثر كيفية البحث بتعدد جوانب الموضوع . . .

* * *

وقد انتهجت المنهج التاريخى فى هـــذا البحث . جمعت المصادر المتصلة به ، ثم نظرتها وحققت الآراء الواردة فيها ، والظواهر الخاصة بأبى على منها ، ومدى تأثره بالسابقين ومكانته بين المعاصرين ، وأثره فى الخالفين ، وانتهى ذلك كله بالبحث إلى أن يصير فى سبعة أبواب يسبقها تمهيد ، وتتلوها خاتمة .

ففى التمهيد تحدثت عن نشأة القراءات وتطورها والفقه وعلم الكلام وصلة ذلك كله بالبحث النحوى .

وفى الباب الأول تحدثت فى فصول ثلاثة عن عصر أبى على ، وحياته ، وأحصيت آثاره .

وفى الباب الثانى تحدثت عن الاحتجاج للقراءات وتطوره حتى عصر أبى على ، ومنحت فضل اهتمام للاحتجاج عند إمام النحاة سيبويه ، وإمام المفسرين . الطبرى وإمام القراء . ابن مجاهد ثم تناولت كتاب الحجة وعرفت به .

وعقدت فى الباب الثالث دراسات مقارنة بين أبى على والمحتجين للقراءات : الفراء ، والزجاج ، وابن السراج ، وابن خالويه .

ثم بينت فى الباب الرابع أثر أبى على فى الاحتجاج للقراءات ضارباً المثل بابن جنى فى المحتسب ، ومكى بن أبى طالب فى الكشف ، والدانى فى الموضح .

وقسمت المحتجين للقراءات إلى مدرستين : إحداها تمثل الأثر ، والأخرى تمثل القياس .

* * *

وفى الباب الخامس تحدثت عن أبى على النحوى ، فألممت إلمامة يقتضيها المقام بنشأة النحو ، وتطوره ، ونشاط النحويين منذ أبى الأسود حتى عصر أبى على ، ثم تناولت ما عثرت عليه من كتب أبى على النحوية ، وبينت خصائصها كما تمثلت لى كتاباً كتابا .

ثم عقدت فى الباب السادس دراسات مقارنة بين أبى على والنحاة من طبقته : السيرافى ، والرمانى ، والزجاجى .

وبينت فى الباب السابع مدى تأثر الخالفين بنحو أبى على فى الأصول، والفروع، ومسائل الخلاف ، والإعراب ، ممثلا على الترتيب بابن جنى فى خصائصه ، وابن الشجرى فى أماليه ، وابن الانبارى فى مسائل الخلاف ، والعكبرى أبى البقاء فى إعراب القرآن .

وفى الخاتمة لخصت النتائج الكبرى التى وصلت إليها ، وما حققت من مسائل فى غضون الأبواب المختلفة للبحث ، وذكرت ما بدا لى من مقترحات .

* * *

أما مصادر البحث فقد كانت عزيزة نادرة ، والصفة الغالبة عليها أنها مخطوطة ومنشورة فى مكتبات العالم ، فسعيت إليها فى دور الكتب المختلفة ، وفى معهد إحياء المخطوطات بالأمانة العامة للجامعة العربية ، وأعاننى قوم من المشرفين على هذه الدور ، لهم عند الله الجزاء الموفور ، يسروا ماقدروا ، وأعلنوا وما ستروا ، ومكنوا كراما غير باخلين[1] ، فاستطعت الحصول على ما يلزم البحث من مخطوطات لآثار أبى على ، والزجاج ، والزجاجى ، والرمانى ، وابن جنى ، والربعى ، والدانى ، وابن خالويه . . . وملكت نسخاً مصورة من الحجة ، والمسائل المختلفة لأبى على ، فاتصلت اتصالا

(١) أخص بالشكر الأستاذ محمد رشاد عبد المطلب بمعهد إحياء المخطوطات بالأمانة العامة للجامعة العربية والأستاذ فؤاد سيد أمين المخطوطات بدار الكتب المصرية .

مباشراً بعقلية الرجل ، وصحبته ليالى وأياما طوالا سبرت فيها غوره ، وجليت قدره وتعرفت أثره ، واستعذبت فى سبيل ذلك العناء ، وما أنفقت من وقت ومال ؛ إذ كنت طالب حقيقه ، ومنقباً عن مجهول ، وكاشفاً عن غامض ، وراجياً أن أضيف إلى العلم ، شاكراً لله أن تهيأ لى من وسائل البحث ما لم يتهيأ للسابقين من الأولين : فهذا ابن غلبون يكتب الحجة كلها على ضخامتها — بخطه — ، ويعكف أحمد بن تميم اللبلى وغيره على كتابة مسائل أبى على المختلفة ، فلاقوا فى ذلك من العناء دونه ما كنت ألقاه ، وكان ذلك باعثاً لى على أن أمضى فى الطريق قادراً نعمة الله .

وبجانب هذه المصادر — مراجع عامة — متصلة بالموضوع من قريب أو بعيد من كتب القراءات والنحو أصوله وفروعه ، وكتب التاريخ ، والتراجم ، والبحوث الحديثة ، وما ألف المستشرقون .

* * *

وبعد : فمن الشكر الواجب أن أسجل اعترافى بالجهد الصادق المخلص الكريم الذى بذله أستاذى المفضال **على النجدى ناصف** أستاذ اللغة العربية بكلية دار العلوم فى الإشراف على هذه الرسالة ، والتوجيه الدقيق المفيد فى فصولها ، وما عدل من ميلها ، حتى استوت على سوقها ، ولن أستطيع بكلمات أن أقدر تفضله الذى أجزل، وأداءه الذى وفى ، فأبتهل إلى الله مخلصاً أن يجزيه أكرم الجزاء .

وشكرى العام لكل من شجع أو أعان .

والله المسئول أن يكتب لى النجح بقدر ما بذلت من سعى ، وما أخلصت من نية .

وحرر بحدائق القبة { شعبان ١٣٧٣ / إبريل ١٩٥٦ }

عبد الفتاح شلبي

مدخل البحث

« وفيه ألم إلمامة يقتضيها المقام بنشأة القراءات وتطورها والفقه وعلم الكلام وأثر ذلك كله فى القراءات والبحث النحوى ، وبذلك تتم حلقات السلسلة منذ أن نشأت هذه العلوم إلى عصر أبى على الفارسى » .

أولا — نشأة القراءات وتطورها وأثرها فى البحث النحوى :

عنى المسلمون عناية منقطعة النظير بكتاب الله الكريم ، فتركزت دراساتهم فيه ، أو دارت حوله ، وعكفوا عليه مفسرين ، وتفهموا أحكامه متفقهين ، وتلوه حق تلاوته متعبدين ، تحقيقاً لمضمون قوله تعالى وهو أصدق القائلين : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون[١] » .

دعا الرسول (صلوات الله عليه وسلامه) إلى تعلمه وتعليمه ، وقراءته وإقرائه وجعل قراءته أفضل العبادة ، وارتفع بمكان أهله ؛ فجعلهم أهل الله وخاصته [٢] ، ووجه أنظارهم إلى مكانته وهدايته قبيل أن تحين منيته : إذ يقول : « إنى تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا : كتاب الله وسنتى[٣] » .

وكانت المحاولة الأولى لتوثيق نصه فى أمر الرسول أصحابه ألا يكتبوا شيئاً عنه سوى القرآن : حدث الحافظ أبو بكر عبد الله بن أبى داود السجستانى بسنده عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أنه قال : « لا تكتبوا عنى شيئاً سوى القرآن ، فمن كتب عنى شيئاً سوى القرآن فليمحه [٤] » . وقد استأذن أبو سعيد الخدرى النبى (صلى الله عليه وسلم) فى كتب الحديث فأبى أن يأذن له[٥] . وهذا عمر يترك كتب السنن لئلا يترك كتاب الله ويلبس بشىء[٦] . ولهذا رويت الأحاديث بالمعنى ولم تنقل كما سمعت من النبى ، ومن هنا منع الاستشهاد بها على اللغة والنحو ، من منع من أمثال ابن الضائع ، وأبى حيان[٧] .

---

(١) سورة الحجر آية ٨ (٢) النشر لابن الجزرى ١/٣ .
(٣) خطبته (صلى الله عليه وسلم) فى حجة الوداع .
(٤) المصاحف للسجستاني ص٤ .
(٥) تقييد العلم للخطيب البغدادى ، ٣٢ تحقيق يوسف العش طبعة دمشق ١٩٤٩ .
(٦) انظر القسم الثاني الفصل الأول من المصدر السابق ٤٩–٥٨ .
(٧) خزانة الأدب للبغدادى ١/٥ مطبعة دار العصور .

وكان عرض الرسول (صلى الله عليه وسلم) ما نزل من كتاب الله على جبريل مرة فى كل سنة ، وعرضه عليه مرتين[١] سنة وفاته ـ المحاولة التالية لتحديد نص القرآن الكريم[٢]، وترتيبه فى سوره وآياته[٣]، وتلقاه الصحابة (رضوان الله عليهم) من النبي (صلوات الله عليه وسلامه) حرفا حرفا ، لم يهملوا منه حركة ولا سكوناً ولا إثباتاً ولا حذفا[٤] ، واستمع الرسول (عليه الصلاة والسلام) إليهم وهم يقرءون ، ذكر الحافظ الذهبي فى تذكرة الحفاظ : روى خارجة بن زيد عن أبيه قال : « أتى النبي (صلى الله عليه وسلم) المدينة ، وقد قرأت سبع عشرة سورة ، فقرأت على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فأعجبه ذلك ، وعن ابن مسعود قال : قال لى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : اقرأ عليَّ : ففتحت سورة النساء ، فلما بلغت : « فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً[٥] » ـ رأيت عينيه تذرفان من الدمع ، فقال : « حسبك الآن » !

وكان من الصحابة من حفظ القرآن كله ، ومنهم من حفظ أكثره ، ومنهم حفظ بعضه كل ذلك فى زمن النبي (صلى الله عليه وسلم[٦])

وقد نقل السيوطى فى الإتقان عن ابن حجر أن أبا بكر كان يحفظ القرآن[٧] ، وذكر أبو عبيد القاسم بن سلام (٢٢٣) هـ فى كتاب القراءات القراء من أصحاب النبي (صلى الله عليه وسلم) مهاجرين وأنصارا[٨].

وهكذا انتقل الرسول (عليه الصلاة والسلام) إلى الرفيق الأعلى ، والقرآن فى صدور الرجال ، وفى الصحف والعسب واللخاف[٩] والأكتاف والأقتاب[١٠] والرقاع[١١].

ثم يجيء عهد الخليفة الأول أبي بكر الصديق (رضى الله عنه) ، ويحارب المرتدة وعلى رأسهم « مسيلمة الكذاب » وأصحابه .

ويصدق القراء من كبار الصحابة الحملة تحت إمرة قائدهم خالد بن الوليد ،

---

(١) ابراز المعاني لأبي شامه ص ٤ . (٢) انظر فضائل القرآن لابن كثير ص ٩١ .
(٣) المصاحف للسجستاني /٥ (المقدمة) (٤) النشر لابن الجزرى ١/٦ .
(٥) سورة النساء آية ٤١ وتاريخ القرآن للزنجاني /١٧ .
(٦) ينظر النشر لابن الجزرى ١/٦ . (٧) الاتقان ١/٩٠ ، ٧٢ .
(٨) المرجع السابق . (٩) المصاحف للسجستاني /٧ ، فضائل القرآن /٢٢
واللخاف : حجارة بيض رقاق واحدتها لخفة بوزن صفحة
(١٠) المرجع السابق /٩ (١١) الاتقان فى علوم القرآن ١/٧٢ ومابعدها .

وجعلوا يتنادون بشعارهم الحبيب إلى قلوبهم : « يأهل سورة البقرة ! » ولم يزل ذلك دأبهم حتى فتح الله عليهم ، وقتل الله مسيلمة ، وأتبعت أقفيةُ أصحابه بالسيوف المسلة[١].

وتنجلي المعركة عن قتل سبعين من القراء فيما ينقله السيوطى عن القرطبى[٢] ونحو خمسمائة فيما يقول ابن كثير[٣] ، وفيما ينقله ابن الجزرى[٤] ، وكان قد قتل منهم على عهد الرسول فى غزوة بئر معونة سبعون[٥] ، ويتنبه المسلمون إلى تراثهم الأمجد ، ويخشون أن يذهب القرآن بذهاب القراء ، ويشرح الله صدر أبى بكر الصديق (رضوان الله عليه) بعد أن يتردد[٦]، فيرى رأى الصحابة فى جمع القرآن ، ويمضى زيد بن ثابت يتتبع القرآن ينسخه من الصحف ، والعسب ، واللخاف ، وصدور الرجال ، وبذلك تتم مرحلة أخرى من مراحل حفظ الكتاب الكريم فيجمع بين لوحين ، وحفظ عند أبى بكر حتى توفى ، ثم عند عمر حتى توفى ، ثم كان عند حفصة زوج النبى (صلى الله عليه وسلم[٧]) .

ويشتهر بإقراء القرآن من الصحابة سبعة : عثمان ، وعلى ، وأبى بن كعب ، وزيد ابن ثابت ، وابن مسعود ، وأبو الدرداء ، وأبو موسى الأشعرى[٨] ، ويتفرق الصحابة فى الأمصار فاتحين ، ويقرئون الناس بقراءاتهم ، فكان أهل الشام يقرءون بقراءة أبى بن كعب[٩]، وأهل البصرة فيما نقله أبو داود السجستانى[١٠] يقرءون بقراءة عبدان بن قيس[١١]، وأهل الكوفة يقرءون بقراءة عبد الله بن مسعود[١٢]، وكانوا يقولون قراءة عبد الله ، وأهل البصرة يقولون قراءة أبى موسى[١٤] ، وكل قراءة متصلة السند بالرسول على ما بينها وبين الأخرى من تخالف[١٤]. ولم يكن المسلمون فى أول عهدهم ينكرون هذه الفروق بين القراءات بعد ما سمعوا تيسير الرسول

(١) فضائل القرآن /٢٥ .
(٢) الاتقان ١/٨٩ .
(٣) فضائل القرآن /٢٥ .
(٤) النشر ١/٧ .
(٥) الاتقان ١/٨٨ .
(٦) المصاحف /٧ .
(٧) المصاحف /٩ .
(٨) الفهرست لابن النديم /٤٠ .
(٩) الاتقان /٩١ .
(١٠) المصاحف/١٤ .
(١١) هو أبو موسى الأشعرى انظر ١/٤٤٢ طبقات القراء .
(١٢) المصاحف /١٤ .
(١٣) انظر /١٣ من المصدر السابق .
(١٤) أورد أبو داود السجستاني أمثلة لهذا التخالف انظر مثلا /٥٤ وما بعدها .

عليهم بقوله (عليه الصلاة والسلام) « أنزل القرآن على سبعة أحرف فاقرءوا ماتيسر منه [١] ».

حتى إذا كانت خلافه عثمان (رضى الله عنه) اشتد الخلاف بين الناس حتى اقتتل الغلمان والمعلمون : جعل المعلم يعلم قراءة الرجل ، فجعل الغلمان يلتقون فيختلفون ، حتى ارتفع ذلك إلى المعلمين ، وحتى كفر بعضهم بقراءة بعض [٢] ، فبلغ ذلك عثمان ، فقام خطيباً فقال : أنتم عندى تختلفون فتلحنون ، فمن نأى عنى من الأمصار أشد فيه اختلافاً وأشد لحناً ، اجتمعوا يا أصحاب محمد ، واكتبوا للناس إماما . وهكذا تمت خطوة خطيرة فى الحفاظ على كتاب الله بتوحيد نصه فى مختلف أمصار العالم الإسلامى .

ويقال ان الذى دعا عثمان إلى اتخاذ هذه الخطوة أن حذيفة بن اليمان قدم عليه وكان يغازى أهل الشام فى ثغر أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق . فرأى حذيفة اختلافهم - الشاميين والعراقيين - فى القرآن حتى كادت تكون بينهم فتنة ، فركب حذيفة إلى عثمان ، فقال يا أمير المؤمنين : « أدرك هـــذه الأمة قبل أن يختلفوا فى القرآن اختلاف اليهود والنصارى ، ففزع لذلك عثمان ، وأرسل إلى حفصة بنت عمر أن أرسلى إلىّ بالصحف التى جمع فيها القرآن ، فأرسلت بها إليه حفصة [٣] ، وكتبت المصاحف باتفاق من الصحابة (رضى الله عنهم) ، بالمدينة ، ونفذت إلى الأمصار البصرة ، والكوفة ، والشام ، ومكة ، واليمن ، وأمسك عثمان لنفسه مصحفاً وهو الذى يقال له الإمام [٤] ، وأمر باتباعها وترك ما عداها ، فأخذ الناس بهـا ، وتركوا من تلك القراءات كل ما خالفها ، وبقوا ما يوافقها [٥] ، وجردت هـذه المصاحف جميعها من النقط والشكل ، فاحتملت ماصح نقله ، وثبتت تلاوته عن النبى (صلى الله عليه وسلم [٦]) .

ثم تجرد قوم للقراءة . واشتدت بها عنايتهم ، وكثر لها طلبهم . حتى صاروا بذلك أئمة تشد الرحال إليهم ، ويأخذها الناس عنهم ، واشتهر من الصحابة عثمان ، وعلى ، وأبى ، وزيد بن ثابت ، وابن مسعود ، وأبو الدرداء ، وأبو موسى الأشعرى [٧] ، واشتغل الناس بالإقراء فى مختلف الأمصار فكان :

---

(١) فضائل القرآن وابراز المعاني /٤ (٢) المصاحف /٢١ .
(٣) المصاحف للسجستاني من ص ١٨-٢٢ بروايات مختلفة .
(٤) النشر ١/٧ (٥) إبراز المعانى /٤
(٦) النشر لابن الجزرى ١/٨ (٧) إبراز المعاني لأبي شامة /٤

(بالمدينة) ابن المسيب ، وعروة ، وسالم ، وعمر بن عبد العزيز ، وسليمان ، وعطاء ابنا يسار ، ومعاذ بن الحرث الذى يعرف بمعاذ القارىء ، وعبدالرحمن بن هرمز الأعرج ، وابن شهاب ، ومسلم بن جندب ، وزيد بن أسلم .

و (بمكة) عبيد بن عميرة ، وعطاء بن أبى رباح ، وطاووس ، ومجاهد ، وعكرمة

و (بالكوفة) علقمة ، والأسود ، ومسروق ، وعبيدة ، وعمرو بن شرحبيل ، والحرث بن قيس ، والربيع بن خيثم ، وعمرو بن ميمون ، وأبو عبد الرحمن السلمى ، وزر بن حبيش ، وعبيد بن نضله ، وأبو زرعة بن عمرو بن جرير ، وسعيد بن جبير والنخعى ، والشعبى .

و (بالبصرة) عامر بن عبدالقيس ، وأبو العالية ، وأبو رجاء ، ونصر بن عاصم ويحيى بن يعمر ، وجابر بن زيد ، والحسن ، وابن سيرين ، وقتادة .

و (بالشام) المغيرة بن أبى شهاب المخزومى صاحب عثمان بن عفان (رضى الله عنه) فى القراءة[1] وزاد السيوطى نقلا عن الذهبى ؛ خليفة بن سعد صاحب أبى الدرداء[2] .

ثم تلت هؤلاء طبقة أخرى ، فاشتهر من هذه الأمصار الخمسة ـ خمسة عشر رجلا فى كل مصر ثلاثة :

ا ـ فكان بالمدينة أبو جعفر يزيد بن القعقاع ، ثم شيبة بن نصاح ، ثم نافع بن أبى نعيم وإليه صارت قراءة أهل المدينة

ب ـ وكان بمكة : عبدالله بن كثير ، وحميد بن قيس الأعرج ، ومحمد بن محيصن وأقدمهم ابن كثير ، وإليه صارت قراءة أهل مكة .

حـ ـ وكان بالكوفة : يحيى بن وثاب ، وعاصم بن بهدلة ، وسليمان الأعمش ، ثم تلاهم حمزة رابعاً ، ثم الكسائى .

د ـ وكان بالبصرة : عبد الله بن أبى اسحق ، وعيسى بن عمر ، وأبو عمرو ابن العلاء وإليه صارت قراءة أهل البصرة ، واتخذوه إماما ، وكان لهم رابع هو عاصم الجحدرى .

هـ ـ وكان بالشام : عبد الله بن عامر ، ويحيى بن الحارث الذمارى ، وثالث هو خليد بن سعد أو عطية بن قيس الكلابى ، أو اسماعيل بن عبد الله بن أبى المهاجر على خلاف فى ذلك

(١) المرجع السابق ص ٤

(٢) الاتقان ١/٩١

واشتهر بالآفاق[1] الأئمة السبعة[2] الذين صارت إليهم القراءة فى هذه الأمصار نافع ، وابن كثير ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائى . وهؤلاء هم القراء السبعة الذين اختار قراءتهم ابن مجاهد (٣٢٤ هـ) [3] آخر من انتهت إليه الرياسة بمدينة السلام[4] ، وتولى شرح كتاب ابن مجاهد فى السبعة أبو على الفارسى (٣٧٧ هـ) فى كتاب الحجة ، وكان قد شرع فيه قبله شيخه أبو بكر بن السراج (٣١٦ هـ) [5] على ما سأتناوله بالتفصيل إن شاء الله .

كانت جهود المسلمين فى سبيل الحفاظ على القرآن الكريم منذ عهد الرسول (صلى الله عليه وسلم) حتى عهد عثمان بن عفان (رضى الله عنه) تشمل المراحل الآتية :

أولا — مرحلة (توثيق النص القرآنى) وهذه ذات مظهرين :

ا — المظهر الأول يتجلى فى أمر الرسول بكتابة القرآن دون سواه .

ب — المظهر الآخر يتجلى فى عرض الرسول القرآن الكريم على جبريل .

ثانيا — ثم كانت مرحلة (جمع النص القرآنى) بين لوحين فى عهد أبى بكر

ثالثاً — ثم تلتها مرحلة (توحيد النص القرآنى) فى عهد عثمان ، وكانت هذه المراحل كافية فى صون الكتاب عن التحريف أو التبديل والتصحيف لو أن العرب لم يتفش اللحن ألسنتهم باختلاطهم بغيرهم من الأمم الأعجمية الأخرى ، ولكن الأمر قدر على غير ذلك ، فقد كثرت هذه الحمراء ، وأفسدت من ألسن العرب كما قال زياد ابن أبيه لأبى الأسود الدؤلى [6] ، ويرغب أبو الأسود ، أو يرغب زياد إليه أن يضع لهم شيئاً يقيمون كلامهم به ، وينشط أبو الأسود إلى هـذا العمل بعد أن يسمع رجلا يقرأ قوله تعالى : « إن الله برىء من المشركين ورسوله » يقرؤها بجر اللام ويرى أن يبدأ بإعراب القرآن[7].

ويذكر أبو حيان فى البصائر والذخائر أن على بن أبى طالب هو الذى أمر

(١) الاتقان ١/٩٢
(٢) انظر ترجمة هؤلاء الأئمة السبعة فى كتاب غاية النهاية لابن الجزرى على الترتيب .
(٣) إبراز المعانى لأبى شامة /٥ (٤) الفهرست لابن النديم /٤٧
(٥) الحجة لأبى على الفارسى /١
(٦) نزهة الألباء ط جمعية إحياء آثار علماء العرب ص٦.
(٧) المصدر السابق

أبا الأسود (١)، ويذكر القرطبي في تفسيره (٢) والزمخشري في كشافه (٣) وأبو حيان في بحره (٤) أن عمر بن الخطاب هو الآمر، ولا يحدد أبو عمرو الداني في كتابه : النقط أيهما الآمر ، حيث يقول : روينا أن المبتدىء بذلك كان أبا الأسود الدؤلي (٥). وهكذا تتظاهر الروايات على أن التكليف كان لذلك الرجل ، وأيا ما كان الأمر فإن هذه الروايات لها دلالتها على أن المسلمين هبوا يريدون أن يقوموا بعمل لصيانة كتاب الله فكانت المرحلة الرابعة . وهي مرحلة إعراب النص القرآني كما جاء في كلام أبي الأسود الدؤلي من قبل .

وفي هذه المرحلة وضع بصبغ يخالف لون المداد . نقطة فوق الحرف للفتحة ، وجانبه للضمة ، وأسفله للكسرة ، وللغنة نقطتان (٦) ثم كانت الخطوة الأخيرة وهي إعجام النص القرآني ، لتمييز الحروف المتشابهة بعضها من بعض ، وكان ذلك في عهد الحجاج بن يوسف الثقفي ، واستعان على ذلك برجلين هما : نصر بن عاصم ويحيى بن يعمر على قول (٧) ، أو الحسن البصري ، ويحيى بن يعمر على قول آخر (٨).

ثم استبدل بالنقط في عمل أبي الأسود حروف اللين . ألف صغيرة علامة للفتحة والواو للضمة ، والياء للكسرة ، وكان ذلك عمل الخليل بن أحمد (١٧٠ هـ) ، لأنه كان يرى « أن الفتحة من الألف والكسرة من الياء والضمة من الواو (٩) » والخليل هو الذي جعل ـ فيما يقول الداني ـ الهمزة والتشديد والروم والاشمام (١٠).

وهنا تكون المرحلة الخامسة التي سلكها المسلمون رعاية للنص القرآني ، تلك اعجامه .

والذي يهم الباحث متصلا بموضوع هذا البحث . المرحلة الرابعة من المراحل السابقة ؛ إذ هي تتصل اتصالا وثيقاً بالحديث عن نشأة النحو والإعراب . ثم هي

(١) ١/١٨٣ (٢) ١/٢٤ وانظر كتابه التذكار /٩٩
(٣) ٢/١٣٩ (٤) ٥/٦
(٥) كتاب النقط ص ١٣٢ ومابعدها
(٦) انظر نزهة الألباء ٦/ وانظر فضائل القرآن لابن كثير ص ٨٩
(٧) كتاب التصحيف والتحريف لأبي أحمد الحسن العسكري ص ١٠ ، ووفيات الأعيان ١/٣٤٤
(٨) فضائل القرآن لابن كثير ص ٨٩
(٩) الكتاب لسيبويه ٢/٣١٥ (١٠) المقنع لأبي عمرو الداني ١٢٥

ذات دلالة أخرى ؛ إذ تشير إلى قيام مدرسة بجانب مدرسة القراءات هي مدرسة النحو والنحاة ، وقد عملت هاتان الطائفتان جنباً إلى جنب ، بل كان رجال هذه منذ النشأة الأولى وفيما يشتهرون به ـ هم رجال تلك ، ولأن مرحلة التخصص العلمى لم تكن بعد ، فسعت هذه إلى أداء القرآن ، وتجويد متنه ، وأدائه ، وإقرائه ، وضبط تلقيه ، وتلقينه ، وترتيله ترتيلا ، وسعت الأخرى إلى إعرابه ، وضبطه ، وتفسير معجمه مستعينة بحفظ اللغة والرواية عن الإعراب ، وكلتا الطائفتين تجتمع على الخير من خدمة كتاب الله وفقهه تقربا إليه وزلفى ومن هنا كان اللحن بشعاً ، وأشد ما يستبشع فى كتاب الله . يروى أن الحجاج بن يوسف قال ليحيى بن يعمر : أتجدنى ألحن ؟ فقال : الأمير أفصح من ذلك ، فقال : عزمت عليك . أتجدنى ألحن ؟ فقال يحيى : نعم ! فقال له : فى أى شيء ؟ فقال : « فى كتاب الله تعالى » . فقال : ذلك أشنع فنى أى شيء من كتاب الله تعالى ؟ قال : قرأت « قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم » فرفعت أحب وهو منصوب ، فقال الحجاج . . . . « لا تساكنى ببلد أنا فيه » ونفاه إلى خراسان[١]

وحسبك أن تعلم فى الصلة بين النحاة والقراء أن علياً أستاذ أبى الأسود فى القراءات والنحو[٢] وكان عبد الرحمن بن هرمز أحد القراء[٣]، ويحيى بن يعمر كذلك[٤]، وأن أبا عمرو وعبد الله بن أبى اسحق الحضرمى رويا القراءة عن نصر ابن عاصم[٥]، وأن يونس بن حبيب يروى القراءة عرضاً عن أبى عمرو بن العلاء ويأخذ العربية عنه[٦]، وكذلك كان سيبويه[٧]، وسيبويه قارىء يتعرض للقراءات[٨] وكان ابن كثير المكى (١٢٠ هـ)[٩] أحد القراء السبعة المشهورين يقرأ عليه عيسى ابن عمر (١٤٩ هـ)[١٠] والخليل بن أحمد (١٧٠ هـ)[١١]، وكل واحد من هذين إمام راسخ وحجة ثبت فى اللغة والنحو ، وأبو جعفر الرواسى[١٢] ، وعلى بن حمزة الكسائى[١٣] (١٨٩ هـ) كل له قدم راسخة فى العربية والقراءات ، وكان الكسائى

---

(١) نزهة الألباء /١٠ (٢) المصدر السابق /٩ (٣) الفهرست ٥٩
(٤) طبقات الزبيدى /٢٣ (٥) طبقات القراء ٢/٣٣٦ ــ ونزهة الألباء /١٠٣
(٦) طبقات القراء ٢/٤٠٦ (٧) طبقات القراء ١/٢٨٩ (٨) الحجة نسخة البلدية ١/٤٤
(٩) طبقات القراء ١/٤٤٣ (١٠) نزهة الألباء /١٣ (١١) المصدر السابق /٢٩
(١٢) بغية الوعاة /٣٣ (١٣) طبقات القراء ١/٥٣٥

- كما يقول ابن الأنبارى - أعظم الناس بالنحو وأوحدهم فى الغريب ، وكان أوحد الناس فى القرآن ، كذلك كان يحي بن زياد الفراء (٢٠٧ هـ) [1] وثعلب (٢٩١ هـ) [2] والأخفش الكبير (٢٩٢ هـ) [3] الذى كان شيخ الإقراء بدمشق ضابطاً ثقة نحوياً مقرئاً . قال أبو على الأصفهانى عنه : « صنف كتباً كثيرة فى القراءات والعربية . حتى عد ابن الجزرى (٨٨٣ هـ) فيما يلزم المقرىء ، « أن يحصل جانباً من النحو والصرف بحيث أنه يوجه ما يقع له من القراءات ، وهذا من أهم ما يحتاج إليه[4] » .

والنحاة عند القراء أكثر ضبطاً للقراءة ، وأصح نقلا من اللغويين ؛ قال أبو بكر ابن السراج بعد أن أورد رواية الأصمعى عن أبى عمرو وقراءته الصراط بالزاى ؛ « وأما الزاى فأحسب الأصمعى لم يضبط عن أبى عمرو ؛ لأن الأصمعى كان غير نحوى ، ولست أحب أن تحمل القراءة على هذه اللغة ، وأحسب أنه سمع أبا عمرو يقرأ بالمضارعة للزاى فتوهمها زايا[5] » .

وهذا السيوطى (٩١١ هـ) يذكر فى مقدمة كتابه « بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة » أنه اعتمد على طبقات القراء لأبى عمرو الدانى (٤٤٤ هـ) ، وطبقات القراء للحافظ أبى عبد الله الذهبى (٧٤٨ هـ) ، وذيل طبقات القراء للعفيف المطرى ، لجمع كل ماتضمنته هذه الكتب مَنْ ترجمته نحوى[6] .

والمطلع على تآليف القراء أو النحاة يجد مظاهر الثقافة القرآنية والنحوية عند هؤلاء وهؤلاء : فيونس بن حبيب (١٨٢ هـ) يؤلف معانى القرآن[7] ، وقطرب (٢٠٦ هـ) يؤلف فى الرد على الملحدين فى متشابه القرآن [8] ، وأبو حاتم السجستانى يؤلف فى اختلاف المصاحف[9] والسجستانى يقرأ كتاب سيبويه على الأخفش مرتين ، وابن درستويه النحوى يؤلف المعانى فى القراءات ، والرد على ابن مقسم فى اختياره [10] .

(١) نزهة الألباء /٦٦
(٢) المصدرالسابق ١٥٧ (٣) طبقات القراء ٣٤٧/٢
(٤) منجد المقرئين /٤
(٥) الحجة لأبي على الفارسى ١٣٩/١ نسخه بلديه الاسكندريه
(٦) بغيه الوعاة /٣ (٧) الفهرست /٦٣
(٨) المصدر السابق /٧٩ ، ٥٧ (٩) الفهرست /٨٧
(١٠) الفهرست /٩٤ وذكر الاسم خطأ : أبي مقسم

والنفاد من القراء يؤلف أصول النحو[١] ، وأبو محمد اليزيدى كان مؤلف النقط والشكل والمصادر فى القرآن ، كما يؤلف فى المقصور والممدود ، وعبد الله ابن أبى محمد اليزيدى يؤلف فى غريب القرآن كما يؤلف مختصر نحو[٢].

والأخفش المجاشعى يؤلف الأوسط فى النحو والمقاييس ، كما يؤلف فى معانى القرآن[٣] . وأبو زيد الأنصارى (سعيد بن أوس) يؤلف فى قراءة أبى عمرو ، والمبرد يؤلف احتجاج القراءة ومعانى القرآن كما يؤلف المقتضب والمدخل فى النحو . . .[٤] حتى إذا ما انتهينا إلى أبى على الفارسى وجدناه يشير إلى الصلة بين النحاة والقراء فى قوله : وسألت بعض من ينظر فى العربية من القراء عن معيشة ووزنه وجمعه[٥] . ثم يؤلف الحجة فى التعليل لقراءات الأئمة السبعة ، والإغفال فيما أغفله الزجاج من معانى القرآن[٦] ، والتتبع لأبى على الجبائى فى التفسير ، كما يؤلف فى النحو : الإيضاح والتكملة[٧] . .

وقد نشأت هاتان المدرستان متصلتين ـ كما بينت ـ ثم أخذتا فى الانفصال متميزتين حتى أورد السيوطى : « لم يكن ثابت بن حيان (ت . ٦٢٨ هـ » من الأئمة النحويين ، وإنما كان من الأئمة المقرئين[٨] » . وحتى بلغ من انفراج الشقة بينهما أن عرض النحاة المتأخرون بمشايخ القراء وضعفهم فى العربية[٩] .

وأبين بعد ذلك :

* * *

ثانيا — الفقه وعلم الكلام وأثر كل فى القراءات والنحو :

ومما يتصل بموضوع هذا البحث الحديث عن الفقه وتطوره ، والفقهاء ومذاهبهم والمتكلمين وطرقهم فى تناول الدراسات المتصلة بالعقائد ، وأثر ذلك كله فى القراءات ومباحثها ، والنحو ومسائله ، حتى نتعرف على الصورة التى انتهى إليها البحث القرآنى والنحوى ، وكيف وصلت إلى أبى على الفارسى .

(١) الفهرست /٤٩
(٢) الفهرست /٧٥ — (٣) الفهرست /٧٨
(٤) الفهرست /٨٨ — (٥) المسائل المشكلة لوحه ١٩
(٦) الفهرست /٩٥ — (٧) معجم الأدباء ٧/٢٤١
(٨) بغيه الوعاة /٥٥ ، ٢١٠ — (٩) انظر المغنى لابن هشام ٢/١١٥

وكل من الفقه وعلم الكلام وثيق الصلة بالآخر ، فقد كان النظر فى الدين بأحكامه وعقائده يسمى فقهاً ، ثم خصت الاعتقادات باسم «الفقه الأكبر» ، وخصت العمليات باسم الفقه ، وسميت مباحث الاعتقاديات «علم الكلام»[١].

وأسارع فأذكر أن الذين أفتوا فى عهد الرسول (صلوات الله عليه وسلامه) كانوا ممن تعلموا الكتابة ، واشتغلوا بالقراءة والإقراء ، بل أطلق لفظ القراء على أهل الفتوى ، ومن يؤخذ عنهم الدين ؛ جاء فى مقدمة ابن خلدون : «أن الصحابة كلهم لم يكونوا أهل فتيا ، ولا كان الدين يؤخذ عن جميعهم ، وإنما كان ذلك مختصاً بالحاملين للقرآن ، العارفين بناسخه ومنسوخه ، ومتشابهه ومحكمه ، وسائر دلالاته بما تلقوه من النبي (صلى الله عليه وسلم) أو ممن سمعه منهم ومن عليتهم ، وكانوا يسمون لذلك القراء ، أى الذين يقرءون الكتاب ؛ لأن العرب كانوا أمة أمية ، فاختص من كان منهم قارئاً للكتاب بهذا الاسم[٢] .

وفى هذا النص تعليل لاشتغال هؤلاء القراء بالإفتاء ، ولم كان الدين مأخوذاً عنهم ، ومختصاً بهم دون غيرهم .

وممن ذكروا بالإفتاء من الصحابة : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى ، وعبد الرحمن بن عوف ، وعبد الله بن مسعود ، وأبى بن كعب ، ومعاذ بن جبل ، وحذيفة بن اليمان ، وزيد بن ثابت ، وأبو الدرداء ، وأبو موسى الأشعرى ، وسلمان الفارسى (رضى الله عنهم أجمعين[٣])

وقد حفظ التاريخ لمعظم هؤلاء المفتين عملا جليلا فى سبيل القرآن . فى جمعه ، أو توحيد نصه ، أو كتابته ، أو إقرائه على النحو الذى بينت من قبل[٤] . وأزيد هنا أن ابن مسعود إلى جانب تجويده القرآن وتحقيقه وترتيله كان يتعلم من رسول الله - فيما يتعلم - الأعمال التى تشتمل عليها آيات القرآن ، قال : «كنا نتعلم من النبي (صلى الله عليه وسلم) عشر آيات فما نتعلم العشر التى بعدهن حتى نتعلم ما أنزل الله فى هذه العشر من العمل[٥] » وهو مع ذلك الإمام فى تجويد القرآن ، وتحقيقه ، وترتيله مع حسن الصوت[٦] . وحذيفة بن اليمان وردت الرواية عنه فى حروف القرآن[٧]

---

(١) تاريخ الفلسفة الإسلامية / ٥٠ (٢) مقدمة ابن خلدون / ٤٤٦ ط مصطفى محمد
(٣) الخطط المقريزية ٤/١٤٢ ط المليجى
(٤) انظر صفحات ٣ وما بعدها من هذا البحث
(٥) طبقات القراء ١/٤٠٩ (٦) نفس المصدر (٧) طبقات القراء ١/٢٠٣

وزيد بن ثابت موسوم فى كتب الطبقات بأنه المقرئ الفرضى (١) ، وأبى بن كعب من القراء الذين قرءوا على النبى القرآن العظيم ، وقرأعليه النبى (صلى الله عليه وسلم) بعض القرآن للإرشاد والتعليم (٢) . ومعاذ بن جبل عالم بالحلال والحرام ، وممن أشار إليه النبى (صلى الله عليه وسلم) بقوله : « خذوا القرآن من أربعة (٣) » وأبو الدرداء قاضى دمشق ، وحكيم هذه الأمة ، وأحد الذين جمعوا القرآن حفظاً على عهد النبى (صلى الله عليه وسلم (٤)) . وأبو موسى الأشعرى حفظ القرآن وعرضه على النبى (صلى الله عليه وسلم (٥)) ، وقدأرسل إليه عمر بن الخطاب رسالته المشهورة التى تعد دستور القضاء (٦) ، وهكذا كان كل واحد من هؤلاء الأعلام ذا قدم راسخة فى القراءة والإقراء والإفتاء ، وبقى اسم القراء يطلق صدر الملة على أهل الفتوى ، ثم عظمت أمصار الإسلام وذهبت الأمية من العرب(٧) ، ولم تعد القراءة مقصورة على أولئك الذين يقرءون الكتاب ، هنالك - ومنذ عصر بنى أمية - استعمل لفظ العلم للدلاله على حفظ القرآن ، ورواية السنن والآثار ، وسمى أهل هذا الشأن « العلماء » واستعمل لفظ الفقه للدلالة على استنباط الأحكام الشرعية بالنظر العقلى ، فيما لم يرد فيه نص كتاب ولا سنة ، وسمى أهل هذا الشأن الفقهاء(٨).

وكانت الأمة العربية فى الصدر الأول لا تزال قريبة العهد بالبداوة ، تعيش على الفطرة فى غير تعقيد ، قليلة الأحداث التى تعرض لها من ناحية العقيدة ، وكان التشريع كافياً فى إقامة دين هذه الأمة وسياستها سياسة رشيدة دون حاجة إلى إعمال الفكر فى رأى أو اتجاه إلى قياس اللهم إلا فى النادر القليل (٩) .

ومنذ عهد بنى أمية اتسعت المملكة الإسلامية ، ودخل فيها كثير من أمم الأرض ، وانتقل العرب إلى هذه الأقطار المفتوحة ، وتفرق القراء وعلماء الصحابة فى البلاد ، وصار كل واحد مقتدى ناحية من النواحى ، وكثرت الوقائع واستفتوا

(١) نفس المصدر ٢٩٦
(٢) المصدر السابق ٣١ — (٣) طبقات القراء ٢/٣٠١
(٤) نفس المصدر ٢/٦٠٦ — (٥) المصدر السابق ٢/٤٢٢
(٦) الكامل للمبرد ١/٩ — (٧) مقدمة ابن خلدون ٤٤٦
(٨) تمهيد التاريخ ، الفلسفة الإسلامية ١٩٣
وانظر جامع بيان العلم لابن عبد البر مصر ادارة الطباعة المنيرية ٢/٢٣—٣٣
(٩) انظر تاريخ التشريع الإسلامى ١٢٦

فيها فأجاب كل واحد على حسب حفظه أو استنباطه ، وإن لم يجد فيما حفظه أو استنبطه ما يصلح للجواب اجتهد برأيه (١) .

وينقسم الفقه إلى طريقتين ـ طريقة أهل الرأى والقياس ، وهم أهل العراق أتباع أبي حنيفة ، وطريقة أهل الحديث وهم أهل الحجاز (٢) أتباع مالك .

وتوسط بين أهل الحديث وأهل الرأى محمد بن ادريس الشافعى (٢٠٤ هـ) وهو الذى وضع نظام الاستنباط الشرعى من أصول الدقه ، ولقد انتهى علم أصول الفقه بأن جمع بين مسائل المنطق وأبحاث الفلسفة والكلام شيئاً غير قليل (٣) ، ذلك أنه فى نهاية القرن الأول الهجرى وعلى يد المعتزلة ظهر علم الكلام وشاع ، وكان هؤلاء يعتمدون على الجدل والمنطق فى كلامهم (٤) .

وبجانب المعتزلة فرق الخوارج (٥) ، والروافض (٦) ، والكرامية (٧) ، والجبرية (٨) ، والمرجئة (٩) ، والصوفية (١٠) ، وغير هؤلاء يتظاهرون بالإسلام (١١) وغيرهم خارجون عليه ، من يهود سامرية ، ومعادية ، وعيسوية (١٢) . ونصارى ؛ ملكانية ونسطورية ويعقوبية (١٣) . ومجوس : زرادشتية ، وثنوية : مانوية ومزدكية . . . وصائبة (١٤) ، وكل هؤلاء وهؤلاء لهم آراء فى أصول الدين والعقيدة ينافح عنها بالحجة ، ويدعو إليها بالدليل ، ويقارع غيره بالقياس والتعليل ، وما كان منهم إلا من نظر فى الفلسفة ، وسلك من طرقها ما وقع عليه اختياره فلم يبق مصر من الأمصار ، ولا قطر من الأقطار إلا وفيه طوائف كثيرة من هـــذه الفرق ، حتى إذا كانت نهاية القرن الثالث الهجرى ظهر السنى « أبو الحسن الأشعرى » يرد على المعتزلة ، وينصر عقائد أهل السنة بالأدلة العقلية ، وساعده على ذلك أنه كان

---

(١) تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية /١٨٨
(٢) انظر فى تفصيل ذلك ضحا الاسلام ٢/١٦٠
(٣) تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية /١٣٤
(٤) المصدر السابق /٢٨٨
(٥) اعتقادات فرق المسلمين والمشركين للإمام الرازى ٤٦ـ٥١
(٦) المصدر السابق /٥٢ (٧) المصدر السابق /٦٧
(٨) ص ٦٨ (٩) ص ٧٠
(١٠) ص ٧٢ (١١) ص ٧٦
(١٢) ص ٨٣ (١٣) ص ٨٤
(١٤) ص ٨٦

تلميذاً لأبي علي الجبائي المعتزلي ثم بدا له فتحول عن الاعتزال [1] ويمس أبا علي الفارسي طائف من هـذا الاتجاه ، فيتهم بالاعتزال [2] ويؤلف كتاب التتبع لأبي علي الجبائي [3] .

وهكذا تحول العالم الإسلامي في العصر العباسي الأول وما قبله بقليل إلى صراع فتيّ في العقائد ، وجدل قوي في الفقه والفرائض ، وذاع ذلك في مجالس الخلفاء [4] وفي الطرقات [5] وحلقات المساجد [6] ، وامتزجت أبحاث الفقهاء والمتكلمين بأبحاث النحو والنحويين ، وأعان على ذلك عدم التخصص في الدراسة ، وأخذ كل فريق بسبب من ثقافة الآخر إلى أن الأئمة من هؤلاء وهؤلاء كانوا متعاصرين ، فالحسن البصري (١١٠) [7] يعاصره عبد الله بن أبي إسحق (سنة ١١٧ هـ) [8] ، ويحيى بن يعمر (١٢٨ هـ) [9] . وكل من هؤلاء معاصر لواصل بن عطاء المعتزلي (١٣١ هـ) [10] .

وعمرو بن عبيد المعتزلي (١٤٢ هـ) [11] يعاصره عيسى بن عمر النحوي (١٤٩ هـ) [12] وأبو عمرو بن العلاء (١٥٤ هـ) [13] ، وهؤلاء جميعاً يعاصرون أبا حنيفة النعمان (١٥٠ هـ) [14] ، وقد توفي كل من أبي يوسف صاحب أبي حنيفة ويونس بن حبيب البصري سنة ١٨٢ هـ على ما يذكر ابن العماد الحنبلي في الشذرات ومحمد بن الحسن (١٨٩ هـ) كان معاصراً لسيبويه (١٨٠ هـ) ، وحسبك هؤلاء الأئمة إمعاناً في الجدل ، وتثبتاً بالقياس ، وتعمقاً في المباحث المنطقية . وكثيراً ما كانت تنعقد صلات الصداقة بين هؤلاء وهؤلاء ، أو ينفرط عقد المودة بينهم ، ومهما يكن من أمر فإن في هذه وتلك لقاحا للعقول ، أو دافعاً إلى التسلح بما يتسلح به الخصوم ، فقد قالوا : « إن ابن المقفع كان صديقاً للخليل بن أحمد [15] » ،

(١) الخطط المقريزية ١٨٤/٤
(٢) معجم الأدباء ٢٣٤/٧
(٣) معجم الأدباء ٢٤١/٧
(٤) نقل السيوطي في الأشباه والنظائر كثيرا من هذه المجادلات
(٥) ضحى الاسلام ١٠١/٣
(٦) وفيات الاعيان ٤٢٦/٦
(٧) شذرات الذهب ١٧٥/١
(٨) المصدر السابق/١٣٦
(٩) شذرات الذهب ١٧٤/١
(١٠) المصدر السابق/١٧٩
(١١) شذرات الذهب سنة ١٤٢ هـ
(١٢) شذرات الذهب وفيات سنة ١٥٠ هـ
(١٣) المصدر السابق سنة ١٥٠ هـ
(١٤) المصدر السابق وفيات سنة ٨٢ هـ
(١٥) تاريخ الفلسفة الإسلامية /٣٩

« وثمامة بن أشرس كان كذلك لأبي زكريا يحيى الفراء [1] » ، وقالوا : « إن أبا يوسف صاحب أبي حنيفة كان يقع في أبي الحسن علي بن حمزة الكسائي [2] » .

ويذكر السيوطي في آخر بغية الوعاة بابا في المنتقى في أحاديث النحاة [3] لم يذكر في اسنادها من اشتهر بفن غير النحو [4]، ولم يدع فيها أحداً ممن تحقق أنه نحوي إلا ذكره .

ويكون هناك تفاعل بين النحويين والفقهاء ، وتختلط أبحاث هؤلاء بأبحاث هؤلاء: قال أبو بكر بن شقير : حدثني أبو جعفر الطبري قال : سمعت الجرمي يقول : أنا منذ ثلاثون أفتي الناس في الفقه من كتاب سيبويه قال : فحدثت به محمد بن يزيد على وجه التعجب والإنكار فقال : أنا سمعت الجرمي يقول هذا ـ وأومأ بيده إلى أذنيه ـ .[5] وحكى الدوري قال : كان أبو يوسف يقول: أي شيء يحسن الكسائي؟ إنما يحسن شيئاً من كلام العرب ، فبلغ ذلك الكسائي فالتقيا عند الرشيد ، وكان الرشيد يعظم الكسائي لتأديبه إياه ، فقال لأبي يوسف : « يا يعقوب ! إيش تقول في رجل قال لامرأته : « أنت طالق طالق طالق » ؟ قال : « واحدة ! » قال : « فإن قال لها : « أنت طالق أو طالق أو طالق ؟ » قال : « واحدة ! » قال: فإن قال لها : « أنت طالق ثم طالق ثم طالق ؟ » قال : « واحدة ! » قال : فإن قال لها : « أنت طالق وطالق وطالق » قال : « واحدة ! » قال الكسائي : « يا أمير المؤمنين ! أخطأ يعقوب في اثنتين ، وأصاب في اثنتين ، أما قوله : أنت طالق طالق طالق فواحدة ؛ لأن الثنتين الباقيتين تأكيد كما تقول : « أنت قائم قائم قائم ، وأنت كريم كريم كريم » ، وأما قوله : « أنت طالق أو طالق أو طالق » فهذا شك فوقعت الأولى التي تتيقن ، وأما قوله : « أنت طالق ثم طالق ثم طالق » فثلاث ؛ لأنه نسق ، وكذلك قوله : « أنت طالق وطالق وطالق [6] » . وضرب أبو علي الفارسي مثلا للاتساع والحذف قولهم في صريح الطلاق : « أنت واحدة تقديره أنت ذات تطليقة واحدة ، فحذف المضاف والمضاف إليه ، وأقيم صفة المضاف إليه مقام الاسم الموصوف[7] .

---

(١) نزهة الألباء / ٦٨
(٢) المصدر السابق /٤٦
(٣) ص ٤٤٠
(٤) ص ٤٤١
(٥) طبقات الزبيدي / ٧٧
(٦) نزهة الألباء /٤٧
(٧) الإيضاح : ٥٢

وكتب الرشيد ليلة إلى القاضى أبى يوسف يسأله عن قول القائل :

فإن ترفقى يا هند فالرفق أيمن ٭ وإن تخرقى يا هند فالخرق أشأم
فأنت طلاق، والطلاق عزيمة ٭ ثلاث ، ومن يخرق أعق وأظلم

فقال : « ماذا يلزمه إذا رفع الثلاث وإذا نصبها ؟ » قال أبو يوسف : فقلت : « هذه مسألة نحوية فقهية ، ولا آمن الخطأ إن قلت فيها برأيى » فأتيت الكسائى وهو فى فرشه فسألته فقال : « إن رفع ثلاثاً طلقت واحدة ؛ لأنه قال : أنت طلاق ثم أخبر أن الطلاق التام ثلاث . وإن نصبها طلقت ثلاثا ؛ لأن معناه أنت طالق ثلاثا وما بينهما جملة معترضة [1] » .

ويروى عن بشر المريسى من أئمة المعتزلة [2] ، أنه قال للفراء : « يا أبا زكرياء ! أريد أن أسألك مسألة فى الفقه » فقال : سل ! فقال : « ما تقول فى رجل سها فى سجدتى السهو ؟ » قال : « لا شىء عليه » قال : « من أين لك ذلك ؟ » قال : « قسته على مذاهبنا فى العربية ، وذلك أن المصغر لا يصغر ، وكذلك لا يلتفت إلى السهو فى السهو [3]، ويوزع نجم الدين الطوفى (ت ٧١٦ هـ) فى كتابه « الصعقة الغضبية » الأبحاث المتعلقة بالعربية على المسائل الفقهية [4]

وعقد الشبه بين النحويين والفقهاء : فعن بكار بن قيس أنه قال : « ما رأيت نحويا قط يشبه الفقهاء إلا حيان بن هلال والمازنى [5] » .

ويؤلف النحاة كتباً فى أصول النحو ، كما يؤلف الفقهاء فى أصول الفقه كما فعل ابن السراج [6] . وتأخذ كتب النحاة أسماء كتب الفقهاء [7] . ويقال إن الشيخ أبا إسحق الشيرازى أخذ من ابن جنى أسماء كتبه ؛ فإن له المهذب والتنبيه ، واللمع والتبصرة فى أصول الفقه [8] .

---

(١) المغنى لابن هشام ١/٥٠ ط المطبعة الأزهرية سنة ١٩٢٨

(٢) ترجمته فى لسان الميزان للحافظ ابن حجر ٢/٢٩ـ٣٠ وتاريخ بغداد : وقد رد آراءه الدارمى من أهل السنة أنظر رد الامام الدارمى عثمان بن سعيد على بشر المريسى تحقيق محمد حامد الفقى مطبعة أنصار السنة المحمدية سنة ١٣٥٨ هـ .

(٣) نزهة الألباء : ٦٩

(٤) انظر ورقة ٦٣ وما بعدها والكتاب مخطوط بدار الكتب رقم ٢٢٨ مجاميع .

(٥) نزهة الألباء /١٢٦

(٦) انظر ص ٤٩ من الاقتراح وص ١٦٩ من نزهة الألباء

(٧) انظر فهرس دار الكتب فى كل من النحو والفقه .

(٨) وفيات الأعيان ٢/٤١٢

وتسربت اصطلاحات الفقهاء والمتكلمين وطرائقهم إلى كتب النحاة ، ويقول ابن جنى : « إن أصحابنا انتزعوا العلل من كتب محمد بن الحسن ، وجمعوها منها بالملاطفة والرفق [1] » .

وعقد بابا فى كتابه الخصائص عن علل العربية : أكلامية هى أم فقهية [2] ؟ كما عقد بابا فى الخصائص أيضاً مما يشبه تداخل اللغات تركيب المذاهب ، ويشبهه فى أصول الفقه إحداث قول ثالث ، والتلفيق بين المذهبين [3] .

ونقل السيوطى فى الاقتراح قول ابن جنى : « إذا أداك القياس إلى شىء ما ثم سمعت العرب قد نطقت فيه بشىء آخر على قياس غيره فدع ما كنت عليه » ثم علق عليه بقوله : « وهذا يشبهه فى أصول الفقه نقض الاجتهاد إذا بان النص بخلافه [4] » .

وابن الأنبارى يؤلف فى علم الجدل فى النحو ، وعلم أصول النحو ، فيعرف به القياس وتركيبه وأقسامه ؛ من قياس العلة ، وقياس الشبه ، وقياس الطرد إلى غير ذلك على حد أصول الفقه ، فإن بينهما من المناسبة ما لا خفاء به ؛ لأن النحو معقول من منقول ، كما أن الفقه معقول من منقول [5] .

وفى التنظير بين عجز الفقيه عن التعليل وعجز النحوى عنه قالوا : « إذا عجز الفقيه عن تعليل الحكم قال : « هذا تعبدى » وإذا عجز النحوى عنه قال : هذا مسموع [6] »

ويقول ابن جنى فى مسألة أوردها محمد بن الحسن فى كتاب الايمان : « أن هذه المسألة فتوى الفقيه فيها مسوق على كلام النحوى عليها ، وكذلك معظم مسائل الإيمان [7] .

وكان هناك تناظر بين ما يمدح به المتكلمون وما يمدح به النحويون فالنظام قياس [8] ، كذلك كان عبد الله بن أبى إسحق [9] ، وعيسى بن عمر [10] ، والخليل ابن أحمد [11] و . . .

---

(١) الاقتراح /٥١ (٢) الخصائص /٤٦
(٣) الاقتراح للسيوطى /٣٦ (٤) الاقتراح /٨٦
(٥) نزهة الألباء /٦١ والاقتراح /٣ (٦) الاقتراح ص ٤٧
(٧) انظر مسألة فى الأخبار والمعانى مخطوط مصور بدار الأمانة العامة للجامعة العربية .
(٨) تاريخ الفلسفة فى الاسلام /٦٠
(٩) الفهرست لابن النديم /٦٤ وانظر ص ١٢ من نزهة الألباء ، و ص ١١ من طبقات الشعراء لابن سلام .
(١٠) الكتاب لسيبويه ٣١٣/١ (١١) نزهة الألباء /٢٩

ويؤلف النحاة كتباً تأخذ اسم العلل أو القياس ، أو الاحتجاج : فابن مروان الكوفى له كتاب القياس على أصول النحو [١] ، وهشام الضرير له : كتاب القياس [٢] ، وأبو على الحسن بن عبد الله الاصفهانى له : كتاب علل النحو [٣] ، وكتاب نقض علل النحو [٤] ، والمهلبى أبو العباس أحمد بن محمد يؤلف شرح علل النحو [٥] . ولإسماعيل بن محمد القمى كتاب العلل [٦] وكذلك لأبى محمد بن الحسن [٧] وألف على بن محمد بن عبدوس كتاب البرهان فى علل النحو [٨] ، وكذلك ألف قطرب أبو على محمد بن المستنير كتاب العلل فى النحو [٩] ، وكذلك كان للأخفش المجاشعى كتاب المقاييس فى النحو [١٠] ولأبى الخير الحسن بن سوار البغدادى مقال فى أن دليل يحي النحوى على حدوث العالم أولى بالقبول من دليل المتكلمين [١١] ويطرد التقارض بين النحاة والمتكلمين حتى يجيء أبو على الفارسى فيؤثر عنه أنه قال : « أخطىء فى خمسين مسألة فى اللغة ، ولا أخطىء فى واحدة من القياس [١٢]» .

وهكذا يتسلم أبو على الفارسى هذا التراث العقلى من القراء ، والفقهاء ، والمتكلمين ، والنحاة ، ويكون لكل من هؤلاء أثره فى تآليف الفارسى واتجاهاته على النحو الذى أبينه فيما بعد إن شاء الله .

---

(١) الفهرست /١٠٥ (٢) المصدر السابق / ١٠٤
(٣) الفهرست /١٢٠ (٤) المصدر السابق /١٢١
(٥) المصدر السابق /١٢٥ (٦) نفس المصدر والصفحة
(٧) الفهرست /١٢٨ (٨) الفهرست لابن النديم /١٢٧
(٩) المصدر السابق (١٠) الفهرست /٧٨
(١١) انظر فهرس المخطوطات : ١٣٩ والمقال مخطوط محفوظ براغب باشا ١٤٦٣/٣
(١٢) نزهة الألباء /٢١٠

عصر أبي علي وحياته وآثاره

الحال السياسية

قامت الدولة العباسية على أكتاف الفرس ودعوتهم ، وحفظ العباسيون لهم هذه العارفة ، فاتخذوا منهم القادة ، والقضاة ، والولاة ، والوزراء ، والكتاب ، والحجاب ، ورؤساء الشرطة . . . إلا أن الفرس كانوا يأملون أكثر مما نالوا فى ظل بنى العباس من مكانة ونفوذ ، فحاكوا الدسائس ، وأحكموا المؤامرات والمكايد ، وفطن الخلفاء العباسيون فى صدر دولتهم ، إلى ما يحيك الكائدون والمتنمرون فبطشوا بهم جبارين فكان قتل أبى مسلم الخراسانى ، وأبى سلمة الخلال ، وكانت نكبة البرامكة على ماهو متعالم معروف .

ثم دب دبيب النزاع بين العرب والفرس مرة أخرى ، فى تلك الفتنة التى كانت بين الأمين ومن ورائه العرب ـ والمأمون ومن ورائه الفرس ، وانتهت بانتصار هؤلاء يمثلهم المأمون على خصومهم ممثلين فى قتل الأمين

ولكن الفرس لم يقنعوا ؛ فكانت ثورة « بابك الخرّمى [1] » ، وكانت مناهضته للمأمون ، ثم كانت انتصاراته الباهرة حتى إذا شعر المأمون بدنو أجله استدعى أخاه المعتصم ، وألح عليه أن يداوم على حرب البابكية بصرامة وحزم .

ولكن المعتصم (٢١٨ — ٢٦٧ هـ) وقد رأى مناهضة الفرس ، ومعارضة العرب ـ ولى وجهه نحو عنصر آخر هو « الأتراك » فاتجه إلى بلاد الترك يستكثر غلمانها ، ويؤلف منهم جيشاً قوياً ، وأسكنهم بغداد حتى ضاقت بهم ، وزاحموا الناس فى دورهم ، وتعرضوا للنساء ، فكان فى كل يوم ربما قتل منهم جماعة ، حدث المؤرخون قالوا : « ركب المعتصم يوما فلقيه رجل شيخ ، فقال للمعتصم : « يا أبا إسحق ! » فأراد الجند ضربه فمنعهم المعتصم وقال له : « مالك يا شيخ ! » فقال : (« لا جزاك الله خيراً عن الجوار !) جاورتنا مدة فرأيناك شر جار ، جئتنا بهؤلاء العلوج من غلمانك الأتراك فأسكنتهم بيننا فأيتمت بهم صبياننا ، وأرملت نساءنا ، والله لنقاتلنك بسهام

---

(١) تاريخ الأمم الاسلامية للأستاذ الخضرى ص ١٩٦

السحر (يعنى الدعاء) ، والمعتصم يسمع ذلك ، فدخل منزله ، ولم ير راكبا إلا فى يوم مثل ذلك اليوم ، فركب وصلى بالناس العيد وسار إلى موضع سامرا فبناها (٢٢١ هـ) [١] . وربما كانت هذه القصة ملفقة ، لكنها على كل حال لها دلالتها من توغل هؤلاء العلوج الأتراك فى السلطان ، حتى أزالوا بعد هيبة الخلفاء.

وكان المتوكل (٢٣٣ — ٢٤٧ هـ) شديد الانحراف عن آل على (كرم الله وجهه) ، وفعل من حرث قبر الحسين (عليه السلام) ما فعل ، وكانت بينه وبين المنتصر ابنه مباينة ، فاتفق المنتصر مع جماعة من الأتراك على قتله ، وقتل وزيره الفتح بن خاقان ، فهجموا عليه وهو يشرب فخبطوه بالسيوف فقتلوه ، وقتلوا الفتح معه [٢] ، وكان ذلك أول اجترائهم [٣] فأصبح الخلفاء ألعوبة فى أيديهم ؛ ذاك لأنه عند موت المنتصر اجتمع أكابر المماليك وقالوا : « متى ولينا أحداً من ولد المتوكل طلبنا وأهلكنا ، فأجمعوا على مبايعة المستعين ، وقالوا : « هو ابن ابن مولانا المعتصم فإذا ما بايعناه لم تخرج الخلافة من ولد المعتصم ، وبايعوا المستعين (٢٤٨—٢٥٢) [٤] وهكذا استولى الأتراك على المملكة ، وأصبح الخليفة فى يدهم كالأسير ؛ إن شاءوا أبقوه وإن شاءوا خلعوه ، وإن شاءوا قتلوه . حكى الفخرى قال : « لما جلس المعتز (٢٥٢ — ٢٥٥ هـ) على سرير الخلافة قعد خواصه ، وأحضروا المنجمين وقالوا لهم : « انظروا كم يعيش ؟ وكم يبقى فى الخلافة ؟ » ، وكان بالمجلس بعض الظرفاء فقال : « أنا أعرف من هؤلاء بمقدار عمره وخلافته » فقالوا له : « فكم تقول إنه يعيش ؟ وكم يملك ؟ » قال : « مهما أراد الأتراك ! » . . .

وثار الأتراك بالمعتز وضربوه بالدبابيس ، وخرقوا قميصه ، وأقاموه فى الشمس فكان يرفع رجلاه ، ويضع أخرى لشدة الحر ، وكان بعضهم يلطمه ، وهو يتقى بيده ، ثم جعلوه فى بيت ، وسدوا بابه ، حتى مات بعد أن أشهدوا عليه أنه خلع نفسه !! [٥] .

(١) الفخرى ٢٠٥ ــ ٢٠٦
(٢) المصدر السابق ٢١٠
(٣) تاريخ آداب العرب لجورجى زيدان ج ١٥٣/٢
(٤) الفخرى ٢١٢
(٥) الكامل لابن الأثير ج ٧٧/٧ والفخرى ٢١٥

ثم زاد الطين بلة :

ا — ظهور القرامطة فى عهد المكتفى بالله (٢٨٩ — ٢٩٥ ﻫ) حتى قطعوا الدروب على الحاج [١]، واقتلعوا الحجر الأسود[٢]، ومكث فى أيديهم عشرين سنة

ب — استكثار المقتدر ـ وكان صغير السن ـ من الخدم الروم والسودان حتى كان فى داره أحد عشر ألف خادم ! ، وكأنه لم يكتف بما حل بالدولة من الأتراك ، فاستولى هؤلاء وهؤلاء على الخلافة ، وانغمس الخلفاء فى الملذات ، وشغلوا بها عن تدبير الملك ، ودبت بينهم المنازعات فأسقط كل ذلك من هيبتهم بقتل المقتدر، وتقطع رأسه ، وتمكث جثته مرمية على قارعة الطريق[٣] مكشوف العورة حتى مر رجل من الأكرة فستر عورته بحشيش ثم حفر له فى الموضع ودفن حتى عفا أثره[٤] .

وصادر القاهر (٣٢٠ — ٣٢٢ ﻫ) أم المقتدر فعلقها برجل واحدة منكسة الرأس ، وأفسد الوزير ابن مقلة قلوب الجند على القاهر ، وزين لهم حتى هجموا عليه وخلعوه وسملوه حتى سالت عيناه إلى خديه ، ثم حبس وأفرج عنه حتى بلغ به الحال أن وقف بجامع المنصور يطلب الصدقة من الناس !! وفى أيام القاهر نبعت الدولة البويهية [٥] التى عاش فى ظلها أبو على الفارسى .

وملك بعد القاهر ابن أخيه الراضى بالله (٣٢٢ — ٣٢٩ ﻫ) وقد استوزر الراضى أبا جعفر الكرخى ، وكان هذا قصيراً جداً فى غاية القصر فاحتاجوا ـ حتى يتمكن الوزير من مسارّة الخليفة ـ أن يقطعوا من قوائم سرير الخليفة أربع أصابع ، وتطيّر الناس من ذلك ، وقالوا هذا مؤذن بنقص الدولة ؛ وكذلك كان ؟ وقد أسلم الراضى قياده إلى ابن رائق ، وسماه « أمير الأمراء » ، وكلفه تدبير المملكة فانضم إليه أمراء العسكر ، وصاروا حزباً واحداً ، واستبد ابن رائق أمير الأمراء بالأمور : ولى النظار والعمال ، ورفعت إليه المطالعات ، ورد الحكم فى جميع الأمور إلى نظره ، ومن تلك الأيام خرجت الأمور من الخلافة العباسية ، واستولى الأعاجم وأرباب السيوف على الدولة ، وجبوا الأموال ، وكفوا يد الخليفة .

(١) الفخرى ٢٢٧
(٢) وفيات الأعيان ١ / ٤١٠
(٣) الفخرى ٢٣٣
(٤) تجارب الأمم ٥ / ٢٣٧
(٥) الفخرى ٢٣٠

وقد نافس ابن رائق على إمرة الأمراء كثير من القواد ، فكان من نتائج هذا التنافس ، وبال وحروب ، وأهوال وخطوب ، ولم تنته هذه الفترة الصاخبة التى أطلق عليها المؤرخون فترة « أمير الأمراء » إلا باستيلاء البويهيين على بغداد ، فضاعت البقية الباقية من سلطة الخلفاء [١] .

وقد قبض (توزون) من أمراء الديلم على المتقى لله (٣٢٩ — ٣٣٣ هـ) ، وسمل عينيه ، وخلعه ، وبويع المستكفى (٣٣٣ — ٣٣٤هـ) الذى خلع من الخلافة ونهبت داره ، وسملت عيناه أيضاً [٢] ، ثم كانت الخلافة للمطيع لله (٣٣٥—٣٦٣هـ) الذى خلع نفسه ، وترك الخلافة لولده الطائع (٣٦٣ — ٣٨١ هـ) ثم تتابع الخلفاء على نحو من هذا الضعف : القادر (٣٨١—٤٢٢هـ) ، فابنه القائم بأمر الله (٤٢٢هـ) وفى عهده انقرضت دولة بنى بويه ، وظهرت دولة بنى سلجوق [٣] .

وهكذا لاقى الخلفاء العنت من خدمتهم الأتراك والروم والسودان : حبسوا ، وسملت عيونهم ، ونهبت دورهم ، وصودروا وقتلوا تقتيلا ، وطرحت جثثهم على قارعات الطرقات ، وضربت عليهم الذلة حتى سألوا الناس الصدقات !! .

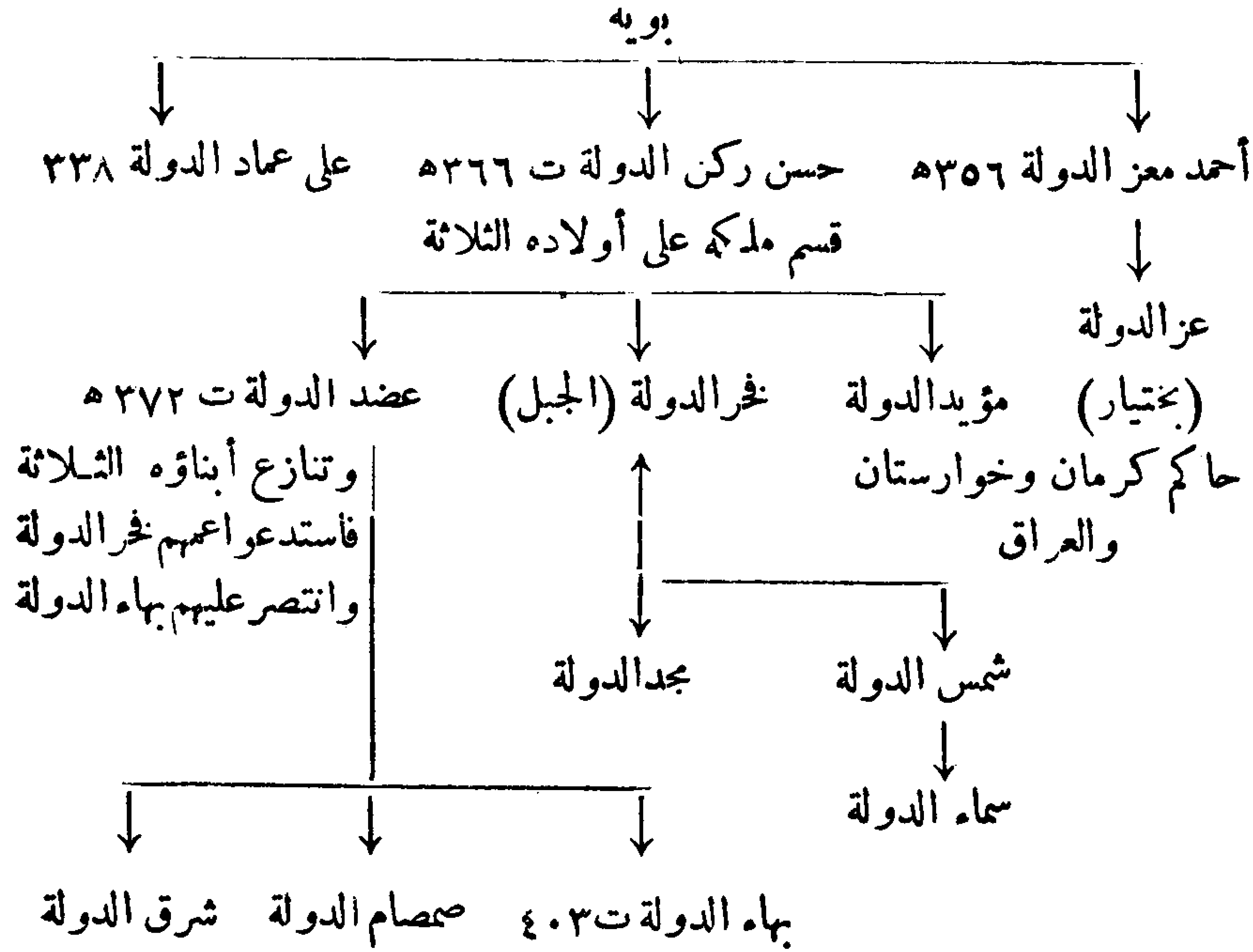
ومنذ أوائل القرن الرابع الهجرى تساقطت الدولة العباسية كسفاً هنا وهناك ففى أيام الراضى بالله (٣٢٢ — ٣٢٩ هـ) كانت فارس فى يد على بن بويه ، والرى وأصفهان والجبل فى يد أخيه الحسن بن بويه ، والموصل وديار بكر وديار ربيعة ومضر فى أيدى بنى حمدان (٣١٧ — ٣٩٤ هـ) ، ومصر والشام فى يد ابن طغج [٤] والمغرب ، وإفريقية فى يد أبى القاسم القائم بأمر الله بن المهدى العلوى [٥] ، والأندلس فى يد عبد الرحمن بن محمد الأموى ، وخراسان والبلاد الشرقية فى يد نصر بن أحمد السامانى [٦] ، وطبرستان وجرجان فى يد الديلم ، والبحرين واليمامة فى يد أبى طاهر القرمطى [٧] .

ولم يبق للخليفة العباسى إلا بغداد ، حتى جاء عضد الدولة من البويهيين فضم العراق إلى ملكه ، كما ضم إليه ملك البويهيين جميعها ، وضم إليه الموصل وبلاد

(١) تجارب الأمم ٥/٣٠٣ (٢) الفخرى ٢٥٣
(٣) الفخرى ٢٥٤ (٤) الفخرى ٢٤٧
(٥) الكامل لابن الأثير حوادث سنة ٣٢٤ هـ
(٦) الفخرى ٢٤٧ (٧) الكامل حوادث ٣٢٤هـ

الجزيرة وسمى الملك . وهو أول من سمى بذلك فى الإسلام ، وكان يقيم أحياناً فى الرى ، وأحياناً فى شيراز . فلما فتح العراق جعل عاصمة ملكه بغداد [١] .

وفيما يلى رجال الأسرة البويهية الذين عاصرهم أبو على [٢] :



وظل السامانيون يسيطرون على خراسان ، وما وراء النهر حتى جاء آل سبكتكين وأنزلوا السامانيين عن مكانتهم ، وجلسوا محلهم فى السيادة ، فكانت الدولة الغزنوية وتسمى أيضاً دولة بنى سبكتكين (٣٥١ — ٥٨٢ هـ) ، ومن أهم بلاد هذه الدولة ولاية سجستان . وقد نسب إليها كثير [٣] .

* * *

الحال العلمية

ومهما يكن من خلاف فى السنة التى ولد فيها أبو على الفارسى ، ومهما يكن من خلاف كذلك فى السنة التى انتقل فيها إلى جوار ربه ، فإن الذى لا شك فيه أنه عاصر الدولة العباسية وهى تجود بأنفاس قوتها الأخيرة ، وقد أخذت الخلافة

---

(١) انظر تاريخ الشعوب الإسلامية تأليف كارل بروكلمان ج ٢/٩٣ـ٩٥

(٢) عن مادة بويه دائرة المعارف الاسلامية ص ٢٥٦

(٣) انظر وفيات الأعيان ٢/١٤٠ ، ١٥٢ ، ٢٩٣

فى الانحلال والضعف ، فقد ولد فى أخريات القرن الثالث الهجرى — فى أوائل خلافة المعتمد على الله ، ثم نسأ الله فى أجله فعاش حتى أوائل الربع الأخير من القرن الرابع الهجرى ، وإذن فقد رأى الدولة العباسية ، وقد تناثرت فى هذه الدويلات التى استقل بها الأمراء فى مشارق العالم الإسلامى ومغاربه . وكانت هذه الدولة تتنازع مجد العلم والأدب كما تتنازع السلطان ، وآتت عناية الخلفاء فى العصر العباسى الأول بالحركة الفكرية ـ أكلها فى ذلك الحين ، وكانت عجلة التقدم العلمى لا تزال دائرة فى عصر الدويلات فكانت عهودها خيراً وبركة على العلم والعلماء ، والأدب والأدباء ؛ بما رأى القائمون على أمر هذه الدولة من ملوك ووزراء أن التفاف الشعراء والكتاب والعلماء حولهم مظهر من مظاهر السلطان ، وحلية من حلى الزمان ، وسبيل إلى اكتمال أبهتهم ، وذيوع شهرتهم . حتى رأينا من لا يحسن العربية يزين ملكه بهؤلاء من رءوس العلم والأدب فى زمنه .

استدعى بجكم التركى حاكم واسط [1] ، وأمير بغداد والعراق أبا بكر محمد ابن يحيى [2] الصولى ، وكان مقرباً إليه ، وقال له : « إن أصحاب الأخبار رفعوا إلىّ أنى لما طلبتك من المسجد (وكان الصولى يقرأ درساً فيه) قال الناس : « أعجله الأمير ولم يتم مجلسنا ، أفتراه يقرأ عليه شعراً أو نحواً أو يسمع من الحديث ؟ » (يقولون ذلك تهكما ببجكم لأنه لا يحسن العربية) ، ثم قال بجكم رداً على هذا : « أنا إنسان ، وإن كنت لا أحسن العلوم والآداب أحب ألا يكون فى الأرض أديب ، ولا عالم ، ولا رأس فى صناعة إلا كان فى جنبتى وتحت اصطناعى ، وبين يدى لا يفارقنى » [3]

فانظر كيف بلغت به رغبته فى اجتذاب العلماء مع ما فيه من عجمة لا تبين ، ولا يرجى معها فهم شعر أو نحو أو استماع إلى المحدثين ؟

على أن منهم ـ إلى جانب ذلك ـ من كان عالماً محباً للعلماء راغباً فى الاستفادة من علمهم ، وهذا عضد الدولة يناقش أبا على الفارسى مناقشة العالم ، ويستقل كتاب الإيضاح منه [4] ، وقد حكم الأستاذ براون فى كتابه التاريخ الأدبى للفرس أن السلطان محمود بن سبكتكين علم أن فى مجلس مأمون بن مأمون جماعة من رجال

---

(١) الأوراق ص ١٩٥ (٢) وفيات الأعيان ١/٤١١

(٣) الأوراق ص ١٩٥ وظهر الاسلام جـ ١ ص ٩٥

(٤) شذرات الذهب جـ ٣/٨٨

العلم والفلسفة منهم ابن سينا والبيرونى ، وأبو سهل المسيحى ، وابن الحمار ، وأبو نصر العراق ، فكتب إليه أن أرسلهم ليشرفوا بمجلسى ، ونستفيد بعلمهم ، فجمعهم مأمون ابن مأمون ، وقرأ عليهم كتاب السلطان فأبى ابن سينا وفر ، وقبل البيرونى وابن الخمار والعراق[١] .

وشيء آخر دعا إلى اجتذاب هؤلاء العلماء والأدباء ، ذلك حاجة هؤلاء الملوك إلى أساطين البيان ، ورؤساء صناعة الكتابة ؛ إذ وجدوا فيهم سبيلا إلى إبلاغ الرغائب ، وإطفاء الفتن ، وتأديب العصاة المارقين ، ولساناً به يتحدثون ويوعدون ويبرقون ويرعدون [٢] ، وقد ظهر الكفاة فى ذلك العصر أولئك الذين يجمعون بين البلاغة والسياسة فيحكمون بعدل ، وينطقون بفصل ، ويحملون الدولة ، ويديرون المملكة ، ويسوسون الرعية ، « فإن انضاف إلى ذلك أن يكون الواحد منهم ـ أى الكافى ـ فى بلاغته صاحب حظ ، وفصاحة لفظ ، وجمال منظر ، وفى سياسته ذا تحيل ، وصحة فكر ، وثبات عزيمة ، فقد لبس كما يقول الثعالبى ثوب الفضل بعلمه ، وأخذ الحبل بطرفيه ، وصلح لتدبير الدولة والممالك » [٣] .

ومن هنا قال أبو إسحق الصابى مفتخراً :

وقد علم السلطان أنى لسانه ... وكاتبه الكافى السديد الموفق
أوازره فيما عرا ، وأمده ... برأى يريه الشمس والليل أغسق
يجدد بى نهج الهدى وهو دارس ... ويفتح لى باب النهى وهو مغلق
ولى فِقر تضحى الملوكُ فقيرة ... إليها لدى أحداثها حين تطرق
أرد بها رأس الجموح فينثنى ... وأجعلها صوت الحرون فيعتق[٤]

لذلك أغدق الملوك والوزراء على هؤلاء وهؤلاء الهدايا والعطاء

وتعددت العواصم الثقافية والعلمية فبعد أن كانت البصرة ، والكوفة ، وبغداد أصبحت ـ بجانب ذلك ـ شيراز ، والرى ، وأصبهان ، ودينور ، وهمذان ، وبخارى ، ونيسابور ، وسمرقند ، وجرجان ، وحلب ، والقاهرة ، ووجدنا من العلماء من ينسب

(١) جـ ٢/٩٦ وانظر ظهر الإسلام ١/٢٨٦
(٢) انظر نثر النظم وحل العقد /٢
(٣) ظهر ورقة ١٤ تحفة الوزراء للشيخ أبي منصور الثعالبى مخطوطه ٥ نحوش
(٤) اليتيمة جـ ٢/٥٠

إلى هذه البلاد أو غيرها ، ففيهم الآمدى[1] ، والأبيوردى [2] ، والاسترابادى[3] والأنطاكى[4] ، والبساسيرى[5] ، والبستى[6] ، والبسطامى[7] ، والسجزى[8] ، والشهرستانى[9] ، والطالقانى [10] ، والعسكرى[11] ، والفارابى ، والكرمانى [12] ، والهروى[13] ، وأخيراً الفسوى ، وهو اللقب الذى يلقب به أبو على الفارسى أحياناً .

وقد كثر ارتحال العلماء والأدباء وتنقلاتهم فى هذه الممالك ، وكان السفر فى طلب العلم مفخرة ، والقعود عنه معرة ، وهـذا ابن شنبوذ (ت ٣٢٨ هـ) المقرىء البغدادى ينسب إلى الوزير ابن مقلة الـكاتب المشهور ـ قلة المعرفة ، وعيره جلساؤه بأنهم ما سافروا فى طلب العلم كما سافر[14] ، ومن هنا كان القاضى الجرجانى ـ كما يقول الثعالبي ـ خلف الخضر فى قطع عرض الأرض ، وتدويخ بلاد العراق والشام وغيرها . ثم عرج على حضرة الصاحب ، وألقى بها عصا المسافر[15] .

وهذا الحافظ الكبير أبو بكر غندر محمد بن جعفر البغدادى كان رحالا جوالا توفى بأطراف خراسان غريباً ، سمع بالشام ، والعراق ، ومصر ، والجزيرة . . . ، ودخل إلى أرض الترك[16] وأبو الحسن السلامى هجر بغداد إلى الموصل ، ثم ورد أصبهان ثم قصد عضد الدولة بشيراز[17] ، وأبو حاتم محمد بن حيان التميمى البستى يرحل إلى الآفاق ، ويتنقل بخراسان والشام ومصر والعراق والجزيرة ثم عاد إلى نيسابور وتوفى سنة (٣٥٤ هـ) . وارتحال المتنبي أشهر من أن ينبه إليه ، وهـــذا أبو على الفارسى (٣٧٧ هـ) يرحل إلى بلاد كثيرة . شيراز ، والبصرة ، وبغداد ، وحلب ، وعسكر مكرم ، وهيث ، فكان من أثر ذلك مسائله : الشيرازيات ، والبصريات ، والبغداديات ، والحلبيات ، والعسكريات والهيثيات[18] .

---

(١) وفيات الأعيان ٢/ ٤٠٦ — (٢) المصدر السابق ٤/ ٧٤
(٣) وفيات الأعيان ٣/ ٢٤ — (٤) نفس المصدر ١/ ١١٤
(٥) الوفيات ١/ ١٧٢ — (٦) الوفيات ١/ ٤٥٤
(٧) الوفيات ٣/ ٢١٣ — (٨) الوفيات ٢/ ٣٩٣
(٩) ٣/ ٤٠٣ — (١٠) ١/ ٢١٠
(١١) ١/ ٣٦٥ — (١٢) ٤/ ٨١
(١٣) الوفيات ١/ ٨٠ وشذرات الذهب ٣/ ٧٣
(١٤) وفيات الأعيان جـ ٣ ص ٣٢٦ — (١٥) يتيمة الدهر جـ ٣ : ٢٣٨
(١٦) شذرات الذهب جـ ٣/ ٧٣ — (١٧) يتيمة الدهر جـ ٣/ ١٦٣
(١٨) المغنى ٢/ ١٠

وإذا اتخذنا الثعالبي ، والبيروني مثلا لأدباء هـذا العصر وعلمائه عرفنا تولية الأدباء وجوههم شطر هذه الدول :

فالثعالبي : أهدى كتابه لطائف المعارف إلى الصاحب بن عباد، والمبهج ، والتمثيل ، والمحاضرة إلى شمس المعالي قابوس ، وسحر البلاغة وفقه اللغة إلى الأمير أبي الفضل الميكالي ، والنهاية في الكتابة ، ونثر النظم ، واللطائف والظرائف إلى مأمون ابن مأمون أمير خوارزم . وقدم أخبار ملوك الفرس وسيرهم إلى نصر أخي السلطان محمود .

والبيروني : أقام في خوارزم عند المأمونية ، ثم سار إلى شمس المعالي ، وقدم إليه كتاب الآثار الباقية ، ثم قصد السلطان محمود فلزمه وقدم إليه كتابه عن الهند ، وقدم كتاب التفهيم في علم التنجيم الذي ألفه بالعربية والفارسية إلى سيدة من خوارزم اسمها ريحانة ، ثم قدم القانون المسعودي في النجوم إلى مسعود بن محمود ، وكتابه في المعارف إلى السلطان مودود بن مسعود[1] .

وكانت هناك ارتحالات لطلب العلم كما كانت الارتحالات لطلب المال : حكى ابن خلكان قال : قال أبو علي محمد بن وشاح بن عبد الله : سمعت أبا نصر بن نباته يقول : كنت يوما قائلا في دهليزي ، فدق على الباب ، فقلت : « من ؟ » فقال : « رجل من أهل المشرق » ، فقلت : « ما حاجتك ؟ » فقال : « أنت القائل :

من لم يمت بالسيف مات بغيره　　　تنوعت الأسباب ، والداء واحد ؟

فقلت : « نعم ! » فقال : « أرويه عنك ؟ » فقلت : « نعم ! » فمضى ، فلما كان آخر النهار دق على الباب فقلت : « من » فقال : « رجل من أهل تاهرت من الغرب » فقلت : « ما حاجتك ؟ » فقال : « أنت القائل » :

من لم يمت بالسيف مات بغيره　　　تنوعت الأسباب ، والداء واحد ؟

فقلت : : « نعم ! » فقال : « أرويه عنك ؟ » فقلت : « نعم ! » [2] .

وقد يكون ما يحكيه أبو نصر بن نباته (ت ٤٩٥ هـ) من قبل الدعاية إلى شعره وأنه يسير في الآفاق ، ويصل إلى المشرق والمغرب ، ولكنه ـ يدل على الارتحال الذي شغف به أهل هذا العصر على كل حال .

---

(١) الرسالة مجلد ٢ عدد ٣٨ ص ٥٤٩ وما بعدها
(٢) وفيات الأعيان جـ ٢/٣٦٥

وكانت مجالس الملوك والوزراء جامعة للعلماء والأدباء والفلاسفة والأطباء ، مثلا ورد على بلاط سيف الدولة من اللغويين والنحاة : ابن خالويه ، وأبو على الفارسى ، وابن جنى ، وابوالطيب اللغوى[1] ، وأبو الطيب المتنبى ، ومن الفلاسفة الأطباء الفارابى[2] . ومن الكتاب أبو على الحاتمى[3] ، وأبو الفرج الببغاء[4] ، وأبو الفرج الأصفهانى[5] ، أما الشعراء فما اكثرهم ! وفد عليه : الصنوبرى (ت٣٣٤هـ) والناشىء ، والنامى ، والخليع ، الشامى ، والوأواء ، الدمشقى وكشاجم ، وأبو فراس الحمدانى ، والسرى الرفاء ، والخالديان : أبوبكر محمد بن هاشم ، وأبو عثمان سعيد بن هاشم ، وابن نباته السعدى ، وأبوالفرج الببغاء ، والزاهى .

وكذلك كان الصاحب بن عباد : احتف به كما يقول الثعالبى ـ من نجوم الأرض وأفراد العصر ، وأبناء الفضل ، وفرسان الشعر من يربى عددهم على شعراء الرشيد . . . مثل أبى الحسين السلامى ، وأبى بكر الخوارزمى ، وأبى طالب المأمونى ، وأبى الحسن البديهى ، وأبى سعد الرستمى ، وأبى القاسم الزعفرانى ، وأبى العباس الضبى ، وأبى الحسن بن عبد العزيز الجرجانى ، وأبى القاسم بن أبى العلا ، وأبى محمد الخازن ، وأبى هاشم العلوى ، وأبى الحسن الجوهرى ، وبنى المنجم وابن بابك ، وابن القاشانى وأبى الفضل الهمدانى ، واسماعيل الشاشى ، وأبى العلاء الأسدى ، وأبى الحسن الغويرى ، وأبى دلف الخزرجى ، وأبى الفياض الطبرى وغيرهم[6] .

وحلى هؤلاء وهؤلاء قصورهم بالمكتبات التى جمعت أعداداً ضخمة من الكتب فعضد الدولة صاحب أبى على ـ له خزانة كتب ـ عليها وكيل وخازن ومشرف من عدول البلد[7] . والصاحب بن عباد يجمع من الكتب ما يحتاج فى نقله إلى أربعمائة جمل[8] ، وكان يعنى بطلب النسخ الصحيحة إلى خزانة كتبه عناية عظيمة حتى أنه أوفد إلى مدينة السلام أبا العلاء الحسين بن محمد ليصحح كتاب التذكرة على أبى على الفارسى نفسه[9] . ويقول الصاحب فى كتاب إلى أبى على الفارسى :

---

(١) /٣١٧ (٢) كان الطب من فروع الفلسفة : جاء فى ابن النديم : أن الطبيب الفاضل يجب أن يكون فيلسوفاً انظر الفهرست ص ٢٨٩ وما بعدها ـ وفيات الأعيان ٢٣٩/٤

(٣) معجم الادباء ١٥٤/١٨ (٤) وفيات الأعيان ٣٧٣/٢

(٥) نفس المصدر ٤٦٨/٢ (٦) يتيمة الدهر ٣٢/٣

(٧) أحسن التقاسم المقدسى ٤٤٩ (٨) الكامل/بن الاثير ٧٧/١

(٩) معجم الادباء ٢٤٢/٧

« لقد اعتمدت عل صاحبي أبي العلاء - أيده الله - لاستنساخ التذكرة ، وللشيخ - أدام الله عزه - رأيه الموفق فى التمكين ، من الأصل والإذن بعد النسخ فى العرض بإذن الله تعالى[1] . وقالوا : « إن فهرست كتب خزانة الصاحب - يقع فى عشر مجلدات على ما يروى أبو الحسن البيهقى [2] .

وقد استحث هؤلاء الملوك العلماء على تأليف الكتب فألف أبو إسحق الصابى لعضد الدولة كتاباً فى تاريخ آل بويه سماه التاجى[3] ، وألف له على بن العباس المجوسى الكناش العضدى فى الطب [4] ، وسمى أبو النصر محمد بن عبد الجبار العقبى كتابه اليمينى نسبة إلى لقب محمود سبكتكين ، فقد لقبه الخليفة القادر بالله « يمين الدولة وأمين الدولة »[5] ، وابن فارس يؤلف كتابه « الصاحبي » نسبة إلى الصاحب ابن عباد [6] ، وأبو على الفارسى يؤلف العضدى [7] نسبة إلى عضد الدولة وهكذا وهكذا .

واستبحرت العلوم الموضوعة والمترجمة فى ذلك العصر ، وليس المقام هنا مقام التعداد أو التفصيل ، ويكفى للتدليل على ذلك - الاطلاع على كتاب الفهرست لابن النديم ، فهو وثيقة تبين ما وصل إليه المسلمون فى حياتهم العقلية - حتى موت أبى على الفارسى [8] : فى الكلام والمتكلمين ، والفقه والفقهاء والمحدثين ، والفلسفة والمتفلسفين طبيعيين ومنطقيين . . . الخ . ومثل الفهرست لابن النديم فى إلقائه ضوءاً على الحياة العقلية فى القرن الرابع الهجرى كتاب مفاتيح العلوم للخوارزمى (ت ٣٨٧ هـ) . وقد جعله فى مقالتين : إحداهما لعلوم الشريعة والعربية وهى فى ستة أبواب وفيها اثنان وخمسون فصلا : فى الفقه والكلام والنحو والكتاب والشعر والعروض والاخبار . والأخرى فى علوم العجم من اليونانيين وغيرهم من الامم فى تسعة أبواب ، وفيها واحد وأربعون فصلا : فى الفلسفة ، والمنطق والطب ، وعلم العدد ، والهندسة ، والنجوم ، والموسيقى ، والحيل ، والكيمياء[9] .

---

(١) معجم الادباء ٧/ ٣٥٠ .
(٢) معجم الادباء ٦/ ٢٥٩
(٣) الوفيات حـ ٣/ ٢١٨
(٤) ٢/ ٦٨ ذيل تجارب الامم تاريخ الحكماء .
(٥) ظهر الاسلام ١/ ٢٨٦
(٦) انظر الصاحبي : ٢ ط المؤيد ١٩١٠ م
(٧) إنباه الرواة ٢/ ٣٨٧ .
(٨) صنف ابن النديم كتابه الفهرست سنة ٧٧ هـ وهى السنة التى توفى فيها أبو على الفارسى انظر ص ب من الفهرست
(٩) مفاتيح العلوم ص ٤ وانظر ظهر الاسلام ١/ ٢٢٩ - ٢٣٢ .

ومما تمتاز به الحركة العقلية فى القرن الرابع الهجرى ظهور مذهب الشيعة فالفاطميون يتشيعون ، والحمدانيون كذلك ، وبنو بويه لا يقلون عن هؤلاء وهؤلاء ويروى المؤرخون أنهم أخذوا أصول التشيع عن « الحسن بن على الأطروش » الذى لبث فيهم ثلاث عشرة سنة ينشر بينهم التشيع ، فأسلم منهم خلق كثير ، والتفوا حوله ، كان ذلك أول القرن الرابع الهجرى[1] . وكانت الكوفة أكبر مراكز التشيع ، فهى علوية من قديم ، وفيها مشهد على (كرم الله وجهه) حتى قال بعضهم : « من أراد الشهادة فليدخل دار البطيخ[2] بالكوفة وليقل (رحم الله عثمان بن عفان !) وكانت البصرة ـ قبل القرن الرابع ـ عثمانية ـ حتى قالوا : (من نزل البصرة فلم يقر لهم بثلاث فليست له بدار : بفضل عثمان ، وفضل الحسن البصرى ، ورطب الآزاذ[3]) ولكنها فى غضون القرن الرابع امتد إليها مذهب التشيع حتى اضطر أبو بكر الصولى ت (٣٣٠ ﻫ) أن يستتر حتى مات لأنه روى خبراً فى على (كرم الله وجهه) فطلبته الخاصة والعامة لتقتله .

ولقد هم البويهيون أن يجعلوا الخلافة علوية شيعية بعد أن كانت عباسية سنية فقد أراد معز الدولة أن يبايع محمد بن يحيى الزيدى العلوى فلواه الصيمرى عن ذلك بقوله : « إذا بايعته استنفر عليك أهل خراسان وعوام البلدان ، وأطاعه الديلم ورفضوك ، وقبلوا أمره فيك ، وبنوا العباس قوم منصورون تعتل دولتهم مرة ، وتصح مرارا ، وتمرض تارة ، وتستقل أطوارا ؛ لأن أصلها ثابت، وبنيانها راسخ » فعدل معز الدولة عن تعويله[4] .

وكان أهل بغداد سنيين يحترمون الشيخين ، فلما جاء البويهيون شجعوا التشيع ورسموا للناس طقوساً ، ينوحون ويلطمون وجوههم يوم عاشوراء[5] ويبتهجون بإظهار الزينة وإشعال النيران بعيد الغدير غدير « خم »[6]

ومهما يكن من أمر فإن التشيع وثيق الصلة بالاعتزال : فالمعتصم كأخيه المأمون معتزلى يكرم الشيعة ، وجعفر المتوكل شديد الانحراف عن الشيعة والمعتزلة ، حتى أمر

---

(١) النجوم الزاهرة ٤/١٨٥ (٢) سوق الفاكهة

(٣) ابن الفقيه ص ٢٦٦ ط: ليون (٤) حاشية ابن الأثير ٦/٣١٥

(٥) المنتظم ٧/١٥

(٦) الكامل لابن الأثير ٧/١٧ البداية والنهاية لابن كثير ٣٤٦

بهدم قبر الحسين [١] وعضد الدولة وهو من الأمراء المتشيعين يعمل على مذهب المعتزلة [٢] ولابد أن تكون قلة إعتداد المعتزلة بالاخبار المأثورة مما لاءم أغراض الشيعة [٣] ، والطريقة التى سار عليها ابن بابويه القمى أكبر علماء الشيعة فى القرن الرابع الهجرى فى كتابه المسمى كتاب العلل تذكرنا بطريقة علماء المعتزله الذين كانوا يبحثون عن علل كل شيء [٤] ، وكان فى مذهب الشيعة كما كان فى مذهب المعتزلة مكان لكل ألوان الزندقة : يحكى أن الوزير المهلبى ظفر بقوم يزعمون أن روح على بن أبى طالب وروح فاطمة قد انتقلت إليهم فحبسهم ، ولكنهم التجئوا إلى أهل البيت . فأمر معز الدولة بإطلاقهم . فلم يكن من الوزير إلا أن يذعن لمشيئته خوفاً من أن يتهم بالميل عن التشيع [٥] . وظهر التشيع فى شعر ابن عباد [٦] ، كما ظهر الاعتزال فى رسائله [٧] . وكان عباد أبو الصاحب يدين بالاعتزال فقد ألف كتاباً فى أحكام القرآن نصر فيه الاعتزال وجود فيه [٨] ، ومن هنا كان أبو على الفارسى يتشيع ، وكان يتهم بالاعتزال على ما سأعرض له فى مكانه بالتفصيل

* * *

الحال الاقتصادية

ولم يكن هناك توازن فى الحال الاقتصادية : أموال تتدفق على خزائن الملوك والوزراء والرؤساء ، وفقر مدقع يعانيه الشعب ، وشاع بين الناس مصادرتهم ، لذلك أخفى الأغنياء أموالهم فى غير نطاقها ، كالدفن فى الأرض ، والإخفاء فى الشقوق ، حتى حكوا أنه من حسن حظ أمير من آل بويه أن احتاج إلى مال كثير يصرفه على الجند ، وإلا شغبوا ، فصادف أن رأى ثعباناً يختبىء فى السقف ، فأمر بالبحث عنه ، فوجدت غرفة فوق السقف ، وفوقها دور آخر علوى ، ووجدت هذه الغرفة مملوءة بالذهب المخزون فى الخفاء ففرج ذلك كربه ، وأزال شدته .

وعين أبو حسين الرقى قاضياً على حلب فكان يصادر التركات ويقول : « التركة لسيف الدولة ، وليس لأبى الحسين إلا أخذ الجعالة وشاع بين الناس : « من هلك فلسيف الدولة مالك [٩] .

* * *

(١) الفخرى ٣٠٩ (٢) أحسن التقاسيم ٢٣٨
(٣) الحضارة الإسلامية ١/١٠٢
(٤) الحضارة الإسلامية ١٠/١٠١ (٥) ابن الأثير ٦/٣٣٩
(٦) يتيمة الدهر ج ٣/١٠١
(٧) رسائل الصاحب ١٣٧ ، ١٣٩ ، ١٤٣ مثلا
(٨) معجم الأدباء ٦/١٢٧ (٩) ظهر الإسلام ج ٢/٧ وما بعدها

الحياة الخلقية

فإذا انتقلت إلى الحديث عن الحياة الخلقية ، وجدنا من النصوص ما يكشف لنا عن صورتها فى ذلك العصر . فيتحدث المؤرخون عن إهمال عضد الدولة (ت ٣٧٢ هـ) للشريعة، ويستشهدون على ذلك بأنه فرض على الراقصات والقحاب بفارس ضريبة ، وكان يضمن هذه الضريبة [١] كما نجد تعشق الذكران شائعاً فى ذلك العصر: فيحكى أن سيف الدولة كان له غلام يسمى باسم مؤنث وهو « نمل » ، وكان عزيزاً عليه [٢] وكان الصاحب بن عباد يتعشق غلاما ألثغ السين

وهذا « معز الدولة » يهيم حباً بمملوك تركى فى غاية الجمال ، فيجعله مقدم الجيش لمحاربة بنى حمدان ، وكان الوزير المهلبى يستحسنه ويرى « أنه من أهل الهوى لا مدد الوغى » ، فقال فيه :

طفل يرق الماء فى وجناته ، ويرف عوده
ويكاد من شبه العذا رى فيه أن تبدو نهوده
ناطوا بمعقد خصره سيفاً ، ومنطقة تؤوده [٣]

وهكذا يخلط معز الدولة الجهاد بالمجون ، والجد بالاستهتار والفتون ، فلا يتحرج أن يجعل مقدم الجيش غلاما أشبه بالعذارى ، قد تحير فى أديم خديه ماء الهوى ، ورف عوده وكادت تبدو نهوده !!

جعلوه قائد عسكر ضاع الرعيل ومن يقوده

وقد كان للشيخ أبى على الفارسى مثل ذلك ، محمد بن طويس القصرى ـ أحد تلاميذه وكان حدثا ، وكان الشيخ يتعشقه ، ويخصه بالطرف ، ويحرص على الإملاء عليه والالتفات إليه ، وبه سمى مسائله ـ على رأى ـ القصريات !! [٤] .

ولم ينج من الانغماس فى هذه الحمأة أهل التوقر والتحرج ؛ فجرف التيار المتصوفة من أمثال ابن فهم الصوفى [٥] ، وأبى الوزير [٦] ، والقضاة كالجراحى أبى الحسن الذى يغمز بالحاجب إذا رأى مرطا ، وأمل أن يقبل خداً وقرطا [٧] . والمتطببين والفلاسفة : كابن غسان البصرى الذى أحرق العشق كبده على غلام بباب الطاق [٨] ، والمنطقى أبى سليمان المفتون بصبى موصلى ملأ الدنيا عيارة وخسارة [٩]

(١) الحضارة الاسلامية ٢/١٤١
(٢) تاريخ تجارب الأمم لابن مسكويه ٦/٨٣١
(٣) وفيات الأعيان جـ ١/٣٩٤
(٤) معجم الأدباء ١٨/٢٠٦
(٥) الإمتاع ٢/١٦٦
(٦) نفس المرجع ٢/١٦٧
(٧) الإمتاع ٢/١٦٨
(٨) الإمتاع ٢/١٦٦
(٩) الإمتاع ٢/١٧٤

حتى القراء كالكنانى المتيم بصبابة المغنية [١] ولعل ظهور هذا الانحراف عند هؤلاء وهؤلاء كان من قبيل المجاراة ولم يكن عن رغبة نابعة فى نفوسهم إلى الشهوة .

وفى بغداد فى القرن الرابع الهجرى ؛ كان درب السلق [٢] ودار القطن [٣] وباب الطاق [٤] ، وبين السورين ، ودرب الزعفرانى [٥] محلات للغناء والخلاعة والرقص . وهذا أبو حيان يلقى ضوءاً على هذه الحياة فيقول : بعد أن عدّد كثيراً من الاطراب والأغانى : « ولو ذكرت هذه الاطراب من المستمعين ، والأغانى من الرجال والصبيان والجوارى والحرائر لطال وأمل ، وزاحمت كل من صنف كتاباً فى الأغانى والألحان ، وعهدى بهذا الحديث سنة ستين وثلاثمائة . وقد أحصينا ونحن جماعة فى الكرخ ـ أربعمائة وستين جارية ، ومائة وعشرين حرة ، وخمسة وتسعين من الصبيان البدور ، يجمعون بين الحذق والحسن و لظرف والعشرة ، هذا سوى من كنا لا نظفر به ، ولا نصل إليه لعزته وحرصه ورقبائه ، وسوى ماكنا نسمعه ممن لا يتظاهر بالغناء ، وبالضرب إلا إذا نشط فى وقت ، أو ثمل فى حال ، وخلع العذار فى هوى قد حالفه وأضناه ، وترنم وأوقع ، وهز رأسه ، وصعد أنفاسه ، وأطرب جلاسه ، واستكتمهم حاله ، وكشف عندهم حجابه [٦] . . .

وهذا المقدسى ـ وقد زار العراق وجنوب فارس فى العهد البويهى ـ يحدثنا عن الفساد الشائع فى أهل شيراز القريبة من مولد أبى على [٧] وللصاحب بن عباد على جلال قدره شعر فى الذكران [٨] مما يدل على شيوع هذه الغلاميات فى غير تحرز أو حياء عند ذوى المكانة من الأمراء والوزراء فكيف بالسوقة وطغام الناس والسفهاء ؟ !

على أن لكل موجة من الهوى والمجون فى كل عصر ما يقابلها من الهدى والصلاح ، وقد ظهر فى ذلك العصر زهاد ونساك وصوفية ووعاظ ومتعبدة ، بل حنابلة متشددة ، يحدثنا أبو الفداء فى تاريخه عن حوادث سنة ٣٢٣هـ أن قد عظم أمر الحنابلة على الناس ، وصاروا يكبسون دور القواد والعامة ، فإن وجدوا نبيذاً

---

(١) الإمتاع ١٨٢/٢
(٢) الإمتاع ١٦٥/٢ — (٣) الإمتاع ١٦٧/٢
(٤) الإمتاع ١٦٩/٢ — (٥) ١٧١/٢
(٦) الإمتاع ١٣٨/٢ — (٧) انظر أحسن التقاسيم ٤٢٩
(٨) انظر يتيمة الدهر ١٢/٣ وما بعدها

أراقوه ، وإن وجدوا مغنية ضربوها وكسروا آلة الغناء ، واعترضوا فى البيع والشراء ، وفى مشى الرجال مع الصبيان [1] .

وممن اشتهروا بالخير والتقوى أبو مغيث الحسين بن منصور الحلاج الزاهد المشهور [2] ، وأبو الحسن النساج الصوفى (ت ٣٢٢ هـ) [3] ، وأبو بكر دلف ابن جحدر - وقيل جعفر - بن يونس المعروف بالشبلى الصالح المشهور (ت ٣٣٤) [4] وأبو طالب محمد بن على الحارثى المكى صاحب كتاب قوت القلوب (ت ٣٨٦ هـ) [5] وأبو الحسين محمد بن أحمد الواعظ المعروف بابن سمحون (ت ٣٨٧ هـ) [6] وقد ذكره الحريرى فى المقامة الرازية [7] .

وإلى جانب هؤلاء ما كان عند عامة الناس من تشدد فى الدين وتعصب له على الخارجين وهذا ابن شنبوذ المقرىء يحضره ابن مقلة الكاتب المشهور ويحاسبه على قراءات شاذة اشتهرت عنه ، ويحبسه فيكلم أبو أيوب السلطان الوزير فى أمره ويسأله فى إطلاقه ، وعرفه ان صار إلى منزله قتلته العامة ، وسأله أن ينفذه فى الليل سراً إلى المدائن ليقيم بها أياما ثم يدخل إلى منزله ببغداد مستخفيا ، ولا يظهر بها أياما ..

وفى ذلك مايدل على النزعات الدينية فى نفوس العامة من أهل هذا الزمان [8] ، والتمسك الشديد بما للإسلام من تعاليم . إلى أن عضد الدولة - صاحب أبى على - الذى حكيت شيئاً عنه فى إهماله الشريعة ، شوهد فى كثير من تذاكيره وما كان يوقعه فى تقاويمه : نذرنا للأمر الفلانى كيت وكيت ، وكذا وكذا ألف درهم للصدقة [9]

فى هذا الجو السياسى الملىء بالمكايد والتنافس ، وفى هذه البيئة العلمية الناضجة بالتأليف والتشجيع ، وفى هذه الحياة الاجتماعية التى اختلطت فيها الأوزار والأقذار والمفاسد والمقابح بالهدى والزهد والتقى والصلاح - عاش أبو على وسنرى فى الفصل الثانى مقدار ما تفاعل الشيخ هو والبيئة التى عاش فيها - مؤثراً ومتأثرا .

---

(١) تاريخ أبى الفداء ١/٨٧ — (٢) وفيات الأعيان ١/٤٠٥
(٣) وفيات الأعيان ٢/٢٣ — (٤) المصدر السابق ٢/٣٩
(٥) وفيات الأعيان ٣/٣٤٠ — (٦) وفيات الاعيان ٣/٣٤١
(٧) انظر مقامات الحريرى المقامة الحادية والعشرون
(٨) وفيات الأعيان ٣/٤٢٨ — (٩) ذيل تجارب الامم ٣/٦٦

الفصل الثانى

أبو على فى عيشه ونفسه

هذا بحث عسير ، والسبيل إليه أشد مشقة وعسرا : إذ كيف يجلى الباحث شخصية مثل شخصية أبى على الفارسى العالم اللغوى النحوى ؟ لو كان أبو على أديباً - كاتباً أو شاعرا - لاستطعت التعرف عليه من خطرات نفسه ، وهواجس حسه ، فإن آثار الأديب صورة لما اعتمل فى نفسه من خواطر وأحاسيس ، وأمر آخر يجعل هذه الدراسة شاقة عسيره : ذلك أن أبا على لم يحظ من المترجمين الأولين - كابن النديم فى الفهرست ، والزبيدى فى الطبقات - إلا بأسطر لاتنقع غلة الباحث ، ولا تروى منه ظمأ ، فلم يزد الزبيدى على ذكر طرف من اتصالاته ببعض أمراء الدويلات فى عصره فى سطر ونصف [1] ، وأورد ابن النديم ترجمة فى نحو ثلاثة أسطر ذكر فيها بعض تآليفه ثم أخطأ فى تاريخ وفاته [2] ، هـذا غاية ماكتبه المعاصرون لأبى على عنه ، وهو من القلة والتشويه كما ترون . أما ماكتبه المتأخرون فهو أشتات من أنباء مقتضبة ، ثم هى مطلقة مرسلة يعوزها التحقيق وتحتاج إلى دليل فما عساى - بعد هذا - أن أصنع فى تجلية عيش أبى على ونفسه ؟ وكيف يستقيم لى أن أتحدث عن بيئة أبى على المكانية وصفاته العقلية والخلقية . . . الخ والدراسة الحديثة تحتم على التحليل الدقيق حتى لو استطعت إحصاء أنفاسه فعلت ؟ ومن هنا جاءت المشقة والعسرة ، وهما أمر طبعى ، فطريق الباحثين لم تفرش بالورود ، هى وعرة وشائكة ، وإذن لا بد من المطاولة والمصابرة والمعاناة فى استفتاء النصوص ، واستكناه الأحداث ، واستشفاف ماتوحى به الآثار ، والمقابلة بين مختلف الأخبار حتى أمثل أبا على بشراً سويا ، وأطوع ما كان منه عصيا ، وذلك ما أنا فى سبيلى إليه . . .

---

(١) انظر طبقات الزبيدى ١٣٠

(٢) انظر الفهرست ٩٥

نسب أبي علي وأسرته

لعل أول من أذاع نسب أبي علي الفارسي تلميذه أبو الحسن علي بن عيسى الربعي فقد قال في صدر شرحه الإيضاح أنه أبو علي الحسن بن أحمد بن عبد الغفار بن محمد ابن سليمان بن أبان الفارسي [١] ، وتعتمد كتب التراجم على الربعي في ذلك على اختلاف يسير بينها زيادة ونقصاً في سلسلة هذه النسبة .

فالخطيب في تاريخ بغداد لا يذكر أبا [٢] ، وتابعه في ذلك القفطي في أنباء الرواة [٣] ، والسيوطي في بغية الوعاة [٤] ، وابن النديم في الفهرست [٥] لا يذكر اسمه ، ويقتصر على لقبه وكنيته وأبيه وجده عبد الغفار ، وابن تغرى بردى يقف عند جده الأول : عبد الغفار ولا يزيد شيئا [٦] وكذلك فعل الأنبارى [٧] وكذلك يفعل ابن الأثير في الكامل [٨] ويتابعه أبو الفداء في تاريخه [٩] .

ويذكر اليمني في إشارة التعيين « عبد الغفار بن سليم بن أبان [١٠] » وتضطرب هذه السلسلة في عقد الجمان [١١] ، كما تضطرب في الشذرات [١٢] ، إذ يقول صاحب العقد : هو الحسن بن علي أحمد بن عبد الغفار بن محمد بن سليمان بن أبان الفارسي . فقد جعل أباه علي أحمد بن عبد الغفار ، وأظن أن عليا مقحم من النساخ .

ويقول ابن العماد في الشذرات : الحسن بن محمد بن عبد الغفار النحوى ، وابن الحاج خليفة في كشف الظنون تقف عند أبيه ولا يزيد ، فهو « أبو علي » « حسن » بدون ال - ابن أحمد الفارسي النحوى [١٣] ، والحسن « بال » بن أحمد الفارسي النحوى [١٤] ، وكذلك فعل ابن حجر في لسان الميزان [١٥] ، والعمرى في مسالك الأبصار [١٦] - يقف كل منهما عند كنيته ولقبه إذ يقول : « هو أبو علي الفارسي الفسوى النحوى » . ويأتي صاحب روضات الجنات بالسلسلة كاملة كما أوردها الربعي في الإيضاح ، ولكنه يعرى « الحسن » من ال [١٧] . وفي تقديم

---

(١) وفيات ١/٣٦١ ، معجم الادباء ٧/٢٣٢ (٢) ٧/٢٧٥
(٣) ١/٢٧٣ (٤) ٢١٦ (٥) ١٥ (٦) ٤/١٥١ (٧) ٢٠٩
(٨) ٩/١٩ (٩) ٩/٣١ (١٠) ورقة ١٣ (١١) القسم الثالث /٤٠٠
(١٢) ٣/٨٨ (١٣) كشف الظنون ١/١٣١ (١٤) ١/٣٨٤
(١٥) ٢/١٩٥ (١٦) المجلد الثاني ٤/٢٦٨
(١٧) ٢١٩ قال ثعلب : كل ما كان مثل العباس وعباس ، وحسن والحسن ، فإدخال الالف واللام وإخراجهما عند الكسائي والفراء إذا سميا واحد ، وقال الخليل : إذا أسقطهما فلا يكون الاسم الاول فلا يسقطهما إلا وقد حول المعنى أنظر البصريات ٦٣

الإغفال ورد مرة: قال أبو علي الحسن بن عبد الغفار الفارسي، وأخرى : قال أبو علي أحمد بن عبد الغفار الفسوي النحوي [١] .

ولعل من اختصر في هذه النسبة قصد إلى الاقتصار المعجزي ، الذي يعرف من غير إخلال ، ومن أطال قصد إلى الجمع الكاشف في إيماء واستيعاب .

أما أولئك الذين اضطربوا في هـذه النسبة ، فلا اعتذار لهم من اضطرابهم إلا أن يكون ذلك أو بعض منه من عمل الناسخين [٢] .

ولم يحتفظ الفرس بأنسابهم كما احتفظ العرب بها ، ومن هنا كانت آخر حلقة من حلقات هذه السلسلة ـ عند من أطال ـ أبان ، وأبان كما أعلم ، عربي مصروف على الصحيح [٣] ، حتى كان من أمثالهم المأثورة : « من لم يصرف أبانا فهو أتان » وإذا اعتبرت أن أبانا أول من أسلم من أجداد أبي علي ، فإني أقدر أنهم دخلوا في الإسلام ، وتسموا بأسماء المسلمين حوالى منتصف القرن الثاني الهجري ، باعتبار أن كل جيل يمثل من الأعوام أربعين [٤] .

وأبو علي فارسي الأب ، ولا أعتمد في ذلك على ما يلقب به من أنه فسوي ، فارسي، نعم قد تكون هذه النسبة دالة على فارسيته ، ولكنها لا تدل في كل الحالات . فأبو إسحق الشيرازي ، والفيروزابادي من أبناء أبي بكر الصديق (رضي الله عنه) ، والترمذي صاحب الشمائل [٥] ، والترمذي صاحب السنن [٦] كل هؤلاء من العرب ، والحاكم أبو عبيد الله النيسابوري من بني ضبة [٧] ، والأصبهاني أبو الفرج صاحب الأغاني ـ أموي ، وهـذا الحسن بن الخطير بن أبي الحسن النعماني يلقب بالفارسي مع أنه عربي من نسل النعمان بن المنذر ، وإنما قيل له الفارسي لأنه تفقه بشيراز على مذاهب أبي حنيفة [٨] وقد أخطأ مفهرسو المزهر فأطلقوا اسم هـذا الفارسي النعماني على أبي علي الفارسي [٩] .

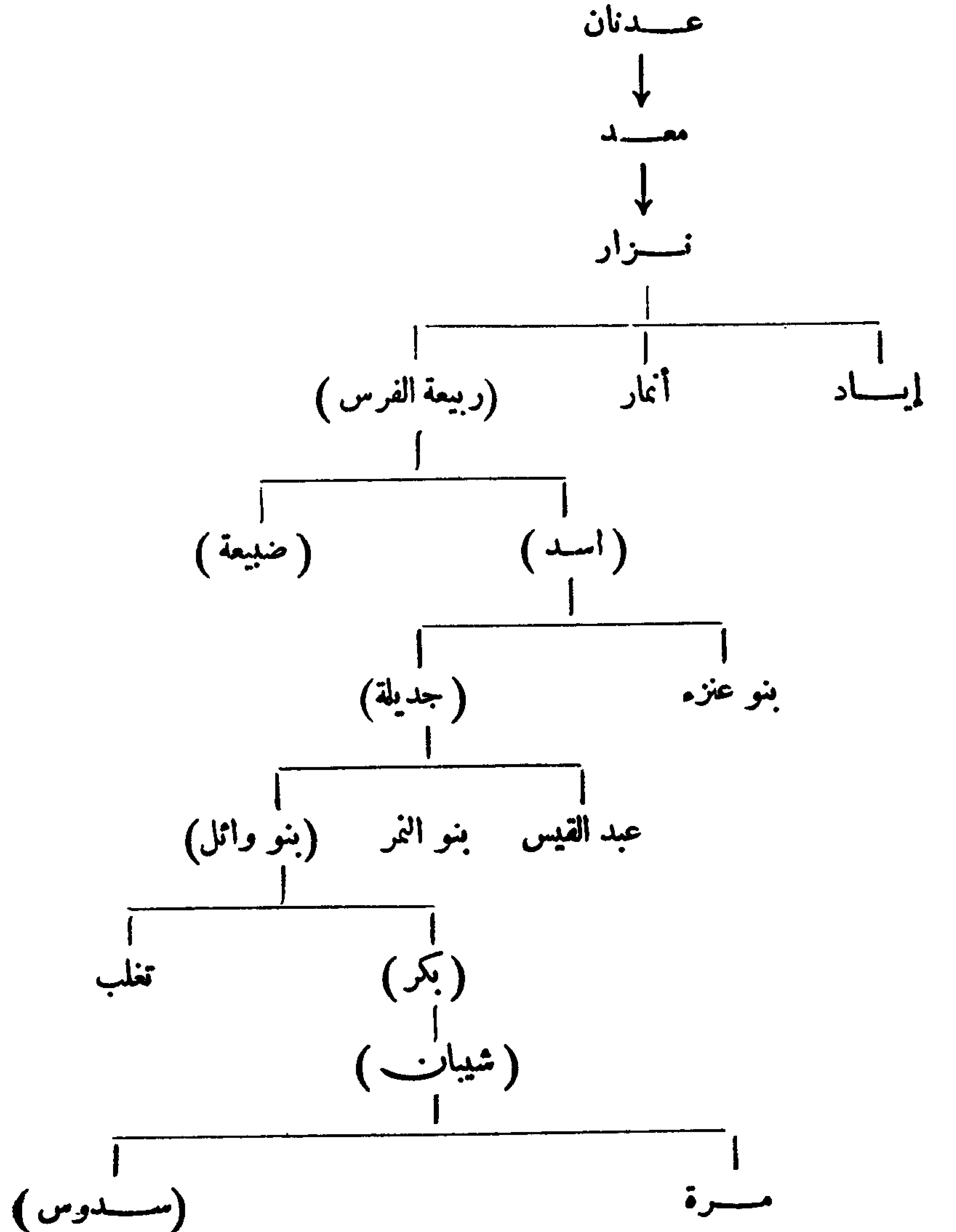
إنما اعتمدت في تقرير فارسية أبي علي على ما تواترت به الأخبار ، وما يذكره المؤرخون ، وما يمكن أن يدل عليه علمه بالفارسية ، وتحدثه بهـا ، وربطه بينها وبين العربية كما سأعرض له فيما بعد إن شاء الله .

---

(١) الاغفال ص ٢ (٢) الاغفال ص ١ (٣) القاموس مادة ابن
(٤) انظر الاسس المبتـكرة ٦٧ (٥) وفيات الاعيان الترجمة رقم ٥٤٤
(٦) وفيات الاعيان الترجمة رقم ٥٨٥ (٧) مجلة الرسالة ، المجلد الثاني ٢١٣
(٨) طبقات المفسرين ورقة ٥٧ مخطوطه بدار الـكتب تاريخ رقم ١٦٨ وانظر بغية الوعاة ٢١٩ (٩) انظر المزهر ٢/٤٨٧ ، ٦٠٦ تحقيق المرحوم جاد المولى وزميليه

أما أمه فهى سدوسية من سدوس (بفتح السين) شيبان [١] وشيبان من بكر، وبكر من بنى وائل ، ووائل من جديله ، وهذه من أسد ، وأسد من ربيعة الفرس ، وربيعة الفرس من نزار بن معد بن عدنان [٢]

ويمكن وضع سلسلة النسب كالآتى [٣] :



(١) معجم الأدباء ٧/٢٣٣

(٢) انظر نسب عدنان وقحطان للمبرد ١٩ وما حواليها ، وجهرة أنساب العرب ٢٧٥ـ٣٠٨ ، والأنباه على قبائل الرواه ٩٦

(٣) باقتباس من صبح الأعشى ١/٣٣٧ وما بعدها .

وينص النسابون على سدوس شيبان احترازاً من سدوس (بضم السين هنا) ابن أسمع من بني سعد بن نبهان بن عمرو بن الغوث بن طيء [١] .

قالوا : « وسمى ربيعة الفرس ، لأنه أعطى الخيل من ميراث أبيه [٢] أو لأن أباه نزاراً أوصى له من ماله بالخيل [٣] ، وقال ابن عبد البر القرطبي النمرى (ت ٤٦٣ هـ) فى الأنباه على قبائل الرواة : ويقال لربيعة ربيعة الفرس وذلك فيما زعموه أنه لما مات نزار معد بن عدنان تقسم بنوه ميراثه واستهموا عليه ، وكان لنزار فرس مشهور فضله فى العرب ، فأصاب الفرس ربيعة فلذلك سميت ربيعة الفرس ، وكان لنزار ناقة حمراء مشهورة الفضل فى العرب ، فأصاب الناقة مضر ، فلذلك سميت مضر الحمراء [٤] .

وقد ذكر الأستاذ المرحوم أحمد أمين أن أم أبي على فارسية [٥] ويبدو أن الأمر قد التبس عليه ، فقرئت الفرس بفتح الفاء والراء ، الفرس بضم الفاء وسكون الراء [٦] .

ويظهر من نسبة أبي على الفارسى هذه المصاهرة التى كانت بين الفرس والعرب والتى شاعت فى العصر العباسى من الخلفاء إلى عامة الشعب ، ولم يعد العرب يتحرجون منها مزوجين أو متزوجين [٧] ، كما كانوا كذلك فى العصر الجاهلى حيث كانت الدولة عربية خالصة .

وقد انتقلت ربيعة الفرس إلى الرحبة كما جاء فى مسالك الأبصار ونقله القلقشندى فى صبح الأعشى [٨] ، والرحبة مدينة على الفرات بين الرقة وغانة [٩] ، فيظهران انتقال الربعيين إلى الجزيرة الفراتية يسر اتصال الفرس بهم بحكم المجاورة التى أدت إلى الامتزاج والمصاهرة .

---

(١) صبح الأعشى ٣٢/١
(٢) قاموس مادة حمر
(٣) صبح الأعشى ٣٣٧/١
(٤) الأنباء على قبائل الرواه ٩٦
(٥) ظهر الإسلام ٩١/٢
(٦) وكان الحريرى صاحب المقامات يزعم أنه من ربيعه الفرس انظر (وفيات الأعيان ٢٩/٣)
(٧) رفض النعمان أن يزوج كسرى ابنته حرقة (الطبرى ١٥٠/٢)
(٨) ٣٣٧/١ (٩) تقويم البلدان /٢٨١

كنيته

وهى أبو على ، وتلك الكنية غالبة فيمن اسمه « الحسن » [١] أو الحسين [٢] :

ومن غير الغالب تكنية من اسمه الحسن أوالحسين بغيرأبى على ، فأبو سعيد[٣]، وأبو أحمد [٤] ، وأبو محمد [٥] ، وأبو بكر [٦] ، وأبو عبد الله [٧] . كل هذه كنى للحسن أو الحسين .

ومن النادر الكنية بأبى على فى غير الحسن والحسين ، كاسماعيل بن القاسم البغدادى [٨] ، وقطرب [٩] ، ومعاذ الهراء [١٠] ، واحمد بن محمد القاسم [١١] ، واحمد بن ابراهيم بن أيوب[١٢] ، ومعقل بن يسار ، والسائب بن يزيد[١٣]، وشيوع أبى الحسن كنية لمن اسمه على تكاد تطرد وتستمر .

ويبدو لى أن الكنية بأبى على شاعت عندما استعلن أمر الشيعة ، وكان لدعوتهم ذيوع ، ولمذهبهم أنصار ، كما شاعت التسمية ، بالحسن والحسين من أجل ذلك ، وقد بينت من قبل مقدار ذيوع التشيع فى ذلك العصر الذى عاش فيه أبو على الحسن . ويلقى ضوءاً على ذلك ويؤيده ما جاء فى الهوامل والشوامل لأبى حيان وابن مسكويه . وكلاهما معاصر للفارسى — من أن رجلا كان يكنى أبا حفص فاكتنى أبا جعفر ، وكان سببه فى ذلك أنه قصد رجلا يتشيع فكره أن يعرفه بأبى حفص [١٤] .

وقد بين أبو على الفارسى اشتقاق التسمية ، بعلى ، وذلك إذ يقول : فأما تسميتهم

---

(١) انظر وفيات الأعيان من ١/٣٠٦-١/٣٩٥
(٢) انظر وفيات الأعيان ١/٤٠٠-١/٤٣٤
(٣) وفيات ١/٣٥٩-٣٦١
(٤) ١/٣٦٤
(٥) ١/٣٧٠-٣٩٠
(٦) ١/٣٨٠
(٧) ١/٤٠٣-٤٣٦
(٨) الزهر ٢/٤٣٠
(٩) نزهة الألباء /٦٢
(١٠) نزهة الألباء /٣٤
(١١) صفوة الصفوة ٢/٢٠٦
(١٢) صفوة الصفوة ٢/٤١
(١٣) انظر الكنى والأسماء للدولابى ١/٨٤
(١٤) الشوامل ٢٧٣

بعلى فيجوز أن يكون فعيلا من علا على الأمر إذا غلبه واضطلع عليه ، ويجوز أن يكون فعيلا من قوله :

« وكانا امرأين كل شأنهما يعلو »

ويجوز أن يكون فعيلا من عَلِيَ فى المكارم يَعْلَى فهو عَلِيٌّ مثل عِلِمَ يعلمَ فهو عليم[١] .

وأبو على ينسب إلى فسا ، وهى المدينة التى ولد بها فيقال الفسوى[٢] ، وقد ذكر البستانى خطأ أنه ولد بمدينة نسا بالنون[٣] ، كما وردت هذه النسبة فى إشارة التعيين لأبى المحاسن الميمنى[٤] ، وذلك إذ يقول « . . . الفارس النسوى » .

صحيح أن هناك مدينة تسمى نسا بخراسان ، وإليها ينسب الأمام احمد النسائى صاحب كتاب السنن ، ونسا أيضاً مدينة بفاس[٥] ، ومدينة بكرمان[٦] ، ولم ينسب أحد من مؤلفى الانساب أبا على إلى نسا ، وقد ذكر السمعانى صاحب كتاب الأنساب فى باب النون والسين المهملة ، وابن الأثير فى اللباب[٧] من نسب إلى نسا ، ولم يكن أبو على الفارسى بينهم .

وربما التبس على الميمنى وتابعه البستانى فى ذلك ، وقد يكون هذا عند الميمنى من خلط النساخ بقرب صورة الفاء فى فسا من النون فى نسا ، ويعيّن الفاء أن العرب ينسبون إلى نسا فيقولون نسوى ولم يقولوا نسائى ، وجاء فى معجم البلدان ، نسا كلمة عجمية ، وعندهم بسا ، وكذا يتلفظون بها . . ولم يقولوا فى النسبة إلى فسا : فسائى . . . وإليها ينسب أبو على الفارسى الفسوى[٨] ، والفسوى نسبة إلى فسا[٩] ، ونقل ذلك صاحب تقويم البلدان[١٠] ، وجاء فـي وفيات الأعيان و بَسا بالفارسية ، وتسمى فسا[١١] ، وقد أوردها بالباء ابن شهبة الأسدى فقال : ولد ببسا[١٢] والنسبة إلى بسا عند أهل فارس بساسيرى ، وبالعربى فسوى ، ومنها الشيخ أبو على الفارسى[١٣] النحوى .

---

(١) المسائل الشيرازيات ورقة ٣٣ (٢) طبقات الزبيدى ١٣٠
(٣) انظر دائرة المعارف للبستاني (٤) ورقة ١٢ (٥) أحسن التقاسيم ص /٤٣٢
(٦) تقويم البلدان ٤٥٠ ، ٤٥١ (٧) ٢٣٣/٣ وما بعدها .
(٨) معجم البلدان ٣٧٦/٦ (٩) الانساب للسمعاني مادة فسا واللباب ٢١٥/٢
(١٠) ٣٣١ (١١) وفيات الأعيان ١٧٢/١
(١٢) طبقات ابن شهبة /٢٩٥ (١٣) وفيات الأعيان ١٧٢/١

وقد بارك الله فى هذه المدينة ، فأخرج منها جماعة من أعيان العلماء ، فإلى جانب أبى على — أبو يوسف يعقوب بن سفيان بن حوان الفسوى الفارسى الكبير الإمام المشهور ، رحل من الشرق إلى الغرب ، وسمع وأبصر وصنف مع الورع والنسك ، وأبو يوسف يعقوب بن سفيان بن زياد الفسوى الصغير [١] ، وأبو محمد عبد الله ابن جعفر بن درستويه ، بن المرزبان الفارسى الفسوى النحوى . . . ومحمد بن أحمد ابن يونس الفسوى أبو عبد الله [٢] .

هذا ومن تمام الحديث فى لقب أبى على أن أذكر أن تلقيبه بالفسوى كان يكثر عند القدامى والمعاصرين ، فقد ذكره أبو حيان فى كتابه الإمتاع بأبى على الفسوى [٣] ، وذكره الزبيدى بالطبقات [٤] بذلك أيضاً ، كما ذكره معاصره محمد بن أبى الفوارس [٥] .

أما المتأخرون من اللغويين ، والنحاة ، والفقهاء ، والمفسرين — فإما أن يدلوا عليه بأبى على ، أو بالفارسى [٦] ، أو بهما معاً [٧] ، ولا يكادون يلوون ألسنتهم بالفسوى [٨] . وهذا ابن سيده فى كتابه المخصص يقول : قال أبو على الفارسى وإذا ذكرت أبا على فإياه نعنى — . . . [٩] .

وكان ابن جنى يذكره كثيراً فى الخصائص بقوله : « قال شيخنا أبو على . . . » أو بكنيته مجردة ، ولا يستطيع الباحث أن يضبط ما أثر عن عضد الدولة فيما جرى على لسانه من نسبة لأبى على فى قوله : « أنا غلام أبى على . . . » ، فالنصوص متضاربة : فمنها مافيه الفارسى فقط [١٠] ، ومنها مافيه الفسوى [١١] ، ومنها الغفل من قيد النسبة إلى هذه أو تلك [١٢] . وأميل إلى صيغة : « أنا غلام أبى على النحوى فى النحو » من بين هذه التفسيرات كما رواها ياقوت [١٣] ؛ لأنه بهذا القيد : النحوى ، يتميز أبو على دون سواه ، ثم هو تعيين لأبى على ، بما هو مذكور به ومشهور عنه : النحو .

---

(١) اللباب ٢١٥ — ٢١٦ (٢) بغية الوعاة ٢٠ (٣) ١/١٢٩
(٤) ١٣٠ (٥) تاريخ بغداد ٧/٢٦٧
(٦) رسالة الغفران ١٥٢ والمخصص ١/٩٦ (٧) الدر على هامش البحر المحيط ٧/٤٠
(٨) انظر النيسابورى على هامش الطبرى ٤/١٧٦ ، ١٢/٥٢ وفوائد العز بن عبد السلام عند تفسير محيط من قوله تعالى : والله من ورائهم محيط . (٩) المخصص ١/١٧
(١٠) نزهة الألباء ٢٠٩ (١١) عقد الجمان القسم الثالث ٤٠٠
(١٢) النجوم الزاهرة ٤/١٥١ (١٣) انظر معجم الأدباء ٢/٢٣٤

ويؤيد ذلك ما كتبه أحمد بن سابور في المسائل الشيرازيات إذ قال : « الجزء الأول من المسائل الشيرازيات ، تأليف الشيخ أبي على الحسن بن احمد بن عبد الغفار النحوى (أدام الله عزه) ، نقلتها من أصله بخطه ، وقرأتها عليه . . » [١] .

وكان أبو على لا ينسب نفسه إلى فسا ، ولكنه ينسبها إلى فارس ، فقد كتب فى توثيق الشيرازيات لأحمد بن سابور المذكور فى ظهر كل جزء من أجزائها مانصه : قرأ على أبو غالب أحمد بن سابور هذا الكتاب ، وكتب الحسن بن أحمد الفارسى بخطه » ، وقد تكرر نص هذا التوثيق ثلاث عشرة مرة ، فى أول كل جزء من أجزاء الشيرازيات ، كذلك نسب أبو على نفسه إلى فارس ، فى مكاتبة بينه وبين الصاحب[٢] ، ويظهران مافى لفظ الفسوى من إيحاء منفر ، لا تقبل النفس عليه ، جعل أبا على وتلاميذه لا يستريحون إليه .

هذا وقد يطلق الفارسى أيضاً على أبى الخصيب الفارسى النحوى[٣] ، وعلى الشيخ أبي اسحق ابراهيم بن على الفارسى اللغوى النحوى ، الذى هو من تلامذة أبى على ، وله شرح كتاب الجرمى ، ونقض ديوان المتنبى وغير ذلك[٤] ، كما يطلق الفسوى على أبى يزيد ، وثيمة بن موسى بن الفرات الوشاء[٥] (ت ٢٨٩ ه) .

كما أن هناك من يشترك فى الكنية والاسم واللقب مع أبى على ، وذلك أبو على الحسن بن محمد بن عثمان الفارسى[٦] .

ولكن المعروف عند المتأخرين من النحاة والفقهاء[٧] ، أنهم إذا قالوا : « الفارسى » أو أبو على » ، فإنهم يعنون الشيخ أبا على الفارسى ، الذى أتحدث عنه لشهرته عمن سواه ، وإن أرادوا غيره كان لابد من القرينة المميزة ، والاشارة الدالة . . كأن يقولوا مثلا : « أخذ محمد بن أبان القرطبى ، عن أبى على البغدادى وغيره »[٨] .

---

(١) انظرصدر المسائل الشيرازيات

(٢) انظر معجم الأدباء ٢/٢٤٠ (٣) بغية الوعاة ٢٠٩

(٤) روضات الجنات ٣٣٠ وبغية الوعاة ٤٨١

(٥) انظر وفيات الأعيان ٥/٦٤

(٦) انظر المحتسب لابن جنى ١٠

(٧) انظر فوائد العز بن عبد السلام مخطوطه بدار الكتب : ٧٧ م تفسير عند حديثه على إعراب غير المغضوب عليهم وقارنه بما أورد أبو على فى الحجة ١/٩٦ من مراد ملا وانظر كذلك هذه الفوائد عند الحديث عن اللغات فى سواء — وقارنه بما ورد فى الحجة متعلقا بهذه الكلمة ١/١٧٠ (٨) معجم الأدباء ١٧/١١٧

مولد أبى على

يضرب كثير من المؤرخين صفحاً عن السنة التى ولد فيها أبو على ، ويختلفون اختلافاً يسيراً فى وفاته ، ويذكرون أنه مات وقد جاوز تسعين سنة[١] . فلو فرضت أنه مات وسنه إحدى وتسعون سنة ، وهو أقل ما تحقق به مجاوزة التسعين من السنين (وقد وثقت فيما بعد سنة ٣٧٧ ﻫ تاريخاً للوفاة) ، فمعنى هذا أن أبا على ولد سنة ٢٨٦ ﻫ ، وهذا التاريخ لايتفق مع مايذكره ابن خلكان من أنه ولد سنة ٢٨٨ ﻫ[٢] ، والعينى فى عقد الجمان[٣] ، والكتبى فى عيون التواريخ[٤] . ولقد جاء فى شذرات الذهب أن أبا على توفى عن تسع وثمانين سنة[٥] ، ومعنى ذلك أن صاحب الشذرات متفق مع ابن خلكان فى أن ميلاد أبى على كان سنة ٢٨٨ﻫ ، كما يتفق أيضاً مع ابن قاضى شهبه الأسدى حيث يقول : « إن أبا على مات سنة ٣٧٧ﻫ عن تسع وثمانين سنة »[٧] .

وعلى كل فالأمر يسير ، فإلقاء سنتين أو إضافتهما إلى تاريخ الميلاد لا يترتب عليه أمر ذو بال ، وحسبى من أبى على وحسبه أن الله نسأ له فى أجله ، وبارك له فى عمره حتى عاش نحواً من تسعين .

---

(١) انظر معجم الأدباء ٧/٢٣٣ ولسان الميزان ٢/١٩٥ والنجوم الزاهرة ٤/١٥١ وتاريخ ابن الأثير ٩/١٩ وتاريخ أبي الفداء ٢/٣١

(٢) انظر وفيات الأعيان ١/٣٦٣ (٣) القسم الثالث ٤٠٠

(٤) انظر ص ٢٠ (٥) شذرات الذهب ٣/٨٨

(٦) طبقات ابن شهبة ٢١٥

البيئة المكانية لأبى على

تنقلاته :

ولد أبو على فى فسا (٢٨٨ هـ)[١] ، وإليها نسب[٢] . وقد نقل المؤيد عماد الدين اسماعيل فى كتابه تقويم البلدان عن ابن حوقل ، أن فسا أكبر مدينة فى كوره دارابجرد ، وتقارب فى الكبر شيراز ، وأكثر خشب أبنيتها السرو[٣] ، وقال الاصطخرى : « فسا مدينة مفترشة البناء ، واسعة الشوارع ، تقارب فى الكبر شيراز ، وهى أصح هواء وأوسع أبنية ، وبناؤهم من طين . . . »[٤] ، ولم يتعرض أحد من المؤرخين — فيما أعلم — إلى النشأة الأولى التى نشأ عليها أبو على الفارسى ، فحياته من مولده إلى أن انتقل إلى بغداد سنة (٣٠٧ هـ)[٥] مجهولة لا نعرف عنها شيئاً ، اللهم إلا ما يحدثنا به التاريخ عن أحوال فارس السياسية — وهو أمر عام — لا يتصل بالفارسى بخاصة ، ولكنه على كل حال يلقى ضوءاً على المؤثرات الأولى فى حياة الشيخ أبى على . ففى السنة التى انتهى فيها حكم المعتمد على الله أبى العباس أحمد بن المتوكل (٢٥٦ — ٢٨٨ هـ)[٦] ولد الفارسى ، وإلى أن انتقل أبو على إلى بغداد (٣٠٧ هـ) وفارس لا تستقر على حال من القلق ، ففى سنة ٢٨٨ هـ دخل طاهر بن عمرو بن الليث بلاد فارس فى عسكره ، وأخرجوا عنها عامل الخليفة ، وفيها ولى المعتضد مولاه بدرا فارس ، وأمره بالشخوص إليها لما بلغه أن طاهراً تغلب عليها فسار إليها فى جيش عظيم . . فلما قرب من فارس تنحى عنها من كان بها من أصحاب طاهر فدخلها بدر وجبى خراجها[٧] .

وفى سنة ٢٩٠ هـ يولّى طاهر بن محمد بن عمرو بن الليث على فارس[٨] ، ويتشاغل بالصيد واللهو ، ويمضى إلى سجستان للتنزه ، فيخرج عليه قائد من أصحابه يعرف بأبى قابوس ، ويوليه المكتفى فارس (٢٩٢ هـ)[٩] ، وتمر فترة قلقة يولى فيها الولاة على فارس ، وسرعان ما يعزلون ، وتكون وقعة بين طاهر بن محمد بن عمرو بن الليث

---

(١) معجم الأدباء لياقوت : ٢/٢٣٤
(٢) معجم البلدان (فسا) . (٣) تقويم البلدان : ٣٣١
(٤) معجم البلدان : ٦/٣٧٦ (٥) وفيات الأعيان : ١/٣٦
(٦) الفخرى : ٢٢٢٠ (٧) الكامل : ٧/٨١
(٨) الكامل لابن الأثير : ٧/١٨٨ (٩) الكامل : ٧/١٩٤

وبين « سبكرى » غلام عمرو بن الليث ، فيؤسر طاهر ، ويوجه هو وأخوه يعقوب إلى الخليفة المقتدر مع كاتبه عبد الرحمن بن جعفر الشيرازى إلى بغداد أسيرين ويحبسان ويولى سبكرى على فارس (٢٩٧ هـ) ويقرر الخليفة أمره على مال يحمله[١] .

ولا يستقر الأمر لسبكرى ، فنى نفس العام الذى ولى فيه يتقدم الليث بن على ابن الليث من سجستان إلى فارس ، ويستولى عليها ، ويهرب سبكرى إلى أرجان ، ويسيّر الخليفة مؤنساً الخادم إلى فارس ؛ معونةً لسبكرى ، وبعد حرب يخفق فيها مؤنس يعول ابن الفرات وزير الخليفة على محمد بن جعفر فى فتح فارس ، ويستولى عليها ابن جعفر ، ثم لا يلبث حتى يموت (٢٩٨ هـ) ، ويستعمل عبد الله بن ابراهيم المسمعى[٢] ، ولا يستقر به الحال حتى يعزل (٣٠٠ هـ)[٣] ، ويستعمل على فارس بدر الحمامى . . وفى سنة ٣٠٤ هـ يخالف أبو زيد خالد بن محمد على المقتدر بالله — بكرمان وكان يتولى الخراج — ويسير منها إلى شيراز يريد التغلب عليها ، فيخرج إليه بدر الحمامى ويحاربه ويقتله ، وتحمل رأسه إلى بغداد ، ويطاف به[٤] .

وقد قصدت قصداً إلى اقتباس هذه الناحية التاريخية ، وابتدأتها من ميلاد أبى على الفارسى (٢٨٨ هـ) إلى أن انتقل إلى بغداد (٣٠٨ هـ) ، وكانت الحال من قبل هذه السنين لا تقل اضطراباً وقلقاً ونزاعاً بين القواد على ملك فارس[٥] ، ولا شك أن أبا على الفارسى سئم هذه الحال القلقة فى بلاده[٤] ، وتطلع كأمثاله إلى بغداد عاصمة الخلافة[٥] ، والتى يرد منها الولاة الذين يحكمون ، والتى فيها الخلفاء والوزراء الذين يولون ويعزلون ، وفى بغداد أيضاً ، العلماء والمتعلمون ، والفقهاء والمتفقهون ، ورؤساء المتكلمين[٦] ، والأطباء[٧] ، وسادة الحساب والنحوية ، ومجيدو الشعراء ، ورواة الأخبار والانساب ، وفنون الآداب ، وحضور كل طرفة[٨] . ومن هنا كان علماؤها متجه المستفسرين من مختلف العواصم الإسلامية إلى ذلك الحين[٩] ، ولئن ضعفت الخلافة فى بغداد إنها لم تزل — مع ذلك — محتفظة بكيانها الثقافى ، وصدارتها فى ميدان البحث العلمى فى ذلك العهد ، الذى وفد

---

(١) الكامل ٨/٢٠ (٢) الكامل ٨/٢١
(٣) المصدر السابق ٨/٢٦ (٤) المصدر السابق ٨/٣٦
(٥) راجع الكامل لابن الأثير فيما قبل /٢٨٨ هـ
(٦) تاريخ بغداد /١ ٥ (٧) الكامل لابن الأثير ٨/٥٥
(٨) تاريخ بغداد ١/٥١ (٩) انظر الإمتاع ١/١٣٠

فيه أبو على ، وقد كان وزراء الخلفاء يعقدون مجالس للبحث والمناظرات ، كالذى كان فى مجلس الوزير ابن الفرات ، وقد ذكر أبو حيان التوحيدى أنه كان فى مجلس ذلك الوزير ، الخالدى ، وابن الأخشاد ، والكتبى ، وابن أبى بشر ، وابن رباح ، وابن كعب ، وأبو عمرو قدامة بن جعفر ، والزهوى ، وعلى بن عيسى الجراح ، وابن فراس ، وابن رشيد ، وابن عبد العزيز الهاشمى ، وابن يحي العلوى ، و . . . ، « وكان ابن الفرات يعدّهم فى العلم بحاراً ، وللدين وأهله أنصاراً ، وللحق وطلا به مناراً »[1] .

وحتى العهد الذى انقسمت فيه المملكة الإسلامية إلى دويلات لم تكن المنافسة بين العواصم للقضاء على بغداد ؛ بل لتكون كل منها بغداد أخرى فى العلم والثقافة .

ويظهر أن الحال السياسية لفارس ما كانت تغرى العلماء بالاستقرار فيها ، والإقامة بها ، وهذا أبو بكر بن دريد — أستاذ أبى على يهجر فارس إلى بغداد ويدخلها سنة ٣٠٨ [2] فى وقت قريب من انتقال أبى على من بلاده إلى عاصمة الخلافة .

وشىء آخر أظنه دفع أبا على إلى الوفود على عاصمة العراق ، ذلك هو العبقرية الدفينة فى شيراز على بعد أربع مراحل من نسا [3] ؛ ذلك سيبويه إمام النحاه ، وناهيك به مثالا يقتدى ، وسيرة تحتذى .

ثم كان بعد سيبويه — ابن درستويه (٢٥٨ — ٣٤٧ هـ) وابن درستويه من بعد — المعاصر القريب لابى على ، وقد علا شأن ابن درستويه فى بغداد ، واشتهر علمه ، وصار له تلاميذ منهم أبو طاهر ، والكرمانى ، وأبو على القالى ثم البغدادى [4] وابن درستويه — إلى جانب ذلك من فارس ، بل هو من فسا [5] فهو فارسى فسوى مثل أبى على ، والناس يحتذون النابغين من أبناء جلدتهم فليس ببعيد أن يحذو أبو على حذوه ، ويقفو قفوه .

وإذ كان أبو على البغدادى ينتسب إلى قالى قلا ؛ رجاء أن ينتفع بذلك

---

(١) الإمتاع ١٠٨/١ (٢) وفيات الأعيان جـ ٤٥٠/٣
(٣) معجم البلدان ٣٧٦/٦ (٤) طبقات الزبيدى ١٣١ ، ١٣٢ ، ٢٠٥ أيضاً
(٥) معجم البلدان مادة فسا .

عند العلماء فى بغداد[1] ، ويمضى عليه — من ذلك الحين — القالى ، فأحر بأبى على الفارسى أن يندفع إلى بغداد متطلعاً إلى ابن درستويه ، منتفعاً بفارميته وفسويته جميعاً . ومن هنا ينزل أبو على فى صف شونيز ببغـداد ، وفى الجانب الغربى منها[2] حيث ينزل عبـد الله بن جعفر بن درستويه ، بل يكون جاراً لابن درستويه بيت بيت[3] !!

انتقل الشاب أبو على إلى بغـداد (٣٠٧ هـ) مدفوعا بهـذه العوامل العامة والخاصة ، ويبغى الشأو البعيد باتخاذ الوسائل إليه[4] .

ومهما يكن من أمر فإن أبا على لقى ببغداد فى تلك السن المتهيئة لتلقى العلوم فى ضبط ، ووعى ، وإقبال ، ورغبة . لقى شيوخ القراءة ، والحديث ، واللغة ، والنحو ، على التفصيل الذى سأورده بعد حين

ومنذ ورود أبى على بغداد تتضح حياته ، بانتقاله إلى عاصمة الخلافة التى تتوجه إليها الأبصار فى سائر الأمصار ، وينصت لها التاريخ ، وبارتباط حياته بهؤلاء الشيوخ الذين كانت لهم شهرة ذائعة فيما يدرسون من علوم .

وقد مكث فى العراق من ٣٠٧ — ٣٤١ هـ ، ويظهر أنه تصدر للإقراء والتدريس فى حياة أساتذته ، فقد أخبر ابن جنى أن على بن عيسى الرومانى قرأ عليه كتاب الجمل ، وكتاب الموجز لابن السراج فى حياة ابن السراج[5] .

ومن مسائله التى خلفها ، استدل على أنه كان ينتقل فى مدن العراق ويحاضر طلابه ، فله إلى جانب البغداديات[6] ، البصريات ، والهيثيات[7] والقصريات[8] نسبه إلى قصر بن هبيرة بنواحى الـكوفة[9] ، ولا ننسى أنه مر بتلميذه ابن جنى وهو يقرئ النحو بجامع الموصل[10] ، ويظهر أنه كان يزور فارس ، ويعود إلى بغداد مراوحاً فى ذلك بين الحين والحين . فقد زار فارس قبيل وفاة أبى بكر بن الخياط (٣٢٠ هـ) ثم رجع إلى بغداد بعد وفاة أبى بكر[11] .

---

(١) طبقات الزبيدى ٢٠٥ — سأل الزبيدى أبا على : لم قيل له القالى؟ فقال : « لما انحدرنا إلى بغداد كنا فى رفقة فيها أهل قالى قلا فكانوا يحافظون لمكانهم من الثغر ، فلما دخلت بغداد انتسبت إلى قالى قلا وهى قرية من مناز جرد رجوت أن انتفع بذلك عند العلماء، فضى على "القالى» .

(٢) وفيات الأعيان ١/٣٢٥

(٣) الحلبيات ظهر ورقة ٣٣/٥ نحوش (٤) طبقات الزبيدى ١٣١

(٥) ٢٣٩/٧ معجم الأدباء ٢٣٩/٧ (٦) كشف الظنون ١/١٦٦٧

(٧) المغنى ١٠/٢ (٨) كشف الظنون ١/٢٦٧٠ (٩) روضات الجنات ٢٢٠

(١٠) نزهة الألباء ٢٢١ (١١) انظر معجم الأدباء ١٤٢/٧

ثم أمضى فى تحديد بيئته المكانية بأزمانها فأقول :

هذه البيئة يطويها معاصره الزبيدى فى طبقاته طياً ، وذلك إذ ينص على أن الفسوى : « كان عند ابن حمدان ، فاستجلبه الديلمى لبنى أخيه خسره يؤدبهم ، فأقام ببغداد ، ثم توجه إلى شيراز [١] . ويذكر ابن الجزرى أن أبا على صحب عضد الدولة ، ثم لحق بسيف الدولة [٢] ، ومعنى ذلك أنه اتصل بعضد الدولة أولا ، ولكن ترتيب ابن الجزرى تنفيه حقيقة التاريخ أولا ، ونصوص ابن جنى ثانياً [٣] .

وتتردد الأسئلة الآتية أمام الباحث :

فى أية سنة فارق أبو على بغداد إلى سيف الدولة بن حمدان ؟ وما نشاطه العلمى فى هذه المدة التى مكثها بالشام ؟ ومتى فارق حلب ؟ ولم فارقها ؟ ألأن الديلمى استجلبه لبنى أخيه خسرو يؤدبهم كما يقول الزبيدى ؟ أم لأنه — مع ذلك — لم يطب له المقام ؟ .

وكم سنة أقام ببغداد بعد رجوعه من حلب ؟ ومتى توجه إلى شيراز ؟ وماذا كان من أثره فيها ؟ وكم سنة أقام بها ؟ وماذا قدر لأمره بعد ذلك ؟

هذه أسئلة ترددت فى نفسى ؛ استكمالا للصورة التى وددت رسمها لتنقلات أبى على ، وظلت الإجابة عنها تخايلنى أمداً طويلا ، وأخذت أبحث عنها فى مظانها ملتمساً قبساً من هنا ، وقبساً من هناك ، حتى استطعت رسم هذه الصورة على النحو الآتى :

كان قدوم الفارسى على حلب سنة ٣٤١ هـ على ما يذكر ابن خلكان فى الوفيات [٤] ، وابن العماد فى الشذرات [٥] ، وقد اعتبرت هذا التاريخ بما ذكر ابن جنى فى كتابه الخصائص إذ يقول : أنشدنا أبو على (رحمه الله) لجرير :

سيروا بنى العم فالأهواز منزلكم * ونهر تيرى فما تعرفكم العرب

بسكون فاء تعرفكم .

أنشدنا هذا بالموصل سنة إحدى وأربعين [٦] ، وبما ذكره فى كتاب المحتسب :

فأنت من الغوائل حين ترمى * ومن ذم الرجال بمنتزاح

---

(١) طبقات الزبيدى ١٣٠ (٢) طبقات القراء ١/٢٠٧
(٣) انظر الخصائص ١/٧٦ ، والمحتسب ١/٣٢٤
(٤) ٣٦١ (٥) الخصائص ١/٧٦
(٦) المحتسب ١/٤٢٣

يريد بمنتزح ، وعليه قول عنترة أنشدناه أيضاً سنة إحدى وأربعين بالموصل :

* ينباع من ذفرى غضوب جسرة[1] *

اعتبرت ما يقوله ابن خلكان بما يقوله ابن جنى فى الخصائص ، والمحتسب ، فوقر فى نفسى أول الأمر أن أبا على لم يفد على حلب فى سنة إحدى وأربعين ، ثم صدقت كلا من ابن جنى ، وما ذكره ابن خلكان ، عندما نظرت فى المصور الجغرافى موضع الموصل وحلب ، فوجدت أن أقرب طريق للذاهب من الموصل إلى حلب هو الذى بينها وبين الموصل . وأن المسافة بينهما تنفرج جنوبى الموصل وشمالها . . فلعل أبا على وابن جنى سلك أقرب طريق من الموصل إلى ابن حمدان فى عاصمة إمارته .

وغير خافية هذه الأسباب التى دعت أبا على الفارسى ، وتلميذه ابن جنى إلى الذهاب لسيف الدولة ، غير أنى أشير إليها فى كلمة سريعة موجزة :

(فأولا) قد بلغ الأمير سيف الدولة حينئذ الأوج فى عظمته ، وإذا استشهدت بالتاريخ على ذلك وجدت أن المتنبى فيما يقول العكبرى قال قصيدته التى أولها :

ذى المعالى فليعلون من تعالى * هكذا هكذا ، وإلا فـلالا

يذكر نهوض سيف الدولة إلى الثغر ، وذلك فى جمادى الأولى سنة ٣٤٦ ، وفى سنة ٣٤١ بنى سيف الدولة مرعشا ، وامتدحه عند ذلك أبو الطيب بقصيدة قال فى مطلعها :

فديناك من ربع ، وإن زدتنا كرباً * فإنك كنت الشرق للشمس والغربا[2]

(وثانياً) قد تحدثت الركبان ، ونطق الزمان بما كان من إغداق سيف الدولة على قاصديه[3] . وقد كان سيف الدولة لا ينتقر فى العطاء ،

---

(١) الخصائص ١/٧٦ والتكملة : زيَّافَةٍ مثلِ الفَنيقِ المُكْدَمِ أراد ينبع — والذفرى ماخلف الإذن ، والجسرة الناقة الموثقة الخلق ، والزيف المتبختر ، والفعل زاف يزيف . والفنيق الفحل من الإبل يقول : ينبع هذا العرق من خلف اذن ناقة غضوب موثقة الخلق شديدة التبختر من سيرها مثل فحل من الإبل قد كدمته الفحول، شبهها بالفحل فى تبخترها ووثاقه خلقها وضخامتها . شرح المعلقات السبع للزوزني ١٤٦ ، ١٤٧

(٢) اعلام النبلاء للطباع الحلبى ١/٢٠٨

(٣) أعلام النبلاء ١/٢٧٧ وما بعدها

فكان يجود حتى على أولئك الذين لا يجدون من القول ما يحسنون[1] .

(وثالثاً) كان سيف الدولة شيعياً[2] ، وكان فى أبى على شيعيّة رأينا بواعثها من قبل ، وسأتحدث عنها فى القريب إن شاء الله .

من أجل هذا تهيأت الظروف لأبى على أن يرحل إلى جوار الحمدانى ، وبقى إلى جواره فترة كانت محفوفة بالدسائس والمكايد ، فقد التقيا فيها بخصم عنيد ، حبيب إلى قلب سيف الدولة ، وذلك أبو عبد الله بن خالويه ، وربما خشى ابن خالويه أن تضيع مكانته عند مولاه ، وكان سيف الدولة مشغوفاً بالمسائل اللغوية ، يعرضها مستفسراً أو مختبراً . سأل سيف الدولة عن اسم ممدود جمع مقصوراً ، وكان بين الحاضرين أبو على ، وأحمد بن نصر ، وابن خالويه . فقال أحمد بن نصر : « أنا أعرف حرف حلفاء وحلافى فقلنا : « حلفاء جمع حلفة ، وإنما سألت عن واحد » ، فقال الفارسى : « أنا أعرف حرفاً ، أشياء وأشاوى » فقلنا : أشياء جمع . قال ابن خالويه : « أنا أعرف أسماء ممدودة تجمع بالقصر » ، قال : ماهى : قلت : « لا أقولها إلا بألف دينار » ثم ذكرت ذلك[3] .

وقد ظهرت هذه المحاورات أيضاً فيما حكاه الرواة من أن ابن خالويه اجتمع هو وأبو على الفارسى ، فقال ابن خالويه لأبى على : نتكلم فى كتاب سيبويه ، فقال له أبو على : بل نتكلم فى الفصيح ! . ويحكى أنه قال لأبى على : كَمْ للسيف اسماً ؟ قال : اسم واحد ! فقال له ابن خالويه : بل له أسماء كثيرة ، وأخذ يعددها نحو الحسام ، والمخذم ، والقضيب ، والمقضب . فقال له أبو على : « هذه كلها صفات »[4] . وتنعقد الصلة قوية بين المتنبى وابن جنى ، وكلاهما منافس قوى لابن خالويه ، ثم يكون ما يكون من انتصار سيف الدولة لابن خالويه ، ومفارقته مغاضباً . .

وكان من الطبيعى ألاّ يطيب المقام لأبى على الفارسى فى هذا الجو الخانق ، وإذ كان سيف الدولة أعرض عن المتنبى وانتصر لابن خالويه ، والمتنبى هو من

(١) انظر اعلام النبلاء ١/٢٨٥ (٢) أعلام النبلاء ١/٢٧٩

(٣) المزهر بتصرف ٢/٢٢٦ ، ٢٢٧

(٤) نزهة الألبـاء ٢٠٨ ويعرض ابن مسكويه فى كتاب الشوامل والهوامل لهذه المسألة موفقاً بين الرأيين انظر ص •

سيف الدولة ، صداقة ، وإذاعة شهرة ، وطول عشرة . . أفلا يعرض عن الفارسى الوافد الطارىء ، وليس فى حاجة ماسة إليه ، ولديه مايجزئ عنه : ابن خالويه ؟ .

فارق أبو على بلاط سيف الدولة ، ولم يكن فى ذلك قالياً أو مغاضباً للأمير ، ولكنه كان مرغماً من تحامل ابن خالويه ، وافترائه عليه ، وتحريف الكلم عن مواضعه ، وقلة تحفظه فيما يرى به أبا على ، وذلك ماتحدثنا به المسائل الحلبيات [١]. ويبدو أن الصلة أصبحت قاصرة على المكاتبة ولا غير .

ويطوف أبو على فى بلاد الشام ، ويمضى إلى طرابلس ، ويقيم بحلب [٢]،ويزور المعرّة ، ويتصل برجالها وأهل العلم فيها اتصالا تلتمس فيه المبرة [٣] ، وتظفر منه الدراسة النحوية بالمسائل الحلبية [٤] .

ويفارق المتنبى — صديق ابن جنى — سيف الدولة ، فلم يجد بلداً أقرب إليه من دمشق ؛ لأن حمص كانت من بلاد سيف الدولة ، وكان ذلك سنة ٣٤٦ ، فيما يقول البديعى فى الصبح المنبى ، ويبدوان أبا على وابن جنى نبت بهما حلب كذلك ، فينزل أبو على بدمشق ، ويظهر أنه أقام بها اقامة مكنته من أن يملى المسائل الدمشقية [٥] ، ويشير ابن جنى إلى أن أبا على كان بحلب — كذلك سنة ٣٤٦ ، ذكر ذلك فى الخصائص [٦] .

وهنا أعود مرة أخرى إلى عبارة الزبيدى حيث يقول : كان أبو على عند بنى حمدان فاستجلبه الديلمى لبنى أخيه خسره يؤدبهم . . . فأقام ببغداد ثم توجه إلى شيراز . . . فمتى كان استجلاب الديلمى أبا على ؟ للإجابة عن هذا السؤال استمر متتبعاً سيرة المتنبى ، ومقايساً إياها بما يذكره التاريخ عن أبى على :

يخرج المتنبى من مصر حانقاً على كافور ٣٥٠ هـ [٧] ، ثم ينتقل إلى العراق وفارس ، ثم يكون فى شيراز عند عضد الدولة ٣٥٤ هـ [٨] .

---

(١) انظر الكلام عن هذه المسائل فى هذا البحث
(٢) معجم الأدباء ٢٣٣/٧ (٣) المصدر السابق ٢٥٥/٧
(٤) كشف الظنون ١٦٦٧/١ (٤) معجم الأدباء ٢٤١/٧
(٦) انظر ص ٢٨٤ والمحتسب (انظر ٧٥/١) (٧) الروائع ١١
(٨) هامش العكبرى الصبح المتنبى ٢٢٩ والروائع العدد الخاص بالمتنبى ١٣

وفى تلك السنة كان أبو على الفارسى أيضاً فى شيراز [١] ، وكان إلى هذا الوقت لم تنعقد الصلة بينه وبين المتنبى ، فقد كان كما يقول الرواة ، يستثقل المتنبى على قبح زيه ، وما يأخذ به نفسه من الكبرياء [٢] ، فالقول بأن المتنبى جرت بينه وبين أبى على مجالس فى حلب لا دليل عندى عليه ، ولكن ابن جنى كان ذا هوى لأبى الطيب ، وقد أخذ يحتال على ابى على فى شيراز — لا فى حلب — حتى ربط بين الرجلين [٣] ، ولكن متى رحل أبو على إلى شيراز ؟ ؟ وحتى متى ظل أبو على فيها ؟

يبدو بصيص من النور يهدى إلى الإجابة عن هذا السؤال الأخير ، فيما يرويه على بن عيسى الربعى إذ يقول : «كنت يوماً عند المتنبى بشيراز [٤] ، فقيل له أبو على الفارسى بالباب ، وكانت تأكدت بينهما المودة ، قال : « بادروا إليه ، فأنزلوه » فدخل أبو على وأنا جالس عنده فقال : « يا أبا الحسن : خذ هذا الجزء ، وأعطانى جزءاً من كتاب التذكرة » وقال : أكتب عن الشيخ البيتين اللذين ذكرتك بهما وهما :

سأطلب حقى بالقنا ومشايخ كأنهم من طول ما التثموا مرد
ثقال إذا لاقوا ، خفاف إذا دعوا كثير إذا شدوا ، قليل إذا عدوا

وللربعى هنا أهمية عظيمة فى الاهتداء إلى المدة التى مكثها أبو على بشيراز ؛ ذلك لأن الربعى الشيرازى الأصل — بدأ بقراءة مختصر الجرمى على السيرافى فى سنة أربع وأربعين وثلاثمائة [٥] ، ثم انتقل من بغداد إلى شيراز فقرأ على أبى على الفارسى عشرين سنة ، ثم رجع إلى بغداد ، وقد ولد الربعىّ سنة ٣٢٨ وتوفى سنة (٤٢٠) ببغداد [٦] .

وأول شىء نستنتجه من ذلك : أن أبا على أقام بشيراز السنين العشرين ، توطدت فيها علاقته بعضد الدولة ، ويؤلف له الإيضاح ثم التكملة ، ويسايره فى ميدان شيراز ، ويباحثه فى النحو وعلله ، حتى صار غلامه فيه ، وكان فيما يقول

(١) انظر التدليل الآتى على هذه القضية
(٢) الصبح المنبى ٢٠٩
(٣) (انظر الصبح المنبى على هامش العكبرى ١/٢١٠)
(٤) الصبح المنبى ١/٢١٢
(٥) حقائق التأويل ٨٧ — ٨٨
(٦) حاشية الشيخ الأمير على المغنى ١/٩٨

المؤرخون : يكرم العلماء . . . ويدنيهم من حضرته ويعارضهم فى أجناس المسائل ، ويفاوضهم فى أنواع الفضائل [١] ، ويقرأ كل يوم جزءاً من كتاب الايضاح للفارسى ، وجزءاً من كتاب أبى الحسين الرازى الصوفى فى النجوم [٢] ، على أن عبارة الربعى بعد ذلك تهدى إلى الإجابة عن السؤال الأول ، وتعين السنة التى نزل فيها أبو على شيراز إذا ضمت إلى :

ا — ما ورد فى كتب التراجم . ب — وما حدث به التاريخ العام — فماذا جاء فى كتب التراجم ؟

قال ياقوت : لما خرج عضد الدولة لقتال ابن عمه عز الدين بختيار بن معز الدولة دخل عليه أبو على الفارسى فقال له : ما رأيك فى صحبتنا ؟ فقال له : « أنا من رجال الدعاء لا من رجال اللقاء . . [٣] » فمتى خرج عضد الدولة من فارس لقتال ابن عمه بختيار ؟ ذلك ما تجيب عنه كتب التاريخ العام إذ يقول ابن مسكويه : ودخلت سنة ٣٦٦ ، وفى هذه السنة تحرك عضد الدولة نحو العراق ، ورحل من فارس . . . وكان ذلك لمحاربة بختيار . . . [٤] .

ويعتذر أبو على من تخلفه بشيراز ، ويمضى عضد الدولة من نصر إلى نصر ، حتى يستولى على بغداد سنة ٣٦٧ هـ ، ويخلع الطائع على عضد الدولة خلع السلطنة ، ويتوجه بتاج من الجوهرة ، ويطوقه ، ويسوره ، ويقلده سيفاً ، ويعقد له لواءين بيده : أحدهما مفضض على رسم الأمراء ، والآخر مذهب على رسم ولاة العهود ، ولم يعقد هذا اللواء الثانى لغيره من قبل ، ولقب تاج الملة [٥] .

وتستقر الأمور لعضد الدولة فى بغداد ، ويجد أبو على الفرصة سانحة للرجوع إلى عاصمة الملك ، فيفارق شيراز كما يقول أبو حيان ، ويلحق بالخدمة الموسومة به سنة ٣٦٨ هـ [٦] .

وإذن لو رجعنا إلى عشرين عاما — وهى المدة التى قضاها أبو على فى شيراز قبل سنة ٣٦٨ هـ لرأينا أن أبا على ورد إلى شيراز سنة ٣٤٨ ، وهو تاريخ يتفق هو ومفارقة سيف الدولة سنة ٣٤٦ ، ولعله أقام ببغداد كما يقول الزبيدى فيما بين ٣٤٦ ، ٣٤٨ .

---

(١) ذيل تجارب الأمم جـ ٦٨٥ (٢) المنتظم لابن الجوزى ٥
(٣) معجم الأدباء ٧/٢٣٦ (٤) تجارب الأمم لابن مسكويه ٢/٣٦٥ وما حواليها
(٥) تاريخ الإسلام الذهبى حوادث سنة ٣٦٧ (٦) الإمتاع ١/١٣١

يمضى أبو على إلى العراق ، ويعلو شأنه ، ويكون هو واسطة العقد من أهل العلم ، وإذ قد أجرى عضد الدولة سنة ٣٦٦هـ الجرايات على القضاة، والمحدثين، والمتكلمين والمفسرين ، والنحاة ، والشعراء ، والنسابين ، والأطباء، والحساب ،والمهندسين ، وأدرّ الأموال على الأئمة ، والمؤذنين ، والعلماء ، والقراء[1] فماذا يكون لأبى على من ذلك كله ؟ يستشفع به القوم من الأقطار، ويبتغونه وسيلة إلى عضد الدولة [2]، ثم كان الوكيل عن الملك عضد الدولة فى عقد قران ابنته للطائع لله العباسى سنة ٣٦٩ هـ [3] ، وهكذا يبلغ أبو على الشأو البعيد ، ويشتهر ذكره فى الأقطار ، وتقصده الوفود ، وتتزاحم لديه على الورود [4] .

وبعد فيجمل بى تلخيص بيئة أبى على المكانية بأزمانها على النحو الآتى :

فارس	العــــراق	حلب ودمشق
٢٨٨—٣٠٧	٣٠٧ — ٣٤١	٣٤١ —٣٤٦
العــــراق	فارس	بغــــداد
٣٤٦ — ٣٤٨	٣٤٨ —٣٦٨	٣٦٨ —٣٧٧

ويتحدث ابن شاكر الكتبى عن اشتداد الغلاء فى هذه السنة (٣٧٧ هـ) ، وما لحقه من فناء كثير [5] . ولست أميل إلى ربط شىء من ذلك بوفاة أبى على ، فقد كان الرجل ميسور الحال ، لا يؤثر فيه اشتداد الغلاء ، ولكنه كر الغداة ، ومر العشى ، وكبر السن ، ومجاوزته التسعين ، وتكون خاتمة المطاف القدر المحتوم على كل حى ، فينتقل أبو على إلى جوار ربه فى ربيع الأول سنة ٣٧٧ هـ

ويدفن عند قبر أبى بكر الرازى الفقيه [6] بمقابر الشونيزى ، بالجانب الغربى من بغداد [7] ، وفيها الواعظ الناسك سرى السقطى [8] ، وابن أخته أبو القاسم الجنيد الخزاز القواريرى الزاهد المشهور [9] (على الجميع رحمة الله) .

---

(١) الكامل لابن الأثير ٣/٢٠٥ (٢) معجم الأدباء ٧/٢٠٥

(٣) انظر تجارب الأمم /٤١٤ نقلا عن تاريخ الإسلام للذهبى

(٤) مسالك الأبصار : ج ٤ مجلد ٢/٣٠١

(٥) عيون التواريخ لابن شاكر الكتبى ٢٠

(٦) أعيان الشيعة ١١/٢١ (٧) وفيات الأعيان ١/٣٢٥

(٨) تاريخ بغداد ١٢٢/١ (٩) وفيات الأعيان ١/٣٢٥

هل تزوج أبو على ؟

أسرته :

لا أعرف لأبى على ولداً ، فهل تزوج ، أو أعرض عن الزواج ألبتة ؟ لا أملك من النصوص ما يؤيد شيئاً من ذلك أو ينفيه . أما الأمر الذى لا شك فيه فهو أنه لم يعقب ، وذلك ما يدل عليه قول ابن جنى فى الخصائص ، أقام على هذه الطريقة — يشير إلى قوة قياسه وأنسه بها — سبعين سنة ، زائحة علله ، ساقطة عنه كلفه ، . « لا يعتاقه عنه ولد » . [1] ، وأرجح أنه لم يتزوج ، فقد وصف ابن جنى أبا على بخلو سربه ، وسروح فكره ، وفروده بنفسه [2] ، وهو وصف يكون للعزب الذى لم يتزوج ، لا سيما إذا كان فى يسر حال ، وسعة المال .

وإن كان أبو على لم ينجب ، فإن الله عوضه عن ذلك بابنى أختين أخذا النحو عنه ، ونشرا كتابه الإيضاح فى الآفاق .

أما أحدهما : فأبو الحسين محمد بن الحسين بن عبدالوارث النحوى (ت ٤٢١هـ) ، عرف بالفضل [3] ، وورث علم خاله وعليه درس حتى استغرق علمه ، واستحق مكانه [4] ، وأخذ عنه الإمام أبو بكر عبدالقاهر الجرجانى ، وليس للإمام الجرجانى أستاذ سوى أبى الحسين هذا [5] . أوفده خاله أبو على إلى الصاحب بن عباد فارتضاه وأكرم مثواه ، وقرب مجلسه [6] ، ولما استأذنه للسفر أصحبه كتاباً إلى خاله أبى على [7] ، وقد كان لأبى الحسين قدم فى الشعر ، وذلك شىء لم يدركه خاله ، ومن أشعاره التى ذكرها الثعالبى فى اليتيمة يتضح أنه كان مغرماً بالمحسنات البديعية، وإدخال المصطلحات النحوية [8] ، فمن شعره :

وتربية المعروف شرط تمامه   وهل تم شرط دون ذكر جزائه ؟

وله تصانيف منها : كتاب الهجاء ، وكتاب الشعر [9] .

---

(١) الخصائص: ١/٢٨٤ـ٢٨٥ (٢) مقدمة المحتسب: ٧
(٣) انظر نزهة الألباء: ٢٢٦ (٤) يتيمة الدهر: ٤/٢٧٠
(٥) معجم الادباء: ١٨/١٨٧ (٦) يتيمة: الدهر ٤/٢٧٦
(٧) انظر معجم الادباء: ٧/٢٤٩ وما بعدها
(٨) يتيمة الدهر: ٤٠/٢٧٢ (٩) انظر «ا» يتيمة الدهر للثعالبى: ٤/٢٧٠ ــ ٢٧٤
«ب» نزهة الألباء: ٢٢٦ «حـ» معجم الادباء: ٧/٢٤٩ ــ ٢٥١ ، ١٨/١٨٦ ــ ١٨٧
«د» بغية الوعاة: ٣٨

وأما الآخر فزيد بن على الفارسى النحوى ، ولم ينص ياقوت على أنه ابن أخت أبى على [١] ، وتبعه فى ذلك السيوطى فى البغية [٢] ، وعبارتهما : « أخذ ـ أى زيد ـ النحو عن أبى الحسين ابن أخت أبى على الفارسى ... » ولكن القفطى فى انباه الرواه ينص على أنه ابن أخت أبى على [٣] ، وكذلك نقل ابن مكتوم بتلخيص أخبار النحويين اللغويين [٤] ، وبين عبارة ياقوت ، ويتابعه السيوطى ـ والقفطى تخالف : ياقوت يقرئ زيد بن على ـ على الشريف أبى البركات عمر بن ابراهيم الكوفى [٥] ، والقفطى ينص على أن أبا البركات الكوفى أخذ عن زيد بن على ، ويبدو أن القفطى مصيب ؛ بآية قوله : « وعمّر ـ أى زيد بن على ـ إلى أن قرأ عليه الشريف أبو البركات الكوفى النحوى كتاب الإيضاح بحلب عند رحلته إليها من الكوفة فى شهر رجب سنة ٤٥٥ ﻫ ، فإذا كان تعمير أبى زيد يمكن أبا البركات من القراءة عليه ، فكيف يعكس الوضع فيكون أبو البركات شيخاً ، وزيد تلميـــذاً ؟ ويؤكد ما ذهب إليه القفطى أن أبا البركات ولد سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة [٦] ، ومعنى ذلك أن سنه كانت عند رحلته إلى الكوفة ثلاث عشرة سنة ، وهى سن التلقى لا سن الإلقاء ، وقد رد القفطى ما قال أبو القاسم الدمشقى فى كتابه مختصر ابن عساكر ، حيث جعل وفاة زيد بن على سنة سبع وتسعين وأربعمائة [٧] ، وذلك قول القفطى : « قلت فى هذا القول نظر فانه يكون قد مات قبل ذلك » ، ويتفق القفطى فى ذلك مع ياقوت حيث ذكر فى المعجم أن وفاة زيد سنة سبع وستين وأربعمائة [٨] ، ووصف القفطى لزيد أنه كان معمراً سنة ٤٥٥ [٩] ، يرجح تاريخ وفاته كما ذكر ياقوت ، ويرجح قول القفطى أنه أخذ النصوص عن أبى على خاله .

وقد كانت لزيد بن على مشاركة حسنة فى النحو والأدب ، شرح الإيضاح ، كما شرح الحماسة (حماسة أبى تمام) [١٠] ، وهكذا كان لكل من أبى الحسين وابى القاسم فضل إذاعة كتاب الإيضاح لخالها على النحو الذى بينته من قبل فى إيجاز ، وسأتحدث عنه بعد فى تفصيل .

(١) معجم الأدباء : ١١/١٧٧ (٢) ٢٥٠ ـ ٢٥١
(٣) ٢/١٧ (٤) انظر ص٣٣
(٥) معجم الأدباء : ١١/١٧٧ (٦) إنباه الرواة ٢/٣٢٦
(٧) انظر مختصر ابن عساكر : ٦/٢٥
(٨) ١١/١٧٧ (٩) انظر إنباه الرواة ٢/١٧
(١٠) بغية الوعاة : ٢٥٠ وما بعدها

ويبدو أن شهرة أبي الحسين ، فاقت شهرة أبي القاسم ؛ فقد عرف أبو الحسين « بابن الأخت [١] » ، وهو دليل على شهرة أبي على أولا — كما أنه دليل على شهرة أبي الحسين ثانياً ؛ لانفراده بهذا التعريف الذى يغنى عن التسمية — دون أبي القاسم .

هذا مبلغ العلم بأسرة أبي على : أبيه ، وأمه ، وهذين العالمين الجليلين ، أبى الحسين ؛ وأبى القاسم . أملى خالها ذكرهما على التاريخ ، وروى أخبارهما الزمان ، وكان لأبى الحسين — بخاصة — الفضل على عالم جرجان ، وفارس المعانى والبيان — الإمام عبد القاهر الجرجانى .

يسره

هناك من الدلائل ما يثبت أن أباعلى كان غنياً : — فهو أولا قرأ على مبرمان كتاب سيبويه ، وكان مبرمان لا يقرىء أحداً الكتاب إلا بمائة دينار [٢] . ثم هو ثانياً كان يصطنع فى حياته ما يصنعه الأغنياء المترفون : — ا — يتخذ الغلمان [٣] . ب — ويملك الدواب [٤] ، حـ — وينزل إلى السميريات حين يتنقل ببلاد العراق [٥] . ثم هو ثالثاً : قد عاش ما عاش خالى السرب ، وقد انبتت علائق الهموم عن قلبه [٦] وحط من أثقاله [٧] ، وهو أخيراً اتصل بالملوك [٨] ، ونفق عندهم [٩] ، فاجتمع له من الأموال حتى قالوا انه أوصى بثلث ماله لنحاة بغداد ، فكان ثلاثين ألف دينار [١٠] .

هذه الدلائل تشير إلى يسر أبي على ، وانتقل بعد ذلك إلى أثر من آثار غناه ، ذلك زيه ونظافته .

---

(١) كشف الظنون : ١/١٣٩
(٢) بغية الوعاة : ٣٤
(٣) انظر معجم الأدباء : ٧/١٨ ٢٠
(٤) انظر انباه الرواة ١١٩/٢
(٥) نزهة الالباء : ٢٢١
(٦) المحتسب لابن جنى : ٧/١
(٧) الخصائص لابن جنى : ٢٨٥/١
(٨) نفس المصدر : ٢٨٥/١
(٩) معجم الأدباء : ٢٣٤/٧
(١٠) طبقات القراء : ٢٠٧/١ والمقام يقتضى صحة ما ذكره ابن الجزرى فى الطبقات لا ما ذكره أبو المحاسن اليمنى فى إشارة التعيين حيث قال إن الوصية كانت بثلاثين ألف درهم. انظر إشارة التعيين فى ترجمة ابي على مخطوط تاريخ رقم ١٦١٢ دار الكتب المصرية .

زى أبى على ونظافته

كانت الطيالسة ملابس عامة الناس ذكر ذلك المقدسى فقال : « يلبس العوام ثياب السود . . . . » ، ويكثرون التطلس ، ويسطلون العمائم ، وليس لأهل الطيالسة بشيراز مقدار إنما هو لأصحاب الدراريع[١] ، وقال فى موضع آخر : لا ترى على مجوسى غياراً ، ولا لصاحب طيلسان مقداراً ، ولقد رأيت أهل الطالس سكارى[٢]. ويبدو كذلك أن التطلس يكون شتاء ، ذلكم مايشير إليه مثال أبى على فى الإيضاح : « جاء البرد والطيالسة[٣] » ، وبعيد أن يتزيا أبو على بالعمائم الشهجانية الواردة من مروشهجان ، فقد كانت هذه للفقراء من عامة الناس كما يؤخذ من قول أبى شجاع[٤].

ولا شك فى أن أبا على كان يتزيا بزى الشيوخ والوجهاء فى عصره ، من لبس العمامة والدراريع[٥] ، وكان هناك نوع من الفرجيات مبطنة بالوبر يجلب إلى عضد الدولة من البلاد البعيدة[٦] ، فلعل مثل هذه الفرجيات قد وصل شىء منها إلى أبى على ، يجلبها شارياً ؛ إذ كان ذا مال ، أو ينالها هبة ؛ لأنه كان أثيراً عند عضد الدولة ، وقد استهدى تلميذه أبو اسحق الفارسى جبة خز بيضاء ، مما يدل على تفضيل ذلك اللون من الثياب[٧] .

هذا وفى ثلاثة الأبيات التى رويت عن أبى على مايدل على أنه كان يخضب شيبه ، الذى بدا فى رأى العين ذميما[٨] .

وهناك من النصوص ما يستنتج منها ما كان عليه أبو على من النظافة ، وحسن السمت :

(ا) فهو فارسى والفرس أهل النظافة ، وتأليف الطعام، والطيب، واللباس[٩].

(ب) وفسا — مولد أبى على — ليس فى إقليم فارس أنزه ، ولا أطيب ،

---

(١) أحسن التقاسيم: ٤٤٠

(٢) المصدر السابق: ٤٢١ .

(٣) الايضاح : ٦١

(٤) انظر ذيل تجارب الأمم لأبى شجاع: ٤٣

(٥) انظر أحسن التقاسيم: ٤٤٠. والدراريع أثواب لا تكون إلا من صوف .

(٦) ذيل تجارب الأمم: ٧٤

(٧) معجم الأدباء: ٧/٢٠٤

(٨) انظر مثلا معجم الأدباء: ٧/٢٥٢ .

(٩) القصد والأمم : ٢١

ولا أجود أهلا ، وأحسن فواكه منها ... وقل فى طيبها وخيراتها ما شئت[١] .
ويقول عنها ياقوت : « إنها أنزه مدينة بفارس فيما قيل »[٢] .

(ج) وأبو على يحتذى حذو سيبويه ، ويقفو قفوه ، ويقدره حق قدره ، ومن المرجح أن يكون قد تأثر بسيبويه فى العناية بزيه ، وهيئته ، إلى جانب ما هو عليه من طبيعته .

(د) وقد وجد فى تذاكير عضد الدولة ما يدل على حسن سياسته فى تربية أولاده ، وتهذيب من يلوذ بهم ، ويكون فى جملتهم[٣] ، وقد استجلب عضد الدولة أبا على لبنى أخيه خسرو يؤدبهم[٤] ، ثم كان أبو على وثيق الصلة بعضد الدولة يجالسه ، ويسايره فى ميدان شيراز ، ولا يكون كذلك إلا إذا كان حسن السمت ، يأخذ نفسه بما يجب على مصاحب الملوك ، من آداب .

(ه) وقد كان أبو على يستثقل المتنبى ، ويزرى عليه قبح زيه ، وما يأخذ به نفسه من الكبر[٥] ، ورجل ينظر إلى قبح الزى هذه النظرة . لابد أن يكون جميل المظهر ، نظيف الثياب .

هذا وقد كان لامتزاج الفارسية بالعربية فى دمه ، أثر فى قوة بنيته ، وإلى تلك يشير قول الشريف الرضى فى رثائه :

« قرم يهد الأرض إن تخمطا ... »[٦]

كما يستنتج من قول ابن جنى : « ... ومغداه ، ومراحه مقصوران على حفظ بنيته[٧] — يستنتج أنه كان معنياً بصحته ، إلى أن طول عمره حتى تخطى التسعين ، يؤيد هذا الذى ذهبت إليه » .

---

(١) أحسن التقاسيم : ٤٣١/٤٣٢
(٢) معجم البلدان : ٣٧٦/٦
(٣) ذيل تجارب الأمم : ٧٠/٣
(٤) طبقات الزبيدى : ١٣٠
(٥) الصبح المنبى على هامش شرح العكبرى : ٢١٠
(٦) أعيان الشيعة : ٣٥/٢١
(٧) المحتسب : ١—٧

أخلاقه

وقد تجمع لدى من النصوص ما هديت به إلى التعرف على أخلاق أبى على ، وبمناقشة هذه النصوص واعتبارها بما كان يضطرب فيه أبو على من البيئة العامة والخاصة ، أستطيع أن أرسم صورة واضحة المعالم لما كان عليه الرجل من أخلاق :

(ا) فالنصوص تتحدث عن صدق أبى على[١] فى نفسه[٢] .

(ب) وترفعه عن الكذب[٣] .

(ج) وأنه كان يتجمل بما يتجمل به أهل البر بذوى القربى ، من سعى فى الخير لذوى رحمه ، فهذا ابن أخته أبو الحسين يوفده إلى الصاحب بن عباد ، ويوصى به خيراً ، فيكرم ابن عباد وفادته ، ويقرب مجلسه ، ويفيد أبو الحسين من هذه الرحلة ، ويعلو مكانه حتى يصل إلى مرتبة الوزارة ، فيزر للأمير إسماعيل بن سبكتكين[٤] . وقد استشهدت على أمانة أبى على العلمية ، وأفردت لها مكاناً خاصاً من البحث .

(د) والفارسى أبو على من غير شك ، يندفع بفارسيته إلى النزوع نحو المجد ، والتطلع إلى إحياء مجد الفرس القديم ، والشعور العنيف باسترجاع هذه العزة الغابرة ولعله فى ذلك كما قال مهيار :

« أعجبت بى بين نادى قومها . . . » أربعة الأبيات[٥] .

(ﻫ) وفى النصوص ما يدل على عدم وفائه ، حدث الشيخ أبو العلاء قال : « أن أبا على مضى إلى العراق ، وصار له جاه عظيم عند الملك فنا خسرو ، فوقعت لبعض أهل المعرة حاجة فى العراق ، احتاج فيها إلى كتاب من القاضى أبى الحسن سليمان - إلى أبى على - فلما وقف على الكتاب قال : « إنى قد أنسيت الشام وأهله ، ولم يعره طرفه »[٦] ولكن : ألا يمكن التماس العذر لأبى على من موقفه هذا الذى وقفه بالنسبة لأهل المعرة ؟ فقد كان أبو على فى رحلته إلى الشام منغص العيش بمنافسة ابن خالويه ، وقد رأينا كيف كان ابن خالويه يدس له ، ويوقع به ، ويفترى عليه ، وكيف بلغت بينهما الخصومة إلى الحد الذى رمى به كل منهما الآخر بأنه

---

(١) معجم الأدباء : ٧/٢٥٣ (٢) لسان الميزان لابن حجر : ٢/١٩٥
(٣) يتيمة الدهر : ٤/٢٧٠ (٤) المصدر السابق : ٢٧١
(٥) ديوان مهيار ط دار الكتب : ١/٦٤ (٦) معجم الادباء : ٧/٢٥٥ ، ٢٥٦

لا يفهم [١] ، والأمير سيف الدولة ضالع مع ابن خالويه ينصره على منافسيه [٢] ، ويستدعى عضد الدولة أبا على [٣] ، ويفارق الشيخ الشام ، وفى ذهنه هذه الصورة التى تمثل هذه الحقبة القلقة التى تبغضه فى الشام ، وأهل الشام فإن جاءته رقعة يلتمس فيها بعض أهله بذل العون ، فلا شك أن ذلك يعيد إلى ذهنه هذه الحقبة بما فيها من مكايد وآلام ، فتتراءى أمام عينيه قلقاً ، وحسداً ، وسدما ، ويحاول أن ينسى ، وينطق بأنه نسى الشام ، ومن يسكن الشام .

(و) ونصٌّ يدل على أن أبا على كان يكره الحروب ، ولم يتمرس بالقتال ، ذلك ما حدث به التاريخ : أنه لما خرج عضد الدولة لقتال ابن عمه عز الدولة ، بختيار بن معز الدولة ، دخل عليه أبو على ، وقال له : « ما رأيك فى صحبتنا ؟ » ، ـ فقال له : « أنا من رجال الدعاء لا من رجال اللقاء ـ فخار الله للملك فى عزيمته ، وأنجح قصده فى نهضته . . . [٤]» .

ويجب أن ندخل فى حسابنا عند النظر فى هذا النص ، ومناقشته سن أبى على حينئذ ، فمتى خرج عضد الدولة لقتال ابن عمه ؟ وكم سن أبى على إذ ذاك ؟ التاريخ يحدثنا أن خروج عضد الدولة لقتال ابن عمه كان سنة ٣٦٦ هـ [٥] ، ومعنى هذا أن أبا على كانت سنه فى هذا العام ثمانية وسبعين عاما ، فماذا يصنع هذا الشيخ الفانى فى ميدان يجول فيه الموت ، وتصافح المنايا فيه النفوس ، ومن هنا يفهم جواب أبى على بأنه من رجال الدعاء لا من رجال اللقاء [٦] .

وقد رويت أخبار لأبى على تدل على أنه كان رعديداً ؛ فقد غلس أبو على يوماً إلى الصلاة فى المسجد ، فقام إليه عبد الله بن حمود الأندلسى من مذود ـ كان لدابة أبى على خارج داره ، وكان عبد الله قد بات فيه ؛ ليدلج إليه قبل الطلبة طلباً للسبق ، والأخذ من علمه ـ فارتاع منه أبو على ، وقال له : ويحك من تكون ؟ قال : أنى عبد الله الأندلسى ، فقال : إلى كم تتبعنى ! والله إن على وجه الأرض أنحى منك ! [٧] حقيقة أن الخوف فى هذه الحال من الأمور المتوقعة من كل من كان

---

(١) الحلبيات : ٣٨ (٢) انباه الرواة : ١/٣٢٢
(٣) طبقات النحويين : ١٣٠ (٤) معجم الادباء ٧/٢٣٦ـ٢٣٧
(٥) تاريخ المسلمين للشيخ جرجس بن العميد : ٢٣٢
(٦) معجم الأدباء : ٧/٢٣٦ (٧) انباه الرواة : ٩/١١٩ .

فى مثل أبى على من المفاجأة ، ولكن ارتياعه على هذه الصورة ، ثم صرفه الاندلسى بما قال ـ دليل عندى على طبيعة الجبن المتأصلة فى نفس أبى على .

وبعد : فهل يتفق هذا مع ما أورده الزبيدى عن أبى عبيدة فى طبقاته : لا يكون نحوى شجاعا ؟ ! وقد عللوا ذلك بأن النحوى يفرق بين الساكن والمتحرك ، ولا يفرق بين الموت والحياة[١] ، وأرى أبا عبيدة مخطئاً ؛ فالشجاعة أمر يتعلق بالطبيعة الموهوبة ، ولا صلة لها بالصفة المكتسبة .

ومن طبيعة الجبان الرعديد أن الظفر يستخفه ، فتراه يرقص ، أو يصفق ؛ معلناً انتصاره وفلجه ، شىء يختلف فيه عن الشجاع الصنديد الذى يتلقى النصر فى ثبات واطمئنان ، وأذكر هنا خفة أبى على عندما انتصر على أكبر تلاميذ ابن الخياط ، فأخذ يصفق قائماً فى المسجد [٢] .

(ك) هذا وقد روى عن أبى على من الأخبار ما يجعله من أهل المجانة ؛ فقد كان يتعشق محمد بن طويس القصرى ، ويخصه بالطرف ، ويحرص على الإملاء عليه ، والالتفات إليه ، وبه سميت المسائل القصريات [٣] .

ويبدو أن شيئاً من ذلك كان شائعاً فى الدولة الإسلامية حينئذ بدليل أن الحنابلة سنة ١٢١ قاموا ينصرون حدود الله ، ويمنعون الناس الرذيلة ، واعترضوا فيما يقول أبو الفداء فى البيع والشراء ، وفى مشى الرجال مع الصبيان[٤] .

وقد اتهم أبو حيان أبا على بأنه كان يشرب ، ويتخالع ، ويفارق هدى أهل العلم، وطريقة الربانيين ، وعادة المتنسكين[٥] ، ولا يبعد أن تكون هذه التهمة صحيحة ؛ فقد عاش أبو على ردحاً من الزمن فى شيراز التى اشتهرت بنبيذها وصار يصدر إلى البلاد البعيدة[٦] والتى يقول فيها المقدسى : رسوم شيراز على الإسلام عار،[٧] ثم هو تلميذ على ابن دريد ، الذى يقول عنه تلاميذه : كنا ندخل على ابن دريد ، ونستحى منه ؛ لما نرى من العيدان المعلقة ، والشراب المصفى موضوع وقد جاوز التسعين[٨] .

وكان ابن دريد كذلك يتعلق « بالوضىء » من الغلمان[٩] ، وربما كان لصحبة

---

(١) طبقات الزبيدى: ١١٩
(٢) معجم الأدباء :٧/ ٢٣٥
(٣) معجم الأدباء: ١٨/ ٢٠٧
(٤) تاريخ أبى الفداء: ١/ ٨٧
(٥) الامتاع والموانسة: ١/ ١٣٢
(٦) حضارة العرب تأليف غستاف لوبون: ٢١٧
(٧) أحسن التقاسيم: ٣٤
(٨) معجم الأدباء : ١٨/ ١٣٠
(٩) معجم الأدباء: ١٨/ ١٣٩ .

أبي على الطويلة لعضد الدولة أثر فى ذلك ، فقد كانت حياة ذلك الشاب خليطاً من الهدى ، والمجون ، قالوا : كان إذا تنبه جدد الوضوء ، وخرج إلى مجلس الشرب فجلس ، وحضر الندماء والملهون[١].

هذا ولا أرى فى حديث أبي على عن الخمر فى كتابه الحجة مايدل على معاقرتها . فقد قال فى تفسير قوله تعالى : «كان مزاجها كافورا[٢]» . المعنى أنها فى طيب الرائحة ، وسطوعها ، وأرجها كأرج المسك والكافور . فأما قوله تعالى : «كان مزاجها زنجبيلا[٣]» ، فإنه يدل على لذاذة المقطع ؛ لأن الزنجبيل يحذى اللسان ، وزعموا أن ذلك من أجود الأصناف للخمر عند العرب[٤] . .

فوصفه لذاذتها من مزج الزنجبيل الذى يحذى اللسان ، ليس معناه أنه جرب وتلذذ بما يلذذ الشاربين ، فقد احتاط الرجل بقوله وزعموا . . الخ ، والله أعلم بعد ذلك بحقيقة ما كان .

(ى) وبعد : ففى وصاته بثلث ماله لنحاة بغداد[٥] — ما يدل على حبه لهذه الطائفة وحدبه عليها ، وبره بها ؛ مشاركة منه لأهل الصنعة ، ورغبة منه فى تخفيف ما يجدون .

أمانة أبي على العلمية

ومما يتصل بالحديث عن أخلاق أبي على — تلك السمة التى تطالعك فى كتبه واضحة لاتحتاج فى إدراكها إلى كبير عناء ، تراها فى الحجة ، والإيضاح ، كما تبدو فى مسائله المختلفة ، تلك أمانته العلمية ، التى تتجلّى فى توقفه فيما يرويه ، وتحرجه وتأدبه وتحريه، ينسب المنقول شواهد ، وأقوالا ، وخطاً ،ويعين المكان والكتاب ،ويذكر الحسبان والظن ، ويلقى العهدة على من روى ، ويتحامى الادعاء فى إثبات ما علم ، ونفى مالم يعلم ، فيقرر أنه لم يعلم كذا ، أو لم يسمع ، أو لم يحفظ ، ويستثبت شيوخه ليتيقن ، ويشير إلى الرأى فى غير إصرار ، ويعلن أنه لايدرى .

١ — يعزو الشعر إلى قائله أو منشده[٦] .

---

(١) ذيل تجارب الأمم : ٤١ (٢) سورة الدهر :آية (٥)
(٣) سورة الدهر : آية(١٧) (٤) الحجة : ٢٠٤/١ مراد ملا .
(٥) طبقات القراء : ٢٠٧/١

(٦) انظر مثلا لوحة ٣٥ من البغداديات ، وقد فتحت الكتاب على سبيل الاتفاق فرأيته فى هذه اللوحة ينسب إلى الفرزدق وجرير وذى الرمة وأبي زيد .

٢ — ويقول حدثنا فلان . . وفلان من شيوخه[١] .

٣ — ويقرر مثلا أنه وجد المنقول بخط السكرى[٢] .

٤ — ويقول : قال الجرمى فيما قرىء علينا بالبصرة فى الفرخ[٣] .

أو يقول : وقد كان أبو بكر ذكر لنا فى كتابه ديوان النابغة ، من رواية الأصمعى ، وفيما قرأنا عليه كذا وكذا[٤] .

٥ — وتارة يقول : وأنشد أبو بكر من الأصمعى أحسب[٥] . أو أظنه الأعرابى ، أو أكثر ظنى أن الأصمعى قد ذكر فى كتابه المترجم بالألفاظ[٦] وأنشد. أبو مالك فيما يغلب على ظنى[٧] . أو كذلك أظنه قال[٨] .أو أرى أنه حكى لى كذا[٩]..

٦ — أو يقول : هذا أول القصيدة وابتداؤها على ما حكى لى[١٠] ، ولم أسمع من الغشاوة فعلا متصرفاً بالواو[١١] ، ولم أحفظ من ينباع فعل يفعل[١٢] ، أو لم أعلم تخذت تعدى إلا إلى مفعول واحد[١٣] ، ولست أعرف الكناية عن معنى الجملة لأحد من أصحابنا إلا شيئاً أجازه أبو عثمان فى كتابه الأخبار على تمريض[١٤] .

٧ — أو يقول : هذا لفظ أحمد بن يحى ، واستثبت أبا الحسن فى ذلك فأثبته وصححه ، ولم أعلم لأصحابنا فى هذه المسألة نصاً[١٥] .

أو يقول : حكى لى أحلت عينه ، ولست منها على ثقة[١٦].

٨ — أو يقول فى بيت عنترة :

هل تبلغنى دارها شـــدنية   لعنت بمحروم الشراب مصرم[١٧]

لعنت عليها ، فيكون الجار على هذا متصلا ـ على ما رآه الساعة ـ بتبلغنى[١٨] .

---

(١) انظر مثلا الحجة : ١/١٦٢ ، ١٦٤ ، ٢٣٦ مراد ملا .
(٢) الحجه : ١/٢٤٢ بلدية .
(٣) البصريات : ٨٣ وانظر ٦٤ أيضا .
(٤) البغداديات : ٢٦ .
(٥) البصريات:لوحة ٥٧ .
(٦) البغداديات: ٣٥ .
(٧) الشيرازات: ٣٩ .
(٨) الشيرازات: ٤١
(٩) المخصص: ٨/٢٣
(١٠) البصريات ٨٥
(١١) الحجة ١/٢٧٩ البلدية ، ٢٠٨ مراد ملا
(١٢) البصريات :لوحة ٥٥
(١٣) الحجة ٢/٦٧ البلدية
(١٤) البصريات ٦٥
(١٥) الحجة ١/٢٢٦ البلدية
(١٦) المخصص : ١/١٠١
(١٧) شرح المعلقات السبع للزوزني ١٤٣
(١٨) البصريات: ٥٥

٩ — ثم لا يستحى أن يقول لا أدرى . قال فى زلجى : لا أدرى أفعل هى أم اسم .

هذه نزعة أبى على ؛ وفاء بحق الأمانة العلمية فى مظاهرها المختلفة ، حتى تستطيع فى يسر أن تميز أقواله من أقوال غيره ، على يقين فى هذا التمييز وبصيرة ، وقد نص هو على ذلك فى كتابه إلى الصاحب بن عباد ، وقد أهدى إليه كتاب الحجة ؛ إذ يقول : « فما تضمن من أثر ، وقراءة ، ولغة ، فهو من المشايخ الذين أخذت عنهم ، وأسندت إليهم »[١] .

وكذلك كان شأنه فى كتبه التى اطلعت عليها .

فإذا ذهبت ألتمس تعليلا لهذه النزعة وجدت من أسبابها :

(أولا) أنه محدِّث[٢] ، والمحدثون يلتزمون الصدق ، والأمانة ، والتحرى فى الرواية ، والإسناد فيما يحدثون ، وقد وصفه ابن حجر بأنه صدوق فى نفسه[٣] .

(ثانياً) أن العلماء قد توارثوا هذه النزعة ، ورويت عنهم أقوال مأثورة فى الاعتراف بفضل القدامى ، فهذا أبو عمرو بن العلاء يقول : « إنما نحن بالإضافة إلى من كان قبلنا كبقل فى أصول رقل »[٤] .

وقال يونس لأبى زيد : يا أبا زيد ! كم من علم استفدناه فكنت أنت سببه[٥] ، واستحسن إبراهيم بن المهدى كتاب إسحق بن ابراهيم فى النغم واللحون قائلا : أحسنت يا أبا محمد ، وكثيراً ما تحسن . فقال اسحق : بل أحسن الخليل ؛ لأنه جعل السبيل إلى الإحسان[٦] ، وشىء مثل ذلك يروى عن السيرافى[٧] . وقد ظهرت هذه النزعة عند شيوخه الذين أخذ عنهم كابن السراج[٨] ، أو تأثر بهم كسيبويه[٩] ، وأبى حاتم[١٠] ، وأبى الحسن[١١] .

---

(١) معجم الأدباء : ٧/٢٣٩ — ٢٤٠ .
(٢) تاريخ بغداد : ٧/٢٧٥
(٣) انظر لسان الميزان : ٢/١٩٥
(٤) نزهة الألباء : ١٨
(٥) المغنى : ٢/١١٢
(٦) طبقات النحويين واللغويين : ٤٦
(٧) انظر معجم الأدباء : ٨/١٥٤
(٨) انظر الحجة : ١/٣٩ بلدية .
(٩) انظر الكتاب : ١/٣١٨ ، ٢/٣١٥ وسيبويه امام النحاة ١٨١
(١٠) انظر نوادر أبى زيد : ١٦
(١١) انظر كتاب مسائيه : ٢٣٥

وما كان لأبى على وهذا مسلك أساتذته ، أن يتخلى عن هذه الفضيلة فيما يحكيه ولا يزال الناس — بعد أبى على — يتواصون بهذه الأمانة العلمية حتى قالوا : « من بركة العلم وشكره عزوه إلى أهله »(١) .

وقد عرف ابن جنى هذه النزعة فى أستاذه ، وقد نقل ذلك السيوطى(٢) عن الخصائص(٣) .

(ثالثاً) أن أبا على حين أورد أقوال القدامى فى أمانة لم يقف أمامها مختفية شخصيته ؛ بل ناقش ، واعترض ، ورد ، وأورد الدليل ، وصحح ، ورأى ، ونظر ، وأكد ، ورجح ، واستشهد ، ولا يتأتّى شىء من ذلك فى قوة إلا إذا كان مصحوباً بذكر آراء غيره منسوباً إليه على قدر علمه به فى شك أو يقين .

عقيـــدته

لا نكاد نجد فيما بين أيدينا من كلام أبى على الفارسى نفسه ما ينم على تميزه في العقيدة بنحلة أو مذهب .

وهو في تناوله الكثير من نصوص القرآن ، المتصلة عن كثب بمسائل الاعتقاد ، في عرض هذا الكتاب ، نراه يوجه كل عنايته ، بعـد عرض ما أثر من وجوه القراءات المتواترة ، نحو تطبيق آرائه النحوية على كل وجه من تلك الوجوه ، ثم ايضاح مذاهب التفسير المختلفة المترتبة على ذلك ، دون مناصرة لمذهب على آخر ولا تحيز له الا بمقدار مـا يصح لـه من التوجيه النحوى ، سواء أكان في ذلك ترجيح لمذهب أهل السنة أم المعتزلة أم غير هؤلاء وهؤلاء .

وربما كان هذا المنهج الاختصاصى ، الـذى سلكه أبـو على في هذا الكتاب ، هو مذهبه الذي ارتضاه لنفسه في سائر مصنفاته ، أى أنه كان لا يشغل عقله وباله بالكتابة في غير فنه الذى تفرد به ، واحرز قصب السبق فيه على أفذاذ عصره ، وهو : علم العربية .

---

(١) انظر المزهر:٢/٣١٩ (٢) انظر المزهر:٢/٤١٧

(٣) انظر ٢/٦٠٨ وما بعدها . (٤) ١٩/٩ (٥) ٢/١٣١

(٦) ضحا الإسلام:٣/١٣ (٧) تاريخ الأمم الإسلامية : (الدولة العباسية ٢٥٣)

(٨) الفخرى : ٢٠٩

فنحن — من جانب — لا نكاد نجـد في ثبت مصنفات أبى على كتابا يتصل بغير مباحث النحـو ومسائل العربيـة ، واذا كان قد ورد في ذكر مصنفاته عند ياقوت [١] ذكر كتاب له في تتبع كلام أبى عـلى الجبائى في التفسير ، فأغلب الظن أنه تتبع في هذا الكتاب وجوه التخريجات النحوية المختلفة للآيات التى استند اليها أبو على الجبائى لتفسير نصوص القرآن في ضوء عقيدته الاعتزالية ، أو غيرها من الآيات ، مع صرف النظر في هذا التتبع عن مناصرة مذهب على آخر أو التحيز له .

على أن ذلك ان دل على شىء فانما يدل على معارضة الفارسى للجبائى في الاعتزال لا تشيعه له أو اعتناقه مذهبه .

والا لم يكد يتضح — من جانب آخر — اغفال كبـار المترجمين لحياة أبى على بيان عقيدته ، أو الجزم بقول في ذلك على الأصح .

ولعل أول خبر يمكن الركون اليه في تحديد اتجاه خاص لعقيدة الفارسى هو ما ذكره الخطيب البغدادى من أنه كان متهما بالاعتزال[٢] . ويدل هذا الخبر — أول ما يدل — على تضعيف هذا الاحتمال . فثمة فرق بين أن يقول الخطيب — وهو من هو في سعة الاطلاع والتثبت — : كـان أبو على معتزليا ، وأن يقول : كان متهما بالاعتزال ، كما يدل بعد ذلك على أن كتب أبى على — وقد كانت مشهورة متداولـة في عصر الخطيب — لا توحى بميل خاص الى التشيع لفرقة ، أو التطرف في عقيدة .

ثم يجىء بعد الخطيب البغدادى أبو الحسن على الشيبانى المعروف بابن الاثير الجزرى ، صاحب الكامل في التاريخ ، فيزيد هذه التهمة وهنا على وهن ، ولا يذكر في عقيدة أبى على أكثر من قوله : قيل كان معتزليا [٣] .

قد يكون هذان النصان أوثق ما ورد في تحديد عقيدة أبى على الفارسى وبيان نحلته ، لقدم مصدريهما ، وقوة ما عرف عن هذين المصدرين من التحرى ، والتحرز من القاء الكلام على عواهنه .

---

(١) معجم الادباء في ترجمة ابى على الفارسى ٧ : ٢٤١ .

(١) تاريخ بغداد ٧ : ٢٧٦ .

(٢) الكامل لابن الاثير ٩ : ١٧ .

وليس غريبا بعد أن يتوارث المترجمون المتأخرون لحياة أبي علي اتهامه بالاعتزال في وصف متردد بين التشكيك والترجيح (١) ، فطالما تبينا من كتب التراجم العربية في العصور المتأخرة على وجه الخصوص ايثارا لجمع الاخبار، والتكاثر بالآثار، على حسن التأتى لتحقيق النصوص، ونقد ما تحتوى عليه أو تشير اليه ، بل هي لا تخلو في كثير من الاحيان من شهوة التزيد في الخبر ، والتعلق بحشد كل بديع غريب .

نعم ينقل صاحب معجم الادباء عن أبي الفتح منصور بن المعذر الاصفهاني المتكلم أنه كان يعد أبا سعيد السيرافي وأبا على الفارسي وعلى ابن عيسى الرماني ، من المعتزلة النحويين (٢) .

ولكن هذا الخبر ربما أمكن فهمه على أن أبا الفتح الاصبهاني المذكور قد اعتمد على أقوال وتهم كالتي أشار اليها الخطيب البغدادى ، فغلبت عليه الرغبة في نظم الحلقات المتناسبة في عقد ، وجمع الاشباه في قرن .

على أننا اذا دققنا النظر في دراسة عصر أبى على وبيئته ، ووضعنا في الحسبان صورة ذلك العصر السياسية والاجتماعية العامة كما عرضناها من قبل ، لا سيما ذلك الطابع الذي كان يسم تلك الصورة من رجحان كفة البويهين وتغلغل نفوذهم وسلطانهم، ثم نظرنا بعد ذلك الى ما كان يتمتع به ابو على الفارسي من رفيع المنزلة وعظيم الشأن عند عضد الدولة البويهى — على وجه الخصوص — الذى أهدى اليه أبو على كثيرا من كتبه ، وقد يكون منها كتاب الحجة كما يتضح من فاتحته ، وكذلك الى حظوته عند غير عضد الدولة من أعيان رجال السياسة والحكم كالصاحب بن عباد، استطعنا اذا أن نهتدى هونا الى مثار تلك التهم التى أشار اليها البغدادى، والتى ربما كان الاصبهاني المتكلم قد تمسك بها في عد الفارسي من نحاة المعتزلة ، بل قد يكون في ذلك مظنة لما هو أكثر منه ، وهو توهم ان يكون الفارسي — فوق ما نسب اليه — من علماء الشيعة الامامية او غيرهم .

---

(١) انظر ابن خلكان رقم ١٥٥ ، وانباه الرواة للقفطى ١ : ٢٧٤ ، وبغية الوعاة للسيوطى : ٢١٦ .

(٢) معجم الادباء لياقوت : ٣ : ٢٤٤ .

ولكن ذلك ونحوه لا يعدو ان يكون قرينة فقط ، ان صلحت لترجيح رأى على رأى فهـى لا تصلح أن تكون سنـدا أو مستمسكا يعتد بـه او يعتمد عليه ، الا ان يرد في ذلك قـول صريح عـن مصدر وثيق ، او يكشف ابو على نفسه في عرض كلامه عـن نحلة ، او عقيدة ، او مذهب ينتمى اليه •

حقا ورد ذكر لمصنفات ابى على الفارسي في كتـاب : الذريعة الـى تصانيف الشيعة ، لمحمد بن محسن الرازى (نزيل سامراء المولود في ١١ من ربيع الاول ١٢٩٣ هـ/١٨٧٦ م) ، ولكن مصنف هـذا الكتاب من متأخرى الشيعة ، والقوم يتكاثرون بكل ما فيه مظنة الاتصال بهم على احد الوجوه •

على انه لم يرد ذكر لابى عـلى الفارسي ولا لكتبـه في كتاب معالم العلماء ، وهو فهرست لكتب واسماء المصنفين من الشيعة قديما وحديثا • تأليف رشيد الدين ابى جعفر محمد السروى المتوفى سنة ٥٨٨ هـ •

كما لم يرد للفارسي ولا لمصنفاته ذكر في فهرست الشيخ ابى جعفر الطوسي شيخ الطائفة (المتوفى سنـة ١٠٦٧/٤٥٩) ، ولا فـى تكملته لمحمد بن على بن شهراشوب المازاندرانى (المتوفى سنة ١١٩٢/٥٨٨) ، ولا فى ذيله ايضا لعلى بـن عبيد الله بـن بابويه القمى (المتوفى سنة ١١٨٤/٥٨٠) •

فأما كثرة استشهاد مفسرى الشيعة بأقوال أبى على وآرائه النحوية واللغوية ، كما يصنع أبو على الفضل بن الحسن ، أمين الدين الطبرسي (المتوفى سنة ١١٥٣/٥٤٨) فى كتابه مجمع البيان لعلوم القرآن ، فليس فى ذلك حجة لتشيع أبى على ، بل ربما كان الملاحظ فى ذلك ما كان بينه وبين عضد الدولة وغيره من روابط المذهب والنحلة ، ان لم يكن ما ذكرناه قبل من تكاثر القوم بكل من تحوم حوله شبهة قرابة اليهم •

وأما رثاء الشريف الرضى للفارسي • فما أبعده أن يكون دليلا على تشيعه، فقد كان الشريف يمدح ويرثى أعيان الرجال من شتى الملل والنحل،

وحسبك برثائه لابى اسحاق الصابىء وهو أبلغ قولا وأسير ذكرا من رثائه لابى على ٠

وبعد ، فقد نجد في تضاعيف كتاب الحجة لابى على ما قد يدل دلالة قوية على تشيعه ، كما ورد فيما نقله عن على كرم الله وجهه :

« يروى أن عليا — عليه السلام — لما قال له عدى بن حاتم ما الذى لا ينسى ، الخ ٠ فهذا الدعاء لعلى : « عليه السلام » ، صريح في الدلالة على تشيع صاحبه ، والشيعة — كما هو معروف — يقرنون عليا بالرسول صلى الله عليه وسلم وأنبياء الله ورسله ٠

ولكن مثل هذا النقل لا يصح أن يتخذ دليلا حاسما على تشيع الفارسي الا اذا استوثقنا من كتابته بخط أبى على نفسه لا بخط أحد النساخ ٠ وليس بين أيدينا نسخة من كتاب الحجة بخط أبى على ٠

مذهبه في الفقه

الظاهر أن أبا على كان يأخذ بمذهب أبى حنيفة فى الفقه ، فقد كان مولده فى فارس ومنشؤه في العراق ، وأصحاب أبى حنيفة فى القطرين كثير (١) ٠

ثم ان هناك مشابهة واضحة بين نحو أبى على وفقه أبى حنيفة ، كلاهما يشيع فيه القياس ، وهو اذا حقيق أن ينزع الى ابى حنيفة وأن يؤثر فقهه على ما سواه ٠

ويتردد الاستشهاد فى كتب أبى على بأقوال لابي يوسف ومحمد (٢)، وما كان ليفعل الا وهو لها دارس وهى لديه حاضرة ٠ ويروون عن كتب أبى على أنها احترقت ، فلم يبق منها الا نصف كتاب الطلاق عن محمد ابن الحسن (٣) ٠

---

(١) احسن التقاسيم : ٤٣٩ ٠

(٢) انظر الشيرازيات : ٢٦ ، ١٥٦ ٠

(٣) معجم الادباء : ٧ : ٢٥٧ ٠

صفات أبى على العقلية

من الآثار الأدبية التى تفصل صفات أبى على العقلية أرجوزة الشريف الرضى التى رثى بها أبا على، قال :

أَبا على للألدّ إنْ سَطَا ۞ وللخصوم إن أطالوا اللَّغَطا
تُصيبُ عمداً إن أصَابوا غلطا ۞ ولمعَ تكشف عنهن الغِطا
كشفك عن بيض العذارى الغطا ۞ ومصعب للقول، صعب الممتطى
عسفته، حتى عاد مجزول المطا ۞ وسائرات بالخُطَا، لا بالخَطا
شواردٌ عنك قطعن الريطا ۞ كما رأيت الخيل تعدو المرطى
ألبست فيها كلَّ أذْنٍ قرطا ۞ قد وردت أفهامَنا وِرد القطا
ومشكلات ما نشطن منشَطَا ۞ مَيَّز من ديجورها ما اختلطا
ضل المجارون، وما تورطا ۞ ملُّوا مجاراة فَنيقٍ قد مطا
قَومٌ يهدّ الأرض أن تخمطا[(١)] ۞ تطرفوا الفج الذى توسَّطا
لا جذَعا أودَى ولا مُغْتَبِطا ۞ كانو العقابيل، وكنت الفرطا
عند السراع يعرف القوم البطا ۞ أرضى زَمانٌ بك، ثم أسخطا
ما أطلبَ الأيامَ منا شَططا[(٢)]

وهذه الأرجوزة تكشف عن غير خصيصة من خصائص أبى على : فهو جدل ذو لَدَد، يفحم الخصوم — ويظهر أن ذلك انحدر إليه من دم أمه العربى ؛ ففى العرب — كما يقول الجاحظ اللدد عند الخصومة (٣) ، ثم هو يصيب عمداً إن أصابوا مخطئين، يكشف عن لمع الأفكار، حتى تبدو واضحة غراء، ويذلل صعاب القول، حتى يردها حزلة الامتطاء، ويعالج شوارد الأفكار، بما يقربها إلى الأفهام،

---

(١) جاء فى القاموس — والمتخمط القهار والشديد الغضب له جلبة من شدة غضبه .
(٢) ديوان الشريف الرضى ٤٤٥/١ وما بعدها أعيان الشيعة ٣٥/٢١
(٣) البيان والتبيين : ٢٢/١

ويزيل ما اختلط بها من غموض وابهام. قد ضل منافسوة حتى ملوا مجاراته، وهو هو لم يتورط ، أو يدركه الضلال، غلاب شديد الغضب، فى جلبة تهد الأرض، فلا يجرؤ أحد أن يقف أمامه خشية ورعباً . فيه فحولة، أسعد الزمان بحياته، ثم أسخط بموته، وما أكثر ما تبعد بنا الأيام!

ومن الدلائل الخاصة على ذكاء أبي على نصحه لأبي القاسم عبد الله بن محمد بن جرو الأسدى، وكان يلثغ بالراء غيناً — فقال له الفارسى: «ضع ذبابة القلم تحت لسانك؛ لتدفعه بها، وأكثر مع ذلك ترديد اللفظ بالراء».

ويفعل ابن جرو الأسدى ما نصح به أبو على فيستقيم له إخراج الراء [1].

قال ياقوت: ما أحسن ما تلطف أبو على فى طبه هذا! فما الذى دله على هذه المعالجة؟ ومن أين استنبط هذه المداواة، وكيف احتال لهذا البرء؟ ثم علل لذلك تعليلا يتفق مع طبيعة الراء فى النطق، وعادة الألثغ، وأثر رفع اللسان بالقلم أو نحوه — فى ذلك. ثم قال: فلو كان واصل بن عطاء الغزالى حاذقاً حذق أبي على (رحمه الله) فداوى رأرأته ولثغته بهذا الدواء لأراحه من تكلفه إخراج الراء من كلامه، حتى شاع عنه من ابدال بعض الكلم ما شاع [2].

وبراعة أبي على فى النكتة، وسرعة استحضارها دليل كذلك على الذكاء: نقل صاحب أعيان الشيعة عن رياض العلماء أن جماعة وقفوا على باب أبي على فلم يفتح لهم فقال أحدهم: «أيها الشيخ! اسمى عثمان، وأنت تعلم أنه لا ينصرف، فبرز غلامه وقال: إن الشيخ يقول: «إن كان نكرة فلينصرف» [3]!!.

ومما يشهد لأبى على بصفاء ذهنه، وخلو فكره — أنه سئل قبل أن ينظر فى العروض عن خرم متفاعلن، فتفكر وانتزع الجواب فيه من النحو [4].

وقد يكون فى هذه القصة شيء من المبالغة أشبه بذلك الذى يحكى عن الخليل من أن ملك اليونان كتب إليه كتاباً باليونانية فخلا بالكتاب شهراً حتى فهمه ...، [5] ولكن القصة على كل حال صدى لما كان يشتهر به أبو على من الذكاء.

على أن آثار العالم تدل على عقليته، وهذه كتب أبي على تنطق بما كان عليه من دقة فى الاستخراج، وبراعة فى الاحتجاج، ولطف فى القياس والاستدلال،

---

(١) بغية الوعاة: ٢٢٠ (٢) معجم الأدباء: ٦٧/١٢

(٣) اعيان الشيعة: ٢١/٢١٠ حاشية نكته الشيخ! تحوية...

(٤) انظر بقية الخبر فى معجم الأدباء: ٢٢٦/٢٣٥/٧.

(٥) انظر الخبر بتمامه فى طبقات الزبيدى: ٤٧

مما يؤكد قوله : « أخطىء فى خمسين مسألة مما به الرواية ، ولا أخطىء فى واحدة مما به القياس [1] » . وفى ذلك دليل أى دليل على أنه يعمل عقله وتفكيره فى اعتبار الأشياء فيصيب ، ولا يخطئه السداد والتوفيق .

وتعليل ذكاء أبى على أمر ميسور ، فهو :

أولا — فارسى ، « والفرس — كما يقول أبو عمر النمرى القرطبى (٤٦٣ هـ) أهل رياسة وسياسة ، وحسن مملكة ، ووضع الأشياء فى مواضعها [2] » ، وهى صفات تتصل بنضج العقل ، وخلوص التفكير .

ثانياً — ثم هو فسوى ، وقد قرر المقدسى الذى طوف بالبلاد الإسلامية فى عصر الفارسى أنه لم يجد « ألبق من أهل فسا [3] » .

ثالثاً — ثم هو عاش مدة طويلة بشيراز ، وفى أهلها كما يقول المقدسى أيضاً : « عقل ودها [4] » .

هذه الدلائل العامة تصاحبها أخرى خاصة ، فأبو على يمتزج فى نسبه الدم العربى بالدم الفارسى ، ومن المقرر أن الاغتراب فى المصاهرة مؤد إلى فراهة الأجسام ، وسلامة العقول حتى أثر « اغتربوا لا تضووا [5] » فكيف يكون الحال بالامتزاج والتصاهر بين فارسي وعربية ؟ !

---

(١) انظر نزهة الأدباء: ٢١٠ ، ويجعلها صاحب اعيان الشيعة مائة والاتفاق على الأول .

(٢) القصد والأمم: ٣١ (٣) أحسن التقاسيم: ٣٤

(٤) نفس المصدر: ٤٣٠ (٥) لسان العرب: ٢٢٥/١٩

ثقافة أبي علي — دراسته ومراجعه

يحدثنا المؤرخون أن أبا علي انتقل من فارس إلى العراق في السنة السابعة بعد الثلاثمائة من الهجرة، ومعنى ذلك أنه انتقل إلى العراق، وقد نضج واكتمل إذ كان يدرج نحو العشرين [١] . ولست أعرف على التحديد منهج الدراسة الذي اتصل به أبو علي قبل انتقاله إلى عاصمة العراق، وإن بدا أنه شدا أطرافاً من ألوان الثقافة العربية مما يبدأ به الدارسون عادة من حفظ القرآن الكريم وسماع الحديث الشريف، والتفقه في الدين الحنيف، وحفظ أشعار العرب، إلى جانب ما توحي به عبارته، وقد جرى ذكر الشعر بحضرته: «إني لأغبطكم على قول الشعر، فإن خاطري لا يوافقني على قوله مع تحقيقي العلوم التي هي مواده [٢] ، وما مواد الشعر إلا علم العربية والشريعة والعروض والقوافي.» [٣] كما يبدو أنه نظر في النحو قبل أن ينظر في العروض [٤] . وانتقال أبي علي إلى العراق مكنه من الاتصال بالأعلام من شيوخ العربية، وبذلك عرفنا على التحديد منهج الدراسة الذي تلقاه منذ ذلك الحين: ففي العراق يلتقي بأبي بكر بن مجاهد المقرئ، وأبي اسحق الزجاج النحوي، اللغوي وصاحب الاختيار في النحو والعروض [٥] . وأبي بكر ابن الخياط الذي كان يخلط بين مذهبي البصرة والكوفة [٦] ، وأبي بكر بن دريد اللغوي صاحب الجمهرة، وأبي بكر مبرمان النحوي، وأبي بكر بن السراج صاحب الأصول في النحو [٧]، ولا شك أنه باتصاله بهؤلاء الشيوخ أرضى نهمه العلمي، واستكمل ما لم يكن أدركه في فسا وشيراز، وتبحر في اللغة والنحو وعلوم العربية ما شاء أن يتبحر، وتحدثنا المصادر أنه قرأ كتاب سيبويه على مبرمان [٨] وأبي بكر ابن السراج [٩]، كما سمع من الزجاج كتابه في معاني القرآن [١٠] . كما سمع معاني القرآن للفراء من أبي بكر بن مجاهد [١١] .

---

(١) يذكر الدكتور بشر فارس أن أبا علي انتقل إلى بغداد وهو ابن تسع ولعل عشرة ساقطة. انظر سر الزخرفة الإسلامية: ٣١/٣٤.

(٢) وفيات الأعيان ١/٣٦٢ ومعجم الأدباء: ٣/٢٥١

(٣) انظر المثل السائر: ٤

(٤) انظر معجم الأدباء: ٧/٢٣٥-٢٣٦

(٥) نزهة الالباء: ١٦٦

(٦) نزهة الألباء: ١٦٨.

(٧) نزهة الالباء: ١٦٩

(٨) بغية الوعاة: ٧٤

(٩) معجم الأدباء: ٧/٢٠٢ - ٢٠٣

(١٠) انظر مقدمة كتاب المحتسب: ١٠

(١١) انظر المصدر السابق ...

وتعد عبارة أبي حيان التوحيدى فى كتابه الامتاع[١] ، مفتاحاً للحديث عن دراسة أبي على ومراجعه فهو يقول : « . . وأما أبو على فأشد تفرداً بالكتاب وأشد إكباباً عليه . . وما تجاوز فى اللغة كتب أبي زيد، وأطرافاً مما لغيره ، وتفتيش كتب أبي على نفسها يجعلنا نتحقق من قولة أبي حيان ، وبخاصة كتابه الحجة الذى قال فى إهدائه للصاحب بن عباد : « فما تضمن من أثر ، وقراءة ، أولغة ، فهو عن المشايخ الذين أخذت ذلك عنهم ، وأسندته إليهم[٢] .

كتب أبي على تدل على أنه حفظ القرآن الكريم ، وانتفع به ، ونظر فيه نظرة الفاحص المستشهد على آرائه النحوية . اسمع إليه يقول : «مما أصبت مما أعمل فيه الثانى قوله (تعالى) : « قال آتونى أفرغ عليه قطراً »[٣] . تر كيف يقف أبو على أمام آى القرآن الكريم يتفحصها ، ويستخرج منها ما تدل عليه عما يذهب إليه، ثم تراه قوى الاستحضار ، لآى القرآن يفسر بعضها ببعض ، ويشرح لفظاً هنا بلفظ هناك[٤]،وهو عالم بالتفسير[٥] وقد اطلع على تفسير ابن عباس[٦] ويحكى عن أبي عمر فى تفسيره[٧]. ويورد تفسير السدى للقليل فى قوله تعالى : « ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا »[٨] . ويتصل بأبي عبيدة فى مجازه ، ويستعين به[٩] . ويروى عن الزجاج كتاب الإبانة والتفهيم عن معنى بسم الله الرحمن الرحيم[١٠] ، كذلك كان من ثقافة أبي على الحديث ، يسمعه ويرويه ، وله تلاميذ يسمعون منه ، وقد قال عن نفسه : قد سمعت الكثير فى أول الأمر ، وكنت أستحيي أن أقول: أثبتوا اسمى[١١] كما استظهرت فى مكان آخر على روايته للحديث ، وعلى تفقهه فى الدين ، ومشاركته فى هذا اللون من الثقافة الدينية . وما من شك كذلك أنه بجانب هذه الدراسات الدينية واللغوية والنحوية كانت له مشاركة فى رواية الشعر[١٢] وكان يقايس بين المسائل النحوية

---

(١) الجزء الأول ١٣١
(٢) معجم الأدباء ٧/٢٣٩ـ٢٤٠
(٣) يرى أبو على ما لايراه البصريون
(٤) سأعطى ذلك فضل بيان فيما بعد
(٥) انظر الشيرازات ٨١
(٦) الحجة ١/٢٣ مراد ملا والاغفال ٥
(٧) الحجة ١/٢٢٨ مراد ملا
(٨) الحجة ١/١٥٤ مراد ملا.
(٩) انظر مثلا الحجة ١/١٥٩ ، ١٦٩ ، ١٧١ ، ٢٠٦ ، ٢٣١ ، ٢٧٣ من البلدية .
(١٠) انظر المخطوطة رقم ٦٧ نحو الصفحة الأخيرة من هذه المجموعة .
(١١) معجم الأدباء ٧/٢٥٥
(١٢) انظر البصريات لوحة ٥٧

والمعانى الشعرية[١] ، كما كان له علم بالأخبار الأدبية[٢] ، وقد قرأ على أبى بكر ابن السراج ديوان النابغة من رواية الأصمعى[٣] .

وقد أجاز ابن جنى رواية أبيات المعانى[٤] للأشناندانى الراوية البصرى[٥] ، وكتابه المعانى يتضمن الكلام على المذاهب الشعرية ونقدها ، وضروبها ، وأساليبها وأطوارها فى عصورها المختلفة، وتفسير غريبها[٦] . كذلك رأيت أبا على يعتمد على ماقال أبو مالك عمر بن كركرة الأعرابى[٧] ، وأبو مالك هذا أحد فصحاء العرب المشهورين الذين سمع منهم العلماء[٨] . كذلك اتصل أبو على بمعانى الشعر لأستاذه أبى بكر بن الخياط[٩] .

وشواهد أبى على دالة على ماله من وفرة المحفوظ[١٠] ، والضلاعة فى الاستشهاد، واليقظة فى الاستنتاج[١١] . يذكر الأمثال[١٢] ، ويستشهد بأقوال الكهان[١٣] ودعاء الأعراب[١٤] وأقوالهم[١٥] ، وآثار الأحبار[١٦] ، ويروى الأخبار[١٧] ، ويعرف ما يذكره حذاق الفلاسفة[١٨] ، وهو عالم بعادات العرب[١٩] ، وعادات الفرس[٢٠] .

ومن المراجع اللغوية والنحوية والصرفية التى اعتمد عليها أبو على واتصل بها : نوادر الأصمعى[٢١] ، وكتاب الخيل للأصمعى أيضاً[٢٢] ، والألفاظ له كذلك[٢٣] ،

---

(١) انظر الخصائص: ٥٦٨/١ (٢) انظر الشيرازيات: ١٨ ، ١٢٠
(٣) انظر البغداديات: ٢٩
(٤) انظر خزانة الأدب: ١٢/١ (٥) بغية الوعاة ٣٢٤
(٦) الكتاب مطبوع بدمشق ١٩٢٢ م ، ١٣٤٠ هـ .
(٧) الشيرازيات : ٣٩
(٨) انظر الفهرست: ٦٦ فى ترجمة ويلتقم المحار المستنع وصحتها الحار المستنع وانظر الرواة ٣٦٠/٣ (٩) معجم الأدباء : ٢٦١/٧
(١٠) انظر مثلا المخصص لابن سيده: ٩٨/٥ ، ١٠٧ ، ١٠٩ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ٤/٧ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٦١ ، ٦٣ ، ١١٣ (١١) اقرأ مثلا المخصص: ١٨٧/٧-١٨٨
(١٢) المخصص: ١٢١/٤، ١٥٥/٩ (١٣) المخصص: ٦٤/٤
(١٤) نفس المصدر: ١٤٣/١٦ (١٥) المخصص: ٣/١٢
(١٦) ٧/٩ (١٧) المخصص: ٤٣/١٦
(١٨) المخصص: ٣١٩/١١ (١٩) انظر المخصص مثلا: ٤٩/٨
(٢٠) انظر المخصص: ١٥٩/٧ فى شرح البحار
(٢١) انظر انباه الرواة : ١١٩/٢ (٢٢) انظر الفلم رقم ٧٨٦ المحفوظ بمعهد احياء المخطوطات العربية (٢٣) انظر البغداديات: ٤٩ ، ٣٥ فى كلمة تئفة وانظر سيبويه ٢٣٠/٢

ويتصل بنوادر ابن الأعرابي[١] ، والأصول لأبي بكر بن السراج[٢] ، والجمل[٣]، وكتاب الأخبار لأبي عثمان[٤] . ويروى كتاب التصريف عن ابن السراج عن المبرد[٥] .

ويستعين بما قال الجرمي في اللغة[٦] ، ويقرأ كتابه الفرخ[٧] . وهو القائل : « قل من اشتغل بمختصر الجرمي إلا صارت له بالنحو صناعة[٨] » . ويكتب الاشتقاق لابن دريد إملاء عنه[٩] . ويتصل بكتب يعقوب بن السكيت[١٠] ، وينص على أنه قرأ إصلاح المنطق على أبي إسحق[١١] ، كما يقرأ التصريف للفراء[١٢] ، ويطلع الفارسي على كتب أبي الحسن بعامة[١٣] ويشير قوله : أنشده : (يريد فلو كان البكاء يرد شيئاً) — أبو الحسن في المعاني إلى اطلاعه على ذلك الكتاب[١٤] . وكذلك قوله قال أبو الحسن في كتابه في القران[١٥] ، كما يتصل بكتاب الغلط للمبرد[١٦] . وينظر في المقتضب فما ينتفع منه بشيء إلا بمسألة واحدة[١٧] ، ويطلع على المسائل المشروحة من كتاب سيبويه للمبرد ، ويقرؤه على ابن السراج[١٨] . ويتصل بأحمد بن يحي ثعلب عن طريق أبي بكر بن مجاهد الذي حدث عنه ، وكان على علم بمذهب الكسائي والفراء[١٩] وآراء الكوفيين على العموم[٢٠] ، ثم هو يطلع على كتاب العروض لأحمد بن محمد العروضي حتى قال أبو علي . وقد احتاج إلى الاستشهاد ببيت قد تكلم عليه في التقطيع : « وقد كفانا أبو الحسن العروضي الكلام في هذا الباب[٢١] » .

هذه أمثلة من مصادره تجمل لنا سعة اطلاعه ، وحرصه على آثار من سبقوه ، كما كان حريصاً على نقل الفوائد[٢٢] . كذلك تدل بعض أنبائه أنه كان يعقد سمعه

---

(١) البصريات : ٦١ (٢) البغداديات : ٣٩ والبصريات : ٦٤
(٣) معجم الأدباء : ٧/٢٣٩ (٤) البصريات : ٦٦
(٥) انظر المنصف لابن جني ٦ تحقيق الأستاذين ابراهيم مصطفى وعبد الله أمين
(٦) الشيرازيات : ٣٦ (٧) البصريات : ٦٤ ، ٨٣
(٨) نزهة الألباء : ١٠١ (٩) البصريات : ٥٧
(١٠) البصريات : ٧٣ (١١) المخصص : ٥/٧٤
(١٢) انظر خزانة الأدب : ٢/٢٥٩ (١٣) انظر الحجة : ١/٣٦ من البلدية
(١٤) انظر المسائل المنثورة لوحة ١٥٦ (١٥) الحجة : ١/٢٤٨ من مراد الملا
(١٦) الاغفال : ١٥ (١٧) انظر معجم الأدباء : ١٩/١٢١
(١٨) الاغفال ١٩٧ (١٩) الحجة : ١/٢٨٩ من البلدية
(٢٠) انظر البصريات : ٦٤ (٢١) معجم الأدباء : ٤/٢٣٣
(٢٢) انظر معجم الأدباء : ٧/٢٣٧

على لهجات الناس ، وما يلوون به ألسنتهم ، فتنبه هذه الظواهر إلى لحظها ، وتسجيلها ، والإفادة منها فى تلاقح اللهجات ، وسريانها على ألسن المتكلمين[1] .

ومما يدل على حبه للعلم موقفه من كتبه التى احترقت ، وما ناله من الهم والحزن والتحير والذهول ، وبقاؤه على ذلك شهرين لايكلم أحداً لغلبة الفكر عليه[2] .

ومما مكن له فى العلم أنه أقام على أنسه به لايشغله عنه شىء — كما يقول تلميذه ابن جنى — سبعين سنة زائحة علله ، ساقطة عنه كلفه ، وجعله همه وسدمه ، لايعتاقه عنه ولد ، ولايعارضه فيه متجر، ولا يسوم به مطلباً ، ولايخدم به رئيساً إلا بأخرة وقد حط من أثقاله ، وألقى عصا ترحاله[3] . .

ثم هو بنظره فى العربية ، والخوض فيها ، يستجيب لداع دينى يفسره شرحه للحديث الشريف : « إن الله ينهاكم عن قيل وقال » حيث قال : معنى النهى فى هذا الحديث المجادلة بالباطل ؛ ليدحض به الحق ، وليس على النهى عن الخوض فى العربية وتعلمها ؛ لأن الحض على النظر فيها قد كثرت الرواية به عن السلف (رحمهم الله) ، ثم قال : حدثنا اسماعيل بن محمد قال : « حدثنا محمد بن عيسى العطار قال : حدثنا كثير بن هشام قال : « حدثنا عيسى بن ابراهيم عن الحكم بن عبد الله الزهرى ، عن سالم عن أبيه قال[4] : « مر عمر بن الخطاب على قوم يرمون رشقاً فقال : بئس ما رميتم » فقالوا : يا أمير المؤمنين ، إنا قوم متعلمين . فقال : والله لذنبكم فى لحنكم أشد على من ذنبكم فى رميكم ؛ سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : رحم الله رجلا أصلح من لسانه[5] .

بهذه النزعة الدينية يخوض أبو على فى العربية ، وناهيك بها نزعة دافعة إلى بلوغ أقصى الغايات ؛ استجابة لداع من دواعى العقيدة ، ورغبة فى مذخور الثواب بتقديم القربات .

أما دور العلم والأماكن التى درس فيها أبو على، وثقف ، وتثقف فقد كانت :

(أ) المساجد : ويقول المقدسى : « ومن رسوم أهل فارس إذا صليت العصر كل يوم جلس العلماء للعوام إلى المغرب ، وكذلك بعد الغداة إلى ضحى ، وأيام الجمع

(١) انظر الخصائص: ١/٩٥ (٢) انظر معجم الأدباء: ٧/٢٠٦ ـ ٢٠٧

(٣) الخصائص: ١/٢٨٥

(٤) حرصت على نقل الاسناد فى هذا الحديث لأن توثيقه على هذه الصورة من تمام البرهان على ما أنا فيه (٥) الحجة: ١/٢٣١ مراد ملا

يجتمعون فى غير موضع ، وطابت شيراز بجامعها ، والصوفية به كثير[1] . ونجد فى نهـاية المسألة الأولى من الشيرازيات لأبى على ما نصه : « هذه مسألة أملاها — أى أبو على — بشيراز فى المسجد الكبير بالربض[2] » .

(ب) والدور : قال ابن جرير الطبرى : حضرت باب دار أبى كريب الهمذانى مع أصحاب الحديث فاطلع من باب خوخة له ، وأصحاب الحديث يلتمسون الدخول ويضجون ، فقال : أيكم يحفظ ما كتب عنى ؟ فالتفت بعضهم إلى بعض ، ثم نظروا إلى وقالوا : « أنت تحفظ ما كتبت عنه ؟ » قال : قلت نعم ! فقالوا : هذا فسله ، فقلت : « حدثتنا فى كذا بكذا ، وفى يوم كذا بكذا » . قال : « وأخذ أبو كريب فى مساءلته إلى أن أعظم فى نفسه ، فقال له : ادخل إلى فدخل إليه ، وعرف قدره على حداثته ، ومكنه من حديثه[3] .

ونجد فى صدر رسالة من الشيرازيات مانصه : « قرأتها على الشيخ (أيده الله) فى جمادى الأولى سنة أربع وستين وثلثمائة فى منزله[4] » .

(ج) وخزائن الكتب : وتلقى العلم عنها يتضح بمـا يذكره ياقوت عن جعفر ابن محمد الموصلى (ت ٣٢٣ هـ) من أنه كان له ببلدة دار علم جعل فيها خزانة كتب من جميع العلوم ، وقفاً على كل طالب للعلم ، لا يمنع أحداً من دخولها ، إذا جاء غريب يطلب الأدب ، وإن كان معسراً أعطاه ورِقاً وورَقاً ، تفتح كل يوم ، ويجلس فيها إذا عاد من ركوبه ، ويجتمع إليه الناس ، فيملى عليهم من شعره ، وشعر غيره ومصنفاته . . يملى من حفظه من الحكايات المستطابة ، وشيئاً من النوادر المؤلفـة ، وطرفاً من الفقه ، وما يتعلق به[5] . ولعل أبا على ورد هذا المنهل فى بعض رحلاته إلى الموصل . هذا وكانت خزانة عضد الدولة مفتوحة للعلماء كما نفهم من المقدسى[6] .

---

(١) أحسن التقاسيم : ٤٣٩ (٢) المسائل الشيرازيات : لوحة رقم ١٠
(٣) معجم الأدباء : ١٨/٥١ (٤) الشيرازيات : لوحة رقم ١١
(٥) معجم الأدباء : ٧/١٩٣ (٦) انظر أحسن التقاسيم : ٣٩٤ ، ٤٤٨

هل كان أبو علي يعرف الفارسية ؟

أبو علي يلقب الفسوى حيناً ، والفارسى أحياناً [١] ، وهو لقب يوحى بأنه على صلة بالفرس ، فاللقب الأول دال على مولده ، والآخر يشير إلى جنسيته ، ثم هو قد انتقل من بلاد فارس إلى بغداد فى نحو العشرين من عمره ، وإذن فقد أمضى مدة طويلة فى فارس : فسا مولده . وشيراز التى عاش فيها قبل أن يرحل إلى بغداد عاصمة الخلافة فهل كان بعد ذلك كله — يعرف الفارسية ؟

يشير ابن جنى فى كتابه الخصائص إلى أن أبا على قد تدرب بالفارسية قبل استعرابه [٢] ، ولكن تدربه بالفارسية لم يكن يبلغ به إلى أن يكون عالماً باللغة العجمية علمه باللغة العربية [٣] .

وفى مكان آخر من الخصائص يقول ابن جنى : « ورأيت أبا على (رحمه الله) كغير المستوحش من الابتداء بالساكن فى كلام العجم . . . قال : « وإنما خفى حال هذا فى اللغة العجمية لما فيها من الزمزمة » يريد أنها لما كثر ذلك فيها ضعفت حركاتها ، وخفيت [٤] .

وملحظ أبى على فى النص الأخير ، وعدم استيحاشه من ابتداء العجم بالساكن، وتعليله ذلك بما علل . كل ذلك لا ينهض دليلا قوياً على علمه بالفارسية ؛ لأن هذا الملحظ يتأتى للعربى خالص العروبة ، كما يتأتى لمن هو غير أعجمى على وجه العموم . ومثل ذلك يوجه إلى قوله فى البغداديات : « وإنما تكون الدربة بحسب كثرة العادة ، وهذا موجود فى العادات ، وبيّن عند أهل اللغة . ألا ترى أن المتكلم باللغة العربية لا يسهل عليه النطق باللغة الفارسية ، ولقلة اعتياده لذلك ، وكذلك المتكلم باللغة الفارسية، وكثيراً لا يسهل عليه النطق باللغة العربية سهولة الفارسية،وليس ذلك لشىء أكثر من أن كل واحد من أهل اللغتين لما لم يكثر ذلك فى عادته فلم يَرْتَضْ به لم يَخِفَّ عليه [٥] » .

وإذا كان ابن جنى الرومى يعرف الكلمات الفارسية [٦] ، فأحر بشيخه الفارسى أبى على أن يعرفها .

على أنى بعد ذلك وجدت ما يدل على علم أبى على بترجمة بعض كلمات فارسية

---

(١) انظر تحقيق ذلك فى ص ٤١ وما بعدها من هذا البحث .
(٢) الخصائص : ١/٣٥٢ (٣) نفس المصدر : ١/٢٥٢-٢٥٣
(٤) الخصائص : ١/٩٤ (٥) البغداديات : لوحة ٤٧
(٦) الخصائص : ١/٩٣ وما بعدها

ذلك قوله فى معرض الحديث عن الخبر فى قولهم « هو حلو حامض » ألا ترى أن أبا عمرو قال فى تفسير ذلك : « ترش شيرين [١] » ، وترش شيرين كلمة فارسية؛ معناها حلو حامض [٢] .

وفسر الزجاج الأسوار من أساورة الفرس بأنه الجيد الرمى بالسهام ، وتعقبه الفارسى بقوله : « و ما ذكره فى الأسوار أنه الجيد الرمى بالسهام فهذا لعمرى صفة من أوصافهم ، وليس بترجمة اللفظ على حقيقته ، والترجمة ذو الفرس [٣] .

وقال أبو على فى الحلبيات : « والأبريق » ترجمته بالفارسية أحد شيئين :

(ا) أما أن يكون طريق المـاء . (ب) أو صاب الماء على هيئة [٤] ، وانظر كلامه فى الأسكرجه [٥] .

وأورد أبو منصور الجواليقى فى كتابه المعرب من كلام الأعجمى على حروف المعجم ما نصه : « حكى عن أبى على قال : « رأيت أبا بكر يدير هـذه اللفظة : (بوصى) ، ليشتقها فقلت : « أين تذهب ؟ أنها فارسية : انما هو بوزيد وهو اسم جدنا ، قال ومعناه السالم فقال أبو بكر : « فرجتَ عنى » .

فذلك النص يدل على معرفة أبى على للفارسـية [٦] ، وثقة أبى بكر به فيها ، وما يحدث عنها

وبعد : فإن فارسية أبى على ، وإقامته قرابة أربعين عاماً ببلاد فارس قبل أن يرحل إلى بغداد ، وبعد أن لحق بخدمة الدولة الديلمى ، ثم صداقته لعضد الدولة الذى يرتفع فى نسبه من بويه إلى واحد من ملوك الفرس [٧] ومعرفة عضد الدولة للفارسية [٨] ، وحكمة بلاد فارس فى وقت ضعفت فيه الخلافة العباسية — كل ذلك بعض الدلائل على صلة أبى على بالفارسية وعلمه بها .

على أننى بعد أعود إلى قولة ابن جنى عنه — وقوله الفصل فى ذلك : — إنه تدرب بالفارسية قبل استعرابه ، ويبدو أنه لما استعرب تغلبت العربية ، ولحقت الفارسـية الحيف من العربية كما يقرر الجاحظ فى بعض ما قال [٩] .

---

(١) الحجة : ١/١٣٦

(٢) انظر القاموس الفارسى العربى فى هاتين الكلمتين

(٣) الاغفال رقم ٦٩٩ تفسير : ٥٢٨

(٤) الحلبيات ظهر ورقة ٨٧ (٥) الحلبيات : ٨٤

(٦) المعرب . ٤ (٧) الفخرى : ٢٤٤

(٨) انظر أحسن التقاسيم : ٤٣٢ فى كلامه على جور (٩) انظر البيان والتبيين :

مذهب أبى على فى القراءات

يجدر بى وموضوع البحث « أبو على وأثره فى القراءات والنحو » أن أتبين مذهب أبى على فى القراءة كما أتبين مذهبه فى النحو، وأن أتعرف القراءة التى كان يقرأ بها القرآن الكريم، والإمام الذى كان يتأثره فى قراءته، والأسباب التى دفعته إلى تأثر ذلك الإمام دون سواه؟ ثم دلائل هذا التأثر فيما ترك لنا أبو على من شواهد ونصوص، ويعيننى المقدسى فى أحسن التقاسيم إعانة خاصة. حيث يبين أصحاب القراءات المستعملة فى عهده — وهو معاصر لأبى على — كما يذكر أماكنها فى العالم الإســـلامى، وذلك قوله: « وأما أصحاب القراءات المستعملة اليوم فعلى أربعة أقسام:

(ا) حروف أهل الحجاز وهن أربع: قراءة نافع، وابن كثير، وشيبة، وابن جعفر.

(ب) وحروف أهل العراق وهن أربع: حرف عاصم، وحمزه، والكسائى، وأبى عمرو.

(ج) وقراءة أهل الشام وهى لعبد الله بن عامر.

(د) وحروف الخاص وهن أربع: قراءة يعقوب الحضرمى، واختيار أبى عبيدة، واختيار أبى حاتم، وقراءة الأعمش. وأكثر الأئمة على أن الجميع صواب[1]

وشيوع قراءات هؤلاء الأئمة فى تلك البيئات أثر من آثار استيطانهم لها، وأخذ أهلها القراءات عنهم، وتلاوة القرآن بحروفهم:

١ — فابن عامر أحد العرفاء الذين أقامهم أبو الدرداء الأنصارى فى جامع دمشق، ولما مات أبو الدرداء خلفه ابن عامر[2].

---

(١) أحسن التقاسيم: ٣٩ ط ليدن الطبعة الثانية سنة ١٩٠٩

(٢) طبقات القراء: ١/٦٠٦

٢ — وابن كثير مكى ، ولد بمكة ، وظل ثلاثة أرباع قرن بها مقيما فيها (١) . ولم يزل هو الإمام المجتمع عليه فى القراءة بمكة حتى مات بها (٢) .

٣ — ونافع مدنى عاش بالمدينة يقرىء فيها الناس دهراً طويلا نيفاً وسبعين سنة (٣) .

٤ — بقى بعد ذلك العراقيون : أبو عمرو البصرى (٤) ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائى الكوفيون (٥) ، فمن الطبيعى إذن وهذه بيئات القراء السبعة أن تذيع قراءاتهم فيها إذ كان الناس يتلقون عنهم ، ويقرءون — سماعا أو عرضاً عليهم .

وأستطيع أن أستبعد كلا من ابن عامر الشامى ، ونافع ، وابن كثير الحجازيين ؛ لأن أبا على لم يعش فى بيئة الشام إلا قليلا ، بل كما أعلم — لم يعش فى الحجاز أصلا — فليست له وسيلة إلى قراءة إمام من هؤلاء الأئمة الثلاثة .

وبقى بعد ذلك شيوخ البيئة العراقية التى عاش فيها أبو بكر بن مجاهد الذى روى أبو على القراءة عرضاً عليه (٦) .

وأثر هؤلاء الأئمة العراقيين ، ودلائل تأثر المقرئين بقراءتهم واضحة فيما يرويه المؤرخون من أن أبا جعفر الطبرى (ت ٣١٠ هـ) كان يقرأ قديماً لحمزة قبل أن يختار قراءته (٧) ، وأن نفطويه (ت ٣٢٣ هـ) كان يقرىء القرآن على قراءة عاصم بمسجد الانباريين (٨) .

ويمكننى بعد ذلك استبعاد الأئمة الكوفيين : عاصم ، وحمزة ، والكسائى ، لكوفيتهم ، ونزعة أبى على التى تقذف به إلى جانب البصريين . ولم يبق بعد هذه التصفية إلا أبو عمرو البصرى ، وهو ما أرجح أن يكون أبو على يقرأ القرآن على حرفه ، أو يكون له اختيار يميل به إلى مذهب أبى عمرو

فلأبى على صلات بأبى عمرو البصرى ترجع إلى أساتذته من الشيوخ الذين يعتمد عليهم ويوثقهم ، وأخص هؤلاء أبو زيد الإنصارى ، وسيبويه ، فأبو زيد يؤلف فى قراءة أبى عمرو (٩) ، وسيبويه يقرأ على أبى عمرو (١٠) . ويأخذ الحروف عنه (١١) .

---

(١) إبراز المعانى : ٢١ (٢) طبقات القراء : ١/٤٤٥
(٣) انظر طبقات القراء ٢/٣٣١ (٤) سراج القارىء لابن القاصح : ١١
(٥) انظر المصدر السابق : ١٢ (٦) طبقات القراء : ١/٢٠٧
(٧) معجم الأدباء : ١٨/٦٦ (٨) انباه الرواة : ١/١٨١
(٩) الفهرست : ٨١ (١٠) طبقات القراء ١/٢٩٠
(١١) انظر دليل ذلك فى الكتاب : ٢/١٦٧

وترى أبا على فى كتاب الأغفال يحتج لقراءة أبى عمرو : يومنون بالتخفيف ويختار ذلك على التحقيق[١] . ويظهر ارتياحه لقراءة أبى عمرو، وأقرأ معى ذلك النص من كتابه الحجة تر إقباله على قراءة أبى عمرو ، واحتفاله بالاحتجاج لها ، والتدليل عليها ، ومهاجمة قراءة الكوفيين بعد أن يحتج لها فى فتور : (ولا بد أن أن يحتج لها لأن هذا مهمه فى كتاب الحجة) .

قال ابن مجاهد ما ملخصه : « اختلفوا فى قوله عز وجل : أأنذرتهم ، وما كان مثله فى كل القرآن من الهمزتين فى الكلمة الواحدة : فهو بتحقيق الهمزتين عند عاصم وحمزة ، والكسائى ، فى أحد قوليه ، وابن عامر » . وهو بتخفيف الثانية وإدخال الألف بينهما عند ابن كثير وأبى عمرو ، غير أن مد أبى عمرو فى أأنذرتهم أطول من ابن كثير[٢] .

وقال أبو على فى الاحتجاج لالتقاء الهمزتين فى أأنذرتهم وتحقيقهما : من حجة من حققهما أن يقول :إن الهمزة حرف من حروف الحلق ، فكما اجتمع مثله فى سائر حروف الحلق نحو فهّ وفههت وكعّ وكععت كذلك حكم الهمزة . وكما يجوز ذلك ويسوغه أن سيبويه زعم أن ابن إسحاق كان يحقق الهمزة ، وأناس معه . قال سيبويه ، وقد تكلم ببعضه العرب وهو ردىء[٣] » . فانظر إلى ذلك الحكم الذى نقله عن سيبويه ، وبه يقرر رداءة تحقيق الهمزتين، وبالتالى يكون حكم القراءة بالتحقيق ثم قال : والحجة لقول من قال أأنذرتهم فلم يجمع بين الهمزتين، وخفف الثانية أن يقول : إن العرب قد رفضت جمعها فى مواضع من كلامهم . وبعد أن ضرب الأمثلة لذلك قال : فى هذا دلالة بينة على رفضهم اجتماعهما . . . ثم عاد وكرر هذه العبارة، ثم وازن بين الهمزة وأخواتها الحلقية ، ثم دفع اعتراضاً قد يرد . وذكر أن العرب الزموا باب رزيئة وخطيئة القلب عما يؤدى إلى اجتماع همزتين فيه ، فقالوا خطايا ورزايا فلو كان لاجتماعهما عندهم مساغ ما رفضوا ذلك الأصل كما أنه كان (كذا) وأظن (لو كان) هنا ساقطة — لتحرك العينات فى نحو قال وباع مجاز ما الزموهما القلب . فإن قلت : « قد حكى عن بعضهم خطاىء (كذا) بتحقيق الهمزتين

---

(١) الاغفال : ٦٠ تفسير رقم ٨٧٥

(٢) ملخص من سبعة ابن مجاهد : الحجة ١٦٦/١ مراد ملا وانظر النشر فى القراءات العشر لابن الجزرى : ٣٦٣/١

(٣) الحجة : ١٨٨/١

فذلك يجرى مجرى الأصول المرفوضة نحوضننوا والأظلل كذا ، ولو جاز الاعتداد بذلك وماأشبهه لجازأن يقال فى تكسير مطية مطاىء (كذا) كقول بعضهم سماء ، فإذا كانوا قد رفضوا ذلك فى حال السعة والاختيار مع أنه أسهل من اجتماع الهمزتين فأن يرفضوا اجتماع الهمزتين أجدر[١] .

وأنت ترى فى تضاعيف هذا الاحتجاج تحمس أبى على ، وميله إلى القول برأى أبى عمرو وألفاظه الدالة على ذلك . الدلالة البينة على رفض العرب اجتماع الهمزتين، وتكريره هذه العبارة ، ودفعه الاعتراضات التى قد ترد . وأن العرب قد الزموا باب رزيئة وخطيئة القلب عما يؤدى إلى اجتماع همزتين فيه ، وأن تحقيق الهمزتين فى خطائئ يجرى مجرى الأصول المرفوضة ، وأنهم رفضوا ما هو أسهل من اجتماع الهمزتين فرفض اجتماعهما أجدر . ثم انظر قوله فى مكان آخر : وقول أبى عمرو أرجح عندنا[٢] ، وهذ كله ينتهى بنا إلى النتيجة التى رجحتها من قبل ؛ وهو أن أبا على كان يقرأ بحرف أبى عمرو،أوعلى الأقل يكون له اختيار يميل به إلى ماذهب إليه ذلك الإمام .

الفقه ومذهبه فيه

وأبو على يلم فى كتبه بمسائل من الفقه تدل على اتصاله به ، ووعيه له ، فهو يتحدث عن الربا وأنواعه[٣] . وعن الصدقه وإخفائها[٤] . وعن ذى الأمانة من المودع والمعير والموكل والشريك ، ومن يك فى ماله يد أمانة لاضمان كما يتحدث عن الكافر الموادع[٥] ، ومن صار ذا أمن فى ماله ونفسه بإظهار الشهادتين ، وخرج عن أن يكون حربا مستحل المال النفس[٦] ، ويذكر اختلاف الفقهاء فى « اشهد بالله » وهل يكون يمينا إذا لم يوصل بالله[٧] ، وأن أبا حنيفة لم يوجب الكفارة على من حلف : يعلم الله ثم حنث[٨] ، ويذكر قول الفقهاء : « إن المولى

---

(١) الحجة : ١٩٠/١ مراد ملا (٢) الحجة : ٢٩٤/١ مراد ملا
(٣) الحجة : ٢٨/٣ البلدية (٤) ٤٠/٣
(٥) ٢٠٥/١ (٦) ٢٠٧/١
(٧) الشيرازيات : ٢٦ (٨) الحجة: ٤٠٦/١٠ مراد الملا

إذا قال لعبده : يا بنى لم يعتق عليه كما يعتق إذا أقر بنسب ذى رحم محرم منه [١] ، ويشرح لا يقتل مسلم بكافر ، ولا ذوعهد فى عهده بكافر [٢] ، ويتحدث عن الإقالة فى البيع [٣] ، كما يتحدث عن بعض صور الطلاق شارحا لها ، ومخرّجا أحكامها [٤] .

ويبدو أنه درس من المذاهب الفقهية مذهب أبى حنيفة ، وقد جمعت للتدليل على ذلك أدلة منها ما هو عام ، ومنها ما هو خاص :

فمن الإدلة العامة (ا) ماذكره المقدسى فى أحسن التقاسيم عن قوله : «وأصحاب أبى حنيفة فى بلاد فارس كثير [٥] » .

(ب) وما ذكره الصفدى فى الغيث المنسجم من أن الغالب فى الحنفية معتزلة [٦] .

ومعروف عن أبى على أنه كان معتزليا ، وقد برهنت فى مكان آخر على ذلك .

ومن الأدلة الخاصة (ا) أن أبا على قياس ، وعبارته فى ذلك مشهورة [٧] .

وأبو حنيفة وأصحابه يمثلون مدرسة القياس [٨] . ومن هنا كان أثر أبى حنيفة دون غيره من الأئمة شديد الوضوح فى أبى على .

(ب) ما ذكره ابن جنى (تلميذ أبى على) قائلا : « اعلم أن أصحابنا انتزعوا العلل من كتب محمد بن الحسن ، وجمعوها منها بالملاطفة والمرفق [٩] .

(ج) ثناء أبى على — على أبى حنيفة فى أمثلة وردت بكتبه .

فمن ذلك ما قال : « كما يجوز تشبيه المعنى بالعين للمبالغة فى أمره ، والرفع منه جاز أيضا تشبيه العين بالمعنى إذا أكثر من محاولة ذلك المعنى ، وكثر أخذه فيه ، وإكثاره منه فتقول على ذلك أبوحنيفة الفقه ، وأصبح ماؤكم غورا .

وكذلك ثناؤه على أبى يوسف فى قوله : أبو يوسف أبو حنيفة [١٠] .

(د) استشهاده بأقوال أبى يوسف [١١] ، وقد ورد ذلك الاستشهاد أيضا فى الشيرازيات [١٢] والخصائص [١٣] ، كما استشهد بمحمد فى الشيرازيات [١٤] .

---

(١) الشيرازيات : ٤٤ (٢) الشيرازيات لوحة ١٥٢
(٣) الحجة ٢٣٨/١ مراد الملا (٤) الحجة ٣٥/١ ، ٥٢
(٥) أحسن التقاسيم : ٤٣٩ (٦) الغيث المنسجم : ٤٧/٣
(٧) انظر نزهة الألباء : ٢١٠ (٨) وتاريخ بغداد : ٣٣٢/١٣ ، ٣٥٠
(٩) الاقتراح : ٥١ وانظر الخصائص : ١٦٨
(١٠) الايضاح : ١٩ رقم ١١٢٠ نحو مخطوط بدار الكتب
(١١) الحجة : ٢٠/١ مراد ملا (١٢) ١٥٦
(١٣) انظر ٢١٣/١ (١٤) انظر ص ٢٦

(ﻫ) وقد عقد ابن جنى مسألة من كلام محمد بن الحسن صاحب أبى حنيفة فى كتاب الإيمان وهى: قال محمد بن الحسن ، ان قال أى عبيدى ضربك فهو حر، فضربه جميعهم عتقوا كلهم ، ولو قال أى عبيدى ضربته فهو حر فضرب واحدا من عبيده عتق ذلك العبد ، فإن ضرب غيره من بعده منهم لم يعتق غير الأول وحده وعلق أبو على على هذه المسألة[١] .

(و) ولما احترقت كتب أبى على لم يبق منها إلا نصف كتاب الطلاق عن محمد بن الحسن[٢] .

(ز) ما ذكروه من أن الحسن بن أبى الحسين النعمانى الفارسى لقب بالفارسى لأنه تفقه بشيراز على مذهب أبى حنيفة[٣] ،

(ح) وقد ذكر استدلال أبى يوسف بقوله تعالى : « إنا أنزنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله » على جواز الاجتهاد من النبى ﷺ .

هذه هى الأدلة العامة والخاصة التى استندت إليها فى تقرير مذهب أبى على الفقهى، وكانت دراسته لمذهب أبى حنيفة من العوامل التى جعلته بارعا فى القياس على النحو الذى سأتناوله بالبيان .

---

(١) انظر فهرس المخطوطات المصورة : ٣٧٩ رقم ١٦

(٢) معجم الأدباء : ٢٥٧/٧

(٣) ورقة ٥٧ طبقات المفسرين تأليف محمد بن على أحمد الداودى المالكى مخطوط بدار الكتب ١٦٨ تاريخ

مذهب أبي على النحوى

أبو على عند أبي بكر الزبيدى فى الطبقة العاشرة من النحويين البصريين، ومن أصحاب ابن السراج[١]. وابن النديم يجعل أبا على كذلك من النحويين البصريين[٢] وهو كذلك عند المتأخرين، وذلك قول (السيوطى ٩١١ هـ) فى الهمع: «واختلف البصريون فى كيفية وضعها - وضع همزة الوصل - فقال الفارسى وغيره، «اجتلبت ساكنة، وكسرت لالتقاء الساكنين[٣]...»

وينظر المحدثون إلى مذهب أبي على فى النحو نظرات متخالفات: فالأستاذ عبد الحميد حسن يتحدث عنه بين نحاة بغداد[٤]. ويرى صاحب نشأة النحو أن أبا على ممن ترسموا خطا المذهب البغدادى[٥] والأستاذ الشيخ محمد النجار يرى فى تقديمه كتاب الخصائص أن أبا على يميل فى نزعته النحوية إلى البصرية[٦].

والباحث إزاء هذا التخالف لابد أن يقيم الدليل على الرأى الذى يراه فى تحقيق مذهب أبي على النحوى:

فأولا: ماذا تشير اليه النصوص؟

وثانياً: وماذا تدل عليه المقابلة بين السمات العامة للمذهب البصرى أو الكوفى، وما ورد من هذه السمات فى كتب أبي على؟

وثالثاً: ثم ماذا تنتهى اليه الموازنة بين رأى كل من الفريقين فى المسائل النحوية المختلفة ورأى أبي على فى هذه المسائل.؟

ولا أريد هنا الاستقصاء أو الاستيعاب، وإنما اكتفى بذكر أمثلة فى هذه النواحى الثلاث، يستدل بها، ويقاس عليها، وتختصر الدلالة على مذهب أبي على النحوى فى إجمال.

أولا: أما النصوص فيكفى أن أعرض منها ما يأتى:

(١) يقول أبو حيان: «أبو على أشد تفرداً بالكتاب، وأشد اكباباً عليه، وأبعد من كل ما عداه مما هو علم الكوفيين[٧].

(٢) وحدث أبو على ابن جنى انه وقع حريق بمدينة السلام فذهب به جميع علم

---

(١) انظر طبقات الزبيدى: ١٢٦/-١٣٠ (٢) انظر الفهرست: ٥٩-٩٥
(٣) الهمع: ٢١١/٢ (٤) انظر القواعد النحوية: ١٠١
(٥) انظر نشأة النحو: محمد طنطاوى: ٩٧، ٩٨ ط سنة ١٣٥٧، ١٩٣٨م
(٦) انظر تقديم الخصائص ط ص ٤٤ ط دار الكتب (٧) الإمتاع: ١٣١/١

البصريين ، قال : « وكنت قد كتبت ذلك كله بخطى ، وقرأته على أصحابنا[١] » .

(٣) وترى أبا على يقول ـ مثلا ـ قياس أصحابنا كذا ، وقياس البغداديين كذا[٢] .

(٤) وعقد ابن جنى ـ تلميذ أبى على ـ باباً فى أن لغة أهل الوبر أصح من لغة أهل المدر[٣] . وغرضه من ذلك القدح فى الكوفيين[٤] .

ثانياً : وأما السمات العامة للمذهب البصرى وصداها فى كتب أبى على فمنها :

(١) انه يعتد بالكثرة ويعدها من أسباب قوة القراءة[٥] .

(٢) ثم هو لا يقيس على الشاذ[٦] ، ولا يعتد بالقليل[٧] . قال : ترك القياس على القليل أولى من القياس عليه لقلة ذلك ، وخروجه مع قلته على القياس ، وإذا جاء الشىء خارجاً عن قياس الجمهور والكثرة فى جنس لم يبلغ أن يتجاوز به ذلك الجنس[٨] . ومن هذا يرتضى أبو على ما كان أقوى فى القياس ، وأشيع فى الاستعمال[٩] . ويرفض ما ليس بالمتسع فى الاستعمال ولا المتجه فى القياس[١٠] .

(٣) يضاف إلى ذلك موقفه الذى شذذ فيه بعض القراءات العربية عن ابن عامر أو حمزة مثلا . وذلك ما يتفق فيه مع نزعة البصريين على وجه العموم .

ثالثاً : وأما المقارنة بين رأى أبى على ورأى البصريين والكوفيين فهى كذلك تهدى إلى نزعة أبى على البصرية ، فمن المسائل التى رأى فيها أبو على رأى البصريين ، واحتج لهم ما يأتى :

(١) الشيطان فيعال من شطن مثل البيطار[١١] .

(٢) تصويب إيه بالكسر من غير تنوين فى قول ذى الرمة :

وقفنا ، فقلنا إيه عن أم مالك[١٢] وما بال تكليم الديار البلاقع[١٣]

(٣) الحال لا تتقدم على العامل إذا كان معنى[١٤] ، والكوفيون لا يجيزون تقديم

---

(١) معجم الأدباء : ٢٥٦/٧ (٢) الشيرازيات : ١٤١

(٣) انظر الخصائص : ٤٠٥/١ (٤) الاقتراح : ٣٢

(٥) الحجة : ٣٨/٢ من البلدية (٦) انظر البغداديات لوحة ٢٥

(٧) انظر الحجة : ١١١/١ (٨) انظر الحجة : ١٥/٣ ـ ٢٠ من البلدية

(٩) انظر الحجة : ٦٨/١ من مراد ملا

(١٠) الحجة : ١٢٨/١ (١١) الحجة : ٣١٤/١ من مراد ملا

(١٢) معجم الأدباء : ٢٣٤/٨ وانظر شرح السيرافى للكتاب : ١٠٨/١

(١٣) شرح السيرافى للكتاب ١٠٨/١ (١٤) الحجة ١٦٠/١ والانصاف : ١٥٨/١

الحال على الفعل العامل فيها مع الاسم الظاهر نحو راكباً جاء زيد ، ويجيزونه مع المضمر راكباً جئت . وذهب البصريون إلى أنه يجوز تقديم الحال على العامل فيها مع الاسم الظاهر والمضمر .

وقد بينت فى حديثى عن كتاب الإيضاح مذهب أبى على البصرى وظهوره فى ذلك الكتاب (١) ومن هنا كان أبو على بصرياً مافى ذلك شك ، وقد ارتفع أبو على عن طبقته المعاصرة إلى طبقة القدامى من النحويين الاولين ، فهو لا يضع نفسه فى الطبقة التى وضعه فيها الزبيدى ، حقيقة هو من أصحاب ابن السراج من حيث الزمن والتلقى ، ولكنه ينزع إلى تقدير الخليل وسيبويه والأخفش ، فتراه فى الأعم الأغلب يدور فى فلك هؤلاء النحاة ، ويقول بآرائهم . وربما خالفهم فى الأقل الأندر(٢). ثم يرى باعتراضاته من جاء بعدهم من النحاة بصريين كانوا أو كوفيين .

ويعد كتابه الاغفال مخالفة صريحة لآراء الزجاج فىمسائل نحوية تتصل بكتاب سيبويه ، وفهمهما الزجاج على وجه ، وفهمهما أبو على وجه آخر ، وانتصر فيها لسيبويه فى الأغلب الأعم . كذلك نراه يستدرك على أبى بكر بن السراج فى الاحتجاج .

وقد بينت فى مواضع مختلفات من هذا البحث موقف أبى على من المبرد ، وعللت لذلك ، هذا ومسائله المختلفة — ولا سيما البصريات — تلقى ضوءاً عن موقفه من الكسائى ، والفراء ،وأحمد بن يحيى ، كما تدل على علمه بآرائهم وتقويمها .

والطابع العام فى موقفه مع المبرد التخالف ، وقد يتفق معه القليل(٣). ، واتفق فى بعض ما ذهب إليه مع الكوفيين (٤). وهو فى توافقه وتخالفه يصدر عن اقتناع مؤيد بالحجة ، ويقين مدعوم بالبراهين ، وذلك كله ينتهى بى إلى القول بأن أبا على فى زمنه كان إماماً بصرياً مستقلا بآرائه فىالنحو ، وشيخاً لمدرسة قائمةبذاتها تلاميذها

---

(١) يراجع الايضاح فى الصفحات الآتية ١٢ ،٣٢، ٣٣، ٣٤، ٤٤، ٥٠، ٥١، ٦٣، ٧١

(٢) انظر مثلا الهمع : ٧/١

(٣) انظر أمثلة لذلك فى المغنى ٢١/٢ والهمع ٧٥/١ ، ٧٧ ، ١٩٥/٢

(٤) انظر مثلا الشيرازيات : ٤١ والمغنى ٦١/١ ، ٦٢ ، ١٠٥ والهمع ٢١/٢ وشرح الأشمونى : ١٨٧/٢

أنصاره يقولون بقوله ، ويستعينون بكلامه ، ومن هنا يؤلف ابن جنى اللمع يجمعه من كلام شيخه أبي علي ، ويشرح أبو طالب العبدى الإيضاح فقالوا ، إنه شرح كلام أبي علي بكلام أبي علي[١]، ويتفق مع أبي علي كثير من تلاميذه فى كثير من المسائل النحوية[٢]

وهذا كله يفسر لنا قول صاحب البدائع : « لا يجوز اضمار حرف العطف خلافا للفارسي ومن تبعه [٣]» . أو قول ابن هشام : « حيث تقع مفعولا به وفاقاً للفارسي[٤]»، ما ورد فى معجم الأدباء : من أن فلاناً النحوى لقى ببغداد أصحاب أبي علي [٥] . إلى غير ذلك من الأقوال التى تشير إلى تفرد صاحبي بالرأى ، وامامية فيه .

أبو علي والشعر

حدث علم الدين — أبو علي محمد القاسم بن أحمد الأندلسى قال : « وجدت فى مسائل نحوية تنسب إلى ابن جنى قال : « لم أسمع لأبي علي شعراً قط، إلى أن دخل إليه فى بعض الأيام رجل من الشعراء ، فجرى ذكر الشعر، فقال أبوعلي أنى لأغبطكم على قول هذا الشعر ، فان خاطرى لايواتينى على قوله ، مع تحقيق للعلوم التى هى من مواده فقال له ذلك الرجل : فما قلت قط شيئاً منه ألبتة ؟ فقال ما أعهد لى شعراً إلا ثلاثة أبيات قلتها فى الشيب وهى قوله :

خضبت الشيب لما كان عيبا — وخضب الشيب أولى أن يعابا
ولم أخضب ؛ مخافة هجر خلّ — ولا عيباً خشيت ، ولا عتابا
ولكن المشيب بدا ذميما — فصيرت الخضاب له عقابا [٦]

ويستنبط من هذا النص ما يأتى :

---

(١) انباه الرواة : ٣٨٧/٢

(٢) انظر مثلا الهمع ٣٧/١، ٣٨، ١٢٣، ٢٠٧، ٢١١، ٨٥/٢ والمغنى : ٣٧/١ فى اتفاق ابن جنى معه وانظر ٨٩/٢ فى اتفاق الربعي مثلا

(٣) بدائع الفوائد ٢٠٩ (٤) مغنى ١١١٤/١

(٥) معجم الأدباء ١٧/٥ ، ٢٠

(٦) معجم الأدباء : ٢٠١/٧ ، ٢٠٢

أولا : أن أبا على لم يرزق حظاً من الطبع الذى هو ملاك قول الشعر ، والذى بدونه لا تغنى مواده شيئاً .

ثانياً : انه لم يقل هذه الأبيات الثلاثة إلا بأخرة من زمنه ، بدليل أنه قالها فى المشيب ما لم يكن قالها تفصحا ومحاكاة لغيره فى الموضوع .

ثالثاً : أنه فى هذه الأبيات ينزع ذلك النزوع العقلى الذى عرف عنه ، واشتهر به ، فالتعليل يبدو واضحاً فى كل بيت من الأبيات الثلاثة :

(ا) فنى الأول منها القول بالأولى والأجدر .

(ب) وفى البيتين الآخرين تقليب الأمر على وجوهه ، ثم ترجيح وجه منها .

فكأنه فى هذه الأبيات الثلاثة أمام مسألة نحوية يدلل على رأيه فيها مستعيناً بمناهج البحث المنطقى .

ويبدو أن أبا على — بالرغم من كثرة حفظه للاشعار — كان لا ينظر إلى الشعر على أنه وسيلة من وسائل التذوق الأدبى والاستمتاع الفنى ، فهو إن نظر فى بيت نظر إليه من حيث الافادة اللغوية ، أو الصناعة النحوية ، يفتش فيه عن لفظ أو يبحث فيه عن شاهد من شواهد النحو يضيفه إلى هذه الشواهد التى رواها الأئمة السابقون ، أو يستنتج منه دليلا على رأى يراه ، ومن الدلائل عندى على أنه كان ينظر إلى الشعر هذه النظرة : نظرة النحوى المستشهد ، لا نظرة الأديب المستمتع ما جاء فى البصريات من قوله : مما أصبت مما أعمل فيه الثانى قول كثير :

قضى كل ذى دين فوفَّى غريمه وعــــزة ممطول مُعنًّى غريمها

أعمل الثانى وهو : فوفى[1].

وما رواه ابن جنى فى مشابهة معانى الإعراب معانى الشعر ، وأن الذى نبه إليه أبو على وضرب لذلك أمثلة منها : قولهم فى (لا) النافية للنكرة أنها تبنى معها فتصير كجزء واحد من الاسم نحو : لا رجل فى الدار ، ولا بأس عليك ، وأنشد أبو على فى هذا المعنى

خيط على زفـــرة ، فتم ولم يرجع إلى دقة ، ولا هضم[2]

---

(١) البصريات ٦٨ (٢) الخصائص : ١/٥٦٠ وانظر هناك شرح البيت*

(*) والزفرة : وسط الفرس يقال: إنه لعظيم الزفرة ، وبعير مزفور شديد تلاحم المفاصل، =

وكان إذا أوجبت القسمة عنده أمرين كل واحد منهما غير جائز[1]. (كقولهم أنهم لا يبنون من ضرب وعلم وما كانت عينه لاماً أو راء مثل عنسل، قالوا: «لانا نصير به إلى ضرب وعلم، فان أدغمنا ألبس بفعّل، وان أظهرنا النون قبل الراء واللام ثقلت، فتركنا بناءه أصلا[2].) — يقول فيه قسمة الأعشى:

«فاختر وما فيهما حظ لمختار»[3].

وقد عرف ابن جنى — وهو التلميذ الأول هذه النزعة عند أبى على، قالوا: كان أبو على الفارسى بشيراز، وكان يمر المتنبى إلى دار عضد الدولة على دار أبى على الفارسى، فكان إذا مر به أبو الطيب يستثقله على قبح زيه، وما يأخذ به نفسه من الكبرياء.

وكان لابن جنى هوى فى أبى الطيب، كثير الاعجاب بشعره، لا يبالى بأحد يذمه، أو يحط منه، وكان يسوؤه أطناب أبى على فى ذمه، واتفق أن قال أبو على يوماً: اذكروا لنا بيتا من الشعر نبحث فيه، فبدأ ابن جنى وأنشد:

حلتِ دون المزار فاليوم لو زر ت لحـــال النحول دون العناق

فاستحسنه أبو على واستعاده وقال: «لمن هذا البيت؛ فانه غريب المعنى» فقال ابن جنى: «للذى يقول»:

أزورهم، وسواد الليل يشفع لى وأنثنى، وبياض الصبح يغرى بى

فقال وإن هذا حسن بديع جداً فلمن هذا؟! قال: للذى يقول:

أمضى إرادته؛ فســـوف له قد واستقرب الأقصى، فثم له هنـا

فكثر إعجاب أبى على، واستغرب معناه، وقال لمن هذا؟! فقال ابن جنى للذى يقول:

ووضع الندى فى موضع السيف بالعلا مضر، كوضع السيف فى موضع الندى

= ويقال للفرس إنه لعظيم الزفرة أى عظيم الجوف، وقال الجعدى: خيط على زفرة... يقول: كأنه زافر أبداً من عظم جوفه، فكأنه زفر فخيط على ذلك. انظر لسان العرب. مادة زفر

(١) الخصائص: ٦١/١
(٢) الخصائص: ٦٨/١

فقال : « وهذا أحسن والله ! لقد أطلت يا أبا الفتح ، فاخبرنا من القائل ؟ ؟ قال : « هو الذى لا يزال الشيخ يستثقله ، ويستقبح زيه وفعله ، وما علينا من القشور إذا استقام اللب ! » قال أبو على : « أظنك تعنى المتنبى ! » قلت نعم ! قال : والله لقد حببّته إلى ، ونهض ودخل إلى عضد الدولة ،فأطال فى الثناءعلى أبى الطيب ولما اجتاز به استنزله واستنشده ، وكتب عنه أبياتاً[1] .

ومن المهم هنا أن أشير إلى ما سلكه ابن جنى من لطف المدخل ، وحسن التانى ! فقد عرض أبياتا على الشيخ أبى على قصد إليها عامداً ؛ لأنها من ذلك النوع الذى يتأثر به الفارسى ، وينتزع منه إعجابه .

فالأبيات فى مجموعها تحتوى على مقابلات أحوال بأحوال فى صورة منطقية عامة : فهى حالت دون المزار فشفه الوجد حتى حال تخوله دون العناق ! وسواد الليل يشفع زائراً ، وبياض الصبح يغرى به منثنياً، ثم هذا البيت المملوء كلمات نحوية: سوف — قد — ثم — هنا ، والإشارة الدالة على معانيها ، واستغلال هذه المعانى، فى تصوير ما أراد الشاعر من المدح بمضاء الإرادة ، وبعد الهمة ! . . ذلك منهج تفكير أبى على النحوى المنطق ، وقد كان ابن جنى ماهراً حين عرض هذه الأبيات لاسترضاء الشيخ دون سواها ، وقد مكنته هذه الصحبة الطويلة ، لأبى على فى الحل والارتحال — إلى ذكائه — من تفهم نفسية أبى على والغوص فى أعماقها ، والتعرف على خطواتها ، فقدم إليه المتنبى وأنزله من نفسه بأبيات مليئة بالأدوات النحوية ، قريبة من صنعة النحاة ، وصنعة أبى على بوجه خاص . وكان لابن جنى مندوحه عن هذا الشعر المصنوع بشعر المتنبى المطبوع ، ولكنها نزعة أبى على عرفها ابن جنى ، ودلف إلى شيحة منها ، فكان أثرها فى إقبال الشيخ على المتنبى ذلك الإقبال الذى يرويه المؤرخون .

ومن هنا أرى فى هذه النزعة غير ما رأى الدكتور إبراهيم سلامة ، فى قوله على التعميم : « بل كانوا — أى النحاة — أدباء ومشتغلين بالأدب فى الأقل ، لأن الأدب مادة عملهم ، والمقياس الذى يرجعون إليه إذا اختلط عليهم الأمر[2] » . فلم يكن نظر الكثير منهم فى الأدب اشتغالا به ؛ بل كانوا — أو على الأقل أبو على

---

(١) الصبح المنبى على هامش العكبرى : ١/ ١٠٢

(٢) محاضرات فى البلاغة والنقد : ٢٠

خاصة — نحاة اشتغلوا بالنحو ومسائله وتعليلاته إذا ما نظروا إلى الأدب، أو اتصلوا به على الوجه الذى سبق به البيان .

ومهما يكن من أمر فإن لأبى على نظراء من النحاة تخلفوا فى قول الشعر، فلم يؤثر مثلا — عن شيخه الأول سيبويه — قرض الشعر ، كذلك لم يؤثر شىء من ذلك عن الكسائى والفراء[١] . كذلك كان المبرد متخلفاً فى قول الشعر، وكان لا ينتحل ذلك ، ولا يعتزى إليه ، ولا يرسم نفسه به — وإن رويت له الأشعار[٢] ، وكان له تذوق فنى، وكان للجوهرى شعر العلماء لا شعر مفلقى الشعراء[٣]، وقد شاع بين الناس تأخر النحاة فى الشعر ، وبرودته منهم ، قالوا : « وللحسن بن بندار أبى محمد التفليسى شعر عليه تكلف وبرد كشعر النحاة[٤] » .

نثر أبى على

وأنتقل بعد ذلك إلى التحدث عن نثر أبى على ، ولا أريد هنا أن أتحدث عن نثره العلمى ؛ فلذلك مكانه المقسوم من هذا البحث عند الحديث عن أسلوبه فى كتبه المختلفة ، ولكن أريد التحدث عن نثره الفنى ، وبيان ما يمكن أن يكون له من خصائص فيما ترك لنا من هذا القبيل ، ونجد لأبى على من ذلك :

(ا) مقدمات كتبه : الإيضاح ، والتكملة ، والحجة .

(ب) ثم كتابه إلى سيف الدولة ، وقد ورد فى الحلبيات من مسائله .

(ج) ثم شرحه للأبيات التى تعرض لشرحها .

(د) وأخيراً مكاتباته إلى الصاحب بن عباد .

(ا) ومقدمات كتب أبى على قصيرة ، بل إن بعضها خلا من المقدمات كالمسائل على وجه العموم ، وأرى أن السبب فى ذلك قصر باع الرجل فى النثر الفنى ، فهو لا يود أن يطيل ؛ لأنه لا طاقة له بالفن ، ولا قدرة عنده عليه . ولو رجعت إلى مقدمة الإيضاح ثم إلى مقدمة التكملة لوجدته يقول فى الإيضاح :

---

(١) طبقات النحويين للزبيدى : ١٢٢

(٢) انظر طبقات النحويين : ١١٢

(٣) يتيمة الدهر : ٢٨١/٤ (٤) انباه الرواة : ٢٩٠/١

بسم الله الرحمن الرحيم أمّا على أثر ذلك — (أطال الله بقاء الملك الجليل عضد الدولة ، وأدام عزه ، وتمكينه ، وأسبغ عليه طوله وفضله) — ، فإنى جمعت فى هذا الكتاب أبوابا من العربية متحريا فى جمعها على ما ورد به أمره (أعلاه الله) فإن وافق اجتهادى مارسم فذاك بيمن نقيبته ، وحسن تنبيهه وهدايته ، وإن قصر إدراك عبده عما وجده مولانا (أدام الله إرشاده ورشده) رجوت أن يسعنى صفحه ، لعلمه بأن الخطأ بعد التحرى موضوع عن المخطىء[1] .

ويقول فى تقديم التكملة : « الحمد لله رب العالمين الذى جعل حمده فاتحة كتابه وخاتمة دعوى أوليائه فى جنته ؛ فقال تعالى : « وآخر دعواهم ان الحمد لله رب العالمين» وصلى الله على محمد خاتم النبيين، وعلى أنبيائه المرسلين ، وعباده الصالحين، وإياه نسأل وإليه نرغب فى إيزاع الشكر ، والهام الحمد على ما منح الانام ، وشمل الخاص والعام من النعمة بالملك العادل عضد الدولة (أطال الله بقاءه ، واسبغ عليه نعماءه) كما أفاض فى البلاد عدله ، وأوسع العباد فضله ، وبث فيهم عرفه وطوله ، وقبض عنهم الآراء الجائرة ، وكف عنهم الأيدى الغاشمة ، حتى ما تجد إلا فقيرا مجبوراً ، وغنيا موفورا ، فإلى الله عز وجل نبتهل فى امتاعه بما خوله ، وخول به من هذه النعم ، وإبقائه عماداً للدين ، وجمالا للدنيا ، انه سميع الدعاء ، فعال لما يشاء[2].

وليس فى مقدمة الحجة شىء يستحق التعليق ؛ لأنها لا تتجاوز حمد الله والصلاة على خاتم أنبيائه ، والدعاء لعضد الدولة ، وبيان الداعى لتأليف الكتاب فى أسطر لا تزيد عن خمسة عشر سطرا ، وهى بعد جارية على نمط مقدمتى الايضاح والتكملة وواضح من هذه المقدمات :

١ — التذلل والخضوع ، ولم يكن أبو على فى ذلك وحيداً ؛ فقد كانت هذه سمة الكتاب فى هذا العصر .

٢ — كثرة الاعتراضات بالجمل الدعائية .

٣ — الصناعة النحوية البادية فى أسلوبه ؛ كقوله : أما على أثر ذلك ، وهو تحليل لقول غيره « أما بعد » .

٤ — الصناعة الصرفية البادية فى قوله : إيزاع الشكر ، وإلهام الحمد .

---

(١) الايضاح : نحو ١١٢٠

(٢) التكملة ص ٦٤ من الايضاح نحو ١٠٠٦

٥ — التقديم الذى يشعر بالاختصاص : إياه نسأل — إليه نرغب ، إلى الله عز وجل نبتهل .

٦ — النزعة المنطقية : كالقياس فى قوله : (أطال الله بقاءه . . . . كما أفاض فى البلاد عدله . . .) .

٧ — الهروب من بذل الجهد الفنى بالالتجاء إلى الاقتباس من القرآن الكريم (جعل حمده فاتحة كتابه ، وخاتمة دعوى أوليائه فى جنته فقال تعالى : وآخر دعواهم . . .

٨ — وقوله : « حتى ما تجد إلا فقيراً مجبوراً ، وغنياً موفوراً » مأثور عن بعض السابقين وقد سأله خليفة : كيف وجدت الرعية ؟ .

٩ — المزاوجة حينا ، والسجع غير الملتزم حينا .

١٠ — ظهور ثقافته الشرعية فى نحو قوله : « الخطأ بعد التحرى موضوع عن المخطىء وهو أصل تعبدى فقهى .

(ب) أما كتابه إلى سيف الدولة الوارد بالحلبيات [1] .فيبدو فيه كذلك الخضوع والتزلف ، كما يبدو فيه الضعف والتكلف ، إلى ما فيه من الغموض والابهام ، وأنه لايستطيع أن يقيم سطرا دون أن يتعثر أو يصيبه البهر ، فلا يستطيع البيان ، والكتاب رد على ابن خالويه فى مسائل نحوية ، ومن هنا لا يهمنا منه إلا مقدمته وخاتمته ؛ لأنه فى هاتين لا يتحدث فى هذه المسائل ، وإنما يقدم ما نحن بسبيله ، وما يمكن أن يكون مادة للحكم على نثره : قال فى صدر الكتاب :

« قرأ (أطال الله بقاء سيدنا الأمير سيف الدولة) — عبد سيدنا الرقعة النافذة من حضرة سيدنا ، فوجد كثيراً منها شيئا لم تجر عادة عبده به ، لاسيما مع مثل صاحب الرقعة ...

فانظر كم تكررت كلمة سيدنا فى هذين السطرين ؟

ثم كم تكررت كلمة العبد ؟

وكيف دل التكرار على ضعف الأسلوب والخنوع حيث جاء مهلهلا لا يبدو فيه التماسك ؟

---

(١) انظر ورقة ٣٣ ظهر ٥ نحو ش

ثم اقرأ قوله فى آخر هذا الكتاب يرد على ابن خالويه وقد هاجمه بأن أحدا لا يعرف ما يقول : وليس فى الرقعة التى وصلت إلى عبد سيدنا شىء حكمه أن يتكلم عليه، وآخرها حرف لم يبعد فيه وهو قوله : وليس يعرف أحد ما يقول فكيف ينقضه؟

ومما يصدق هذا أن رقعة من ثلاث رقاع وردت حضرة سيدنا الأمير سيف الدولة (أطال الله بقاءه) فمما ذكره فيها قول الشاعر :

« قالت الا ليت ما (كذا) هذا الحمام لنا »

وتعاطى تفسير الرفع والنصب فى الحمام فقال : « ومن رفع الحمام جعله خبر ليت » وهذا (أطال الله بقاء سيدنا) من العويص الذى يفهمه أحد ، ولا يعرفه ولا ينقضه ولا يبرمه ، وقد نفذ جواب عبد سيدنا فى ذلك على الوجه الذى يعرف [1] .

وهو هنا يضعف ويذل لسيف الدولة بمقدار ما يهجم ويعنف مع ابن خالويه إلى جانب هذه السمات التى لا تختلف عما سبق به البيان .

(ح) أما شرحه لبعض الأبيات التى استشهد بها ، فهو شرح قائم على الصنعة الإعرابية [2] . وقد أدى ذلك إلى إخلاله بالأداء الفنى فى التعبير ، فالتطبيق النحوى عنده فى المحل الأول ، ولا شىء يهمه بعد ذلك : اقرأ مثلا — شرحه للبيت :

(فملك بالليط الذى تحت قشرها كغرقىء بيض كنه القيض من عل)

قال أبو على : ينبغى أن يكون موضع الذى نصبا بأنه مفعول به لملك ، ولا يكون جرا على أنه وصف لليط ؛ لأن الليط فوق القلب ليس تحته ، والمعنى : ملك بالقشر الذى فوق القلب الذى تحت القشر ؛ ليصون القشر القلب فلا ينشق [3] .

وهو هنا يعطينا نموذجا لأسلوبه ، وهو أسلوب تبدو عليه الصنعة الإعرابية والتزام الترتيب النحوى فى حل البيت ، واظهار الأسماء ، ووضعها مكان الضمائر ، ولو أدى ذلك إلى تكرار يوهن الأسلوب .

---

(١) الحلبيات ورقة : ٣٨ (٢) إنباه الرواة : ٢/١١٩ تتحكم هذه الصنعة حتى فى حديثه الدارج : انظر قوله إلى عبد الله الأندلسى لما أراد صرفه : إلى كم تتبعنى ؟ والله إن على وجه الأرض أنحى منك كيف أجاب القسم ؟ وكيف وضع (إن) موضع (ما) ؟ .

(٣) الحجة : ١/ ١٠

(د) وقد كتب أبو على إلى الصاحب بن عباد ؛ ذلك ما يفهمه قول الصاحب : وللشيخ (أيده الله) بكتابه الوارد .... [١] . ولكن التاريخ لم يحتفظ لنا بما كتب أبو على ، ولعل عدم احتفاظه بذلك لأنه لم يكن مما يستحق أن يروى أو يحتفظ به . وهل يفهم قول الصاحب لأبى على : والشيخ (أدام الله عزه) يقتصر على الخطاب الوسط دون الخروج فى إعطاء الرتب إلى الشطط [٢] . هل يفهم قوله هذا — ما استظهرته آنفاً من أن أبا على كان يلتزم الاقلال فيما يكتب من نثر ؛ لأنه لا طاقة له بالاطالة فيه ؟ . أرجح ذلك .

وبعد : فان بعد أبى على من صناعتى النثر والنظم يؤكد قول أبى حيان : « أكثر أئمة العربية بمعزل عن التصرف فى الفصاحة ، والتفنن فى البلاغة ... وقل أن ترى نحوياً بارعاً فى النظم والنثر [٣] ... »

وهذا أبو سعيد السيرافى — وهو هو — لم يستطع أن يقيم كتاباً للصيمرى يرد به على ابن العميد فى خبر مفيد طريف يرويه أبو حيان فى الإمتاع [٤] .

ومما سبق يتضح ما كان يراد من قولهم مثلا : « إن أبا القاسم بن جرو الأسدى أخذ الأدب عن الشيخ أبى على الفارسى [٥] . . فالمراد ما كان يشيع عند أبى على من ثقافة عربية شاملة فى اللغة والنحو [٦] ، والصرف ، والعروض ، وتوجيه القراءات ، والشعر ، ورواية الأخبار ... ولا يفهم منها — بناء على ما سبق — التعرض لهذه الآثار المروية ، والاشعار بالتذوق الأدبى ، أو النقد بأسلوب يمت إلى الأساليب الأدبية كما يصطنعه أرباب البلاغة والبيان .

---

(١) معجم الأدباء : ٢٤١/٧

(٢) يتيمة الدهر : ٢٧١/٤ ومعجم الأدباء ٢٥٠/٧

(٣) البحر المحيط : ٩١

(٤) انظر الامتاع : ١٣٢/١ وما بعدها

(٥) بغية الوعاة : ٣٢٠

(٦) انظر نزهة الألباء : ٦١

«شيوخ أبى على»

لأبى على ضربان من الشيوخ : ضرب عاصره ، وأخذ منه ، وتلقى عنه ، وضرب لم يعاصره ، ولكنه اعتمد على كتبه وأقواله ، فجعلها مصادره : استقى منها ، واعتد بها .

والضرب الأول هو الذى يذكره المؤرخون والمترجمون ، فينصّون على أنه تلمذ للزجاج [١]، وابن السراج [٢]، وابن الخياط [٣]، وابن دريد [٤]، وابن مجاهد [٥]، ومبرمان [٦] ولم أر واحداً تحدث عن تلمذة أبى على للأخفش : على بن سليمان [٧] مع أنه عاصره ، والتقى به ، وأخذ منه ، وحدث عنه .

كذلك لم أرهم يتحدثون عن غير ابن مجاهد من شيوخه القراء وهم كثير . أما الضرب الآخر الذى لم يعاصره أبو على فيمثله كثير من الشيوخ أخصهم . . أبو زيد — وسيبويه والأخفش الأوسط : سعيد بن مسعده .

وسأتحدث عن الضربين ، وأبين مدى تأثر أبى على بكل — فى تفصيل :

(١) أبو اسحق ابراهيم بن السرى الزجاج [٨] :

تعرض أبو على للزجاج وذكر أنه أحد شيوخه عند الحديث على إعراب قوله تعالى : « ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين » [٩] وتعرض له من غير تصريح باسمه فى الكلام على «مهما» [١٠] ولم يكن الزجاج فى أول الأمر من المشتغلين بالعلم ؛ إنما كان يخرط الزجاج ، ثم مال إلى النحو ، ولزم المبرد [١١] وصار أقدم أصحابه قراءة عليه ، وكان من يريد أن يقرأ على المبرد يعرض عليه أولا ما يريد أن يقرأه [١٢]. وقد ارتفعت منزلة الزجاج فى الحياة الاجتماعية ، وبلغ مكانة عند الخلفاء حتى نادم المكتفى [١٣]، والمعتضد [١٤]. وقد كان الزجاج من أهل الفضل والدين حسن الاعتقاد [١٥]

---

(١) ت ٣١١ هـ (٢) ت ٣١٦ هـ (٣) ت ٣٢٠ هـ
(٤) ت ٣٢١ هـ (٥) ت ٣٢٤ هـ (٦) ت ٣٤٥ هـ
(٧) ت ٣١٥ هـ (٨) ت ٣١١ وقيل ٣١٦ هـ (٩) الحجة : ١/١٨٥
(١٠) البغداديات : ٢٧، ٢٨ (١١) بغية الوعاة : ١٧٩ (١٢) الفهرست : ٩٠
(١٣) طبقات الزبيدى ١٢١ (١٤) إنباه الرواة : ١/١٦٤
(١٥) انباه الرواة : ١/١٦٤

وتتجلى عقيدته عندما ذكر اسم الله فقال : « أكره أن أذكر ما قاله النحويون فى هذا الاسم تنزيها[١] » .

والزجاج صاحب اختيار فى النحو والعروض[٢] كما عرف بنظرية الاشتقاق التى زعم فيها أن كل لفظتين اتفقتا ببعض الحروف ، وإن نقص حروف احداهما عن عن حروف الأخرى ، فان إحداهما مشتقة من الأخرى[٣] .

والزجاج مذكور بكتابه معانى القرآن[٤] وله كتب أخرى ذكرها بن النديم[٥] ، منها كتاب الاشتقاق ، وكتاب القوافى ، وكتاب العروض ، وله كذلك مختصر نحو ، وكتاب ما ينصرف وما لا ينصرف[٦] .

وقد ذكر الزبيدى أن أبا اسحق كان يقول بالعلم والنظر[٧] .

أما مدى تأثر أبى على بشيخه أبى اسحق فقد رأيته يروى ما أخبره به الشيخ فى اللغويات[٨] ، ويتعرض له فى الإعراب[٩] ، وإذا كان أبو اسحق يقول بالعلم والنظر فان أبا على برع فى ذلك ، وربما كان من منابع براعته اتجاه شيخه الزجاج ، وقد عقدت فى هذا البحث دراسة مقارنة بين الشيخ وتلميذه فى الاحتجاج . وقد سمع أبو على من شيخه كتابه فى معانى القرآن[١٠] وقد كان معانى القرآن مثار نشاط فكرى : أبو على يصلح عليه مسائل فى كتابه الذى سماه[١١] الاغفال أو المسائل المصلحة ثم يرد ابن خالويه على كتاب الاغفال ، فيؤلف أبو على نقض الهاذور فى الرد على ابن خالويه ، وكان أبو على قوى الهجوم على شيخه : يصفه بالسهو فى الحكاية والغلط[١٢] ، والخطأ[١٣] ، أو يصف كلامه بأنه فاسد[١٤] ، وليس بالجيد[١٥] ، وحيناً ينصفه[١٦] ، وقد تناولت ذلك بالتفصيل عند الحديث على كتاب الاغفال ، وقد روى

---

(١) الاغفال : ٢ — (٢) نزهة الألباء : ١٦٦

(٣) معجم الأدباء : ١/١٤٥ — (٤) انباه الرواة : ١٥٩

(٥) فهرست /٦١ — (٦) محفوظ بدار الكتب المصرية برقم ١٤١ نحو

(٧) طبقات : ١١٩

(٨) انظر مثلا العسكريات : ١٣٣ والحجة : ١/٢٨٦ مراد ملا

(٩) انظر الحجة : ١/١٨٥ — (١٠) الاغفال : ٢

(١١) انظر إقليد الخزانة : ٦٢ ، ١٢٥ — (١٢) الاغفال : ٢ رقم ٨٧٥ تفسير

(١٣) ٤٤٢ — ٤٤٣ — (١٤) ٣١

(١٥) ٤٨ — (١٦) انظر ص ٦١

أبو على عن شيخه كتابه ، الإبانة والتفهيم عن معنى بسم الله الرحمن الرحيم [١].

ويعد أبو اسحق الزجاج طريق أبي على إلى المازنى [٢].

(٢) الأخفش الصغيرت ٥ ٣١هـ :

وهو أبو الحسن على بن سليمان ، قرأ على ثعلب والمبرد [٣]، ويختلف المترجمون فى تقديره : فهو عند أبى البركات الانبارى من أفاضل علماء العربية [٤]، وهو عند المرزبانى : « لم يكن بالمتسع فى الرواية فى الاخبار والعلم بالنحو [٥] ، وكان إذا سأل عن مسائل النحو ضجر ، وانتهر كثيراً من يواصل مسألته ويتابعها [٦]، على حين يقرر ابن النديم فى الفهرست أن على بن سليمان كان حافظا للاخبار [٧].

وكان على بن سليمان مولعاً باعتراض ابن الرومى بما يتطير به ، فشق ذلك على ابن الرومى فهجاه وأقذع ، واستعمل الأخفش حفظ هجائه ، وأملاه فيما يملى من الأخبار والأشعار على أصحابه ، فلما رأى ابن الرومى أن الأخفش لا يألم لهجائه أقصر عنه [٨].

ويبدو أن أبا على انتفع بالجانب الذى برع فيه على بن سليمان ؛ وهو رواية الأخبار ، فالفارسى يروى عنه بسنده قصيدة يزيد بن الحكم الثقفى لأخيه من أبيه وأمه عبد ربه [٩]، وينص فى الإيضاح على أنه أنشده [١٠]، ويستثبته فى أراء شيخه ثعلب [١١] واستعانة أبى على بالأخفش الصغير لم تبلغ مبلغ استعانته بالأخفش الأوسط على أية حال .

---

(١) انظر المخطوطة رقم ٦٧ نحوش دار الكتب الصفحة الأخيرة من هذه المجموعة والرسالة فى المجموعة الثالثة وقد ذكر فهرس المحفوظات المصورة بالأمانة العامة أن الرسالة للزجاجى ت ٣٧٧ هـ

(٢) انظر البغداديات ٢٩،٣٢

(٣) بغية الوعاة : ٣٣٨

(٤) نزهة الألباء : ١٦٨

(٥) معجم الأدباء : ١٣/٢٤٧ وبغية الوعاة : ٣٣٨

(٦) المصدر السابق وانظر الفهرست لابن النديم ١٣٧

(٧) الفهرست : ١٢٣

(٨) طبقات الزبيدى : ١٢٦

(٩) البصريات : ٥٧

(١٠) الايضاح : ٣٩

(١١) الحجة : ١/٢٢٦ من البلدية

(٣) أبو بكر محمد بن السرى البغدادى ابن السراج ت ٣١٦ هـ :

ومن أشياخ أبى على محمد بن السرى بن السراج صاحب الكتب المفيدة فى النحو ، منها كتاب الأصول ، جمع فيه أصول العربية ، وأخذ مسائل سيبويه ، ورتبها أحسن ترتيب [١] ، وإليه المرجع عند اضطراب النقل واختلافه [٢] ، وكتاب الأصول غاية فى الشرف ، والفائدة [٣] ولابن السراج كتاب فى مختصر النحو أختصر فيه أصول العربية ، وجمع مقاييسها [٤] .

وكان ابن السراج من أحدث غلمان المبرد سناً مع ذكائه وفطنته ، وقد انتهت إليه الرياسة بعد موت الزجاج [٥] ، نظر فى دقائق سيبويه وعوّل على مسائل الأخفش والكوفيين ، وخالف أصول البصريين فى مسائل كثيرة ، ويقال « ما زال النحو مجنوناً حتى عقله ابن السراج بأصوله [٦] وابن السراج هو الذى احتج للقراءات التى ذكرها ابن مجاهد ، وكانت بينهما صحبه [٧] ، وقفى قفوه أبو على الفارسى ، على النحو الذى تعرضت له عند حديث الموازنة بين الرجلين فى الاحتجاج .

وكان (رحمه الله) يعرف قدر المتقدمين عليه ، والذين سبقوه ممن اشتغلوا بالعلم [٨] ، وقد أخذ أبو على عن ابن السراج كتاب سيبويه [٩] .

وها نحن أولاء نرى مقدار الأثر الكبير الذى تركه ابن السراج فى نفس أبى ، لجمعه المقاييس ، ونظره فى دقائق الكتاب ، وتعويله على مسائل الأخفش واحتجاجه للقراءات ، ومعرفته فضل المتقدمين ، كل أولئك بعض ما كان لابن السراج من آثار عند الفارسى . وقد أخبره أبو بكر بن السراج بمذاهب الكوفيين ، ومن هنا يعتمد عليه أبو على فى تفسير مصطلحاتهم [١٠] .

وقد رأيت أبا على يحتفل فى مسائله بابن السراج : يسائله مستفهماً [١١] .

---

(١) نزهة الألباء : ٦٩
(٢) معجم الأدباء : ١٨/٢٠٠
(٣) طبقات الزبيدى : ١٢٢
(٤) طبقات الزبيدى : ١٢٢
(٥) الفهرست : ٩٢
(٦) معجم الأدباء : ١٨/١٩٨
(٧) انظر نزهة الألباء : ١٦٨
(٨) انظر معجم الأدباء : ١٥/٢٠٠ـ٢٠١
(٩) بغية الوعاة : ٤٥
(١٠) انظر البغداديات : ٣٦
(١١) البغداديات : ٢١

ويورد قوله ويشرحه [١]، ويعقب عليه [٢]، ويقيس على كلامه [٣]، ويستأنس بما يملى عليه [٤]، وينقل تعريفه للاسم ويعلق عليه [٥]، ويدلل على رأيه ويعلله [٦]، ويعتمد عليه فى تقسيم الشاذ [٧] وينشد ما أنشده عن أبى العباس عن أبى عثمان [٨]، ويروى ما أنشده عن السكرى عن هاشم [٩] — وكل ذلك فى اعتداد وتوثيق .

(٤) أبو بكر بن الخياط ت ٣٢٠ هـ :

أما أبو بكر الخياط فهو محمد بن أحمد بن منصور ، قدم بغداد ، واجتمع مع إبراهيم ابن السرى الزجاج ، وجرت بينهما مناظرة ، وكان يخلط المذهبين : نحو البصريين والكوفيين ، اثنى عليه السيوطى ، ذكر له صاحب الفهرست [١٠] النحو الكبير ، ومعانى القرآن ، والمقنع [١١]. والموجز فهو بذلك مشارك فى الدراسات النحوية والقرآنية جميعاً :

قرأ عليه أبو على الفارسى ، وكتب عنه شيئا من علم العربية — رأى ذلك ياقوت بخط أبى على [١٢].

وقد أدعى ابن خالويه على أبى على الفارسى أنه قال بأن ابن الخياط لا يعرف شيئاً ، فرد ذلك أبو على فى كتاب منه إلى سيف الدولة حيث قال :

وأما قوله : انى قلت أن ابن الخياط كان لا يعرف شيئاً فغلط فى الحكاية . كيف استجيز ذلك ؟ وقد كلمت ابن الخياط فى مجالس كثيرة ، ولكنى قلت : إنه لا لقاء له ؛ لأنه دخل إلى بغداد ، بعد موت محمد بن يزيد ، وصادف أحمد بن يحيى، وقد صُمَّ صمما شديداً لا يخرق الكلام سمعه ، فلم يمكن تعلم النحو منه ، وإنما كان

---

(١) البصريات : ٦٦
(٢) البصريات : ٦٨
(٣) البصريات : ٦٩
(٤) البصريات : ٧٤
(٥) العسكريات : ١٣٢
(٦) نفس المصدر
(٧) العسكريات : ١٣٤
(٨) العسكريات : ١٣٥
(٩) العسكريات : ١٣٧
(١٠) وانظر نزهة الألباء وبغية الوعاة : ١٢١
(١١) فى البغية المتقن فى النحو وهو تحريف انظر ص ١٩
(١٢) معجم الأدباء : ١٤٢/١٧ ، وانظر معجم الأدباء : ٢٦١/٧

يقوله (كذا والصواب يقول) فيما كان يؤخذ عنه على ما يمليه ، دون ما كان يقرأ عليه[1].

وفارق أبو على أبا بكر قبل وفاته وهو يشغل بالعلة التى توفى فيها ، ورجع أبو على إلى بلاد فارس ثم عاد وقد توفى أبو بكر[2]. وقد اثنى ابن جنى على كتب أبى بكر بحضرة أبى على الفارسى قائلا لو عاش لظهر من جهته علم كثير ، فقال أبو على ، : نعم إلا أنه كان يطول كتبه[3]. . .

فإذا أردت التعرف على أثر ابن الخياط فى أبى على وجدته فى مشاركته فى الدراسات النحوية ، والقرآنية ، ومعرفته مذاهب الكوفيين والبصريين جميعا ، وما كان عليه الرجل من علم كثير .وقد كتب ابن الخياط كثيراً من كتب أبى زيد[4] وسنرى مقدار انتفاع أبى على بابن الخياط ، وتأثره به فى هذا الجانب[5].

(٥) أبو بكر بن دريد ت ٣٢١هـ:

وابن دريد هو أبو بكر محمد بن الحسن (٢١٣ — ٣٢١ هـ) ، ولد بالبصرة ونشأ بعمان فأقام بها مدة ، ثم صار إلى جزيرة ابن عمارة[6]. فسكنها مدة ثم صار إلى فارس فقطنها ، ثم صار إلى بغداد[7] ، بعد أن أسن ، فأقام بها إلى آخر عمره[8]. فربما التقى به أبو على فى فارس ، وربما التقى به فى بغداد .

وكان ابن دريد عالماً باللغة ، وأشعار العرب ، أخذ عن علماء البصريين ، وقرأ عليهم أخذ عن أبى حاتم السجستانى ، وأبى الفضل الرياشى ، وعبد الرحمن ابن أخى الاصمعى[9] ، وهو مشهور بكتابه الجمهرة فى علم اللغة[10] ، ومقصورته[11] التى مدح بها الأمير أبا العباسى الميكالى رئيس نيسابور[2].

وإذا كان كل من الزجاج ، وابن السراج ، وابن الخياط من أساتذة أبى على مذكوراً

(١) معجم الأدباء : ١٤٥/١٧ (٢) معجم الأدباء : ٢٦١/٧
(٣) انظر معجم الأدباء : ٢٦٠/٧ (٤) المصدر السابق
(٥) انظر ص ١٢٨ من هذا الكتاب
(٦) فى معجم الأدباء جزيرة ابن عمر : ١٢٨/١٨
(٧) الفهرست : ٩١ (٨) معجم الأدباء : ١٢٨/١٨
(٩) نزهة الألباء : ١٧٣ (١٠) الفهرست : ٩١
(١١) نزهة الألباء : ١٧٣ (١٢) معجم : ١٣١/١٨

بحميد الأخلاق ، وحسن العقيدة ؛ فان ابن دريد كان محباً للشراب والغناء، حتى كان يعلق العيدان والشراب المصفى فى بيته وقد جاوز التسعين [١] ، يلقاه الناس على كبر سنه — سكران لا يكاد يستمر لسانه على الكلام من سكره [٢] ، وكان يتصدق بدنان الخمر قائلا : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » ، كما كانت تهدى إليه الدنان [٣] ، ، كما كان يتعلق بالوضىء من الغلمان [٤] .

وكان لا يمسك شيئاً يقع بيده [٥] . تصدر ابن دريد فى العلم ستين سنة ، وقد مات . هو وأبو هاشم الجبائى فى يوم واحد ، فقال الناس : « مات علم اللغة والكلام [٦] » .

فإذا تبينت آثار ابن دريد فى الفارسى وجدته فى العلم باللغة ، ورواية أشعار العرب ، وفى مسائل أبى على — البصريات يظهر تأثر أبى على بابن دريد واضحاً فهو يروى ما أنشد ابن دريد : « تقول عرسى وهى لى فى عومرة . . . الخ ، ويشرح ألفاظ البيت بألفاظ ابن دريد ولا يزيد ، كذلك يروى ما قاله ابن دريد فى الرحمان من غير تعليق [٧] ، وقد روى شيئاً من كلامه [٨] . كما يروى عنه ما جرى بين الأصمعى والمفضل الضبي [٩] .

وربما تأثر أبو على بشيء من شرب ابن دريد ومجانته [١٠] .

(٦) أبو بكر بن مجاهد (ت ٣٢٤ هـ) :

وأبو بكر بن مجاهد هو أحمد بن موسى آخر من انتهت إليه رياسة القراءات والاقراء بمدينة السلام فى عصره ، اجتمع فى حلقته نحو ثلثمائة مصدر [١١] ، ذكره ابن النديم ، فأثنى عليه ، ووصفه بأوصاف حسنة من الفضل — والعلم ، والديانة

---

(١) نزهة الألباء : ١٧٤ وانظر معجم الأدباء : ١٨/ ١٣٠

(٢) معجم الادباء : ١٨/ ١٣١

(٣) معجم الأدباء : ١٨/ ١٣٦

(٤) ١٨/ ١٣٩

(٥) طبقات الزبيدى: ٢٠١

(٦) نزهة الألباء : ٤٧٥

(٧) انظر البصريات : لوحة رقم ٥٧

(٨) انظر الاغفال : ٥٨ تفسير ٨٧٥ بدار الكتب

(٩) انظر المخصص: ١/ ٢٩

(١٠) انظر الكلام عن أخلاق أبي على

(١١) طبقات القراء: ١/ ١٤٢

والمعرفة بالقراءات ، وعلوم القرآن، وحسن الأدب ، ورقة الخلق ، وثقوب الفطنة (١) ، ووصفه ابن الجزرى فى كتابه الطبقات : بأنه شيخ الصنعة ، وأول من سبع السبعة (٢) وهو الذى حمل الوزير ابن مقلة على تعذيب ابن شنبوذ (٣)، وروى أبو على القراءة عنه عرضاً (٤).

ولولا أبو بكر بن مجاهد ما كان كتاب الحجة لأبى على ، ويكفى ذلك أثراً يتحدث عن فضل ابن مجاهد ، وصدى لعلمه وكتبه فى نفس الفارسى . وقد استظهرت فى مكان آخر أن الجدل الذى أقامه ابن مجاهد حول القراءات الشاذة كان بعض ما دفع ابن جنى — تلميذ الفارسى — إلى تأليف المحتسب .

(٧) أبو بكر مبرمان (ت ٣٤٥ هـ)

أما المبرمان فهو محمد بن على بن اسماعيل العسكرى ، كان إماما فى النحو قيِّما به أخذ عنه السيرافى والفارسى ، وكان مع علمه وفضله وضيع النفس (٥)، ساقط المروءة نحيفا ، إذا أراد أن يمضى لمصلحة طرح نفسه فى طبق حمال ، وشده بحبل ، وربما كان معه نبق أو غيره فيأكل ، ويرمى الناس بالنوى يتعمد رءوسهم ، وربما بال على رأس الحمال (٦)، وقد كان مبرمان ضنينا بعمله لا ييسر سبيل الأخذ عنه ، فكان لا يقرأ كتاب سيبويه إلّا بمائة دينار ، وقد احتال عليه أبو هاشم الجبائى ، وسخر منه فى حيلة طريفة يرويها المترجمون (٧) ، كانت لمبرمان عناية بكتاب سيبويه ، شرحه ، وشرح شواهده ، إلى جانب شرحه كتاب الأخفش ؛ وله كتب أخرى فى النحو (٨). . . هذا ولقبه المبرد مبرمان لكثرة سؤاله له (٩) .

ولعلك ترى ما كان لمبرمان من أثر عند الفارسى : فهو معنىٌّ بالكتاب ، وحسبك هذا عملا له أثر جليل فى نفس التلميذ أبى على . وأصح هنا ما قال العاملى صاحب

---

(١) الفهرست : ٤٧
(٢) ١/١٣٩ (٣) انظر طبقات القراء : ٢/٥٤–٥٥
(٤) طبقات القراء : ٢٠٧
(٥) الفلاكة والمفلوكون : ١١٣ (٦) بغية الوعاة : ٧٥
(٧) انظر معجم الأدباء : ١٨/٢٥٦ (٨) انظر بغية الوعاة : ٧٥
(٩) الفلاكة والمفلوكون : ١١٣

أعيان الشيعة ، فبعد أن ذكر مشايخ أبى على ، وعد منهم أبا أسحق الزجاج ، وأبا بكر ابن السراج ، وأبا بكر مبرمان ، وأبا بكر الخياط — قال : وفى لسان الميزان أخذ عن أبى بكر بن مجاهد — ثم علق العاملى على ذلك بقوله : «ولعله أحد المذكورين» أقول : وهذا الذى قاله العاملى خطأ ؛ فإن أبا بكر بن مجاهد غير الزجاج ، وابن السراج ومبرمان ، وابن الخياط . كذلك وقع العاملى فى خطأ آخر ؛ فبعد أن ذكر قول ابن جنى الذى أورده ياقوت فى معجم الأدباء وسؤاله أبا على هل قرأ على أبى بكر؟ قال العاملى : ولا يعلم أن أبا بكر هذا من هو ؛ لأنه مر فى مشايخه أنه أخذ عن ثلاثة كلهم يكنى أبا بكر ، ولعل المراد به السراج فإنه أعرفهم وأشهرهم والله أعلم[١] .

أقول : وأبو بكر هنا هو أبو بكر بن الخياط الوارد فى كتاب الفارسى لسيف الدولة[٢] . . .

وبعد فهؤلاء هم شيوخ أبى على فى القراءة واللغة والنحو وقد أوردتهم على حسب سنى وفاتهم ، وذكرت ما كان لكل شيخ من الأثر الخلقى والعلمى فى نفس أبى على ، ومما يستحق التسجيل أن معظم هؤلاء الشيوخ قد اختارهم الله إلى جواره فى الربع الأول من القرن الرابع الهجرى ، وبعد نزول أبى على بغداد بنحو خمسة عشر عاما ؛ فالزجاج ت ٣١١ هـ[٣] ، وابن السراج توفى سنة ٣١٦ هـ[٤] ، وابن الخياط ت (٣٢٠ هـ)[٥] . وابن دريد ت (٣٢١ هـ)[٦] . وابن مجاهد ت (٣٢٤ هـ)[٧] . والذى أريد أن أرتبه على ذلك أن أبا على قد خلا الجو له نحو خمسين عاما : نصف قرن من الزمان ، تصدر فيه للإمامة ، وقد أحس أبو على من نفسه ذلك فى حياة شيخه أبى بكر بن الخياط ؛ إذ يرى أنه أصبح فى درجة تعلو به على أصحاب ابن الخياط ، وترفعه إلى درجة ابن الخياط نفسه : قال ابن جنى : حدثنى أبو على قال : اجتمعت مع أبى بكر بن الخياط عند أبى العباس المعمرى بنهر معقل فى حديث طويل ، فسأله عن العامل فى إذا من قوله سبحانه : هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق ... » قال فسلك فيها مسلك الكوفيين ، فكلمته إلى أن

---

(١) أعيان الشيعة : ٢١/٢٨

(٢) انظر الحلبيات : ٣٣ ظهره نحو

(٣) انظر نزهة الألباء : ١٦٨ (٤) المصدر السابق : ١٦٩

(٥) انظر معجم الأدباء : ١٧/١٤١ (٦) نزهة الألباء : ١٧٥

(٧) الفهرست : ٤٧

أمسك،فسألته عن غيرها، وعن غيرها، وافترقنا،فلما كان الغدا جتمعت معه عند أبى العباس، وقد أحضر جماعة من أصحابه، فسألونى فلم أر فيهم طائلا، فلما انقضى سؤالهم قلت لأكبرهم: كيف تبنى من سفرجل مثل عنكبوت؟ فأجابه مسرعا: سفرروت، فلما سمعت ذلك قمت فى المسجد قائما وصفقت بين الجماعة: سفرروت سفرروت !! فالتفت إليهم أبو بكر وقال: «لا أحسن الله جزاءكم، ولا أكثر فى الناس أمثالكم[1]» خجلا مما جرى، واستحياء من أبى على[2] وافترقنا فكان آخر العهد بهم[3]، وهذه الحكاية إلى جانب ما استشهدت بها عليه — تدل على براعة أبى على فى التصريف، وتنقله فى مجالس العلم، ومناصرته أهله من الشيوخ، ونابغى الطلاب؛ فها أنتذا ترى أنه يكلم ابن الخياط إلى أن يمسك، وأنه يقبل على أكبر طلابه سنا، وأرجحهم عقلا، وأوسعهم علما عند نفسه، فيلقى عليه هذه المسألة الصرفية التى يجيب عنها إجابة تخجل أبا بكر بن الخياط، وتبعث فى نفسه الاستحياء من أبى على، ثم يكون الافتراق بين الرجلين الذى لا لقاء بعده.

وهكذا يرتفع أبو على عن طبقة شيوخه الذين تلق عنهم، فيتعرض للزجاج فى كتابه الاغفال، ويعرض احتجاجه للقرآن جنبا إلى جنب احتجاج شيخه أبى بكر ابن السراج على النحو الذى عرضت له فى مكان آخر من ذلك البحث، ويتحدث فى بعض كتبه أن شيوخه كانوا يسألونه[4]. ويتعرض لابن دريد بقوله: «وقد كان شيخ من أهل اللغة وزن هذه الكلمة — يستعور — بيفتعول حتى نبه عليه، وله فيما كان أملاه من الأبنية حروف كثيرة تحتاج إلى إصلاح»[5] وبهذا يرتفع أبو على عن شيوخه المعاصرين، ويعلو باسناده إلى المصادر الأولى[6].

وقد بينت فى حديثى عن ثقافة أبى على انتفاعه بالشيوخ القدامى أمثال الاصمعى وأبى عبيدة، وأبى عثمان المازنى، وأحمد بن يحيى ثعلب، كما أوردت فى غضون عرضى لمسائله مهاجمة القراء، والكسائى، والمبرد ثم ثعلب حينا، ورأيت أبا على لم يكن يعجبه نقل اللحيانى[7]. كما رأيته يهاجم ابن السكيت (هو أبو يوسف يعقوب ابن

---

(١) الخصائص: ٢/٥٩٤ وما بعدها ٢٧٤ نحو تيمور
(٢) معجم الأدباء: ٧/٢٣٥ (٣) الخصائص: ٢/٥٩٥
(٤) انظر الحجة: ١/٣٢٦ مراد ملا (٥) البغداديات: لوحة رقم ٤
(٦) انظر طبقات الزبيدى: ١٢٧ (٧) المخصص: ٣/١٤٦، ٤/٤٤، ١٤/٢٣٢
وهو على بن حازم اللحياني، انظر نزهة الألباء: ١٢٢

السكيت[١]) . فيخطئه فى الرواية[٢]، ويرميه بالوهم[٣]، وينص على أنه غير مسموع له فى التصريف[٤] .

لكن أبرز من انتفع بهم أبو علي من الشيوخ القدماء ، واعتد بأقوالهم فى توقير وإجلال ثلاثة رجال : أبو زيد، وسيبويه ، والاخفش .

(ا) فاما أبو زيد فهو سعيد بن أوس بن ثابت . . . الانصارى[٥] وثابت هذا شهد أحداً ، وهو أحد الستة الذين جمعوا القرآن على عهد النبي (صلى الله عليه وسلم) . وأبو زيد معدود من القراء ، والنحاة ، واللغويين : روى القراءة عن المفضل عن عاصم الكوفى ، كما روى عن أبي عمرو بن العلاء البصرى[٦] ، وألف كتابا فى قراءة أبي عمرو[٧] .

وكان من جلة أصحابه وكبرائهم[٨]. ويقول السيرافى : « وعامة كتاب النوادر لأبى زيد عن المفضل »[٩] . فها نحن أولاء نرى أن أبا زيد لا يتعصب فى طلب المعرفة[١٠]. وهذا ما يقرره السيرافى إذ يقول : « ولا نعلم أحداً من علماء البصريين بالنحو واللغة أخذ عن أهل الكوفة شيئاً من علم العرب إلا أبا زيد »[١١] .
ومعظم تأليف أبي زيد فى اللغة[١٢] .

ورأيت أبا على يصف أبا زيد بالضبط فى الرواية[١٣] ، ويعقد لما ينشده مسألة مستقلة سأل عنها عضد الدولة[١٤]، ويستعين به فى تفسير الكلمات[١٥]، ويروى ما أنشده فى كثرة ظاهرة ، ويوجه إعراب ما ينشده[١٦] . ويعرف طريقته فى

---

(١) انظر نزهة الألباء : ١٢٣ المخصص : ٧/١٠٧
(٢) المخصص : ٧/١٠٧ (٣) المخصص : ٤/١٠٢ ، ١٤/٦٢
(٤) انظر المخصص ٨/١١٢ فى وزن تتحيز
(٥) طبقات الزبيدى : ١٨٢ (٦) طبقات القراء : ١/١٨٩
(٧) الفهرست : ٨١
(٨) طبقات القراء : ١/٣٠٥ (٩) أخبار النحويين البصريين : ٤٥ وفى صدر النوادر تفصيل لما أخذ أبو زيد عن المفضل وما سمعه عن العرب من شعر القصيد وأبواب الرجز واللغات انظر نوادر اللغة : ١ (١٠) سيبويه امام النحاة لأستاذنا : ٦٢
(١١) أخبار النحويين البصريين : ٤٥ (١٢) انظر الفهرست : ٨١
(١٣) الحجة : ١/٢٦٧ من البلدية (١٤) انظر الشيرازيات : ٩٩
(١٥) الحجة : ١/٢٢٩ من البلدية (١٦) الحجة : ١/١٤٨ من البلدية

تناوله مسائل اللغة (١) ، ويورد تفسيره للكلمات (٢) ، ويبلغ اعتداد أبي على بأبي زيد مبلغه إذ ينشد ما حكى أبو زيد .

(فإذا سمعت بأنني قد بعتهم   بوصال غانية فقل كذبذب)

ثم يعلق على ذلك بقوله : « وهذه الكلمة : « كذبذب » محكى فيما شذ عن سيبويه فى الأبنية ، ولولا ثقة أبي زيد ، وسكون النفس إلى ما يرويه لكان ردها مذهبا (٣) .

وجاءت عناية أبي على بأبي زيد مصداقاً لقولة أبي حيان : « وما تجاوز أبو على فى اللغة كتب أبي زيد وأطرافاً مما لغيره (٤) » .

فإذا ذهبت أتلمس الأسباب التى من أجلها تأثر أبو على أبا زيد رأيت منها :

أولا — أن أبا زيد ثقة مقبول الرواية (٥) . فيه عفاف وتقوى وإسلام (٦) .

وثانياً — أنه روى عن الأعراب الفصحاء (٧) : روى عن عقيل وقشير من أعراب مضر ، وقد نزلوا بالبصرة من محل أصابهم (٨) .

وثالثاً — أن شيخا من شيوخ أبي على — هو أبو بكر بن الخياط — كتب كثيراً من كتب أبي زيد (٩) . فلعل التلميذ تأثر بما تأثر به الشيخ .

ورابعا — أن الناس عنوا من قديم بكتب أبي زيد ، فقد كان الرياشى يحفظ الشعر الذى فى النوادر ، كما يحفظ السورة من القرآن . كما حفظ كتاب الهمز لأبي زيد وقرأه عليه حفظا ، وكان يعد حروفه (١٠) . وقد شرح نوادر أبي زيد أبو الحسن الأخفش ، وأبو هاشم ، والجرمى ، والسكرى (١١) .

وخامسا — أن سيبويه كرم أبا زيد فى الكتاب ، فلم يصرح باسمه فى الرواية عنه ، بل كنى عنه بأفضل ما يكنى به عن الرواة والعلماء مثل : « من نثق به ، ومن لا نتهم » فكأنما أراد سيبويه — كما يقول أستاذنا — أن يدعو الناس إلى هذه التسمية ، وأن يشاركه فيها من لم يكن يشاركه ؛ اجلالا للرجل ومكافأة (١٢) . وسيبويه هو من هو

---

(١) المخصص : ١٤/٢٤٨   (٢) الحجة : ١/١٧٦ ، ١٨٠ مراد ملا
(٣) الحجة : ١/٢٢٨ مراد ملا (٤) الامتاع : ١/١٣١
(٥) أخبار النحويين والبصريين : ٤٢ (٦) نزهة الألباء : ٨٧
(٧) الحجة : ١/٧٣ من البلدية (٨) طبقات الزبيدى : ١٨٢
(٩) معجم الأدباء : ٧/٢٦٠   (١٠) نوادر ابي زيد : ٢
(١١) انظر إقليد الخزانة : ١٢٥ (١٢) انظر سيبويه امام النحاة : ٩٣

جلال قدر ، وارتفاع محل عند أبي علي بخاصة ، فلا غرو أن يكون أول المستجيبين لدعوة سيبويه إلى إكبار أبي زيد .

(ب) وأما سيبويه فيبلِّر موقف أبي علي منه ، ويختصر تقديره له ما قال أبو حيان : « أما أبو علي فأشد تفرداً بالكتاب ، وأشد إكباباً عليه[1]» ، وفي غضون بحثي هذا ، وعند عرض كتب أبي علي المختلفة جلَّيت مصداق قولة أبي حيان ، وأنه من المعاد المكرور أن أذكر النصوص الدالة على هذه القولة ، فذلك مما يطيل حبل الكلام ، ولكني أكتفي — اختصاراً بذكر مظاهر تأثر أبي علي بسيبويه :

أبو علي قرأ الكتاب قراءة فاحصة واعية[2] ، ووازن نسخه بعضها ببعض[3] ، ورد ما قد يتوهم في الكتاب من التدافع[4] ، وصحح مذهبه[5] ، واحتج به[6] ، واحتج له[7] . ونص على أن القول قول سيبويه[8] ، وبنى على ما يرويه ، وقاس على ما يحكيه[9] . وجاء الحجة شرحاً للكثير من نصوص سيبويه ، وتطبيقاً للقواعد التي ذكرت في الكتاب[10]. ورأيت أبا علي يستعمل بعض ألفاظ سيبويه ، إن قال سيبويه مثلا : « أخبرني من نثق به . . . » . قال أبو علي : « أنشدنا بعض من نثق بروايته . . » أخبرني وإن قال سيبويه : وجيه ضعيف[11] . قال أبو علي : أبو علي : « وجيه في القياس[12] » . ومن هنافهم أبو علي أسلوب سيبويه ، وحكمه وصار إليه[13] ، ولا يقتصر نظر أبي علي إلى سيبويه على اللغة والنحو ؛ بل يستهدي به قارئاً راوية للقراءات[14] . يعقد في الحجة كلام سيبويه فيما يصدره من أحكام على مختلف الروايات . قال : « وقد روى أن بعضهم قرأ يوم التناد ، وكأنه اعتبر يوم يفر المرء من أخيه فجعل التناد تفاعلا من ند البعير إذا شرد ونفر ، وليس ذلك بالوجه ، ألا ترى أنه لا يسهل أن تقول : « نددت مما لزمك ولا نادت منه كما يقول : فررت منه ، ونرى سيبويه يستعمل

---

(١) الامتاع : ١/١٣١ (٢) انظر عرض كتاب الاغفال
(٣) انظر المخصص ١٤/١٤٥ ، ١٨٠
(٤) الحجة : ١/٩٦ ؛ مراد ملا (٥) الحجة : ١/٢٦٢ مراد ملا
(٦) الحجة : ١/٤٠ من البلدية (٧) البغداديات : ٢٥
(٨) البصريات : ٢٦٠/٨٨ (٩) الحجة : ١/٦٠ من البلدية
(١٠) الحجة : ١/٥١—٥٣ (١١) الكتاب : ٢/٣٥٤
(١٢) الحجة: ٣/١٥—٢٠ من البلدية (١٣) انظر المخصص ٦/١٩١
(١٤) انظر الحجة : ١/٤٤ من البلدية

فى هذا المعنى فرٌّ كثيراً ، ولا يستعمل ند وليس هذا الاعتبار إذاً بالوجه[١] » .
وقد نقل هذا ابن سيده فى المخصص[٢] . أرأيتم كيف احتكم أبو على إلى استعمال سيبويه ، وبنى عليه ؟ ومن أجل سيبويه خاصم أبو على المبرد ومن تابعه ، والمبرد نقض على سيبويه ، ومن أجله أيضاً سالم فى الأعم الأغلب أحمد بن يحيى خصم المبرد.

ولسيبويه المكانة الأولى بين النحاة ، والباحث فى غنى بسبب هذه المكانة عن التعليل لدوران أبى على فى فلك سيبويه ، ولكن هناك أسباباً خاصة تجعل أبا على يقف هذا الموقف من إمام النحاة . فكلاهما فارسى ، بل إن قبر سيبويه بشيراز[٣]، حيث سلخ أبو على أيام صباه وتلقيه قبل أن ينتقل إلى بغداد ، ثم حيث أقام عشرين سنة أخرى بعد اتصاله بعضد الدولة ، فهذه نحو أربعين عاماً يقضيها بشيراز قريباً من ذلك الكنز الدفين . ألا يكفى ذلك لأن يحذو أبو على حذوه ، ويقتفى منه الآثار ؟ بلى !

(ج) أما الأخفش : فهو أبو الحسن سعيد بن مسعدة[٤] . وكان تأثر أبى على به ظاهراً : قوّى قراءاته ، ودلّل عليها[٥] ، وخطّأ ما حكى السكرى بما قال أبو الحسن[٦] وفهم كلامه على وجهه ، ورد فهم ابن السراج له ، وقيد إطلاق المبرد عنه[٧] ، واعتمد عليه فى اللغويات[٨] ، وتصريف الكلمات[٩] ، وأخذ برأيه فى بعض المسائل النحوية[١٠] ، وقاس على ما يقول[١١] ، واحتج له[١٢] ، وأورد كلامه ووجهه[١٣] .
وكان أبو على يوثق الأخفش ، ويثنى على صدقه ، ويعلن ذلك لتلاميذه . حكى ابن جنى قال : قال لنا أبو على : « يكاد يعرف صدق أبى الحسن ضرورة ، وذلك أنه كان مع الخليل فى بلد واحد ، ولم يحك عنه حرفاً واحداً[١٤] » . ولعل الأخفش أحد أولئك الذين وجهوا أبا على للمنطق والقياس ؛ فقد كان الأخفش فيما يقول

---

(١) الحجة : ١/٣٢٢ مراد ملا (٢) انظر : ٧/١١٨
(٣) معجم الأدباء : ١٦/١١٦ (٤) المزهر : ٢/٤١٩
(٥) الحجة : ١/٢٥٢ـ٢٥٤ مراد ملا
(٦) الحجة : ١/١٨٢ بلدية (٧) الحجة : ١/٢٥٤ مراد ملا
(٨) الحجة : ١/٢١٦ ، ٢٣١ من البلدية
(٩) الحجة : ١/١٠٣،٨، ١٠٤ من البلدية
(١٠) الحجة : ١/٢٨ من البلدية (١١) المصدر السابق ١/١٨٠
(١٢) نفس المصدر : ١/١٨٨ (١٣) ١/٢٤٨ مراد ملا
(١٤) انظر المزهر : ٢/٤١٦

السيوطى : « أعلم الناس بالكلام ، وأحذقهم فى الجدل[١] ، وألف فيما ألف المقاييس فى النحو[٢] » ، وعندى أن اعتداد أبى على بسيبويه وأبى زيد هو الذى جعله يتأثر بأبى الحسن ، فهو الطريق إلى الكتاب[٣] ، ثم هو أحذق أصحاب سيبويه[٤] ، وأعلم من أخذ عنه[٥] ، وأحفظهم[٦] . وهو بعد ذلك شارح نوادر أبى زيد[٧] .

هذا وكان أبو على يروى عن أبى الحسن عن طريق أبى عبد الله اليزيدى عن عمه عنه[٨] .

حاشية : يدلل بعض المشتغلين بالعلم فى زماننا على قيمة مؤلفات الأخفش ، بما نقله ابن جنى عن بعضها ، ومادرى أن الذى وجه ابن جنى إلى الأخفش هو أستاذه أبو على الذى تلمذ على الأخفش كما سلف به البيان[٩] .

زملاء أبى على

كان لأبى على زملاء أخذوا العلم معه عن شيوخه ، وبرز منهم :

(ا) أبو سعيد السيرافى .

(ب) على بن عيسى الرّمانى .

(ج) أبو القاسم الزجاجى .

(د) ابن خالويه .

وقد عقدت فى مناسبات البحث المختلفة ، دراسات موازنة بين أبى على وهؤلاء الزملاء بما يغنى عن إعادة الحديث فى هذا المقام .

---

(١) بغية الوعاة : ٢٠٨ (٢) الفهرست : ٧٨

(٣) الفهرست : ٧٨ ونزهة الألباء : ٤٥

(٤) أخبار النحويين البصريين : ٣٩

(٥) نزهة الألباء : ٩٤ (٦) بغية الوعاة : ٢٠٨

(٧) خزانة الأدب : ١٤/١ (٨) الحجة : ٤٤٠/١ مراد ملا

(٩) انظر بحث الأستاذ طه الزينى عن الأخفش مخطوطة بمكتبة كلية اللغة العربية برقم ٣٧٣ ص ٢٦ ، ٢٧

تلاميذ أبى على

جلس أبو على للتدريس فى البلاد التى تنقل فيها : شيراز ، وبغداد ، والبصرة ، وواسط والموصل ، وحلب ، وغيرها ، وكان له فى كل بلد من هذه البلاد تلاميذ أخذوا عنه ، ومنهم من صحبه وتبعه فى أسفاره ، وخلا به فى مقامه كابن جنى[١] . ومنهم من أقام عليه عشرين سنة ، حتى لا يبقى له شىء يحتاج أن يسأل عنه ، وذاك على بن عيسى الربعى[٢] . وقد ذكر العبدى أبا على ، وأحصى من كان يحضر مجلسه ويقرأ عليه كتاب سيبويه دون غيره من المتوسطات ، فجعلهم ثلاثين رجلا وأكثر[٣] . وقد تقسم تلاميذ أبى على علمه ، واختلفت حظوظهم منه ، فمنهم مستوعب علم أبى على يتأثره فى أطرافه المختلفة كابن جنى ، ومنهم قارئ يروى القراءة عنه عرضاً كعبد الملك ابن بكران النهروانى[٤] . ومنهم من سمع منه الحديث كأبى القاسم التنوخى ، وعلى ابن المحسن الذى سمع فى أوائل حاله[٥] من أبى على وقبيل وفاة أبى على[٦] ، ومحمد ابن عبد الواحد أبى الحسن[٧] ، ومحمد بن عبد الواحد أبى عبد الله ابن زوج الحرة[٨] ، وهلال بن المحسن بن ابراهيم بن هلال الصابى[٩] .

ومنهم العروضى ، والنحوى ، واللغوى . ومنهم بارع كأستاذه فى جودة النظر ودقة الفهم والقياس وهكذا وهكذا . . .

ولا يكاد المترجمون لأبى على يذكرون فى ترجمته غير ابن جنى والربعى[١٠] ، مع أن تلاميذه الآخرين قد رزقوا حظاً من الشهرة ، واحتل بعضهم مكانة مرموقة فى الحياة ، وإليك طائفة من تلاميذ أبى على ، وأكثرهم متصدر متميز ، وما منهم إلا له مقام معلوم فى اللغة ، والنحو ، والعروض ، أو النظر ، والقياس ، وإقامة الحجج . وتفصيل الحديث عن تلاميذه على سبيل التقصى ، وبيان مدى تأثرهم بأبى على ،

---

(١) انباه الرواة : ٢/٣٣ (٢) انباه الرواة : ٢/٢٩٧
(٣) انباه الرواة : ٢/٣٨٧ (٤) انظر طبقات القراء : ١/٢٠٧
(٥) انظر تاريخ بغداد : ١٢/١١٥ (٦) تاريخ بغداد : ٧/٢٧٥
(٧) تاريخ بغداد : ٢/٣٦١ (٨) نفس المصدر : ٣٦
(٩) تاريخ بغداد : ١٤/٧٦ ، ومعجم الأدباء : ١٩/٢٩٤ ، ووفيات الأعيان : ٥/١٥٢
(١٠) تحدثت عنهما بالتفصيل عند الكلام على كتاب المحتسب ، وفى الكلام على أخلاق أبى على تحدثت عن تمشقه لمحمد بن طويس القصرى تلميذه النحوى المنزلى ، والذى إليه تنسب المسائل القصريات فى بعض الأقوال (انظر معجم الأدباء : ١٨/٢٩٦)

مما يتصل اتصالا وثيقاً بطرف من موضوع هذا البحث : آثار أبي على فى النحو ، وقد ذكرت قريباً بإيجاز من سمع الحديث من أبي على ، وها هم أولاء بقية تلاميذه على حسب سنوات الوفاة :

١ — كان من تلاميذ أبي على قاضى القضاة بشيراز عبيد الله بن أحمد الفزارى ، وهو من أولئك الذين تلقوا العلم على الفارسى بشيراز ، وصنف صناعة الإعراب ، وعيون الإعراب[٢] .

٢ — ومحمد بن أحمد بن عمر الخلال أبو الغنايم اللغوى ، قال عنه ياقوت : إمام عالم جيد الضبط صحيح الخط معتمد عليه[٣] .

٣ — إبراهيم بن على الفارسى : ذكره الثعالبى فى البخاريين ، وقال : كان من الأعيان فى اللغة والنحو ، وورد بخارى فى أيام السامانية ، فأجل ، وبُجِّل ، ودرس عليه أبناء الرؤساء والكتاب بها وأخذوا عنه ، وولى التصفح فى ديوان الرسائل ، وصنف وأملى ، وشرح ، وتكلم فى العروض والقوافى ، والمعانى[٤] ، وشرح كتاب الجرمى وناقض المتنبى ، وحفظ الطم والرم (أى الكثير ، فهو مثل[٥]) .

٤ — هذا ويجعل صاحب أعيان الشيعة من تلاميذ أبي على الأزهرى[٦] . ولم أجد شيئاً من ذلك فى كتب التراجم الأخرى[٧] .

٥ — عبد الله بن محمد بن جرو الأسدى أبو القاسم : كان كأستاذه نحوياً عروضياً ، معتزلياً[٨] ، كما سلك مسلك أستاذه فى المقايسة بين مسائل النحو ، ومعانى الشعر[٩] . أنشد فى مسألة ياءات الإضافة :

ويسقط بينها المرئى لغواً كما أسقطت فى الدية الحوارا[١٠]

وكان أبو القاسم الأسدى من أهل الموصل ، قدم بغداد ، وقرأ على شيوخها[١١] .

---

(١) هو أبو منصور محمد بن أحمد بن الأزهر

(٢) بغية الوعاة : ٣٢٠ ، وروضات الجنات : ٢٢١

(٣) معجم الأدباء : ٢٠٨/١٧ ، بغية الوعاة : ١٥

(٤) معجم الأدباء : ٢٠٥/٧ (٥) بغية الوعاة : ١٨٤

(٦) أعيان الشيعة : ٢٨/٢١

(٧) انظر مثلا نزهة الألباء : ٢١٤ ، معجم الأدباء : ١٦٥/١٧–١٦٦

(٨) انظر معجم الأدباء : ٦٣/١٢ (٩) انظر الخصائص : ٦٠/١ وما بعدها ..

(١٠) انباه الرواة : ١٥٥/٢ (١١) معجم الأدباء : ٦٣/١٢

وقدعرفه القفطى بأنه صاحب أبى على[١]، وكانت له مناظرات جرت له مع الشيوخ فى العروض أورد بعضها ياقوت[٢] . وكان فيه بعد ذلك حذق، وذكاء مع جودة خط ، وصحةضبط[٣].

كان أبو على بارًّا بأبى القاسم الأسدى ، واثقاً به ، قدمه أبو على إلى عضد الدولة أماماً يصلى به حين طلب منه ذلك ، واقترح عليه أن يكون جامعاً إلى العلم بالقراءة العلم بالعربيـة ، وصلَّى أبو القاسم بعضدالدولة ، فلما كان الغد وأتى أبو على ، وسأل الملك عنه فقال : « هو كما وصفت إلا أنه لا يقيم الراء » فيقدِّم أبو على لصاحبه نصيحة حتى لا يلثغ ، وينتصح الأسدى فتستقيم له الراء[٤] .

وتوفى ابن جرو الأسـدى (٣٨٧ ﻫ) بعد أن صنف « الموضح فى العروض والمفصح فى القوافى ، والأمد فى علوم القرآن[٥] .

٦ — اسماعيل بن حماد الجوهرى: صاحب الصحاح[٦]. من أعاجيب الدنيا[٧] ذكاء وفطنة وعلماً[٨] . دخل العراق فقرأ علم العربية على شيخى زمانه ، ونور عين أوانه أبى على الفارسى ، وأبى سعيد السيرافى[٩] . ومضى لسبيله عن آثار جليلة ، وله كتاب العروض ومقدمة فى النحو[١٠] . والصحاح فى اللغة قال الثعالبى : « وهو أحسن من الجمهرة ، وأوقع من تهذيب اللغة ، وأقرب متناولا من مجمل اللغة[١١] .

وقد رأيته يرجع فى الصحاح إلى شيخه أبى على ، ويروى عنه (انظر مثلا بابى « بقم » : و « مدن[١٢] » . وقال ابن فضل الله فى المسالك مات الجوهرى : ٣٩٣ ﻫ[١٣] .

٧ — عبد الباقى بن محمد بن الحسن : قرأ على الفارسى[١٤]. وكان نحوياً متصدراً

---

(١) انباه الرواة : ٢/١٥٤ (٢) معجم الأدباء : ١٢/٦٣–٦٥
(٣) نفس المصدر (٤) انظر خبر ذلك فى بغية الوعاة : ٣٢٠
(٥) معجم الأدباء : ١٢/٦٥ (٦) نزهة الألباء : ٢٢٧
(٧) يتيمة الدهر : ٤/٢٨٩ (٨) معجم الأدباء : ٦/١٥١–١٥٢
(٩) معجم الأدباء : ٦/١٥٣ (١٠) بغية الوعاة ١٩٥
(١١) يتيمة الدهر : ٤/٢٨٩
(١٢) تاج اللغة وصحاح العربية ، فى هاتين المادتين وانظر مختار الصحاح : ٦٠ ، ٦١٩
(١٣) انظر بغية الوعاة : ١٩٥ .... (١٤) بغية الوعاة : ٢٩٤

للافادة (١) مات لعشر بقين من ربيع الأول سنة أربعمائة وصنف الدواة واشتقاقها، وشرح حروف العطف (٢).

٨ — أبو طالب أحمد بن بكر العبدى: أخذ عن أبى على جل ما عنده (٣) وكان نحوياً لغوياً قيما بالقياس كما يقول السيوطى (٤). اعتنى بكتاب العضدى وشرحه شرحا كافياً شافياً (٥). وبلغ من تأثره بشيخه أنه شرح كتاب أبى على بكلام أبى على لكثرة اطلاعه على كتبه وفوائدة، وفى رأى القفطى أن شرح العبدى للعضدى يعد عمدة لكل من تعرض لشرح هذا الكتاب (٧). وله غير شرح العضدى — شرح كتاب الجرمى (٨) ولعل الذى وجهه إلى شرح هذا الكتاب قولة أستاذه أبى على فيه (٩). عاش العبدى إلى قريب من سنة عشرين وأربعمائة (١٠). ويقول ياقوت أنه توفى سنة ست وأربعمائة فى خلافة القادر بالله وينقل السيوطى ذلك (١١).

٩ — محمدبن عثمان بن بلبل: لغوى، نحوى، صحب السيرافى، والفارسى، وروى عنه كتاب الحجة، وسمعه منه ابن بشران النحوى (١٢) ومات سنة عشرين واربعمائة، وقد رأيت أحمد بن تميم بن هشام اللبلى ينقل العسكريات من خطه (١٣). وفى الأمانة العامة للجامعة العربية (الإدارة الثقافيه) نسخة من كتاب المبهج كتبت سنة ٤٢٠ هـ منقولة من خط ابن بلبل (١٤).

١٠ — على بن عبيد الله السمسمى: اللغوى (١٥)، النحوى (١٦)، تصدر ببغداد للرواية وأقرأ الأدب، وكان جيد المعرفة بفنون العربية، كما كان ثقة فى روايته مات فى المحرم سنة ٤١٥هـ.

---

(١) انباه الرواة: ٢/١٥٥، وأورده باسم عبد الباق بن محمد بن بانيسى النحوى
(٢) بغية الوعاة: ٢٩٤ (٣) انباه الرواة ٢/٣٨٧
(٤) البغية ١٢٩ (٥) نزهة الألباء: ٢٢٢
(٦) انظر انباه الرواة ٢/٣٨٧
(٧) البغية: ١٢٩، وهذه قضية يحتاج تحقيقها إلى مقام غير ما أنا فيه الآن
(٨) انظر نزهة الألباء: ١٠١ (٩) انباه الرواة: ٢/٣٨٨
(١٠) البغية: ١٢٩ (١١) معجم الأدباء: ٢/ ٢٣٧
(١٢) بغية الوعاة: ٧٢ ومعجم الأدباء ١٨/٢٤٩، انظر طبقات القراء: ١/٥٦٦
(١٣) انظر لوحة ٢/٢٤١ العسكريات (١٤) انظر فهرس المخطوطات المصورة: ٣٦٩
(١٥) انباه الرواة: ٢/٢٨٨ (١٦) معجم الأدباء: ١٤/٥٨
(١٧) وانظر بغية الوعاة: ٣٤٣ ....

١١ — على بن عبيد الله الدقيق النحوى: أحد الأئمة العلماء فى هذا الشأن وكان مباركا فى التعليم، تخرج عليه كثير لحسن خلقه، وسجاحة سيرته، وله شرح الإيضاح، وشرح الجرمى[١]. وكتاب العروض. والمقدمات. توفى سنة٤١٥ﻫ[٢].

١٢ — صاعد بن الحسن بن عيسى الربعى البغدادى أبو العلاء: لغوى أديب، كان عارفاً باللغة،وفنون الأدب،والأخبار[٣] وكان أحضر الناس شاهدا، وأرواهم لكلمة غريبة[٤]. وأصله من الموصل، ودخل الأندلس، واتصل بالمنصور بن أبى عامر ونادمه وأحسن المنصور إليه وزاد[٥]. ومعنى ذلك أنه نشر علم أستاذه فى المغرب، ألف للمنصور كتاب الفصوص على مثال نوادر أبى على القالى[٦]. وقد اتهمه الصفدى بالكذب فى نقله، وعلل بذلك رفض الناس كتبه[٧]. وكان يسمى كتبه أسماء غريبة لا أصل لها[٨]. وكان وفياً للمنصور فلم يحضر مجلس أنس بعده، وقد كان أولاده تولوا الأمر، فادعى وجعاً لساقه منعه الحضور[٩]. وله طرف حكاها القفطى والسيوطى نقلا عن تذكرة الصفدى[١٠]. توفى بصقلية سنة ٤١٧ فيما يذكر السيوطى وسنة ٤١٩ فيما يذكر القفطى نقلا عن ابن حزم[١١].

١٣ — أحمد بن محمد بن الحسن الإمام المرزوقى أبو على: من أصبهان كان غاية فى الذكاء والفطنة، وحسن التصنيف، وإقامة الحجج[١٢] قرأ كتاب سيبويه على أبى على الفارسى، وتلمذ له بعد أن كان رأساً بنفسه[١٣]. وقد أخذ الناس عنه واستفادوا منه، وكان الحجة فى وقته[١٤]. عنى فى تأليفه بشرح الشعر، فكان له: شرح الحماسة، وشرح المفضليات، وشرح أشعار هذيل[١٥]، وشرح الفصيح، وشرح الموجز، ثم كان له كتاب الأزمنة[١٦].

---

(١) انظر سبب العناية بشرح ذلك الكتاب نزهة الألباء: ١٠١
(٢) انظر ياقوت: ١٤/٥٧٢٢٥٦ — بغية الوعاة: ٣٤٣
(٣) معجم الأدباء: ١١/٢٨١—٢٨٢ (٤) بغية الوعاة: ٢٦٨
(٥) انباه الرواة: ٢/٨٦ (٦) معجم الأدباء ١١/٢٨٣
(٧) انظر بغية الوعاة: ٢٦٨
(٨) انباه الرواة: ٦/٨٦ وانظر معجم الأدباء: ١١/٢٨٥
(٩) انظر انباه الرواة ومعجم الأدباء (١٠) البغية: ٢٦٨
(١١) انظر انباه الرواة: ٢/٩٠ (١٢) بغية الوعاة: ١٥٩
(١٣) الوافى بالوفيات: ٦/قسم ثالث ٢٤١ (١٤) انباه الرواة: ١/١٠٦
(١٥) انظر بغية الوعاة: ١٥٩ (١٦) انظر الوافى بالوفيات: ٢/قسم ثالث ٢٤١ ..

ومفردات متعددة فى النحو [١] . وكان معلم أولاد بنى بويه بأصبهان ، دخل عليه الصاحب بن عباد فلم يقم له ، فلما أفضت إليه الوزارة جفاه توفى سنة احدى وعشرين وأربعمائة [٢] .

١٤ — أبو الحسين عبدالوارث النحوى ابن أخت أبى على الفارسى : وقد تحدثت عنه عند الكلام على أسرة أبى على [٣] .

١٥ — الحسين بن محمد بن جعفر النحوى المعروف بالخالع [٤] : رافق الأصلى، سكن الجانب الشرقى من بغداد [٥] . قال الصفدى : كان من كبار النحاة ، وكان من الشعراء [٦] . وقد حدث عنه الخطيب البغدادى [٧] . وقد عنى الخالع فى تآليفه عناية خاصة بالآداب ، فكان له فى ذلك : « الأمثال » ، وتخيلات العرب ، شرح أبى تمام صناعة الشعر كما كان له : الاودية والجبال والرمال [٨] . مات الخالع سنة ٤٢٢هـ [٩] .

١٦ — على بن طلحة بن كردان النحوى أبو القاسم : قرأ على أبى على والرمانى كتاب سيبويه — من نحاة واسط ، وعنه أخذ النحو جماعة من الواسطيين ، وهم يفضلونه على ابن جنى والربعى [١٠] . وهو موصوف بالفضل والمعرفة [١١] واشتهر بالتصوف والتنزه ، وصنف إعراب القرآن فى خمسة عشر مجلداً ، ثم بدا له فغسله قبل موته توفى سنة ٤٢٤هـ [١٢].

١٧ — محمد بن محمد بن عيسى أو الحسن المعروف بالخيشى : من أهل البصرة قرأ على أبى على ، وبرع فى النحو والأدب ، وسكن واسط مدة ، وأقرأ بها ، وروى عنه ، وقدم آخر عمره إلى بغداد ، وأقام بها حتى مات ، وحدث بها ، وكان من أئمة

---

(١) انباه الرواة : ١/١٠٦

(٢) راجع معجم الأدباء : ٤/٢٤١ ، بغية الوعاة : ١٥٩ ، الوافى بالوفيات : ٢/قسم ثالث : ٣٤١ وانباه الرواة : ١/١٠٦

(٣) راجع يتيمة الدهر : ٢/٢٧٢ ، نزهة الألباء : ٢٢٦ — ٢٢٧ ، معجم الأدباء : ١٨/١٨٧ ، بغية الوعاة : ٣٨

(٤) معجم الأدباء : ١٠/١٥٥

(٥) تاريخ بغداد : ٨/١٠٥

(٦) بغية الوعاة : ٢٣٥

(٧) تاريخ بغداد : ٨/١٠٥

(٨) معجم الأدباء : ١٠/١٥٥

(٩) تاريخ بغداد : ٨/١٠٦

(١٠) انباه الرواة : ٢/٢٨٤

(١١) معجم الأدباء : ١٣/٢٩٠

(١٢) راجع معجم الأدباء : ١٣/٢٥٩ ، وانباه الرواة : ٢/٢٨٤ ، والبغية : ٣٣٩

النحاة المشهورين بالفضل والنبل ، وأخذ كذلك عن ابن جنى واضرابه مات سنة ثمان وثلاثين وأربعمائة [١] .

١٨ — عالى بن عثمان بن جنى أبو سعد النحوى ، ولا يذكر ياقوت أنه أخذ عن أبى على [٢] . وتبعه فى ذلك السيوطى فى البغية [٣] . ولكن القفطى يعده ممن أخذ العربية عن أبيه وعن أبى على الفارسى ، وظاهرٌ أن شيئاً من ذلك قد كان لصحبة أبيه الطويلة وملازمته أبا على ، وكان عال فوق علمه بالعربية شاعراً [٤] . توفى سنة سبع وخمسين وأربعمائة أو ثمان وخمسين[٥] .

هذا وقد ورد فى رياض العلماء القول بأن الشريف الرضى قرأ النحو على أبى على [٦] ، وقد يكون ذلك فى أوائل حال الرضى وأواخر حياة أبى على كما يقول العاملى فى أعيان الشيعة [٧] . ويبدو أن الشريف الرضى بدأ بقراءة النحو على الربعى ، ولم يتتلمذ لأبى على [٨] . وإن كان قد عاصره ، ولقيه بدليل ما قال فيه من رثاء [٩] .

كما يعد العاملى أيضاً — الصاحب بن عباد من بين تلاميذ أبى على[١٠] . ويذكر أنه أجازه بالرواية عنه ، وعن مشايخه ، وقد ورد شىء من هذا فى مكاتبة من أبى على للصاحب حيث يقول : كتابى فى قراء الأمصار .. فما تضمن من أثر ، وقراءة ، ولغة فهو من المشايخ الذين أخذت ذلك عنهم ، وأسندته إليهم ، فمتى أثر سيدنا الصاحب الجليل أدام الله عزه و ... الخ حكاية شىء منه عنهم أو عنى لهذه المكاتبة فعل ، وكتب الحسن بن أحمد الفارسى بخطه [١١] ، ولعل العاملى ينظر إلى هذه العبارة ، فهل الاجازة بالرواية تبرر أن يكون الصاحب بن عباد تلميذاً لأبى على دون أن يجلس ابن عباد إلى الشيخ مجلس التلميذ إلى أستاذه يتلقى منه ، ويأخذ عنه ؟

وقد وجدت عبارة من ابن عباد إلى أبى على تمت بصلة إلى ما أنا فيه تلك :

---

(١) انظر بغية الوعاة : ٩٩ — ١٠٠ .
(٢) انظر معجم الأدباء : ٢٩/١٢ (٣) انظر : ٢٧٤
(٤) انظر إنباه الرواة : ٣٨٥/٢ (٥) انظر ياقوت : ٣٩/١٢
(٦) انظر ص ٣٩—٤١ مخطوط الشيخ أغابزرك
(٧) ٢٨/٢١ (٨) انظر حقائق التأويل : ٨٧/٥
(٩) انظر الحديث عن صفات أبى على العقلية
(١٠) أعيان الشيعة : ٢٨/٢١ (١١) معجم الأدباء : ٢٣٩/٧—٢٤٠

« والشيخ (أدام الله عزه) — يبرد غليل شوقى إلى مشاهدته بعبارة ما افتتح من البر بمكاتبته ، ويقتصر على الخطاب الوسط دون الخروج فى إعطاء الرتب إلى الشطط ، كما يخاطب الشيخ المستفاد منه التلميذ الآخذ عنه ، ويبسط فى حاجاته ، فاننى أظننى أجدر أخوانه بقضاء مهماته إن شاء الله تعالى [1] .

وأرى أن الصاحب لم يعترف صراحة بتلمذة لأبى على ، وإنما أراد أن يؤنس الشيخ حتى يفضى إليه بحاجاته ، ولو كان ابن عباد تلميذا حقاً لأبى على لغيَّر وجه الكلام من التشبيه إلى الاعتراف الصريح ، على أنه سرعان ما عاد فجعل أبا على من طبقته إن لم يرتفع الصاحب بنفسه فى عبارته التى فيها يقول : «فاننى أظننى ...الخ» إلى مرتبة فوق مرتبة النظراء .

هذا وقد قرأ على بن عيسى الرمانى — كتاب الجمل ، وكتاب الموجز لابن السراج على أبى على — فى حياة ابن السراج [2] . ولكن ذلك ليس معناه تتلمذ الرمانى للفارسى ؛ فقد كانا من طبقة واحدة [3] لا تجعل أحدهما شيخاً ، والآخر تلميذاً ، وإن كان ذلك يدل على ارتفاع درجة أبى على — ولعل قراءة الرمانى على أبى على ، لأن ابن السراج عمل من الموجز النصف الأول ، ثم تقدم إلى أبى على باتمامه ، فنقل أبو على ما وضعه من كلام ابن السراج فى الأصول وفى الجمل [4].

وبعد : فقد قصدت قصداً إلى استقصاء تلاميذ أبى على الذين أخذوا عنه فى فارس . والعراق ، ثم شرقوا ، وغربوا فى الآفاق ، فى بلاد العراق ، والشام ، وصقلية والأندلس ، ثم فى فارس ، وأفغانستان ، وخراسان ، وأصبهان ، وجرجان ، وغيرها من البلدان التى حلوا بها ، وتنقلوا فيها ينشرون معهم علم الشيخ أبى على ويرسمون صورة واضحة المعالم لذيوع ثقافة الرجل فى مختلف أقطار الإسلام ، ويتركون له بذلك أثراً باقياً على مدى الأيام

---

(١) معجم الادباء : ٧/ ٢٥٠ (٢) معجم الادباء : ٧/ ٢٣٩

(٣) انظر طبقات الزبيدى : ١٢٩ ، ١٣٠

(٤) رسالة الغفران : ٣٥٧ـ٣٥٨ تحقيق ابنة الشاطىء

وفاة أبى على

وتاريخ الوفاة مختلف فيه على ثلاثة أقوال :

(ا) قول ابن النديم فى الفهرست .

(ب) قول ابن الأثير فى الكامل وتابعه أبو الفداء .

(ح) قول سائر المترجمين .

ولرأى ابن النديم أهمية خاصة ؛ لأنه معاصر لأبى على ، وقد صنف كتابه كما يقول ياقوت سنة ٣٧٧هـ[١] ، وابن النجار فى كتابه ذيل « تاريخ بغداد يوفى التحديد إلى أبعد مما ذكر ياقوت فيقول : « صنف ابن النديم كتابه الفهرست فى شعبان سنة ٣٧٧ هـ ، ومات يوم الأربعاء لعشر بقين من شعبان سنة ٣٨٤ هـ[٢]

ولهذا التحديد فى التصنيف صلة بما أنه فيه من الحديث عن سنة الوفاة رابطاً بين ما قاله ابن النديم وما قاله سائر المؤرخين .

وأسارع فأذكر أقوال المؤرخين جملة حتى يتاح لى التعليق : يقول ابن النديم : أن أبا على توفى قبل السبعين وثلاثمائة[٣] .

ويقول ابن الأثير فى كتابه الكامل فى حوادث سنة ٣٧٦ هـ : وفيها توفى أبو على الحسن بن احمد بن عبد الغفار الفارسى النحوى صاحب الإيضاح . . . ، وقد جاوز تسعين سنة[٤] وتكاد تكون عبارة أبى الفداء فى تاريخه هى عبارة ابن الأثير ، فهو متفق معه على أن سنة الوفاة ٣٧٦ هـ ، وأنه قد جاوز التسعين[٥].

والخطيب البغدادى (ت ٤٦٣) يقول : « قال محمد بن أبى الفوارس فى سنة سبع وسبعين وثلاثمائة توفى أبو على الفسوى النحوى ، كما يذكر الخطيب فى وفاة أبى على قوله : « توفى أبو على الفارسى النحوى فى يوم الأحد السابع عشر من شهر ربيع الأول سنة سبع وسبعين وثلاثمائة[٦] .

وتابعه الانبارى فى نزهة الألباء ، وسائر المؤرخين للنحاة ، واللغويين ، والأدباء

---

(١) انظر معجم الأدباء : ١٨/١٧

(٢) مقدمت الفهرس : ب

(٣) الفهرست / : ١٥

(٤) الكامل لابن الأثير : ٩/١٩

(٥) تاريخ أبي الفداء : ٢/١٣١

(٦) تاريخ بغداد : ٧/٢٨٦

والفرق يسير بين ما ذكره هؤلاء ، وما قاله ابن الأثير وأبو الفداء ، ولكنه كبير بين ما ذكره الخطيب البغدادى ، وما ذكره ابن النديم .

فبأى القولين آخذ ! وأيهما أدع ؟ !

أرجح أن أبا على توفى سنة ٣٧٧ هـ . لما يأتى :

(أولا) فى سنة ٣٦٩ كان أبو على وكيل عضد الدولة فى عقد العقد للخليفة الطائع لله على ابنة عضد الدولة (١) .

و(ثانياً) تذكر كتب تاريخ المحدثين أن أبا على الفارسى روى عنه التنوخى والجوهرى (٢) فمتى روى التنوخى أو الجوهرى عن أبى على ؟ !

قد سمع التنوخى — فيما يروى البغدادى — أبا على فى رجب سنة خمس وسبعين وثلاثمائة (٣) . وهذا ينفى قول ابن النديم أنه توفى قبل السبعين وثلاثمائة ، وقد وقر فى نفسى أن يكون هناك خطأ وتغاير بين النسخة الخطية للفهرست والنسخ المطبوعة فرجعت إلى كل النسخ التى استطعت العثور عليها ، والرجوع إليها ، فوجدتها متفقة على أن سنة الوفاة قبل السبعين بقى على أن أوافق أحد المؤرخين : ابن الأثير أو الخطيب ، ولا سبيل إلى ترجيح أحد القولين على الآخر ؛ لأن السنوات قد تتقارض فتأخذ هذه من تلك ، ومن هنا يقع الاختلاف والتردد فى تاريخ الحوادث بين سنتين متتالتين .

لكن إجماع المؤرخين — عدا ابن الأثير — على أن أبا على توفى سنة ٣٧٧ هـ يرجح أنه توفى فى هذا العام . وقد اتفقوا فى اليوم الذى انتقل فيه أبو على إلى جوار ربه وأنه يوم الأحد لسبع عشرة ليلة خلت من شهر ربيع ، ويختلفون : آخر هو أم الأول (٤) ؟ . فابن خلكان يقول بالآخر ، والخطيب البغدادى (٥) وابن الانبارى (٦) . يقولان بالأول . ولا يعنى الباحث هذا الخلاف اليسير ، اللهم — إلا إذا رجحنا قول البغدادى لاجماع المؤرخين الأوائل عليه .

---

(١) تاريخ الاسلام للذهبى وهامش : ٤١٤ تجارب الامم

(٢) لسان الميزان : ٢/١٩٥ وعقد الجمان للعينى القسم الثالث : ٤٠٠

(٣) تاريخ بغداد : ٧/٢٧٥ (٤) ١/٣٦٢

(٥) ٧/٢٧٦ (٦) نزهة الالباء : ١/٢١٠

و (ثالثاً) وهناك دليل لاسقاط قول ابن النديم :

فابن جنى يولد سنة ٣٣٠ (١) ، وقد صحب أبا على أربعين سنة (٢) ، ولما مات تصدر مجلسه ببغداد (٣) فاذا كان موت أبى على قبل سنة ٣٣٠ كما يقول ابن النديم فمعنى هذا أن ابن جنى — على أكثر تقدير — لازم شيخه منذ ولادته، وهذا مستحيل أى مستحيل ؟ !

والمؤرخون يذكرون أن ابن جنى كان يقرئ النحو — وهو شاب — بجامع الموصل فمرّ به أبو على ، فاعترض عليه الفارسى ، فوجده مقصراً ، وسأل ابن جنى عنه فقيل له : «هذا أبو على» فأخذ فى طلبه ، فوجده ينزل إلى السميرية يقصد بغداد ، فنزل معه فى الحال ، ولزمه وصاحبه منذ ذلك الحين إلى أن مات ، وخلفه ابن جنى ، وتصدر مجلسه فى بغداد . (٤) فمتى بدأت الصحبة ؟ هناك بريق من النور يرشد إلى ذلك ، هو قول ابن جنى : « وحدثنا أبو على سنة إحدى وأربعين (٥) » .

فمن المحقق الثابت أن الصحبة بدأت منذ ذلك التاريخ ، وإن كان هذا لا ينفى أن تكون الصحبة بدأت قبل ذلك ، وانتهت بموت الفارسى ، ومعنى هذا أن الصحبة استمرت نحو الأربعين عاماً (٦) كما يقول ياقوت . .

---

(١) معجم الأدباء : ٨٣/١٢ ووفيات الأعيان : ٤١٢/٢

(٢) بغية الوعاة : ٣٢٢ (٣) معجم الادباء : ٩٠/١٢

(٤) نزهة الالباء : ٢٢١ (٥) الخصائص : س ٧٦/٧

(٦) التحديد الضابط غير مقصود فى عدد السنين فليس معنى صحبة أربعين سنة أنها لاتزيد ولا تنقص، وحسبى أن يكون العدد قريباً من الاربعين .

من آراء القدماء فى أبى على وأقوالهم عنه

يثنى القدماء على أبى على ، ويرون فيه رأياً حسناً ، ذكره الخطيب البغدادى (ت ٤٦٣ هـ) فنقل عن قوم من تلامذة أبى على أنهم قالوا : « أبو على الفارسى فوق المبرد وأعلم منه[١] ، وأثنى البغدادى على كتبه ، ووصفها بأنها عجيبة حسنة لم يسبق إلى مثلها ، وذكر شهرته فى الآفاق ، وبراعة غلمانٍ له حذاق[٢] » وقال أبو طالب العبدى : « ما كان بين سيبويه وأبى على أفضل منه[٣] » . وكان أبو على إمام وقته[٤] ، وانتهت إليه الرياسة فى النحو[٥] وانفرد به ، وقصده الناس من الأقطار وعلت منزلته فى العربية[٦] .

وكان عضد الدولة يقول إذا افتخر بالعلم والمعلمين : « معلمى فى النحو أبو على »[٧] . أو يقول : « أنا غلام أبى على النحوى فى النحو »[٨] .

وقد بلغ من تقدير المعاصرين لأبى على أن تلمذ عليه الإمام المرزوقى أحمد بن محمد بعد أن كان — أى المرزوقى — رأسا بنفسه[٩] . وذكر محمد بن الحسن الحاتمى (ت ٣٨٨ هـ) أبا على ، ووصفه بأنه فارس العربيّة ، وحائز قصب السبق فيها منذ أربعين سنة[١٠] وقد مت قبلُ ثناء الشريف الرضى على الشيخ فى أبياته التى بها يرثيه، وذكر الشيخ أبو على الطبرى (ت ٥٤٨ هـ) صاحب مجمع البيان[١١] عن الشيخ أبى على الفارسى كلاماً فى ذيل قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت حين الوصية اثنان ذوا عدل منكم . . . الآية » ثم قال : « وهذه كلمة مأخوذة من كلام أبى على الفارسى ، وناهيك به فارساً فى هذا الميدان ! نقاباً يخبر

---

(١) تاريخ بغداد : ٢٧٥/٧ ، ونزهة الالباء : ٢٠٩ والمنتظم لابن الجوزى : ١٣٨/٧

(٢) تاريخ بغداد : ٢٧٥/٧ وانظر النجوم الزاهرة : ١٥١/٤

(٣) نزهة الالباء : ٢٠٩ (٤) عقد الجمان القسم الثالث : ٤٠٠

(٥) إشارة التعيين (٦) النجوم الزاهرة : ١٥١/٤

(٧) اخبار العلماء بأحكام الحكماء : ١٥٢

(٨) انظر تاريخ بغداد : ٢٧٥/٧ ، وإنباه الرواة : ٢٧٣/١ ، ووفيات الاعيان : ٣٦٢/١ وبغية الوعاة : ٢١٦ وشذرات الذهب : ٨٨/٣

(٩) معجم الادباء : ٣٥/٥ (١٠) معجم الادباء : ١٥٧/١٨

(١١) انظر معجم سركيس : ١٢٢٧

عن مكنون هذا العلم بواضح البيان » . ثم عقب صاحب الروضات بقوله : « وناهيك به ثناء على مرتبة الرجل من شيخ كبير ، ومطلع خبير ، مضافاً إلى سائر ما يوجد من التعظيم عليه فى مواضع كثيرة من تضاعيف مصنفات الأدب والتفسير[١] .

وأثنى القاضى الأكرم على ابن الخشاب (ت ٥٦٧ هـ) فقال : « إنه كان فى درجة أبى على الفارسى[٢] . وثناء الأكرم على ابن الخشاب ومقارنته بأبى على فى مضمونه اعتداد بفضل الشيخ ، وتقدير لمكانته .

وقال فى مسالك الأبصار عن أبى على : « رجل خط ببراعة ، وحط الصبح عن قناعه ، وكف الدهر عن قراعه ، وسعت إليه الزمر ، وسعد لديه بالثمر ، وجاءته الوفود ، وتزاحمت لديه على الورود ، وصدرت عنه الركايب ، وقد أودعت حقائبها طيباً ، وحقائقها ما كان لسقام الأفهام طبيباً ، وكان على هذا لا يسلم من لسان حاسد ، وثالب حاشد ، وثباته على هذا عجب ، وإثباته فى أهل الفضل قد وجب[٣] » .

فها نحن أولاء نرى أن مبعث ثناء القدماء على أبى على ، وتقديرهم له أمور :

(ا) صلته بعضد الدولة .
(ب) إمامته فى النحو .
(جـ) مصنفاته .
(د) براعة تلاميذه وحذقهم .

ومما لا شك فيه أن تقدم أبى على عند عضد الدولة ، أضفى عليه كثيراً من تقدير القدماء ، على أن الرجل ما كان ليتقدم عند الأمير لولا قدمه الراسخة فى النحو ، وبراعته الفائقة فى التصنيف .

وأود أن أقف وقفة عند رأى لأبى العلاء فى أبى على أورده فى رسالة الغفران قال : « وكنت قد رأيت فى المحشر شيخاً لنا كان يدرس النحو فى الدار العاجلة يعرف بأبى على الفارسى ، وقد امترس به قوم يطالبونه ، ويقولون : تأولت علينا وظلمتنا ، فلما رآنى أشار إلىّ بيده ، فجئته فإذا عنده طبقة منهم (يزيد بن الحكم الكلابى) وهو يقول : « ويحك ! أنشدت عنى هذا البيت » برفع (الماء) يعنى قوله :

---

(١) روضات الجنات : ٢١٩، ٢٢٠ (٢) انظر معجم الادباء : ١٢/٤٨
(٣) مسالك الابصار ج ٤ مجلد ٢ : ٣٠١

فليت كفافا كان شرك كله وخيرك عنى ما ارتوى الماء مرتوى[١]

ولم أقل إلا الماء ، وكذلك زعمت أنى فتحت الميم فى قولى :

تبدل خليلا بى كشكلك شكله فانى خليلا صالحاً بك مَقْتوى

وإنما قلت : مقتوى بضم الميم .

* * *

وإذا رجل آخر يقول : ادعيت علىَّ أن الهاء راجعة على الدرس فى قولى :

هذا سراقة للقرآن يدرسه والمرء عند الرشا إن يلقها ذيب

أفجنون أنا حتى أعتقد ذلك ؟

وإذا جماعة من هذا الجنس كلهم يلومونه على تأويله ، فقلت : يا قوم ! إن هذه أمور هينة ، فلا تعنتوا هذا الشيخ ؛ فإنه يمت بكتابه فى (القرآن) المعروف (بكتاب الحجة) ، وأنه ما سفك لكم دماً ، ولا احتجن عنكم مالا فتفرقوا عنه [٢].

وفى هذا النص دلالات :

أولها : أن أبا على يتأول على الشعراء ، ويدعى عليهم .

وثانيها : وأن تأوله — هنا — وادعاءه من الأمور الهينة .

وثالثها : أن كتاب الحجة لأبى على مقدر من أبى العلاء ، ومن أجله نهى عن إعنات الشيخ ، ودفع عنه الهجوم .

واتهم أبو محمد الأسود فى كتابه نزهة الأديب أبا على بتحريف البيت :

وطرفك إما جئتنا فاحبسنه كما يحسبوا أن الهوى حيث تنظر

وذكر أن الصواب فيه :

إذا جئت فامنح طرف عينيك غيرنا لكى يحسبوا أن الهوى حيث تنظر[٣]

وإذا كان أبو على مشهوراً بأمانته العلمية ، ودقته فيما يرويه وتحريه ، فالباحث لا يسلم بما اتهم به من تحريف أو ادعاء ، سواء أكان ذلك من الأسود أم من أبى العلاء ؛ فالقصيدة التى ورد فيها بيتا يزيد الكلابى مسندة إليه فى البصريات إسناداً دقيقاً ، أنشدها أبو على ؛ عن أبى الحسن على بن سليمان الأخفش ، عن أبى العباس

---

(١) فى البصريات لوحة ٥٧ وامالى القالى : ١/٦٨

فليت كفافا كان خيرك كله وشرك عنّى ماارتوى الماء مرتوى

(٢) رسالة الغفران تحقيق ابنة الشاطىء : ١٥٤ (٣) المغنى لابن هشام : ١/١٤٨

ثعلب ، عن أبي الحسن ، عن الأحول الذى رواها عن رجل عن أبي عبيدة . إلى أنَّ كلمتى « الماء ومقتوى » مضبوطتان بما أراد يزيد[١] . فلعل هذا الضبط توارثه تلاميذ أبي على عنه ، على أنى رأيت أباعلى يتعقب الرواة بما يدل على تحقيقه للرواية وتمحيصه ما ينشد المنشدون[٢] . ورجل هذا شأنه يكون بعيداً عن قصد التحريف أو الادعاء .

هذا ويتفق كل من الأعلم الشنتمرى والبغدادى مع أبي على الفارسى فى رجع الضمير على الدرس فى البيت « هذا سراقة . . . » ولم يجزعوده على القرآن ؛ لئلا يلزم تعدى العامل إلى الضمير وظاهره معاً[٣] . وإذن للرأى الذى ذهب إليه أبو على فى البيت وجه من الصناعة النحوية ، وعلى أية حال فاتهام الشيخ بما اتهم به لا يضع من مكانته ، ولا يحط من قيمته ، ويكفيه ما انتهى إليه حكم أبي العلاء ، وهو حَكَمٌ ترضى حكومته

---

(١) البصريات : ٥٧ (٢) انظر المخصص : ٤/١٠٢ ، ٧/١٠٧

(٣) انظر شرح الشواهد للأعلم ـ الكتاب : ١/٤٣٧ ، والخزانة ط السلفية : ٢/٢ وانظر الحجة : ٤/٥٥ ن البلدية حيث أورد أبو على البيت ، وخرجه ، وعلل لتخريجه .

الفصل الثالث

آثار أبي على

إحصاؤها — وترتيبها — وملاك ذلك

عاش أبو على فى عصر انقسام الدولة العباسية إلى دويلات تكرم العلم ، وتتنافس على اجتذاب العلماء ، ويسعى هؤلاء إلى نيل الحظوة عند الحكام والأمراء بما يهدونه من تآليف ينسبونها إليهم ، ثم كان أن تلمذ أبو على لشيوخ تختلف نواحى تخصصهم : ففيهم القارئ كأبى بكر بن مجاهد ، وفيهم النحوى كابن السراج والزجاج ، وفيهم اللغوى كابن دريد ، وكان أبو على بعد ذلك محباً للعلم مشغوفاً به ، مكباً على دراسة ما خلف الأقدمون من تراث فى النحو والثقافة العربية ، ثم نسأ الله له فى أجله ، فامتلأت حياته الطويلة بالبحث ، والدرس ، والتأليف ، وتنقل أبو على فى الأقطار الإسلامية المختلفة يسعى إليه طلاب العلم ، يجتمعون حوله ، مستمعين إليه ، مشتركين معه فيما يتناوله من مسائل اللغة والصرف بحثاً ، ودراسة ، وتفسيراً ، وتفتيشاً ، وإملاء ، وتدويناً . ثم يكون أبو على مؤدباً لأبناء خسرو ، ويؤلف لعضد الدولة الذى تلمذ له .. وكانت طبيعة أبى على ناقدة ، وقريحته وقادة تعقب الشيوخ إصلاح ما أغفلوه ، وتتبعهم بالتنبيه على مواضع السهو والغلط ، فجاءت آثار أبى على صورة صادقة لهذه العوامل التى أحاطت به فى بيئته العامة ، وطبيعته ، وظروفه الخاصة ، وترك ثروة علمية ضخمة أحصيتها مما ذكره المترجمون والوراقون فيما يأتى :

١ — الحجة .

٢ — التذكرة : قال فى كشف الظنون ، وهو كبير فى مجلدات [1] .

٣ — أبيات الإعراب .

٤ — شرح أبيات الإيضاح ، ذكره ابن النديم .

٥ — مختصر عوامل الإعراب

٦ — المسائل المصلحة يرويها عن الزجاج ، وتعرف بالأغفال .

---

(١) انظر كشف الظنون : ٣٨٤/١ .

٧ — الإيضاح .
٨ — المقصور والممدود .
٩ — الإيضاح الشعرى .
١٠ — المسائل الحلبية .
١١ — المسائل البغدادية
١٢ — المسائل الشيرازية .
١٣ — المسائل القصرية .
١٤ — نقض الهاذور .
١٥ — كتاب الترجمة ذكره ياقوت[١] .
١٦ — المسائل المنثورة .
١٧ — المسائل الدمشقية .
١٨ — أبيات المعانى .
١٩ — التتبع لكلام أبى على الجبائى فى التفسير .
٢٠ — تفسير قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة » .
٢١ — المسائل البصرية .
٢٢ — المسائل العسكرية .
٢٣ — المسائل المصلحة من كتاب ابن السراج .
٢٤ — المسائل المشكلة .
٢٥ — المسائل الكرمانية : ذكرها ياقوت ، والقفطى ، والسيوطى ، وابن الحاج خليفة .
٢٦ — العوامل المائة .
٢٧ — المسائل المجلسيات .
(٢٦ ، ٢٧: ذكرها القفطى ، وابن خلكان ، وابن العماد الحنبلى فى الشذرات)
٢٨ — المسائل الذهبيات : انفرد بذكرها القفطى فى إنباه الرواة[١] .
٢٩ — تعليقة على كتاب سيبويه : ذكره السيوطى فى بغية الوعاة[٢] .
٣٠ — جواهر النحو : انفرد بذكره بروكلمان وذكر أنه بمكتبه مشهد[٣] .
٣١ — الهيثيات : ذكرها ابن هشام فى المغنى[٤] ، كما ذكره البغدادى[٥] .
٣٢ — أقسام الأخبار فى المعانى[٦] .
٣٣ — الأهوازيات : ذكرها ابن سيدة فى المحكم[٧] .

---

(١) انظر معجم الأدباء : ٧/٢٤١ ..
(١) انظر : ١/٢٧٤ (٢) انظر ٢١٧
(٣) انظر تاريخ الأدب العربي : ١/١١٣ ، ١١٤٢ والملحق ١٧٥ ، ١٧٦
(٤) انظر : ٢/١٠ (٥) انظر الخزانة : ٢/٦٣
(٦) انظر فهرس المخطوطات المصورة : ٣٧٩
(٧) المحكم فى اللغة لابن سيدة : ١ ص١٤

تعليق وتحقيق :

(ا) النحو هو الطابع العام لكتب أبي على التى نظرتها ، وأستثنى كتاب الحجة فهو موسوعة جامعة للثقافة العربية .

(ب) نسب العلامة أحمد تيمور كتاب البارع للفارسى وقال : « إنه لا يوجد إلا نتف منه بباريس[1] » . والمعروف أن البارع لأبي على القالى[2] ، فلعل هناك لبساً دعا إليه تشابه الكنيتين .

(ج) علق المرحوم الشيخ عبدالخالق عمر على كتاب نقض الهاذور بقوله : «هذا الكتاب ذكره أبو بكر بن خير فى فهرسه[3] » ، ولم نفهم له موضوعاً إلا أن يراد من الهاذور الهاذر ، غير أن هذا الوزن لم يرد فى القاموس مع كثرة ما جاء به من الوصف فى الهذر[4]. وتشير علامة الاستفهام التى وضعها محققو سر صناعة الإعراب بعد: نقض (كذا) الهاذور إلى نحو ماحاك فى صدر الأستاذ عبد الخالق عمر[5] . وأقول : إن موضوع نقض الهاذور هو الرد على ابن خالويه فى رده كتاب الأغفال[6] .

(د) لا أعلم أن أحداً من المترجمين ذكر أن للفارسى كتاباً فى معانى القرآن ، ولعل الأمر قد التبس على بعض الباحثين فى زمننا[7] .

(ه) المسائل القصرية : أملاها أبو على على تلميذه أبي الطيب محمد بن طويس القصرى فسميت به[8] ، ويذكر صاحب الروضات أسباباً أخرى فى تسميتها بالقصرية[9] .

---

(١) انظر مجلة الهلال سنة ٢٨ ص ٣٣١

(٢) انظر وفيات الأعيان : ٢٠٤/١ ، وتذكرة النوادر : ١١١ مطبعة دائرة المعارف الهندية سنة ١٣٥٠ هـ

(٣) ص ٣١٠

(٤) حاشية معجم الأدباء : ٢٤١/٧

(٥) انظر مقدمة سر الصناعة : ٣٠

(٦) انظر الفلاكة والمفلوكين : ١٠٢ وخزانة الأدب : ١٢٥/٤

(٧) انظر أثر القرآن فى تطور النقد العربي : محمد زغلول سلام : ٣٣

(٨) انظر كشف الظنون : ١١٧٠/٣

(٩) راجع روضات الجنات : ٢٢٠ وأعيان الشيعة : ٤٦٥/٢٠

(و) ذكر ياقوت من كتب أبي علي : المسائل المصلحة على ابن السراج[١] . والذى أعرفه أن أبا على أصلح على الزجاج حسب[٢] .

(ز) هل الإيضاح الشعرى هو شرح أبيات الإيضاح ؟ أو هو كتاب الشعر ؟ أو هو ما ذكره أبو على فى كتاب الحجة باسم : « شرح الأبيات المشكلة الإعراب من الشعر[٣] » .

ليس لدى ما أجيب به عن هذه الأسئلة على وجه اليقين .

(ح) عقد أبو على فى التكملة فصلا جامعاً عن المقصور والممدود ، فهل هو كتاب المقصور والممدود الذى ورد فى الإحصائية السابقة ؟

(ط) قال المرحوم أحمد أمين ما نصه : « وقد رحل أبو على إلى بلاد كثيرة ، وكان يدون فى كتابه مايجرى له من مناظرات فى كل بلد ، فكتاب المسائل الحلبيات والبغداديات ، والشيرازيات الخ[٤] » .

والقارىء لمسائل أبي على هذه لا يجد شيئاً فيها من مناظرات ؛ وإنما هى مسائل أشتات بعيدة كل البعد عن جو المناظرات ، ولا رائحة فيها لشىء من ذلك (راجع البحوث التى عرّفت فيها بهذه المسائل) .

(ى) رتبت ما عثرت إليه من كتب أبي على على النحو الآتى :

المسائل المشكلة ، فالأغفال فيما أغفله الزجاج من المعانى ، فالبغداديات ، فالعسكريات ، فالبصريات ، فالحلبيات ، فالإيضاح ، والتكملة ، فالشيرازيات ، ثم الشعر ، وأقسام الأخبار ، والمسائل المنثورة ، فالحجة .

أما الأسس التى بنيت عليها هذا الترتيب فتكاد تنحصر فيما يأتى :

(ا) نصوص وردت فى كتبه تشير إلى تقدم كتاب عن كتاب ، فهو يشير فى الأغفال إلى المشكلة ، ويشير فى الحلبيات إلى الإغفال ، كما يشير فى الحجة إلى مسائله جميعاً .

(ب) ما انتهيت إليه فى فصل (بيئة أبي على المكانية) الذى رتبت فيه تنقلاته فى المدن التى زارها ، وعلى هذا الترتيب نسقت مسائله التى عثرت عليها ، فكانت

---

(١) انظر معجم الأدباء : ٧/١٤١
(٢) انظر التعريف. بالاغفال
(٣) انظر الحجة : ٣/١٥ ن البلدية
(٤) ظهر الاسلام : ١/٢٤٣

البغداديات ، والبصريات سابقتين للحلبيات ، وكانت هذه سابقة للشيرازيات ، وهكذا . . .

(ج) بده صلته بعضد الدولة عينت لى تاريخ الإيضاح والتكملة ومكانهما الزمنى فى ترتيب كتبه .

(د) لم أهتد إلى ميلاد الشعر ، والعسكريات ، وأقسام الأخبار ، فليس هناك نصوص كاشفة ولا دلائل تعين ، وقد أورد أبو حيان فى ارتشاف الضرب[١] . رأى أبى على فى أن القسم يجوز أن يتلقى بلام كى ، وقال : « إن أبا على أجازه فى العسكريات ، ورجع عنه فى البصريات ، والتذكرة » ، فهل يفهم من ذلك أن العسكريات سابقة على البصريات والتذكرة ؟ !

وقد أعددت أول الأمر أن يكون أساس الترتيب ما يبدو فى كتب الشيخ من دلائل التطور العقلى وآثاره ؛ فالكتاب الذى يظهر فيه العمق والنضج يكون خالفاً ، والذى يبدو فيه السماحة والفجاجة يكون سالفاً — هذا على وجه العموم — وعنيت بخاصة أخذاً بذلك الملاك — بجمع مسائل وردت فى أكثر من كتاب ، والموازنة بينها ، والتعرف على دلائل التطور العقلى فيها — كحديثه مثلا عن إعراب أوجاءوكم حصرت صدورهم فقد ورد فى البغداديات [٢] . والشيرازيات [٣] ، وتدليله على أن الجمل لا تقوم مقام الفاعل فقد ورد فى البصريات [٤] . والبغداديات [٥] وحديثه عن شنآن[٦] . وحديثه عن أن [٧] . وهكذا [٨] . . . ولكنى رأيت أن الأخذ بذلك الملاك يتدافع . أولا — مع النصوص التى وردت فى كتبه ، وهى أحق أن يؤخذ بها ، وأن تعتبر دون سواها ، ثم رأيت . ثانياً — أن مرد التعمق عند الشيخ الحال التى ألَّف فيها ، والظروف التى أحاطت به ، وأهمية الموضوع الذى يتناوله . ومن أجل ذلكم كان احتفاله بالاغفال — وهو من كتبه الأولى —

---

(١) انظر ص ٨٦٨

(٢) لوحة : ١٩ (٣) لوحة : ٤٢

(٤) لوحة : ٤٧ (٥) ٤٦

(٦) انظر البغداديات : ٤٥ ، والعسكريات : ١٣٣

(٧) انظر الشيرازيات : ٦٧ والمنثورة ١٦٤

(٨) راجع التعريف بهذه الكتب

لأنه تعرض لشيخه الزجاج ، فلابد أن يحشد الجهد ، وأن يدقق إذا ماأخذ أو رَدَّ ، ثم كان احتفاله بكتابه إلى سيف الدولة — وهو جزء من الحلبيات — ؛ لأنه يرد فيه كيداً ، ويفحم به خصما ، افترى عليه حسداً ، كما كان احتفاله بالشيرازيات ؛ لأنها ولدت فى فترة من الهدوء والاستقرار مكّنا للشيخ أن يتعمق وأن يتأنق[1] .

أما كتابه الحجة فقد اجتمعت عوامل مختلفة دفعت الشيخ إلى تجويده : فهو أولا من كتبه المؤلفة أخيراً ثم هو ثانياً يقرن احتجاجه للقراءات بما احتج ابن السراج[2] ، وأخيراً كان موضوعه كافياً لأن يحمل الشيخ على الاحتفال به ، فجاء الكتاب بعد ذلك نابضاً بحيويته ، ومَعرِضاً لثقافته وشخصيته . . .

(١) راجع عرض ذلك الكتاب (٢) راجع الفصل الخاص بذلك

الباب الثاني

أبو علي والاحتجاج للقراءات

الفصل الأول

الاحتجاج للقراءات، وتطوره حتى عصر أبي على الفارسى

أعقد هذا الفصل ، والغرض منه المامه بأهم ظواهر الاحتجاج للقراءات وتطورها منذ عصر صدر الإسلام حتى عصر أبي على الفارسى ؛ لتكمل أمامى حلقات البحث فى سلسلة مترابطة آخذ بعضها بحجز بعض . حتى إذا ما انتهيت إلى أبي على فصلت الكلام على عمله فى الاحتجاج تفصيلا ، وبذلكم يتجلى جهده فى تطور الاحتجاج ، وموازناً عمله بالسالفين ، متحدثاً عن أثره فى الخالفين .

ومن الحق أن أذكر أنى لم أستقص مظاهر الاحتجاج كلها فما لى طاقة بذلك ، وان كانت — فليس من الشأن فى هذا البحث أن أحشد الجهد له ، ولكنه بجرد التمثيل للمعالم الكبرى التى بدت لى من آثار المشهورين من المحتجين ، قراءاً كانوا أو نحويين . وأبدأ الحديث فأقول :

قد يكون التخالف بين قراءة وقراءة ناشئاً من اختلاف المصاحف [1] ، أو من لهجات القبائل العربية [2] . وقد يكون التخالف — فى الأعم الأغلب بسبب اختلاف الأحكام النحوية فى الأساليب العربية ، وهو ما سماه أبو الفضل الرازى : « الاختلاف من حيث وجوه الإعراب [3] » . وما سماه ابن قتيبة : « الاختلاف فى إعراب الكلمة وحركات بنائها [4] » . وقد اشتغل كل من القراء والنحاة

---

(١) انظر الفهرست لابن النديم /٥٤

(٢) راجع القرطين لابن مطرف الكناني : ٢٢٢

(٣) النشر فى القراءات العشر لابن الجزرى : ١/٢٧

(٤) القرطين : ٢٢١

بالاحتجاج للقراءات ، فوجهوها ، وكشفوا عن عللها على اختلاف بين الفريقين فى النزعة ، ومنهج التناول على ماسأبينه فى موضعه المقسوم إن شاء الله .

وكانت هناك احتجاجات فردية لبعض القراءات ، وتتمثل هذه الاحتجاجات فيما روى — مثلا عن ابن عباس (ت ٦٨ هـ) (١) . انه قرأ ننشرها من قوله تعـالى :

« وانظر إلى العظام كيف ننشرها . . . (٢)» واحتج (٣) بقوله : « ثم إذا شاء أنشره » وما روى عن عاصم الجحدرى (ت ١٢٨ هـ) (٤) انه كان يقرأ مَـلِك يوم الدين (٥) — بغير ألف ، واحتج على من قرأها مالك « بألف » فقال : يلزمه أن يقرأ : « أعوذ برب الناس مالك الناس(٦)» .

وكان عيسى بن عمر (ت ١٤٩ هـ) يقرأ : « يا جبال أوِّبى معه والطيرَ (٧) » بالنصب ويقول : هو على النداء (٨) . وأستطيع أن أستنتج من رواية ابن السراج عن اليزيدى أن أبا عمرو أحد القراء السبعة (ت ١٥٤ هـ) (٩) . احتج لقراءته فى بعض منها : جاء فى كتاب الحجة فى الاحتجاج لقراءة أبى عمرو « مالك يوم الدين » ، قال أبو بكر محمد بن السرى : قال أبو عمرو فيما أخذته عن اليزيدين : « إن ملك يجمع مالـكا » .

وكان يحتج على من قرأها مالك بألف (١٠) — بقوله :« أفلا يقرءون : فتعالى الله المالك الحق(١١)» ؟.

يقول أبو عمرو ذلك متعجباً ؛ إذ لم يقرأها فى سورة طه بالألف أحد من العشرة (١٢) ولا من الأربعة عشر (١٣).

---

(١) طبقات القراء : ٤٢٦/١ .
(٢) سورة البقرة : آية ٢٥٩
(٣) معاني القرآن للفراء : ١٧٣/١
(٤) سورة عبس آية ٢٢
(٥) طبقات القراء : ٣٤٩/١
(٦) سورة الفاتحة آية:٤
(٧) الحجة : ٣/١
(٨) سورة سبأ آية ١٠
(٩) طبقات النحويين واللغويين للزبيدى : ٣٦
(١٠) طبقات القراء : ٢٩٢/١
(١١) الحجة :١/لوحة ٢ من مراد ملا
(١٢) سورة طه آية : ١١٤
(١٣) انظر النشر : ٣٢٢/١
(١٤) انظر اتحاف فضلاء البشر ٣٠٧ ، ٣٠٨ .

ويبدو أن التوجيه الإعرابى للقراءات المتخالفة قد ذاع فى عصر محمد بن سليمان والى البصرة (ت ١٧٣ هـ) [١] .

فقد كان يقول : « إن الله وملائكته » وكان يرفع الملائكة ، فقيل له فى ذلك ، فقال : « خرجوا لها وجها ، ولم يكن يدع الرفع [٢] » .

هذه تخريجات فردية مرتبة ترتيباً تأرخياً لبعض القراءات ، ينهج أصحابها نهجاً لغوياً وإعرابياً فى الاحتجاج [٣] . ، أو يستعينون بقراءة على تخريج أخرى [٤] حتى إذا كان هرون بن موسى الأعور (ت قبل سنة ٢٠٠) [٥] وذكر صاحب البغية أنه توفى فى حدود السبعين ومائة[٦] — رأيناه فيما يقول أبو حاتم السجستانى: أول من سمع البصرة وجوه القراءات ، وألفها ، وتتبع الشاذ منها ، فبحث عن اسناده [٧] ، وكان الذى هيأ له ذلك — فيما يبدو — أنه روى القراءة عن ثلاثة من القراء : قرأ على عاصم بن أبى النجود ، وعبد الله بن كثير ، وأبى عمرو ابن العلاء[٨] ، وإذن فهرون الأعور يعد الخطوة الأولى — كما يقول أبو حاتم — فى تأليف القراءات والاحتجاج لها ، وأذكر هنا جهد سيبويه (ت ١٨٠ هـ) واحتجاجه للقراءات فى مواضع من الكتاب ، وسأفردها بعد بالحديث والبيان .

وقد ذكر ابن الجزرى أن العباس بن الفضل (ت ١٨٦ هـ) ناظر الكسائى فى الامالة[٩] ، والمناظرة بما فيها من برهان وتدليل ، يرجح عندى أنها جاءت على صورة احتجاج وتعليل ، وربما كان معنى ناظر الكسائى أنه نظيره ، وبذلك التفسير لم تقع هناك منافسة ، ولهذا التفسير وجهة من قول ابن الجزرى عن يحي بن زياد الخرازرى رواية عن الهذلى أنه — أى يحي — نظير قتيبة فى الإمالة [١٠] .

ولكن يبعد هذا التأويل عندى :

(ا) صيغة المفاعلة مع الكسائى .

---

(١) انظر شذرات الذهب : ٧٨٢/١

(٢) البيان والتبيين للجاحظ : ٢٣٤/٦

(٣) انظر تخريج عيسى بن عمر لقراءة ياجبال أوِّبي معه والطير وكذلك تخريج حمزة لهمز الذئب ، وتسهيل الحوت

(٤) انظر تخريج ابن عباس لقراءة (ننشرها)

(٥) طبقات القراء : ٣٤٨/٢

(٦) بغية الوعاة : ٤٠٦

(٧) طبقات القراء : ٣٤٨/٢

(٨) المصدر السابق

(٩) طبقات القراء : ٣٥٣/١

(١٠) المصدر السابق : ٣٧٢/٢

(ب) قول الذهبي : « أن قتيبة بن مهران له إمالات مزعجة معروفة (١) » ، فيكون ابن الجزرى أراد أن يحي بن زياد نظير قتيبة فى ذلك .

(ج) أن العباس بن الفضل والكسائى كانا متعاصرين مما يقوى وقوع المناظرة بينهما (فقد توفى الأول ١٨٦ ﻫ) ، (وتوفى الكسائى ١٨٢ﻫ وقيل سنة ١٨٩ ﻫ) (٢) .

ويمثل لنا ما دار بين حمزة بن حبيب — أحد القراء السبعة وتلميذه الكسائى . طرفاً من المناقشات حول القراءات . . . ومافى غضون هذه المناقشات من احتجاج: قالوا : « قرأ الكسائى أمام حمزة — سورة يوسف ، فلما بلغ إلى قصة الذئب قرأ : « فأكله الذيب » بغير همزة فقال له حمزة : « الذئب بالهمزة » فقال له الكسائى : « ولذلك أهمز الحوت وقرأ : « فالتقمه الحوت » فقال : « لا » فقال الكسائى — لم همزت الذئب ، ولم تهمز الحؤت ، وهنا فأكله الذئب ، وهذا فالتقمه الحوت ؟ ! فرجع حمزة ببصره إلى حماد الأحول وكان أكمل أصحابه ، فتقدم إليه فى جماعة أهل المجلس فناظروه فلم يصنعوا شيئاً ، وقالوا : أفدنا (يرحمك الله تعالى) فقال — والقائل حمزة — تقول « إذا نسبت الرجل إلى الذئب قد استذأب ولو قلت : قد استذاب بغير همز لكنت انما نسبت إلى الذوب . فتقول : قد استذاب الرجل إذا ذاب شحمه بغير همز وإذا نسبته إلى الحوت قلت : قد استحات الرجل أى كثر أكله للحوت إذا كان يأكل منه كثيراً ، فلا يجوز فيه الهمز ، فلتلك العلة همز الذئب ، ولم يهمز الحوت ، وفيه معنى آخر : لا تسقط الهمزة من مفرده ولا من جمعه ، وأنشدهم :

أيها الذئب ، وابنـــه ، وأبوه !   أنت عندى من أذؤب ضاريات (٣)

وقد دارت مناقشة حول قوله تعالى : « إنما أنا رسول ربك لأهب لك (٤) » . اشترك فيها يحي أكثم ، واليزيديان : محمد بن أبى محمد وأخوه ابراهيم وكانا يقرئان المأمون : قرأ المأمون « إنما أنا رسول ربك ليهب لك » فردها يحي متمسكاً برسم المصحف وأقرها محمد ، وخرجها على وجه من التأويل (٥) . فمثّل يحي فى هذه

---

(١) طبقات القراء : ٢/٢٦   (٢) انظر نزهة الألباء : ٤٧
(٣) نزهة الألباء : ٤٤   (٤) سورة مريم آية ١٩
(٥) انظر خبر هذه المناقشة فى طبقات النحويين واللغويين للزبيدى : ٧٩

المناقشة جانب القول بالأثر (١)، وذهب محمد فيها مذهب أهل الرأى من المحتجين .

ويذكر المترجمون يعقوب بن إسحق بن زيد الحضرمى (ت ٢٠٥ هـ) أحد القراء العشرة (٢) وحفيد عبد الله بن أبى إسحق النحوى — بعمل فى الاحتجاج . يقول عنه أبو حاتم : « كان أعلم من أدركنا ورأينا بالحروف ، والاختلاف فى القرآن، وتعليله ومذاهبه ، ومذاهب النحو فى القرآن ، وأروى الناس لحروف القرآن ، وحديث الفقهاء (٣) ، وقد ألف يعقوب كتاباً « سماه الجامع » جمع فيه عامة اختلاف وجوه القرآن ، ونسب كل حرف إلى من قرأ به (٤) . ويبدو أن كلا من هرون الأعور (ت فى حدود ١٧٠ هـ) ويعقوب الحضرمى (ت ٢٠٥ هـ) جمع بين القراءات المتواترة والشاذة ، كما كان من أبى عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤ هـ) مثل ذلك ، جاء فى كشف الظنون : « أول إمام معتبر جمع القراءات فى كتاب، وجعلها فيما أحسب خمساً وعشرين قراءة مع السبعة (٥) .

وبقيت التخريجات الفردية بجانب هذه الكتب الجامعة للقراءات وإسنادها ذلكم ما قاله أبو سوار (٦) . فيما يرويه أبو عثمان المازنى (٢٤٦ هـ) قال : قرأتُ على أبى وأنا غلام : ترى الودق يخرج من خلاله «فقال أبو سوار وكان فصيحاً: يخرج من خلله » فقال أبى : « من خلله قراءة !؟ » فقال أبو سوار : أما سمعت قول الشاعر :

« يشير بغمزة ، يخرجن منها   خروج الودق من خَلَل السحاب »

قال أبو عثمان : خلل وخلال واحد ؛ هما مصدران (٧) . وكان أمر تقتضيه طبيعة الأشياء أن تؤلف كتب الاحتجاج للقراء السبعة بعد أن اختارها ابن مجاهد (ت ٣٢٤ هـ) أول من سبع السبعة (٨) فى كتابه المترجم بقراءات الأمصار ، إذ كيف يكون احتجاج للقراء السبعة ولما يقع عليهم الاختيار ؟! قبل ابن مجاهد

(١) كان يحيى سلميا من البدعة ينتحل مذهب أهل السنة انظر تاريخ بغداد : ١٤/١٩٨

(٢) طبقات القراء : ٢/٣٨٢

(٣) طبقات الزبيدى : ٥١ وطبقات القراء : ٢/٣٨٩

(٤) طبقات النحويين واللغويين للزبيدى : ٥١ (٥) كشف الظنون : ٢/٢٢٠

(٦) لم أجد فى كتب التراجم إلا سوار بن عبد الله (٢٤٥هـ) انظر تاريخ بغداد : ٩/٢١٠ وإلا ابن سوار ، وليس هو المذكور هنا إذ أن ابن سوار هذا توفى سنة ٤٩٦ هـ (انظر طبقات القراء : ١/٨٦)

(٨) الفهرست لابن النديم : ٦٧ (٩) ابراز المعاني : ٥

كانت الكتب الجامعة للقراءات تشتمل على السبعة التى وثقها ابن مجاهد فيما بعد ، بجانب ما تشتمل على غيرها من القراءات الأخرى ، واحتج العلماء لهذه القراءات جميعاً السبعة وغيرها كالذى كان من المبرد (ت ٢٨٥هـ) الذى ألف كتابه « احتجاج القراءة »[١] . فى ذلك الوقت الذى سبق ابن مجاهد بما يقرب من نصف قرن . وكالذى كان من الطبرى (ت ٣١٠) على النحو الذى سأعرض له فيما بعد بالتفصيل وقد ألف ابن درستويه (ت ٣٤٧ هـ) كتاب « الاحتجاج للقراء » كما يذكر ابن النديم[٢] . وقد توفى ابن درستويه بعد ابن مجاهد ، ومن هنا لا أستطيع على التحقيق أن أجزم بأن احتجاج ابن درستويه كان للقراء السبعة أو كان على نحو احتجاج المبرد — شاملا للسبعة وغيرها ؟ ومن المرجح أن يكون على هذا النحو الأخير ، كما يفهم من تقديم أبى على كتاب الحجة حيث يذكر أنه مسبوق بعمله فى الاحتجاج لسبعة ابن مجاهد : سبقه محمد بن السرى حسب ، ولم يعرض لذكر ابن درستويه[٣] . ويعد عمل ابن مجاهد خطوة حاسمة باختياره القراء السبعة ، وكان الرجل ذا قدم راسخة فى القراءات ، وكان بعيد الصيت مع الدين والحفظ والخير[٤] . كما كان مسموع الكلمة عندالحكام ، فانتصروا لهذه القراءات ، وأوقعوا بمن خالفها العذاب[٥] . واتجه المحتجون إلى الاحتجاج لقراء الأمصار السبعة ، محمية للدين ، وحفاظا على التنزيل ، فتتابع المعالم الكبرى للتأليف فى الاحتجاج على النحو الآتى :

يحتج أبو بكر محمد بن السرى المعروف بابن السراج (٣١٦هـ) للقراءات المسموعة التى ذكرها ابن مجاهد فى كتابه القراءات ، فيتم سورة الفاتحة ويتناول جزءاً من سورة البقرة ثم يمسك[٦] . ويؤلف أبو طاهر عبدالواحد البزار (ت ٣٤٩ هـ) كتاب الانتصار لحمزة[٧] . وقد جعلته من كتب الاحتجاج لما يوحى به العنوان ، كما يؤلف محمد بن الحسن الأنصارى (ت ٣٥١ هـ) كتاب السبعة بعللها الكبير[٨] ، وينشط أبو بكر محمد بن الحسن بن مقسم (ت ٣٦٢ هـ) فى هذا الباب فيؤلف :

---

(١) الفهرست : ٨٨
(٢) الفهرست : ٥٣ ، ٩٤
(٣) الحجة : ١/لوحة
(٤) طبقات القراء : ١٤٢/١
(٥) كما حدث لابن شنبوذ وابن مقسم
(٦) تقديم الحجة : ٢/١
(٧) الفهرست : ٤٨
(٨) الفهرست : ٥٠

(ا) كتاب احتجاج القراءات . (ب) كتاب السبعة بعللها الكبير .
(ج) كتاب السبعة بعللها الأوسط . (د) كتاب السبعة بعللها الأصغر [١] .

ويؤلف الأزهرى (ت ٣٦٨ هـ) صاحب تهذيب اللغة كتاباً فى علل القراءات [٢] .

ثم يعقبه أبو على الفارسى (٣٧٧ هـ) بكتابه الحجه ، ويعاصر أباعلى ابن خالويه (٣٧٠ هـ) فيحتج لقراءات السبعة كذلك [٣] . ويجىء ابن جنى تلميذ الفارسى (ت ٣٩٢ هـ) فينتصر لما شذذ ابن مجاهد من القراءات ، ويحتج لها فى كتابه المحتسب .

وفى القرن الخامس ينشط القراء فى الاحتجاج ، فيؤلف مكى بن أبى طالب حموش (ت ٤٣٧ هـ) كتابه الكشف عن علل القراءات وحججها [٤] . ويؤلف الدانى (٤٤٤ هـ) كتاب الموضح لمذاهب القراء واختلافهم فى الفتح والإمالة [٥] . وتتابع كتب القراء جامعة تفصيل مذاهب السبعة [٦] . أو العشرة [٧] أو الاربع عشرة [٨] واغلبها يحتج احتجاجا موجزاً للأصول ، وفرش الحروف . وبقى علىَّ أن أقول : « ان هناك كتباً ألفت فى معانى القرآن [٩] ، وقد قصدت هذه الكتب . كما يدل عليها اسمها ، وكما استنتجت من اطلاعى على الباقية منها [١٠] قصدت إلى إلى تفسير القرآن ، وتعرضت — تبعاً لذلك — إلى إعراب الكلمات التى يتعلق باعرابها توجيه المعنى . وتختلف باختلافه الأوجه الإعرابية فى الكلمة ، أو إلى التفسير اللغوى للمتن القرآنى الذى اختلفت القراء فى ألفاظه . وتعرض هذه الكتب لتوجيه القراءة ، ولكن من هذه الزاوية أولا — ومن هذه الناحية يعدها الباحث من كتب الاحتجاج .

---

(١) الفهرست : ٤٩
(٢) تاريخ الاسلام الذهبى : ١٠٩ حوادث سنة ٣٦٨
(٣) فى حجة ابن خالويه مخطوط بدار الكتب رقم ١٩٥٢٣ ب
(٤) الكتاب بدار الكتب رقم ١٩١٨٢ ب
(٥) له نسختان بمكتبة الأزهر رقم ١٠٣، ٥٩٨٠٢ قراءات
(٦) كالتيسير وجامع البيان للدانى والمفتاح لأبى القاسم عبد الوهاب بن محمد المحفوظ بدار الكتب رقم ١٩٦٦٩ ب
(٧) كالنشر لابن الجزرى
(٨) كاتحاف فضلاء البشر للبنا الدمياطى
(٩) انظر الفهرست : ٥١
(١٠) كمعانى القرآن للفراء والزجاج

وبعد : فيجدر بى أن ألخص المعالم الكبرى للاحتجاج فى الخطوات الآتية :

كانت الخطوة الأولى فى الاحتجاج تتمثل فى هذه التخريجات الفردية ، تأتى منثورة هنا وهناك ، يدعو إليها المقام ، وترد عند الاقتضاء ، واستمرت هذه الخطوة مسايرة للخطوة الثانية التى تمثلت فى جمع القراءات الصحيحة والشاذة — والبحث عن أسنادها كما فعل هرون بن الأعور ، ويعقوب بن أبى اسحق ، وأبو عبيد القاسم بن سلام ، وأمام المفسرين الطبرى فى كتابه القراءات ، وهذه الخطوة تكاد تكون مفقودة طوى كتبها الزمان ، وعصفت بها الأحداث .

ثم كانت المرحلة الفاصلة فى الخطوة الثالثة باختيار إمام القراء أبى بكر بن مجاهد القراءات السبع ، ويدور حول عمله هذا نشاط له مظاهر أربع تتمثل فى :

(ا) الاحتجاج لهذه القراءات والكشف عن عللها جملة ؛ كما فعل أبو على فى الحجة .

(ب) توثيق غير هذه السبع والاحتجاج له ؛ كما فعل ابن جنى فى المحتسب .

(ح) الاقتصار على الانتصار لقارىء من السبعة ؛ كما فعل أبو طاهر البزار فى كتابه الانتصار لحمزة

(د) الاحتجاج لأصل من أصول القراءات يعلل المؤلف لمذاهب القراء السبعة فيه ؛ كما فعل الدانى فى كتابة الموضح حيث احتج للفتح والإمالة عند سبعة القراء . ويبرز بين هذه المعالم — كتاب سيبويه علما شامخا يهدى المحتجين ، كما تظهر بجانبه فى الاحتجاج كتب المفسرين . وسأعرض فى الفصول التالية نزعة كل من إمام النحاة ، وإمام المفسرين ، وإمام القراء — فى الاحتجاج تمهيدا لتناول نزعة أبى على بالدرس والبيان . . .

سيبويه والاحتجاج للقراءات

يعد الكتاب فيما أرى – الأصل فى باب الاحتجاج ، وهو العمدة لمن سلك هذا المنهج من المحتجين ، قراء كانوا أو نحويين ، ومن هنا كان من الضرورى أن أتحدث عما كان من سيبويه فى هذا السبيل .

وأقدم أن سيبويه فى كتابه كان يحتج للأساليب العربية ، وأوجه الخلاف والمشابهة بينهما ، وطرائق إعرابها ، ومقتضيات هذه الطرائق ، وتلك الأوجه من المعنى والاستعمال[1] .

وقد قال سيبويه فى معرض التدليل على أن العرب يستخفون فيحذفون النون والتنوين ، ولا يتغير من المعنى شىء . وبعد أن أورد طرفاً من الأمثلة يستشهد بها على ذلك ، قال : « وستراه أيضاً مفرداً فى بابه مع غير هذا من الحجج[2] » . فدل لفظه هذا أنه كان يقصد إلى الاحتجاج قصداً ، وهو بعمله هذا قد فتح باب الاحتجاج لمن جاء بعده من النحاة والقراء ، وقد كان أبو على الفارسى فى الحجة ينظر إلى الكتاب[3] .

وأسجل فيما يأتى بعض الملاحظات على منهج سيبويه فى تناوله الآيات القرآنية التى قرئت بأوجه متخالفة[4] :

(ا) فهو أحياناً يخطىء القارئ ، ويضعف القراءة إذا لم تكن متفقة هى وما انتهى إليه من رأى أو قياس ، وذلك تخريجه لإعراب فيكون من قوله تعالى : « كن فيكون » ، فاختار الرفع ، ثم قال : وقد يجوز النصب فى الواجب فى اضطرار الشعر . .

فمما نصب فى الشعر اضطراراً قول الشاعر :

سـأترك منزلى لبنى تميم   وألحق بالحجاز فأستريحا

وقول الأعشى :

ثمت لا تجزوننى عند ذاكم   ولكن سيجزينى الإله فيعقبا

---

(١) سيبويه إمام النحاة : ٣٧

(٢) الكتاب : ١/٨٤

(٣) انظر الحديث عن سيبويه شيخاً من شيوخ أبي على

(٤) أعاننى فهارس شواهد الكتاب التى أوردها أستاذى الأستاذ على النجدى على هذا البحث إعانة ظاهرة

ثم قال : وهو ضعيف فى الكلام[١].

وقد رجعت إلى كتب القراءات ، فوجدت أن قراءة النصب عن ابن عامر فى ستة المواضع التى ورد فيها هذا الحرف فى القرآن الكريم ، ووافقه الكسائى فى حرفى النحل ويس[٢] . فكيف يقول سيبويه : والنصب ضعيف فى الكلام ؟ وقد ورد فى قراءات إمام ناهيك من إمام ؟ !

وقد جرى النحاة البصريون وراء سيبويه ، فهذا أبو على الفارسى يرى ما يراه إمامه[٣] . .

ويجىء العكبرى فيلف لفهما ؛ إذ يقول : « وقرئ بالنصب على جواب لفظ الأمر ، وهو ضعيف، ثم دلل على هذا الضعف[٤].

(ب) وقد ينفرد قارئ من القراء العشرة بقراءة ، ويقرأ غيره بغيرها ، ومع ذلك فإن سيبويه يحكم بأن هذه القراءات المنفردة أكثر وأجود ، فقد قرر أن النصب فى معذرة من قوله تعالى : « قالوا معذرة إلى ربكم . . » أكثر وأجود[٥] .

فأما كون القراءة أجود فلا اعتراض لى عليه ، وذلك لأن القراءات قد تتفاوت فى ذلك لما نقل ابن الجزرى فى كتابه (منجد الطالبين) ، عن أبى نصر الشيرازى فى تفسيره : « إنا لا ندعى أن كل ما فى القراءات على أرفع الدرجات من الفصاحة[٦] » وإن كان سبيل التأدب يلزمنا الاعتداد بها جميعاً .

وأما أن قراءة النصب أكثر فيرده أن حفصاً هو الذى قرأ بالنصب والباقين قرءوا بالرفع[٧] ، ولا شك فى أن هؤلاء القراء يمثلون الأكثرية فى العرب إذا ما اجتمعوا على شىء ، فحكم سيبويه يتخالف هو وإجماع بقية القراء ، على غير ما رأى وقرر .

وكان خيراً لو أطلق التجويز من غير ترجيح ، كما حكم فى قوله تعالى : « كلا إنها لظى نزاعة للشوى[٨] » .

---

(١) الكتاب: ج١ ص ٤٢٣
(٢) راجع النشر : ٢/٢٢٠
(٣) الحجة: ج ١ ص ٤٧٤ نسخة مراد ملا
(٤) إعراب القرآن للعكبرى: ج١ ص٣٣
(٥) الكتاب: ج ١ ص١٦٢
(٦) منجد المقرئين : ٦٥
(٧) انظر النشر فى القراءات العشر: ج٢/٢٧٢
(٨) ج ١ ص ٢٠٨

ومن التوافق الملحوظ أن ينفرد حفص بالنصب ، ويقرأ الباقون من العشرة بالرفع[١] . تماماً كما فى قوله تعالى : قالوا معذرة إلى ربكم . . » .

(ج) وأحياناً يجوز قراءة لم ترد عن واحد من القراء العشرة ، فقد جوز الرفع والنصب فى « جواب » من قوله تعالى: « فما كان جواب قومه إلا أن قالوا » ؛ إذ يقول : فى تأويل النصب — أن محمولة على كان كأنه قال : « فما كان جواب قومه إلا قول كذا وكذا » ، ثم قال : وإن شئت رفعت الجواب ، فكانت إن منصوبة[٢] . وقد فهمت تجويزه الأمرين فى مساواة من قوله مخيراً : « وإن شئت » ثم رجعت إلى كتاب النشر فلم أجد الرفع فى القراءات العشر[٣]. وهذا دليل عندى على أن أئمة القراء لا تعمل فى شيء من حروف القرآن على الأفشى فى اللغة ، والأقيس فى العربية ؛ بل على الأثبت فى الأثر ، والأصح فى النقل والرواية[٤] . ومن هذا القبيل — أى من تحكيم القياس ومجانبة العمل بالأثر — أن يقول سيبويه مثلا : ولو قرئ بكذا كان جيداً ، كما ذكر فى قوله تعالى : « وأن المساجد لله فلا تدعو مع الله أحدا[٥] » .

(د) وأحياناً يجوّد قراءة مشهورة ، ويجوز وجهاً غير مقروء به كأن يقول فى : « وأما ثمود فهديناهم » ، النصب عربى كثير ، والرفع أجود[٦] .

ومن التخالف الذى لم أستطع تفسيره ، أنه مع تحكيمه القياس ، ومجانبة العمل بالأثر فى ظاهر أمره وتخريجه يقول : « القراءة لا تخالف لأنها سنة ! [٧] » ، ولا زلت ألتمس تعليلا لهذين الموقفين المتناقضين ، أو أرجو توفيقاً بينهما .

فهل كان سيبويه يتخير القراءات على مذاهب العربية ؟

هذا هو ما أميل إليه وأرجحه ، وليس سيبويه فى ذلك نسج وحده ؛ بل إنَّ أستاذه عيسى بن عمر له اختيار فى القراءة على مذاهب العربية كذلك[٧] .

(هـ) وهو يكتفى بالإشارة إلى أن الآية قرئت على وجه من وجوه الإعراب دون اهتمام — فى الأعم الأغلب — بذكر القارىء مما يدل على أن المهم عنده أن يحتج للوجه الذى قرئت به الآية ، ولا يهمه أن يحتج للقارىء فيما ذهب إليه .

---

(١) النشر ج ٢ ص ٣٩٠ — (٢) ج ١ ص ٤٧٦
(٣) ج ٢/٣٤٨ — (٤) منجد المقرئين : ٥٦
(٥) ج ١ ص ٧٤ — (٦) المصدر السابق : ٤٢ ، ٧٤
(٧) طبقات القراء لابن الجزرى: ج ١/٦٠٣

فهل ذلك هو الصواب فى تعليل هذه الظاهرة ، أو الصواب أن القراء لم يتضح منزلة الأئمة منهم فى زمنه ، فنراه يقول : « وقرأ أهل المدينة كذا[١] دون إسناد إلى نافع مثلا ؟ » ، « وقرأ أهل الكوفة كذا[٢] » دون إسناد إلى حمزة أو الكسائى ؟ « وقرأ بعضهم كذا[٣] » . أو أن هذه قراءة أهل الحجاز[٤] ، أو قراءة أهل مكة كذا[٥] دون إسناد إلى ابن كثير ؟ أو دفعته العصبية الطائفية ، والمنافسة فى الصنعة إلى عدم ذكر هؤلاء .

فعلى حسب ما استقصيت — لم أره ينص إذا ما نص — إلا على إمام بصرى كأبى عمرو بن العلاء[٦] . أو من قرأ على بصرى كالأعرج[٧] أو عيسى[٨] . أو من بعُد عن هذه العصبية كعبد الله بن مسعود[٩] أو أبى[١٠] .

وقد استفتيت كتب القراءات والتفسير فيما جوّزه أو جوّده سيبويه من قراءات فى مثل قوله تعالى : « فما كان جواب قومه إلا أن قالوا[١١] » ، « تلتقطه بعض السيارة[١٢] » .

« تماماً على الذى أحسن[١٣] » ، « لكن الراسخون فى العلم منهم . . والمقيمون[١٤] » .

« وأما ثمود فهديناهم[١٥] » ، « ولكن البرّ من آمن بالله . . والصابرون فى البأساء والضراء وحين البأس[١٦] » .

فوجدت أن الذى قرأ بالرفع فى قوله : فما كان جواب . .

الحسن وابن أبى اسحق[١٧] وبتأنيث الفعل تلتقطه . الحسن وقتادة وأبو رجاء[١٨] .

وبرفع أحسن يحيى بن يعمر . وابن أبى اسحق[١٩] .

---

(١) الكتاب : ج ١/٢٨٣ ، ٤٢٩ ، ٤٧٥ مثلا

(٢) الكتاب ج ١/٤٣٠ ، ٤٧٦ مثلا

(٣) الكتاب : ج ١/٢٥

(٤) الكتاب : ج ١/٤١٧ مثلا

(٥) الكتاب : ج ٢/٤١٠ مثلا

(٦) الكتاب : ج ٢/٢٣٨ مثلا

(٧) الكتاب : ج ١/٣٠٥ مثلا

(٨) وانظر ترجمة حميد بن قيس الأعرج وقد روى عنه أبو عمرو ج ٢٦٥/٢ طبقات القراء ، الكتاب : ج ١/٤٧١ مثلا

(٩) ج ١/٢٥٨ ، ٤٧١

(١٠) ج ١/٤٨١

(١١) الكتاب : ج ١/٤٧٦

(١٢) ج ١/١٥

(١٣) ج ١/٢٧٠

(١٤) الكتاب : ج ١/٣٤٨

(١٥) ج ١/٤١ ، ٧٤ ، ج ٢/٢٨

(١٦) الكتاب : ج ١/٢٤٨

(١٧) البحر المحيط لأبي حيان ج ٨٦/٧

(١٨) البحر المحيط لأبي حيان ج ٥/٢٨٤

(١٩) البحر المحيط لأبي حيان ج ٤/٢٥٥

وبرفع المقيمين : ابن جبير ، وعمرو بن عبيد .
والجحدرى وعيسى بن عمر ومالك بن دينار وعصمة عن الأعمش .
ويونس ، وهارون عن أبي عمرو[١] . وبرفع ثمود فى قوله :
وأما ثمود : « الحسن وابن أبي اسحق[٢] » ، ورفع الصابرين : « الحسن والأعمش ويعقوب[٣] » .

ثم رجعت إلى كتب طبقات القراء ، فوجدت أن هؤلاء القراء بصريون :
فيعقوب بصرى[٤] (٢٠٥ ﻫ) ، وعمرو بن عبيد (١٤٤ ﻫ) كذلك[٥] ، والمرجح أنه لم يدركه سيبويه (١٨٠ﻫ) وربما رويت عنه قراءة فرواها سيبويه[٦] ، وعيسى بن عمر (١٤٩ ﻫ) معروفة مكانته فى الشيوخ البصريين[٧] ، وكل من : عصمة بن عروة[٨] ، وهارون الأعور[٩] ، وقتادة[١٠] (١١٧ ﻫ) ، ومالك بن دينار[١١] (١٣٧ ﻫ) ، ويونس بن حبيب[١٢] ، وأبو رجاء العطاردى[١٣] (١٠٥ ﻫ) ويحي بن يعمر بصرى[١٤] ، كما تنص كتب طبقات القراء . ولم أعثر على ترجمة للجحدرى الذى روى قراءة الرفع فى المقيمين .

وأخلص من هذا العرض إلى نتيجة ؛ هى أن سيبويه ، وقد اهتم هذا الاهتمام الواضح بإيراد هذه الآيات ، وبالقراءات التى رويت بها ، وبالقراء الذين ظهروا — بعد استفتاء كتب القراءات والطبقات — أنهم بصريون ، بتوجيه قراءاتهم على النحو الذى أورد فى الكتاب — أقول يمكن أن أستخلص من هذا ما أستطيع أن أسميه نحو القراء البصريين ، وهو أمر خليق بأن يختبر ، ويتوسع فيه ، ويتوجه إليه الدارسون والباحثون، إلى ما فيه من توثيق لقراء لم يردوا فى العشر ، وأن يقيم ما ورد فى كتاب سيبويه إلى ما ذكرته كتب التفسير المعنية بالقراءا كالبحر المحيط لأبي حيان ، والمحتسب لابن جنى ، فلعلنا نخرج من هذه الدراسة بنتائج ذات قيمة

(١) البحر المحيط لأبي حيان ج ٣/٣٩٥
(٢) البحر المحيط لابي حيان ج ٧/٤٩١ (٣) المصدر السابق ج ٢/٨
(٤) طبقات القراء : ج ٢/٢٨٨ (٥) طبقات القراء : ج ١/٦٠٢
(٦) المصدر السابق (٧) طبقات القراء : ج ١/٦١٣
(٨) طبقات القراء : ج ١/٥١٢ (٩) طبقات القراء : ج ٢/٤٤٨
(١٠) طبقات القراء : ج ٢/٢٥ (١١) طبقات القراء : ج ٢/٣٦
(١٢) طبقات القراء : ج ٢/٤٦٦ (١٣) طبقات القراء ج ١/٦٠٤
(١٤) طبقات القراء :ج ٢/٣٨١ فى البحر المحيط يحى بن معمر والصواب ما أثبتناه .

فى البحوث المتعلقة بالقرآن وتوثيق قراءاته . ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كبيراً .

ومما يتصل بموقف سيبويه من المنافسين ، أنه كاد يطرد عندي إذا قال : وقرأها بعضهم أو نحواً من ذلك : أنه القارىء كوفى ، فقد قال : وبلغنا أن بعضهم قرأ هذا الحرف نصباً « وامرأته حمالةَ الحطب[١] » ، وقد رجعت إلى كتاب النشر فرأيت أن الذى قرأ بالنصب عاصم[٢]

وقد قال : وقرأها بعضهم خاف[٣] (بالإمالة) ، وما بعضهم إلا حمزة[٤] ، وإ كالا لهذا البحث أذكر أن سيبويه يحتج لأوجه القراءة بما هو مرسوم فى بعض المصاحف ، مسمياً أصحابها حيناً ، وحينا يغفل ذلك ، فقد ذكر فى قوله تعالى : « ودوا لو تدهن فيدهنون » ، زعم هرون أنها فى بعض المصاحف: ودوا لو تدهن فيدهنوا[٥] ، وقد أوردها Jeffry فى مصحف ابن مسعود[٦] فوجدتها كذلك[٧] ، وكذلك وردت فى مصحف أبى والأعمش[٨] .

وذكر قول الله تعالى : « لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شىء » ثم قال : وزعموا أنها فى مصحف أبى أنهم لا يقدرون »[٩] ، وقد ذكرها Jeffry فى كتاب المصاحف — بكسر الهمزة — وهو خطأ[١٠] .

وسيبويه باستشهاده بما جاء فى المصاحف يقرب كثيراً من أهل النقل والأثر ، ويبعد عن أصحاب القياس والنظر ، وهى ظاهرة لو انضمت إلى قوله : « والقراءة لا تخالف لأنها سنة[١١] . فإن ذلك يجعلنى أضع سيبويه مع مدرسة القراء الذين يأخذون بالنقل عن الأئمة ، ويعتدون برسم المصحف . ولكن ما جاء فى كتابه من اعتداد بالقياس . وتضعيف بعض القراء الأئمة يدفعنى إلى القول بأنه كان متردداً بين المذهبين . وهو إلى مذهب القياس ومدرسة النحاة أقرب ، ذلك لأن الملاك العام فى احتجاجه للقراءات أنه أراد أن يجرى القراءات على مقاييس العربية ، ومن هنا رأيناه لا يتحرج أن يصف كلا من القارئ والقراءة بالضعف ، كما بينت من قبل[١٢] .

ثم أخلص إلى الحديث عن اتجاه إمام المفسرين أبى جعفر الطبرى ، ومكانته فى الاحتجاج .

---

(١) الكتاب جـ١/٢٠٢ (٢) النشر جـ ٢/٤٠٤ (٣) الكتاب جـ ٢/٢٦١

(٤) النشر ٢/٥٩ وابراز المعاني لأبى شامة /١٦٩ فى شرح بيت الشاطبى :

وكيف الثلاثى غير زاغت بماضى — أمل خاب ، خافوا ، طاب ، ضاقت لتجملا

(٥) الكتاب جـ ١/٤٢٢ (٦) P. 103 (٧) المصاحف للسجستانى / ٦٣

(٨) P. 47 (٩) الكتاب جـ ١/٤٨١ (١٠) P. 169

(١١) الكتاب جـ١/٤٨١ (١٢) الكتاب جـ١/٤٢٣

أبو جعفر الطبرى والاحتجاج

(٢٢٤ — ٣١٠ هـ)

يمثل أبو جعفر الطبرى نضج الثقافة الإسلامية فى عصورها الذهبية ، فقد جمع من العلوم مالم يشاركه فيه أحد من عصره[١] . وكان مليئاً بما نهض فيه من أى علم كان[٢] . والطبرى شيخ أبى بكر بن مجاهد[٣] . سمع ابن مجاهد منه رواية ورش عن نافع[٤] . وقد بلغ من تقديره للطبرى أنه كان يجتاز على مسجده فلا يدخله ، ويقف بباب مسجد الطبرى يستمع قراءته طويلا ، وكان يثنى عليها[٥] ، كان يقول : « ما سمعت فى المحراب أقرأ من أبى جعفر[٦] » ، وقد ألف الطبرى فيما ألف — كتاباً فى القراءات أثنى عليه الناس[٧] . ونقل ياقوت أنه فى ثمانى عشرة مجلدة ، جمع فيه القراءات من المشهور والشاذ ، وعلل ذلك وشرحه[٨] . ولعله كتاب الفصل بين القراءة[٩] الذى ذكره ياقوت وكان أبو بكر يقول فيه: « ماصنف فى معنى كتابه مثله[١٠] » . ووصفه البرانى بأنه كتاب حسن[١١] . وكتاب الطبرى فى القراءات يشتمل على كتاب أبى عبيد القاسم بن سلام ، لأنه كان عنده وعليه بنى كتابه[١٢] . فالطبرى إذن يمثل حلقة من سلسلة متصلة بدأت بهارون الأعور ، وتتابعت حلقاتها ممثلة فى يعقوب الحضرمى ، وأبى عبيد القاسم بن سلام ، ولئن عصفت الأحداث بكتاب الطبرى فى القراءات فلم يصل إلينا إنَّ كتابه (جامع البيان فى تفسير القرآن) المشهور المتعالم بين الناس ، يضىء للباحث السبيل فى التعرف على حلقة من حلقات التطور فى الاحتجاج للقراءات ، كما يبين نزعة الطبرى فى ذلك ، فهو يروى فى كتابه هذا القراءات المختلفة مسندة إلى من قرأها ، يستجيز بعضاً فيرجحه ، ولا يستجيز بعضاً فيفسده ، وملاك الترجيح عنده أمور :

---

(١) تاريخ بغداد : ١٦٣/٢
(٢) معجم الأدباء : ٧٨/١٨
(٣) طبقات القراء : ١٠٧/٢
(٤) معجم الأدباء : ٦٧/١٨
(٥) تاريخ بغداد : ١٦٤/٢
(٦) معجم الأدباء : ٦٦/١٨
(٧) انظر طبقات القراء: ١٠٧/٢
(٨) معجم الأدباء : ٤٥/١٨
(٩) معجم الأدباء : ٦٥/١٨
(١٠) المصدر السابق : ٦٦/١٨
(١١) طبقات القراء : ١٠٧/٢
(١٢) معجم الأدباء : ٦٨/١٨

(ا) ما حدث به عن أشياخه، وما نقل من أقوال السلف من الصحابة، والأئمة، والخلف، والتابعين، وعلماء الأمة[١].

(ب) الأخذ بظاهري المعنى، وحقيقة اللفظ، من غير التجاء إلى المجاز.

(ج) إجماع الحجة من الأمصار، وفي ذلك يقول: «ماجاءت به الحجة متفقة عليه حجة على من بلغه، وما جاء به المنفرد فغير جائز لا اعتراض به على ماجاءت به الجماعة التي تقوم بها الحجة نقلا، وقولا، وعملا[٢]، وتراه لا يستجيز القراءة بما خالف اتفاق الحجة، وإن كان له في التأويل، والعربية وجه مفهوم[٣] فإن قرأ بقراءة جمهور، وقرأ بأخرى قلة، أشار إلى أن القارىء مصيب الصواب بأي هذه القراءة قرأه، وإن كان يحب ألا يعدو في قراءته قراءة ما عليه الجمهور[٤].

(د) رسم المصحف، فليس لأحد خلاف رسوم مصاحف المسلمين[٥]. وفي هذا المرجح والذي قبله يقول في قراءة: «والذين يؤتون ما أتوا[٦]، وعلى هذه القراءة قراءة الأمصار، وبه رسوم مصاحفهم، وبه نقرأ لإجماع الحجة من القراء عليه، ووفاقه خط مصاحف المسلمين[٧].

(هـ) الشواهد من الأشعار السائرة، ومنطق العرب ولغاتهم المستفيضة المعروفة، وذلك مشروط بعدم خروجه عن أقوال السلف[٨].

وقد أصبت مثالا جامعاً، لعظم هذه المرجحات، يستدل به وينقاد على وتيرته، قال أبو جعفر:

(ا) حدثت عن الحسين قال: سمعت أبا معاذ يقول: «أخبرنا عبيد بن سليمان قال: سمعت الضحاك يقول في قوله: وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال في حرف ابن مسعود، وإن كاد مكرهم لتزول منه الجبال، هو مثل قوله: «تكاد السموات يتفطرن منه، وتنشق الأرض، وتخر الجبال هدا»، واختلفت القراء في قراءة قوله: «لتزول منه الجبال»، فقرأ ذلك عامة قراء الحجاز، والمدينة، والعراق ماخلا الكسائي، وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال — بكسر اللام الأولى وفتح الثانية — وما كان مكرهم لتزول منه الجبال. وقرأه الكسائي: وإن كان مكرهم لَتزولُ منه الجبالُ

---

(١) جامع البيان: ٣١/١
(٢) جامع البيان: ٣٠٧/١
(٣) جامع البيان: ٤٨/٢
(٤) المصدر السابق: ٦٢٥/١٤
(٥) جامع البيان: ١١٢/١
(٦) المؤمنون: آية ٦٠
(٧) جامع البيان: ٢٣/١٨
(٨) المصدر السابق: ٣١/١

— بفتح اللام الأولى ورفع الثانية — على تأويل قراءة من قرأ ذلك : « وإن كاد مكرهم لتزول منه الجبال » من المتقدمين الذين ذكرت أقوالهم ، بمعنى اشتد مكرهم حتى زالت منه الجبال أو كادت تزول منه . وكان الكسائى يحدث عن حمزة عن شبل عن مجاهد أنه كان يقرأ ذلك على مثل قراءته : وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال برفع تزول . حدثنى بذلك الحارث عن القاسم عنه . والصواب من القراءة عندنا قراءة : وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال بكسر اللام وفتح الثانية ، بمعنى وما كان مكرهم لتزول منه الجبال ، وإنما قلنا ذلك هو الصواب .

(ب) لأن اللام الأولى إذا فتحت ، فمعنى الكلام وقد كان مكرهم تزول منه الجبال ، ولو كانت زالت لم تكن ثابتة ، وفى ثبوتها على حالتها ما يبين عن أنها لم تزل ، (وفى هذا أخذ بظاهر المعنى) .

(ج) وأخرى إجماع الحجة من القراء على ذلك ، وفى ذلك كفاية عن الاستشهاد على فتحها وفساد غيرها (!!) ، فإن ظن ظان أن ذلك ليس بإجماع من الحجة إذا كان من الصحابة والتابعين من قرأ ذلك كذلك ، فإن الأمر بخلاف ما ظن فى ذلك ، وذلك أن الذين قرءوا ذلك بفتح اللام ورفع الثانية ، وقرءوا : وإن كاد مكرهم بالدال ، وهى إذا قرئت كذلك فالصحيح من القراءة مع « وإن كان » فتح اللام الأولى ، ورفع الثانية على ما قرءوا ، وغير جائز عندنا القراءة كذلك[1].

(د) لأن مصاحفنا بخلاف ذلك ، وإنما خط مصاحفنا « وإن كان » بالنون لا بالدال . وإذا كانت كذلك فغير جائز لأحد تغيير رسم مصاحف المسلمين ، وإذا لم يجز ذلك لم يكن الصحاح من القراءة إلا ما عليه قراءة الأمصار ، دون من شذ بقراءته عنهم[2] . .

(هـ) أما احتجاجه بالشواهد العربية فى القراءات ، فقد أكثر أبو جعفر منها حتى عد كتابه مصدراً من هذه المصادر التى تعنى بإيراد هذه الشواهد ، ويبدو موقفه فى الاحتجاج بهذه الشواهد من المثال الآتى :

وأما الميتة من قوله تعالى : « إنما حرم عليكم الميتة والدم . . » فإن القراء مختلفة فى قراءتها ، فقرأها بعضهم بالتخفيف ، ومعناه فيها التشديد ، ولكنه يخففها كما يخفف القائلون : وهو هين لين ، الهين اللين كما قال الشاعر :

---

(١) يلحظ تعثر الطبرى فى التعبير هنا .

(٢) جامع البيان : ١٤٧/١٣ وما بعدها

ليس من مات فاستراح بميت إنما الميت ميت الأحيـــاء

لجمع بين اللغتين فى بيت واحد فى معنى واحد ، وقرأها بعضهم بالتشديد ، وخطوها على الأصل . والصواب من القول فى ذلك عندى أن التخفيف والتشديد فى باء الميتة لغتان معروفتان فى القراءة وفى كلام العرب ، فبأيهما قرأ ذلك القارىء فصيب ؛ لأنه لا اختلاف فى معنيهما[١] .

هذه النزعة من الطبرى ، وسلوكه هذه المسالك ، دليل على أنه كان سلفياً ، يعتمد على الرواية، والنقل ، والإجماع، ورسم المصحف ، وهو فى سبيل إقراره هذا المسلك لم يستجز قراءة ابن عامر (وكذلك زين لكثير من المشركين قتلَ أولادهم شركائهم) ، لإجماع الحجة من القراء على غيرها ، وأن تأويل أهل التأويل ورد عليه إجماع القراء[٢] ، وهذا أمر غريب ، وأغرب منه وصفه قراءة حمزة — والأرحامِ فى قوله تعالى : « واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحامِ » بأنها غير فصيحة — مكروهة فى المنطق ، رديئة فى الإعراب[٣] . فإذا علمنا أن الطبرى معدود من الكوفيين النحويين[٤] . وهم يجوِّزون قراءة حمزة ، وأن الطبرى كان يقرأ قديماً لحمزة قبل أن يختار قراءته[٥] . وأن قراءة ابن عامر وحمزة منقولة بالسند الصحيح إذا علمنا ذلك ، بدأ الطبرى متدافعاً فى مسلكه، ولا يستطيع الباحث له تعليلا .

على أن موقفه فى تفسير قراءة متواترة ، قليلة نادرة ، وهو فى جل مذهبه كما أورد ياقوت على الجماعة من السلف ، وطريق أهل العلم المتمسكين بالسنن[٦] . وأترك أبا جعفر الطبرى لأتعرف على حلقة جديدة من حلقات الاحتجاج فى مسلك تلميذه — شيخ القراء — ابن مجاهد احمد بن موسى .

---

(١) جامع البيان : ٢/٤٨
(٢) جامع البيان : ٨/٣١
(٣) انظر جامع البيان : ٤/١٤١
(٤) معجم الأدباء : ١٨/٦٠
(٥) معجم الأدباء : ١٨/٦٦
(٦) معجم الأدباء : ١٨/٨١ ، ٨٢

أبو بكر بن مجاهد والاحتجاج (ت ٣٢٤هـ)

روى أبو بكر بن مجاهد قراءات الأئمة السبعة من أهل الأمصار فى كتابه المترجم بالقراءات ، وكان اختياره لها قائماً على الأساسين الآتيين :

(ا) ماحدثه به الشيوخ مسنداً إلى الإمام القارىء .

(ب) رسم المصحف ، فكان اعتداده بهذين الأساسين بمثابة توثيق واحتجاج لما اختار من القراءات . وسأعطى مثالا لكلّ يكشف من هذه النزعة عند ابن مجاهد .

(ا) قال فى احتجاج لقراءة ابن كثير جَبريل — بفتح الجيم وكسر الراء — من غير همز ، وميكائيل مهموز .. حدثنى الحسين بن بشر الصوفى(١) . من روح ابن عبد المؤمن عن محمد بن صالح عن شبل عن ابن كثير قال : « رأيت النبى ﷺ فى المقام ، وهو يقرأ جبريل وميكائيل فلا أقرأهما أبداً إلا هكذا(٢) » .

(ب) وفى الاحتجاج برسم المصحف يقول : قرأ ابن عامر وحده : قالوا اتخذ الله ولداً سبحانه ، بغير واو ، وكذلك هى فى مصاحف أهل الشام(٣) . ومن أجل تمسك ابن مجاهد بهذين الأساسين دفع الوزير بن مقلة إلى تعذيب ابن مقسم ، الذى خالف فى قراءته الأساس الأول ، إذ كان يقول : « إن كل قراءة وافقت المصحف ووجهاً فى العربية فالقراءة بها جائزة وإن لم يكن لها سند(٤) » ، كما عذب ابن شنبوذ الذى كان يقرأ معتمداً على السند، وموافقة العربية ، وإن خالف المصحف الإمام(٥). ويبدو من هذا تمسك ابن مجاهد بالأثر تمسكا شديدا ، وأرى السبب فى ذلك أنه تأثر فى ذلك بالنزعة التى غلبت على شيخه الطبرى أولا ، ولأنه لم يكن ذا بصر بالعربية ثانياً ،(٦) ولأن كتابه القراءات قائم على النقل والرواية ثالثاً . ومن هنا لم يجز شيئاً غلبت من القراءة على مقاييس النحاة . وفيما يلى الحلقة الكبرى فى هذا البحث؛ تلكم الحجة لأبى على . .

---

(١) انظر طبقات القراء : ١/٢٣٩

(٢) الحجة : ١/٤٤٠ ن مراد ملا .

(٣) الحجة : ١/٤٧٢ مراد ملا

(٤) طبقات القراء : ١/١٢٤

(٥) طبقات القراء : ٢/٥٤

(٦) انظر المحتسب لابن جنى : ١/٦٠

الفصل الثانى

الحجـــة

لم يشر الزبيدى فى طبقاته إلى شىء من تآليف أبى على ، فأغفل فيما أغفل كتابه (الحجة) ، وجعله ابن النديم (٣٨٥ هـ) فى فهرسته أول كتبه حين ذكر تصانيفه ، وأورده باسم الحجة ولم يزد ، ويزيد البغدادى (٤٦٣ هـ) فى تاريخه ، فيذكر الكتاب باسم (الحجة فى علل القراءات السبع) ، وفى فهرس المخطوطات المصورة يرد الكتاب بأسماء مختلفة ، فهو حيناً الحجة فى شرح القراءات السبع ، وحيناً الحجة للأئمة السبعة من قراء الأمصار فى القراءات السبع ، وحيناً الحجة فى علل القراءات .

وهذه الأسماء كلها تدور حول معنى الاحتجاج للقراءات ، مقيدة بالسبع وموصفه بها حيناً ، وعطلا من ذلك حيناً آخر ويجمل بى أن أبين الأسباب العامة والخاصة التى دعت أبا على إلى تأليف ذلك الكتاب .

فأول هذه الأسباب أن القراءات السبع جمعت فى كتاب ، جمعها أبو بكر ابن مجاهد (ت ٣٢٤ هـ)[1] . ومنذ ذلك الحين كانت الخطوة الطبيعية التالية ، وهى الاحتجاج لهذه القراءات ، وكان الذى قام بهذا العمل تلميذ ابن مجاهد ، وهو أبو بكر بن السراج ، ثم جاء من بُعده أبو على الفارسى . نعم كان هناك احتجاج للقراءات المتخالفة فى بعض الآيات ، ولكن لم تكن جمعت بعد فى كتاب .

وسبب ثان ، ذلك أن هؤلاء الذين تصدوا للاحتجاج كانوا من النحاة الذين أكبوا على كتاب سيبويه يدرسونه ، ويتفهمونه — وأبو على فى الصدارة منهم ، وكان فى الكتاب احتجاج للقراءات المختلفات فى بعض الآيات ، وفيه كذلك توجيه لبعض الأساليب العربية التى لها نظائر فى آى القرآن ، وأضرابها ، وأوجهها التى رويت بها ، فلما أراد النحاة المتأخرون التأليف فى الاحتجاج وجدوا الباب مفتوحاً ،

---

(١) ورد فى بغية الوعاة فى ترجمة هارون بن موسى بن شريك المعروف بالأخفش أنه كان قيما بالقراءات السبع ؟ ، فهل ألف ابن مجاهد هذه القراءات السبع قبل وفاة هارون هذا سنة ٢٩٢ هـ ؟ ! (انظر البغية ص ٤٠٦) .

فتحه أمامهم سيبويه — ولئن كان الناس قد أسمو الكتاب (قرآن النحو[١]) . إنّ هؤلاء النحاة المحتجين وجدوا فيه — كذلك ما أسميه (نحو القراءات) ، وجدوا فيه مثلا للاحتجاج للقراءات المختلفة فى الآيات الآتية :

« إن هذه أمتكم أمةٌ واحدة[٢] » ، « إنه لحق مثلُ ماأنكم تنطقون[٣] » .

« تلتقطه بعض السيارة[٤] » ، « تماماً على الذى أحسنُ[٥] » .

ولم يكن النحاة ليفوتهم هذا الجانب من كتاب سيبويه ، وهم الذين اتخذوه قرآناً ، أكبوا عليه ، ودرسوا ما فيه .

وثالث ، أن البيئة العلمية العامة أصبحت بيئة جدلية ، يقوم الدين فيها على الاقتناع واليقين ، لا على الاتباع والتلقين ، وكان شأن الناس فى القراءات شأنهم فى العقائد والديانات ، فلم يؤمنوا بأن الله واحد لأنهم قرءوا سورة الإخلاص ، وفيها أمر بوحدانية الله ، وتنزيهه عن الشركة والولد .. لا : بل لأنهم نظروا ، وفكروا ، وجادلوا ، وقدروا ، وانتهوا من ذلك كله إلى علم اليقين إن لم يكونوا مغرضين . وكذلك القراءات : ما سندها ؟ وما حجتها ؟ ولم ذهب ذلك القارىء هذا المذهب ؟ وهل له معتمد من اللغة والنحو ؟ ومن هنا كانت خطة هؤلاء النحاة المحتجين — على ما يبدو لى — من أنهم آثروا القياس والنظر ، وأعملوهما فيما هو ثابت بالنقل والأثر ، وهى خطة لا يرتضيها القراء ، ولكن النحاة المحتجين كانوا إليها مضطرين لمواجهة المعاندين والمنكرين ، فى عصر شاعت فيه الزندقة ، وتغشاه الإلحاد ، وفيهم ملحدون يكيدون للإسلام ، ويغضون من عقائد المسلمين ، وينقرون عما يمكن أن يكون ثلمة فى كتابهم الكريم ، ويعتمدون فى كيدهم وتعرضهم على مباحث الجدل ، ومسائل الفلسفة والمنطق ، وما فيـــه من تعليل وقياس وقد ألف أبو الحسين محمد بن أحمد الملطى الشافعى وهو معاصر لأبى على ، وتوفى معه فى عام واحد (٣٧٧ هـ) ألف كتاب التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع[٦] وفى ذلك دليل على ما ذاع فى هذا العصر من قالة هؤلاء الملحدين ، وتجرد حماة الدين

---

(٢) مراتب النحويين الورقة ١٠٦ (٣) الكتاب : ١/٢٨٧

(٤) الكتاب : ١/٤٧٠ والعسكريات ١٣٥ .

(٥) الكتاب : ١/٢٥ (٦) نفس المصدر : ١/٢٧٠ .

(١) قام بطبع هـذا الكتاب السيد عزت العطار الحسينى (١٣٦٨ هـ — ١٩٤٩ م) وانظر ص (١ — ١٠) فى التعريف بالمؤلف ومنهجه فى البحث بقلم المرحوم محمد زاهد الكوثرى

للرد عليهم بالحجة والبرهان . كما تعرض ابن قتيبة فى كتابه (تأويل مشكل القرآن) إلى هؤلاء الملحدين ، فأحب كما يقول : « أن ينضح عن كتاب الله ، ويرمى من ورائه بالحجج النيرة ، والبراهين البينة ، ويكشف للناس ما يلبسون [١] ، وربما حسب هؤلاء وكانوا يستمعون من العلماء [٢] ، أنهم يستطيعون العثور على أخطاء نحوية فى الكتاب الكريم ، كما يقول دى بور [٣] .

قال يحيى بن المبارك اليزيدى : « كان يجيئنى رجل فيسألنى عن آيات من كتاب الله مشكلات ، وكنت أتبين العنت فى سؤاله ، فكنت إذا أجبته أرى لونه يربد ويسود ، فقال لى يوماً : « أيجوز فى كلام العرب أن نقول : أدخلت القوم الدار ثم أخرجتهم رجلا ؟ » فقلت : « لا يجوز ذلك حتى تقول : أخرجتهم رجلا رجلا ، فتدل على تفصيل الجنس » قال : فكيف قال الله تعالى : « ثم يخرجكم طفلا ؟ » فقلت : « ليس هذا من ذاك ، لأن الطفل مصدر فى الأصل : فهو يقع على الواحد ، والاثنين ، والجمع بلفظ واحد ، فنقول هذا طفل ، وهذان طفل ، وهؤلاء طفل ، وهؤلاء طفل ، كما قال تعالى : « والطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء » وطفل فى الآية موضع أطفال ، فكأنه قال : « ثم يخرجكم أطفالا » قال فأخبرنى عن قوله : « يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض » من أين لهم هذه الأرض هناك ؟

فقلت له : وهمت ! أما سمعت قوله تعالى : « يوم تبدل الأرض غير الأرض » فودوا أن تلك الأرض تسوى بهم ؟ فسكت ! [٤] .

وإذن كان من المعاندين نظر فى كتاب الله ، وكان من المسلمين دفاع عن صحة أسلوبه ، وفهم متشابهه ، وأحرفه المختلفة ، وتجد ابن جنى يرد هذه المطاعن فى بعض ما أورد من كتابه المحتسب [٥] . وينص ابن بشار الانبارى على أنه ألف كتاب الاضداد ليدفع ظن أهل البدع والزيغ [٦] .

---

(١) تأويل مشكل القرآن ١٧ وما بعدها (٢) تاريخ بغداد : ١٤/٦٠

(٣) تاريخ الفلسفة الاسلامية : ٣٧٠ .

(٤) أخبار ابي القاسم الزجاجي ورقة ١٥ .

(٥) انظر المحتسب : ١/٣٦٨ حيث يقرر ابن جنى أن القراءات كلها مروية ، ويرد على من طعن عليها عند الاحتجاج لقراءة (فولوا إليه وهم يجمزون) .

(٦) انظر الأضداد للانبارى : ٢

ومالى أذهب بعيداً ، وهذا أبو على صريح فى نصه الآتى على أنه صدر فى كتاب الحجة عن نزعة الحفاظ على كتاب الله ، ودفع ما قد يتوهم من اللحن فى قراءاته ، فبعد أن احتج لقراءة حمزة: ومكر السيء وإسكانه الهمزة فى الادراج ، وبنى احتجاجه على إجرائهم الوصل مجرى الوقف كما فى قولهم هذا أفعويا هذا — قال « فإذا ساغ ما ذكر فى هذه القراءة من التأويل لم يسغ لقائله أن يقول : « إنه لحن » ألا ترى أن العرب قد استعملت ما فى قياس ذلك؟ فلو جاز لقائل أن يقول إنه لحن لزمه أن يقول : إن قول من قال أفعو فى الوصل لحن ، فإذا كان ما قرأ به على قياس ما استعملوه فى كلامهم المنشور لم يكن لحناً ، وإذا لم يكن لحناً لم يكن لقادح بذلك قدح .

ثم قال : « وهذه القراءة وإن كان لها مخلص من الطعن فالوجه قراءة الحرف على ما عليه الجمهور فى الدرج[(١)].

ومما يؤكد هذه النزعة من أبى على عندى أنه يقف هذا الموقف مع حمزة وهو من الأئمة الكوفيين ، ثم تدعو البصرية أبا على إلى ترجيح القراءة بما عليه الجمهور وإن كانت قراءة حمزة خالصة من الطعن لجريانها على ما استعمله العرب فى نثرهم .

وسبب رابع : يؤيد ما سبق :هو أن المحتجين فى العهد الأول للقراءات بصريون : فأبو طاهر البزار بصرى[(٢)]، والنقاش الأنصارى بصرى[(٣)] ، وكل من ابن السراج[(٤)]، وأبى على الفارسى[(٥)]. وابن جنى بصرى كذلك ، والبصرة كما تعلم متأثرة بالمذاهب الفلسفية، وما شاع فى سكانها من مسائل المنطق[(٦)]، ومن أجل ذلك ألف قطرب (٢٠٦ هـ) كتاب الرد على الملحدين فى متشابه القرآن[(٧)] أو فيما سأل عنه الملحدون من آى القرآن[(٨)] ، وألف ابن درستويه كتاب الاحتجاج للقراء ، وهو كما يقول ابن النديم فى الفهرست يتعصب للبصريين عصبية شديدة[(٩)] . وقد قدر الخاصة المثقفون ، والعلماء البصيرون عمل هؤلاء الأئمة المحتجين ، فهذا

(١) الحجة: ٦/١٩٠ ن البداية .
(٢) الفهرست : ٤٨ (٣) الفهرست : ٥٠ (٤) الفهرست : ٩٢
(٥) الفهرست : ٩٥ (٦) تاريخ الفلسفة : ٤٩ (٧) الفهرست : ٧٩
(٨) نفس المصدر : ٥٧ (٩) الفهرست : ١٣

أبو العلاء المعرى ينصف أبا على الفارسى فى رسالة الغفران، وقد اجتمع عليه قوم فى الآخرة، يتمرسون به ويطالبونه فيأمرهم أبو العلاء أن يكفوا عنه فلا يعنتوه لأنه يمتّ بكتابه فى القرآن المعروف بكتاب الحجة[1].

هذه الأسباب العامة بجانبها أسباب خاصة بأبى على دفعته إلى الاحتجاج للقراءات :

فالرجل عالم بالكتاب أولا[2]. قارىء على أبى بكر بن مجاهد[3]. الذى سبع السبعة ثانياً[4]. مقتف أثر أستاذه أبى بكر محمد بن السرى فى الاحتجاج لسبع ابن مجاهد ثالثاً[5]. ثم هو أخيراً أوتى ضلاعة فى اللغة، والنحو، وتوجيه المعنى، والإعراب، وتمرس برواية الأحاديث، وبراعة فى القياس، وألم فى كتبه السابقة للحجة بطائفة من الآيات القرآنية وجّهَ القراءات المختلفة فيها، فكانت هذه الأسباب مجتمعة داعية لأبى على أن يحتج للقراءات بدل أن تكون مفرقة فى كتبه هنا وهناك[6] : وحكم النظر والقياس دفاعا عن القرآن، ودفعاً للمفترين من المجوس والنصارى واليهود الذين سكنوا فارس[7] الذى نشأ به وعاش الشطر الأكبر من حياته فيه .

وأبو على قصير النفس فى تقديم الحجة ولكنه مع ذلك يجمل منهجه فى الكتاب ويبين الأسباب التى دعته إلى تأليفه فى إيجاز، فبعد أن حمد الله، وصلى على خاتم النبيين، وعلى جميع الأنبياء والمرسلين، وسائر الصالحين قال :

« أما بعد (أطال الله بقاء الأمير الجليل عضد الدولة وتاج الملة وأدام له العزة والبسطة، وأمدة بالتوفيق والتسديد، وأيده بالنصر والتمكين) فإن هذا كتاب نذكر فيه وجوه قراءات القراء الذين ثبتت قراءتهم فى كتاب أبى بكر أحمد بن موسى ابن العباس بن مجاهد (رحمه الله) المترجم بمعرفة قراءات أهل الأمصار بالحجاز

---

(١) رسالة الغفران : ١٥٤ .

(٢) الإمتاع والمؤانسة : ١٣١/١ (٣) انظر طبقات القراء : ٢٠٧/١

(٤) المصدر السابق : ١٢٩/١ (٥) لوحة ٢

(٦) انظر المسائل المنثورة لوحة : ١٥٩،١٥٣ ، والشيرازيات : لوحة ١٨ والعسكريات ١٣٥ ثم الايضاح : ٣٤ ، ٤٣ ، ٦٦ فى توجيهه على التوالى : فما كان جواب قومه إلا أن قالوا بالرفع والنصب (الايضاح ٣٤) وما هو على الغيب بظنين أو بضنين ـ فى باب ظن (٤٣ الايضاح) ـ لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر الإيضاح: ٦٦ نحو ١١٢ :

(٧) أحسن التقاسيم ٤٢٩

والعراق والشام ، بعد أن نقدم ذكر كل حرف من ذلك على حسب مارواه وأخذنا عنه . وقد كان أبو بكر محمد بن السرى شرع فى تفسير صدر من ذلك فى كتاب كان ابتدأ باملائه ، وارتفع منه بعض (كذا) ما فى سورة البقرة من وجوه الاختلاف عنهم ، وأنا أسند إليه ما فسر من ذلك فى كتابى هذا ، وإلى الله نرغب فى تيسير ما قصدته ، والمعونة عليه ، وهو حسبنا ونعم الوكيل[1].

وفى هذا التقديم دلالات ؛ فكتاب الحجة مهدى إلى عضد الدولة ، وإذن فهو مؤلف قبل سنة ٣٧٢ هـ ، وهى السنة التى توفى فيها ذلك المليك[2] . بل يبدو أنه مؤلف بعد سنة ٣٦٧ هـ . وذلك ما يدل عليه لفظ « تاج الملة » ، فقد لقب عضد الدولة به — فيما يقول الذهبى — فى سنة ٣٦٧ هـ[3] . وخوطب بالملك سنة ٣٦٨ هـ على ما يذكر الشيخ ابن العميد[4] . وهى السنة التى لحق فيها أبو على بالخدمة الموسومة به[5]. بعد أن استقر الأمر لعضد الدولة فى بغداد .

ودلالة أخرى فى ذلك التقديم : هى أن أبا على بين منهجه فى الحجة ، فهو يذكر ما ثبت عن ابن مجاهد فى كتابه (قراءات أهل الأمصار) على حسب ما رواه ، وأخذ أبو على عنه ، ثم يذكر كلام ابن السراج فى الاحتجاج ، إلى أن استقل أبو على به . وأرى أبا على قد وفى بهذا النهج غاية الوفاء ، بل أنه ذكر هنا الخطوط الرئيسية من نهجه دون أن يتعرض له بالتفصيل والاستقصاء ، وإليكم ما يبدو للباحث من نهج أبى على فى الحجة بشىء من البيان .

---

(١) الحجة لوحة ٢ (٢) انظر الكامل لابن الأثير : ٩/٢

(٣) تاريخ الإسلام للذهبى حوادث ٣٦٧ هـ

(٤) انظر تاريخ المسلمين للشيخ جرجس بن العميد : ٢٣٧ ، ٢٣٨

(٥) انظر الإمتاع : ١/١٣١

نهج أبي علي في كتاب الحجة

يبدأ أبو علي بنص أبي بكر بن مجاهد فى كتابه القراءات، فيذكر اختلاف القراء فى الحرف الذى يريد الاحتجاج له ، مرتباً ذلك على ترتيب آى القرآن الكريم فى الحروف التى وقع الاختلاف فيها ، ثم يورد كلام أبي بكر بن السراج، ثم ينهى الحكاية عنه ، ثم يصدر احتجاجه بكلمة : « قال أبو على » .

وظل أبو على يصطنع ذلك الأسلوب حتى وصل إلى آخر قوله تعالى : « ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين » ، وبعد هذه الآية يستقل أبو على بالاحتجاج ، فلا يرد ذكر ابن السراج ، وقد عقدت فصلا بينت فيه أوجه التخالف و التشابه بين الشيخين فى الاحتجاج .

ولا يعمد أبو على إلى اللفظ القرآنى ، الذى وقع فيه الاختلاف بين القراء ، فيتحدث عنه محتجاً له ؛ بل يتناول الآية التى وقع فيها ذلك الحرف ، فيتحدث عن التفسير اللغوى لكلماتها ، مستقصياً المعانى التى تحملها هذه الكلمات ، مورداً لكل معنى سنده من القرآن الكريم ، مستدلا بأقوال أئمة اللغة السابقين : التوَّزى ، والجرمى ، وأبى زيد ، وأبى عبيدة ، والسكرى ، وأبى حاتم ، وثعلب .. ومستشهداً بما روى من الشعر ، جاهليه وإسلاميه . وهكذا يمضى فى الشرح اللغوى ، ثم يتبعه بتصريف الكلمة — إن كانت تحتمل التصريف ، ذاكراً الآراء المحتملة ، مستدلا على كل رأى بما لديه من نصوص قرآنية وشعر وأقوال ، ويذكر الرأى الذى يختار ويستدل عليه ، ثم يخلص من ذلك إلى الحديث فيما يتصل بذلك من مسائل النحو، فيذكر آراء أئمة النحاة من أمثال الخليل ، وسيبويه ، والأخفش ، والمازنى ، والجرمى ، والكسائى ، والفراء ، وثعلب ، والمبرد ؛ وينتصر لفريق دون فريق ، ويرى الرأى ويعززه بالأدلة والشواهد من النقل والقياس ، وفى غضون كل بحث من هذه البحوث يستطرد بذكر قضايا ، ويستدل عليها حتى ينتهى من ألفاظ الآية على هذا النحو ؛ لغة ، ونحواً ، وصرفاً ، وتفسيراً ، واحتجاجاً ، وتدليلا ؛ وقد يخلط ذلك كله بمسائل تتصل بالفقه ، والكلام ، والبلاغة .

ثم يعود إلى إعراب الآية ، وقد يذكر شيئاً من الأصول النحوية التى بنى عليها توجيهه الإعرابى .

وبعد هذه الجولة الواسعة المتقصية المستطردة يعود إلى الاحتجاج للقراء ، فيذكر الحجة لكل إمام ، راجعاً كل قراءة إلى أصل من أصول العربية .

ولم تختف شخصية أبى على وراء هذه النقول التى يوردها للأئمة الأقدمين ، من علماء اللغة، والنحو، والصرف، ومنشدى الأشعار ، ونقلةالأخبار ، ورواة الآثار ، بل هو — عند ذلك — يبدو ماثلا من وراء ستار ، ثم يسفر أمامك سفوراً فى تعقيبه ، وتعليقه ، وتحليله ، وتعليله ، وتفنيده ، وتعضيده ، وقياسه ، وتنظيره ، وإغماضه ، وإبهامه ، وتشقيق المقال ، وبسط الجدال ، وتأصيل المذهب ، والمعالنة بالرأى ، ووفرة الاستشهاد ، ونزعة الاستطراد ؛ ويحمل بى أن أعطى مثلا : مثلا واحداً يتبين منه هذا الذى ذكرت :

مثال من استطراده ، واستيعابه ، وتقصيه :

الخطوات التى سلكها فى الاحتجاج لاختلافهم فى قوله تعالى :

« فتلقى آدم من ربه كلمات » برفع الاسم ونصب الكلمات ، ونصب الاسم ورفع الكلمات[1] :

١ — أورد ما ذكر ابن مجاهد فى كتابه القراءات :

(ا) من قرأ بنصب الاسم ورفع الكلمات وذكر أنه ابن كثير .

(ب) من قرأ برفع الاسم ونصب الكلمات وذكر أنهم الباقون .

٢ — ثم بدأ احتجاجه مصدراً كلامه بقوله : « قال أبو على » .

٣ — « لقى » يتعدى إلى مفعول واحد إذا كان غير مضعف .

٤ — واستشهد على هذه القضية بالآيات التى وردت فى التنزيل :

(ا) « فإذا لقيتم الذين كفروا » .

(ب) « إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله » .

(ب) « لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا » .

٥ — إذا ضعفت العين تعدى إلى مفعولين ، وضرب أمثلة ، واستشهد بالآية الكريمة : « ولقاهم نضرة وسرورا » .

٦ — ليس تضعيف العين هنا على حد : فرح وأفرحته وفرحته ، وخرج وأخرجته وخرجته .

---

(١) الحجة :١٩/٢٠ نسخة البلدية ، ٣١٦/١ نسخة مراد ملا .

٧ — أخذ يدلل على هذه القضية :

إذا قلت ألقيت كذا فليس بمنقول من لقيته ، كأشربته من شربته .

٨ — ثم دلل على عدم نقله من لقيته بأنه لو كان كذلك لتعدى إلى مفعولين كما تعدى لقيت ، فلما لم يتعد إلى الثانى إلا بحرف الجر نحو : ألقيت متاعك بعضه على بعض ، علمت أنه استئناف بناء على حده ، وليست الهمزة همزة نقل ، كالتى فى قولك : ضربت زيداً وأضربته إياه . . . فجعلوا ألقيته بمنزلة طرحته فى تعديه إلى مفعول واحد .

٩ — ثم تحدث عن مصدر لقيت ناقلا كلام أبى زيد فى ذلك .

١٠ — وجره ذلك إلى التحدث عن الآية :

« إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا .

فذكر أن المعنى بالحياة الدنيا ؛ بدلا من الآخرة .

١١ — وأكد تفسيره ذلك ، بالآية الكريمة الأخرى :

(ا) « أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة » أى بدلا منها .

(ب) وبالآية : « لو نشاء لجعلنا منكم ملائكة فى الأرض يخلفون » أى بدلا منكم .

١٢ — وناظر الآيات السابقة كلها : « إن الذين لا يرجون لقاءنا . . . » و « وأرضيتم بالحياة . . » و « لو نشاء لجعلنا منكم . . » بالآيات الكريمة :

(ا) « إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين » .

(ب) « إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء ، كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين . »

(ج) وقول الراعى :

«أخذوا المخاض من الفصيل غُلُبَّةً ظلماً ، ويكتب للأمير أفيلا » .

(د) وقول الآخر :

كسوناها من الريط اليمانى ملاء ، فى بنائقها فضول

أى بدلا من الريط .

١٣ — ثم عاد إلى تفسير الرجاء فى الآية : « لا يرجون لقاءنا » ففسر لا يرجون بلا يخافون ، ودلل على ذلك :

(ا) بدليل عقلى : لأنهم لا يؤمنون بها ، فلا يوجلون منها كما يوجل المؤمنون المصدقون بهـا المعنيون بقوله تعالى : « إنما أنت منذر من يخشاها » .

(ب) وبالدليل النقلى خليطاً بالعقلى : « إنمـا أنت منذر من يخشاها » ، وقال : « وهم من الساعة مشفقون » .

ويرتب على هذه المقدمات النتيجة الآية حيث يقول :

فيكون الرجاء هنا الخوف كما قال : « لا ترجون لله وقارا » وكما قال : « إذا لسعته النحل لم يرج لسعها » .

١٤ — ثم ذكر معنى آخر للرجاء ، وهو الرجاء الذى خلافه اليأس .

واستشهد على ذلك بقوله تعالى : « قد يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور » .

١٥ — وذكر المحذوف فى الآية وقدَّره : « كما يئس الكفار من أصحاب القبور من الآخرة » وذكر علة المحذوف ، وأنها تقدم ذكر المحذوف .

١٦ — وقاس الحذف فى هذه الآية على قوله : « يوم تبـدل الأرض غير الأرض والسموات » ، حيث حذف المتأخر لدلالة ماتقدم عليه .

١٨ — ثم قدر محذوفاً آخر فى الآية : « كما يئس الكفار . . . » لجعل اليأس من الحشر لا من الآخرة على حذف مضاف ويكون التقدير : كما يئس الكفار من حشر أصحاب القبور .

١٨ — وناظر هذا الشرح فى تلك الآية بقوله تعالى :

(ا) « وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة ، أو نرى ربنا » .

(ب) « قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله »

(ج) « بل هم بلقاء ربهم كافرون » .

مفسراً لقاء الله فى هذه الآيات بالبعث .

١٩ — واستشهد على ذلك التفسير بقوله تعالى : « بل كانوا لايرجون نشورا » .

وقوى رأيه بقول الله تعالى : « حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة » .

٢٠ — وأسلمه الكلام على معنى اللقاء فى الآيات السابقة إلى ما يلقون فى قوله

تعالى : « تحيتهم يوم يلقونه سلام » وذكر أنه على معنى يوم يلقون ثوابه ، إذ هم على العكس من أولئك الموصوفين بقوله تعالى : « فسوف يلقون غياً » .

٢١ — وشرح حال هذين الفريقين : يلقى أحدهما الثواب ، ويلقى الآخر العقاب بقوله تعالى :

« الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم » ، أى ملاقو ثواب ربهم .

خلاف من وصفوا بقوله : « لايقدرون على شىء مما كسبوا» . وقوله : « حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً » ، ونحو ذلك مما يدل على إحباط الثواب .

٢٢ — ثم مضى يشرح قوله تعالى : « وأنهم إليه راجعون » بأنهم يصدقون بالبعث ولا يكذبون به ، مستدلا بقوله تعالى فيما حكى عن المنكرين له فى نحو « أإذا متنا وكنا تراباً وآباؤنا أئنا لمبعوثون » ، ونحو قولهم فيه : « إن هذا إلا أساطير الأولين» .

٢٣ — ثم رجع يفسر الظن ها هنا بالعلم وفى قول المؤمن : « إنى ظننت أنى ملاق حسابيه » .

٢٤ — ثم فرق بين معنى الظن فى الآيتين : فنى الآية الأولى : « الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم » أى ثوابه قال : « يجوز ألا يكون منهم القطع على ذلك والحتم به مستدلا بقول ابراهيم :

« والذى أطمع أن يغفرلى خطيئتى يوم الدين . . . » وأما الظن فى الآية الثانية : « إنى ظننت أنى ملاق حسابية » فلا يكون إلا على العلم والتيقن مستدلا بدليل عقلى أو عقيدى إذ يقول : « لأن صحة الإيمـان إنما يكون بالقطع على ذلك والتيقن به ، والشاك فيه لا إيمان له » .

٢٥ — ثم عاد بعد هذا التشقيق إلى النقطة التى بدأ منها ، وقد بعد عنها — عاد إلى « لقيته ولاقيته » ، وضرب الشواهد :

(ا) من القرآن الكريم على لاقيت : « واعلموا أنكم ملاقوه » والذين يظنون أنهم ملاقو ربهم . وعلى لقيت : « وإذا لقوا الذين آمنوا » .

(ب) وبالشعر : « يانفس صبراً كل حى لاق » أى لاق منيته وأجله .

(١) فلاقى ابن أنثى يبتغى مثل ما ابتغى
من القوم مسقى السمام حدايده

(٢) وكان وإياها كحران لم يفق
عن المـاء إذ لاقاه حتى تقددا

٢٦ — ثم جره التحدث عن الفعلين : لقى ولاقى إلى التحدث عن مصدرهما المضاف مستشهداً بقوله تعالى : ولقد آتينا موسى الكتاب فلا تكن فى مرية من لقائه .

٢٧ — وهل الإضافة فى لقائه : (ا) من اضافة المصدر إلى المفعول ؟

(ب) ومن إضافة المصدر إلى الفاعل ؟

وجوّز الأمرين :

٢٨ — وضرب أمثلة لإضافة المصدر إلى المفعول بقوله تعالى :

« بسؤال نعجتك إلى نعاجه » ، « وهم من بعد غلبهم سيغلبون » لأن الضمير للروم وهم المغلوبون .

وفسر الاضافة إلى المفعول فى قوله : « فلا تكن فى مرية من لقائه : بفهم الرسول ما ورد فى القرآن الكريم كأنه قيل فخذها بقوة أى بجد اجتهاد أعلمنا أنه أخذ بما أمر به وتلقاه بالقبول فالمعنى من لقاء موسى الكتاب فأضيف المصدر إلى ضمير الكتاب .

ووجه ذلك بقوله : وفى ذلك مدح له على امتثاله ما أمر به ، وتنبيه على الأخذ بمثل هذا الفعل كقوله : « اتبع ما أوحى إليك من ربك» «وإذا قرأناه فاتبع قرآنه» .

ويجوز أن يكون الضمير لموسى فى قوله من لقائه ، ويكون الفاعل محذوفاً ، والمعنى من لقائك موسى ، ويكون ذلك فى الحشر ، والاجتماع للبعث، أو فى الجنة ، فيكون كقوله ، فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها .

وفسر الاضافة إلى الفاعل بتجويز أن يكون الضمير لموسى والمفعول بمحذوفه وضرب لذلك أمثلة :

(ا) إن تدعوهم لا يسمعون دعاءهم . « فالدعاء مضاف إلى الفاعل والمفعولون محذوفون .

(ب) لمقت الله أكبر من مقتكم .

٢٩ — ثم انتهى من ذلك كله إلى مقايسة الاضافة فى قوله « فلا تكن فى مرية من لقائه » فى حال إضافة الضمير إلى موسى ، بقوله تعالى : فتلقى آدم من ربه كلمات » ، لأن موسى هو اللاقى كما أن آدم هو المتلقى .

٣٠ — ثم فسر التلاق فى قوله تعالى : لينذر يوم التلاق بأن يكون يوم تلاقى الظالم والمظلوم ، والجائر والعادل، وتلاقى الأمم مع شهدائها كقوله : ونزعنا من كل أمة شهيداً .

وشبه التلقى هنا بالجمع فى قوله تعالى : « يوم يجمعكم ليوم الجمع » وفى قوله : « ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه » ونحو ذلك من الآى .

٣١ — ودفع التوهم الذى قد يسبق إلى الذهن بأن يوم القيامة فيه التفرق لا الجمع بأن ذكر أن التفرق فى قوله : « ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون » تفرق بعد الاجتماع ، والتلاقى الذى أضيف اليوم إليهما ، وذلك بعد الأخذ للمظلوم من الظالم ، وأيد ذلك بقوله تعالى :

« فريق فى الجنة وفريق فى السعير » .

٣٢ — ووفق بين الفرار فى قوله تعالى : «يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه» ويوم الجمع ويوم التلاقى بأن ليس المراد بالفرار المضاف إليه اليوم الشراد ولا النفار ، وأنت قد تقول لمن تكلم فررت مما لزمك ، لا تريد بذلك بعاداً فى المحل . وشرح الفرار فى هذه الآية : « يوم يفر المرء من أخيه ... يعنى : « يوم يفر المرء من موالاة أخيه ، أومن نصرته ، أو من مساءلة أخيه واستدل على كل بالقرآن الكريم .

(ا) فالفرار من الموالاة : يدل عليه قوله : « إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا »

(ب) والفرار من النصرة : على حد ما كانوا يتناصرون فى الدنيا فيدل عليه قوله . يوم لايغنى مولى عن مولى شيئاً إلا من رحم الله .

(حـ) والفرار من المساءلة : يدل عليه قوله : ولا يسأل حميم حميما .

٣٣ — وإذ قد فسر الفرار بأنه ليس المراد به الشراد ولا النفار دفع قراءة من قرأ يوم التناد وكان القارىء اعتبر يوم يفر المرء من أخيه فجعل التناد تفاعلا من ند البعير إذا شرد ونفر — بقوله : « وليس ذلك بالوجه » وعلل عدم وجاهة هذا الرأى بقوله :

(ا) ألا ترى أنه لايسهل نددت مما لزمك ، ولانااددت منه كما تقول : فررت منه

(ب) ونرى سيبويه يستعمل فى هذا المعنى فر كثير ولا يستعمل ند .

(ح) التنادى الذى عليه الكثرة والجمهور يدل عليه قوله :

١ — يوم يدعو الداعى إلى شىء نكر ٢ — يوم ندعو كل أناس بإمامهم

٣ — يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده . فالتنادى أشبه بهذه الآى .

وعلل لهذه القضية فقال :

ألا ترى أن الدعاء والنداء يتقاربان . واستشهد بقوله تعالى :

١ — إذ نادى ربه نداء خفيا .

٢ — فنادته الملائكة وهو قائم يصلّى فى المحراب .

فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر .

فقد استعمل كل واحد من النداء والدعاء فى موضع الآخر ، وليس التناد والفرار كذلك .

٣٤ — وبعد أن انتهى من بحث لنى — وما استطرد إليـــه — خلص إلى الحديث عن الكلمات فى قوله تعالى : « فتلقى آدم من ربه كلمات »

فذكر أنها جمع كلمة ، والكلمة اسم جنس لوقوعها على الكثير والقليل .

ومثل لوقوعها على الكثير :

قال امرؤ لقيس فى كلمته   أى قصيدته

وقال قيس فى كلمته   يعنون خطبته

وقال ابن الأعرابى . لفلان كلمة شاعرة أى قصيدة .

وأما وقوعها على القليل : فان سيبويه أوقعها على الاسم المفرد ، والفعل المفرد، والحرف المفرد وناظر الكلمة بالليل ، واستشهد بالقرآن الكريم على وقف الليل على الكثير بقوله تعالى : وجعلنا الليل لباساً « ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ، ولتبتغوا من فضله » .

ومن وقوع الليل على القليل وهو مادون ليلة قوله تعالى : وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل .

ثم ذكر استعمال سيبويه للكلام ، ودلل عليه ، وذكر أنه على هذا الذى استعمله سيبويه جاء التنزيل . وذكر الدليل من القرآن الكريم :

٣٦ — ثم أخذ يفسر الكلمات المذكورة فى قوله « فتلقى آدم من ربه كلمات » مستشهداً بما فسره المفسرون ، وبأقوال بعض السلف من المسلمين .

٣٧ — ثم انتقل إلى بيان المراد من الكلمات فى قوله تعالى « وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن » وحمل على قوله تعالى : « وصدقت بكلمات ربها » أى (بالشرائع فأخذت بها) .

٣٨ — ثم بين أن من الكلم ما يحمل على أنه قول فى قوله تعالى :

(ا) إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته يعنى بها قوله والله أعلم . (خلقه من تراب ، ثم قال له كن فيكون)

(ب) « وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا » يعنى بها قوله والله أعلم :

« ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض » .

(ح) وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا هو كقوله : « ما يبدَّل القول لدَىَّ » .

(ى) وألزمهم كلمة التقوى أى شرائعه التى أمروا بالأخذ لها ، والتمسك بها . أو لا إله إلا الله .

٣٩ — ثم ساقه الحديث إلى إعراب (من الذين هادوا) فى قوله تعالى : والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيرا من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه . وربط الإعراب بالمراد من التحريف فى قوله : يحرفون الكلم كأنه قال:

« سماعون محرفين الكلم » أو المراد بالتحريف ما كانوا يقصدونه فى قولهم : راعنا من السب ، وخلاف ما يقصد المسلمون » .

٤١ — ثم انتقل إلى استعمال الكلام فى موضع النطق واستشهد .

٤١ — وأخيراً — وبعد هذه الجولة الواسعة — انتقل إلى الاحتجاج على الرفع والنصب فى كلمات آدم وكلمات . ومضى فى احتجاجه على هذا النحو من الاستطراد ، وذكر أقوال الأئمة للتدليل والاستشهاد ، وترجيح بعض هذه الأقوال على بعض .

ذلكم نهج أبى على فى الحجة ، وهو نهج فيه ثقافة عربية عالية ، ومعرض لعقلية

أبي علي وشخصيته ، ولكنه معرض مرهق ، وميدان ، يجهد من يطوف به أو يسير فيه :

مرهق بذلك الاستطراد الذى يسلك من موضوع إلى موضوع حتى ليغيب عنك الموضوع الأصلى الذى عقد من أجله الحديث ، وقد كنت فى أغلب الأحيان أود التعرف على حجته لقراءة من القراءات فلا يتيسر لى ذلك إلا بعد عناء ، ومرور بما قال فى الآية من مسائل نحوية ، ولغوية ، وصرفية ، وكثير منها لايتصل إلا اتصالا خفياً من بعيد ، ولولا الاستطراد ماوردت هذه المسائل فى مواضعها من الكتاب .

ويجهد بحشده الآراء المختلفة للنحاة الذين سبقوه ، ومناقشة كل رأى مناقشة تقوم على مزج مسائل النحو بمسائل المنطق فى عسر ، وإرهاق ، وتعقيد فى التعبير .

والقارئ لحجة أبى على لابد أن يكون متأنياً واعياً : لأن الشيخ يكتب بعقله ، يقايس ويناظر ، ويعلل حتى يثقب الخردل ، ويدلل ، ويستطرد حتى لكأنه يشقق الشعرة ولكل كلمة موضعها ، ولها ميزانها .

وتتخلل كتاب الحجة فلا تجد من كلام الشيخ إلا القليل ، والكثير نقول من كلام الله ، والشعراء ، ونصوص من كتب النحاة — وبخاصة سيبويه — وشواهد نظمها نظما عجيباً ، وقرن بينها فى ترابط وتداع ، واستغل كل أولئك فيما هو بصدده من من حديث ، فبدت هذه النقول جميعاً — وحدة متماسكة يشد بعضها بعضاً ، أو يناظر بعضها بعضاً ، أو يتخالف بعضها مع بعض . وهى فى تناظرها وتخالفها وتآلفها كالبنيان المرصوص .

فإذا أردت التعليل لنزعة الاستطراد عند أبى على وجدت من أسبابها :

(أولا) : ما شاع فى كتب المشتغلين بالعلم فى هذا الزمان الذى عاش فيه أبو على ، والذى سبقه من لدن الجاحظ ، وابن قتيبة ، إلى أبى حيان التوحيدى المعاصر لأبى على .

ومما لاشك فيه أن كتب الجاحظ كانت شائعة متداولة زمن الفارسى ، ونجد ابن جنى فى الخصائص يناقش الجاحظ[1] . وهذا عبد الله بن حمود أبو محمد الزبيدى

---

(١) الخصائص : ١/١٩٢، ١٩٧

الأندلسى تلميذ الفارسى كان مغرى بكلام الجاحظ حتى أنه « رضى بكتبه فى الجنة عوضا عن نعيمها[١] !! » .

وكان الميدان الذى يعمل فيه أبو على ميداناً جافاً : ميدان النحو والصرف ، والتوجيه الإعرابى، والتدليل المنطق ، فاذا أضيف إلى ذلك أسلوب أبى على وطريقته فى التدليل ، وإيثاره التطويل، كان العناء الذى يحسه القارىء لكتابه الحجة ، فتجاوز بذلك حاجة القراءة إلى مايجفو عنه كثير من العلماء[٢] . وحتى منع كثيراً ممن يدعى العربية — فضلا على القراءة — منه ، وأجفاهم عنه[٣] .

ومن المهم أن أبين أن هذه النزعة بلغت أشدها فى الأجزاء الأولى من الكتاب

ثم أخذت تتناقص تدريجياً ، ولعل السبب فى ذلك أنه كان يحيل إلى النظائر السابقة دون ميل إلى التكرار[٤] .

(ثانياً) : يبدو أن أبا على — وقد جاء بعد أستاذه ابن السراج — أراد أن يفيض بما عنده من علم وثقافة فى الاحتجاج ، حتى يظهر فرق مابين الرجلين، والمدى الشاسع بين النزعتين ، وتلك كانت سنة أبى على مع المعاصرين[٥] .

(ثالثاً) الجو الذى ألف فيه أبو على كتابه الحجة ؛ فهو كما استظهرت آنفا ألَّفه بعد أن استقرت الحال بعضد الدولة ، ومن هنا كان الدرس المتأنى المتقصى ، المستوعب، الجامع لثقافة العمر .

هذا الأسلوب من الإغماض والإبهام ، وهذه النزعة من الإطالة والاستقصاء أغضبت القراء ، وأجفتهم عن الحجة ، وإذا كان ابن الشجرى يقرر أن أبا على يفسر أحياناً فيزيد تفسيره إشكالا[٦] . وأنه أحياناً يلغز فيبهم[٧] . فماذا يكون موقف القراء؟

---

(١) بغية الوعاة : ٢٨٢
(٢) المحتسب : ٦٠
(٣) المحتسب : ١/٢٨٨ ، وانظر المحتسب أيضاً : ١/٤٠٠-٤٠١ ، ٢/٢٢٦-٢٦١
(٤) يشير أبو على كثيراً إلى ما تقدم كقوله : « قد قلنا فيما تقدم فى الذرية أن يكون واحداً وجمعاً : الحجة : ٤/٥٧ ، وكقوله فى : تأتيهم الملائكة بالياء والتاء » وقد تقدم هذا النحو فى غير موضع انظر الحجة : ٤/١٣٣ — وفى تحقيق الهمزتين يقول : وقد تقدم القول فى أوائل هذا الكتاب : ٤/٢٨٩ وانظر الحجة : ٦/٣٥،٣٦ ، ٤٠ ، ٧٩ ، ٩٦،١٣١ . ن البلدبة
(٥) انظر فى ذلك الحديث عن الاغفال
(٦) امالى ابن الشجرى : ١/١٨٢
(٧) المصدر السابق : ١/٣١٧

وقد رمى ابن خالويه أبا على بأنه لايفهم أحد ما يقول[١] . ولم يشأ أبو على أن يتنصل من هذه ، بل أقرها معتزاً بها .

وجاء الحجة بهذا بعيداً عن الأسلوب العلمى بما شاع فيه من إبهام ، وما غشيه من تكلف واستطراد ، ويبدو أن أبا على لم يرزق حظاً من البيان ، فكان أسلوبه مهلهل النسج ، ضعيف الأسر فاستمع إليه — مثلا — حين يقول :

رأينا الحركات إنما تلقى على الحروف التى تكون قبل الحروف التى تنقل منها ، ولا تنقل إلى ما بعد الحروف المنقولة منها الحركة[٢]

أو يقول فى شرح البيت :

فَلَكٌ باللِّيط الذى تحت قشرها .

« فلك بالقشر الذى فوق القلب الذى تحت القشر ليصون القشر القلب فلا ينشق[٣] وقد أصلح ابن جنى ما أفسد الشيخ ، فجعل المحتسب سمحاً مقرباً على أهل القرآن ليحظوا به ولا ينأوا عن فهمه[٤] ، ولا يلطف عنهم[٥] .

تفسير أبى على للقرآن الكريم فى كتابه الحجة

رحل أبو على من بلاد فارس إلى بغداد على ما استظهرته ، وما يرويه المترجمون سنه ٣٠٧ هـ[٦] . وإذا كان ابن جرير الطبرى مات ببغداد سنة ٣١٦ هـ على ما يرويه ياقوت فى رأى ، وسنة ٣١١ على ما يرويه فى رأى آخر ، فقد أدرك أبو على الطبرى شيخ المفسرين مدة لا تقل عن أربع سنوات ، وقد تصل إلى تسع .

* * *

ولم يعرف أن أبا على تلمذ لابن جرير الطبرى ، فلم يذكر واحد من المؤرخين ذلك ، ولكن كانت هناك صحبة بين الطبرى ، وأبى بكر بن مجاهد ، شيخ أبى على فى القراءات

---

(١) الحلبيات : ٣٨ ورقة ٥ نحو

(٢) الحجة : ١/٢٦٠ مراد ملا (٣) الحجة : ١/٨٢٦ مراد ملا والبيت لأوس ابن حجر يصف قوساً ترك صانعها شيئاً من القشر على قلبها تماسك به ويكنها لئلا يبدو قلب القوس فينشق.

(٤) المحتسب : ١/٦ (٥) المصدر السابق : ١/٢٨٨

(٦) وفيات الأعيان : ١/٣٦

وكان أبو بكر معجباً بالطبرى أخذ القراءات عنه وكان لا يجرى ذكره إلا فضله[١]، ويروى عنه[٢] ، ويثنى على قراءته[٣] ويصحر معه للطعام والترويح[٤] . وقد أدرك أبو على ابن مجاهد المتوفى سنة ٣٢٤ هـ ، وروى عنه القراءة عرضاً [٥] وربما كانت هذه الصلة بابن مجاهد الذى كان ذا مودة مع ابن جرير الطبرى ـ بعض مادفع أبا على إلى التحدث فى التفسير ، وابن مجاهد هو الذى نقل عن الطبرى قوله :

« انى أعجب بمن قرأ القرآن ولم يعلم تأويله كيف يلتذ بقراءته[٦] إلى جانب هذا الدافع دوافع أخرى دفعت أبا على إلى التفسير فى كتابه الحجة أجملها فيما يلى :

(ا) أبو على يتعرض فى كتابه الحجة الى الإعراب ، والإعراب فرع المعنى ، واذن كان لابد أن يلم أبو على بالتفسير معرباً حتى يوجه الإعراب مرتباً اياه على معنى الآية المعربة .

(ب) ثم أن أبا على موجه للقراءات ، والتوجيه يتطلب التفسير ، ذلك لأن الاحتجاج للقراءات يعتمد فيما يعتمد على شرح الآيات ، وتفسير المراد من الألفاظ التى وقع فيها الاختلاف عند القراء .

(حـ) إلى أن نزعة الاستطراد التى عرف بها أبو على ، والتى جرته إلى تناول مسائل مختلفة — دفعته إلى أن يتناول فيما تناول — التفسير .

(ء) وقد تحدث القدامى فى وجوب معرفة النحوى علم الكتاب، والسنة، والإبقى فارغا بطالا لعابا[٧]

(هـ) وأبو على بعد **ذلك** متبحر فى المواد التى بها يكون التفسير ، وقد عدها صاحب البحر المحيط فى تقديم كتابه[٨] .

* * *

---

(١) معجم الأدباء : ٦٦/١٨

(٢) المصدر السابق : ٦٣

(٣) معجم الأدباء : ٦٦/١٨

(٤) المصدر السابق : ٩٠/١٨

(٥) طبقات القراء : ٢٠٧/١

(٦) معجم الأدباء : ٦٣/١٨

(٧) بيان زغل العلم والطلب لشمس الدين الذهبي : ١٩

(٨) انظر البحر المحيط لأبي حيان ١ ص ٥ وما بعدها

ولم أر لأبى على كتاباً بعينه فى التفسير ، وإن كان صاحب كشف الظنون عند الـكلام على التفسير — ذكر جماعة من المفسرين الأقدمين ثم قال :

ثم انتصبت طبقة إلى تصنيف تفاسير مشحونة بالفوائد محذوفة الأسانيد مثل أبى إسحق الزجاج، وأبى على الفارسى[١]

* * *

ولم يذكر الداودى المالكى أبا على فى طبقات المفسرين ، على أن الرضى قد مدح أبا على فى تفسيره الموسوم بحقائق التأويل، وتعصب له[٢] .

والذى ذكره الوراقون المترجمون متصلا بعمل أبى على فى التفسير[٣] كتابان .

أحدهما : كتاب التتبع لـكلام أبى على الجبائى فى التفسير نحو مائة ورقة .

والآخر : كتاب تفسير قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة[٤] » :

ولا أعد كتاب الأغفال لأبى على — من كتب التفسير فهو خاص بمسائل أصلحها على الزجاج فى معانى النحو على ما استظهرته فى مكان آخر[٥] .

ولئن فاتنى الاطلاع على ما كتب أبو على فى التفسير مستقلا — إن كتاب الحجة يغنى فى التعرف على منهجه فى التفسير أيما غناء .

والـكلام على منهج أبى على فى التفسير يتناول عنصرين :

(ا) طريقته فى شرح غريب القرآن ومكانته فى ذلك بين من سبقوه وبخاصة أبو عبيدة فى مجاز القرآن، وابن قتيبة فى غريب القرآن، وتأويل مشكله . وأبو بكر محمد بن عزيز السجستانى .

(ب) ثم طريقته فى تناول « النص القرآنى » بالتفسير .

---

(١) كشف الظنون باب التفسير (٢) أعيان الشيعة : ٢١/٢٩

(٣) هذا يرد كلام الشيخ منير الدمشقى فى كتابه جامع علوم الشريعة من أن أبا على الفارسى لم يؤلف تفسيراً، ولا أحد ذكر له فى ترجمته شيئاً فى التفسير .

(٤) معجم الأدباء لياقوت : ٧/٢٤١ (٥) انظر البحث الخاص بكتاب الاغفال

تفسير أبي على لغريب القرآن

فى كتابه الحجة ومكانته من أبى عبيدة ، وابن قتيبة ، وأبى بكر السجستانى

وأبو على فى ذلك يستعرض المادة التى هو بصدد شرحها فى آياتها القرآنية ، وما يحفظه من الشعر ، وكلام العرب ، وما نقله أو رواه عن الأئمة السابقين ، ثم يجعل من كل أولئك وحدة يفسر بعضها بعضاً ، ويستعين ببعضها على بعض ، فى استطراد يخرج فيه من قول إلى قول ، وربما مزج الحديث عن الغريب بالتعريف ، ويعقب على ذلك كله مؤيداً بعض الأئمة أو معارضاً ، مستغلا مسائل المنطق وقضاياه فى تفسير الغريب القرآنى .

وهو يعتمد غالباً فى التفسير اللغوى على سيبويه[1] ، وأبى زيد[2] ، والأخفش وأبى عبيدة[3] ، وأحمد بن يحي ثعلب[4] .

فأين أبو على بعد ذلك من أبى عبيدة ، وابن قتيبة ، وأبى بكر السجستانى * ؟ .

أبو على يروى ما يقول أبو عبيدة ، وربما أورد ما يقول ابن قتيبة من غير أن يشير إليه — وهو بعد ذلك — يزيد برواية أقوال سيبويه ، وأبى زيد ، والأخفش وغيرهم من الأئمة ، واستشهاده بأحمد بن يحي كثيراً ، وحديثه فى مسائل التصريف والنحو ، ويمزجه كل ذلك بالقياس : ثم هو لا يروى ما يقول أبو عبيدة ، أو ابن قتيبة حسب ؛ بل يناقش ، ويرد ما قال أبو عبيدة إلى الأصول التى استق منها[5]

---

(١) انظر الحجة (نسخة البلدية) : ١/١٦٩

(٢) المصدر السابق : ١/٢٠٣ (٣) نفس المصدر : ١/١٦٩

(٤) الحجة (نسخة البلدية) : ١/٢٣٠

*حاشية : اخترت هؤلاء العلماء فى الموازنة بين طريقتهم ، وطريقة أبى على لما يأتي : أنهم يلقون ضوءاً على تطور القاموس القرآني منذ القرن الثانى حتى القرن الرابع : فأبو عبيدة يمثل القرن الثاني؛ إذ توفى سنة ٢١٠ وقد قارب المائة ،وألف كتابه سنة ١٨٨ هـ(انظر معجم الأدباء : ١٩/١٠٨) وابن قتيبة يمثل القرن الثالث إذ توفى سنة ٢٧٦ هـ والسجستاني يمثل أوائل القرن الرابع توفى سنة ٣٣٠ هـ

(٥) الحجة مراد ملا : ١/٢٠٤

أبو عبيدة فى شرحه للغريب يستشهد بالقرآن الكريم ، وبالحديث الشريف ، ثم يتبعهما بالشاهد الشعرى القديم ، أو بكلام العرب الفصيح ، وهو فى ذلك قصير النفس لا يبلغ مبلغ أبى على ، ثم هو لا يلتزم ذلك فى كل الألفاظ .

وابن قتيبة فى الغريب أقصر من أبى عبيدة نفساً ، وأما أبو بكر السجستانى فهو يقتصر — فى الأعم الأغلب — على شرح الألفاظ بمرادفها من غير أن يعنى بتأييد ما يقول بالشواهد .

ويطول بى الحديث لو استشهدت على هذه الخصائص من كلام هؤلاء الأعلام ، ولكنى أضرب مثلا واحداً فى شرح كل منهم لكلمة هدى للمتقين ؛ فهو يكشف عن اتجاه كل ، ومنهجه ، ثم أتتبعه بما أرى من تعليق .

قال أبو عبيدة : هدى للمتقين أى بياناً للمتقين اهـ [1]

وقال ابن قتيبة : هدى للمتقين أى رشد لهم إلى الحق اهـ [2]

وقال أبو بكر السجستانى : هدى أى رشد اهـ [3]

فماذا أورد أبو على ؟ : أورد ما قال سيبويه . « قلما يكون ماضيه أوله من المصدر منقوصاً ؛ لأن فُعَل لا تكاد [4] مصدراً من بنات الياء والواو ا . هـ .

وقال أيضاً : « قد جاء فى هذا الباب يعنى باب اعتلال اللام — المصدر على فعل قالوا هديته هدى ، ولم يكن هذا فى غير هدى »

ثم برهن على ما قال سيبويه مستشهداً ومعلقاً ، وانتهى إلى أن الهدى والسرى والتقى — وفى التنزيل إلا أن تتقوا منهم تقاة — يكون هـــذا النحو قد استغنى به عن المصدر كما قالوا : « هو يدعه تركا شديداً »

ثم أورد اعتراضاً هو: لم لا يجعل تقاه فى الآية مثل رماه ، فيكون حالا مؤكدة ؟ ورد هذا الاعتراض .

ثم استشهد بقول أبى عبيدة السابق فى تفسيره هدى للمتقين ، ثم أورد قول أبى الحسن فى أن من العرب من يؤنث الهدى .

---

(١) مجاز القرآن لأبي عبيدة : ٢٩ (٢) غريب القرآن — القرطين : ١١

(٣) غريب القرآن للسجستاني : ١٩٠ ط صبيح

(٤) كذا — ولعل تجىء ساقطة .

ثم بين أن الفعل من الهدى متعد إلى مفعولين — يتعدى إلى الثانى منهما بأحد حرفى جر : إلى واللام ، واستشهد من القرآن الكريم .

وقايس ذلك بالفعل أوحى ، واستشهد كذلك[١] . . .

وقد رأيته فى التفسير اللغوى يعتمد على ماذكر ابن عباس ، وابن مسعود ، وقتادة ، وعلى ما حدث به عن شيوخه[٢] ، ذلك فوق نزعته فى التحليل والتشقيق .

فإذا كان من نعرف ممن سبق أبا على من أمثال ابن عباس ، وأبى عبيدة ، وابن قتيبة . . . يمثلون مدرسة الرواية فى اعتمادها على المأثور من الحديث والشعر فإن أبا على — فى شرحه اللفظ القرآنى — يمثل مدرسة التحليل الدقيق العميق فى شمول واستيعاب .

وأقصد بالتحليل الدقيق مايقوم به من الحديث عن تصريف الكلمة ، وإعرابها بموازنة بين الأقوال المختلفة ، وترجيح بعضها على بعض ، وإيراد الاعتراضات وردها وتقليب اللفظ القرآنى على وجوهه فى معانيه التى يحتملها والتوفيق بين معان نرى النظرة العابرة أنها متدافعة متضاربة .

وأود ألا يفهم من لفظ الاستيعاب والشمول أنه شرح جميع الغريب من الألفاظ القرآنية كما فعل أبو عبيدة ، وابن قتيبة ، والسجستانى ، فإن هـــذا المعنى لا يستقيم مع اقتصاره على الغريب من الآيات التى وردت فيها قراءات مختلفة . وإنما أقصد بالاستيعاب والشمول هـذا النهج الواسع النطاق ، البعيد المدى ، المتعدد الجوانب على ما شرحت آنفاً .

(ب) ثم أنتقل بعد ذلك إلى بيان طريقة أبى على فى تفسيره النص القرآنى فى كتابه الحجة .

يسلك أبو على بعض الطرق الآتية فى تفسيره :

(١) تفسير القرآن بالقرآن : وملاك ذلك أن القرآن كالشىء الوحد[٤] وأن مجازه مجاز سورة واحدة ، وكلام واحد ، فقد يجىء الشىء منه فى سورة ويجىء

(١) الحجة : ١/١٢٠ (٢) انظر تفسيره طبقاً عن طبق ـ الحجة : ٧/٢٥٧ ن البلدية ، وانظر تفسيره لهو لحديث ٦/١٢٦

(٣) انظر فى ذلك شرحه للكلمات الكفر : الحجة ١/١٦٦ صراط ملا وسواء ١/١٦٨ وختم : ١/٢٠٨ والنبأ : ١/٣٠٢ وآدم : ١/٣٠٨

(٤) الحروف للرماني: لوحة ١٤

جوابه فى سورة أخرى كقوله : « وقالوا مجنون وازدجر » فجاء جواب ذلك فى سورة أخرى : فقال: « ما أنت بنعمة ربك بمجنون[١] »

وقد جعل ابن تيمية أحسن طرق التفسير ، « أن يفسر القرآن بالقرآن[٢] »

وأبو علي يستغل ذلك الطريق بما يدل على يقظة بعيدة ، واستحضار سريع تتداعى عنده الأشباه والنظائر ، ويدفع مايوهم التضاد والضرائر — فى موالاة ، وحفظ جيد للقرآن الكريم :

قال فى تفسير قوله تعالى : « يوم يفر المرء من أخيه » :

يعنى يوم يفر المرء من موالاة أخيه ، أو من نصرته ، أو من مساءلة أخيه

(ا) فالفرار من الموالاة يدل عليه قوله : « إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا .

(ب) والفرار من النصرة على حد ما كانوا يتناصرون فى الدنيا فيدل عليه قوله : « لا يغنى مولى عن مولى شيئاً ولاهم ينصرون إلا من رحم الله »

(ج) والفرار من المساءلة يدل عليه قوله : « ولا يسأل حميم حميا[٣] »

وانظر تفسيره الرجاء فى قوله تعالى : « لا يرجون لقاءنا[٤] »

ومن تداعى الأشياء عنده إيراده الآيات القرآنية التى تتضمن مادة واحدة مثل الآيات المتضمنة مادة (النبأ) : « عم يتساءلون عن النبأ العظيم » ، « ونبئهم عن ضيف إبراهيم » ، « ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر » ، « أنبئونى بأسماء هؤلاء » ، « يا آدم أنبئهم بأسمائهم[٥] » . . .

ومن دفعه ما يوهم التضاد قوله : « فأما جمع من جمع بين قوله تعالى « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب » وبين الآية الأخرى وهى قوله : « إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم » وقوله انهما متدافعان ؛ لأن الوجل خلاف الطمأنينة — فجهل وذهاب عما عليه الآيتان وما أريد بهما ، وذلك أن الاطمئنان إنما يكون عن ثلج القلب ، وشرح الصدر بمعرفة التوحيد والعلم به ، ومايتبع ذلك من الدرجة الرفيعة ، والثواب الجزيل ، والوجل إنما يكون

(١) الشيرازيات : ١٤
(٢) مقدمة فى أصول التفسير : ٢٥
(٣) الحجة : ٢/٥٦ ن البلدية
(٤) الحجة : ١/٣١٨ مراد ملا
(٥) الحجة : ١/٣٠٢ مراد ملا

عند خوف الزيغ ، والذهاب عن الهدى ، وما يستحق به الوعيد ، فتوجل القلوب لذلك فكل واحدة من الحالين غير صاحبتها ، فليس هنا إذا تضاد ولا تدافع ، وهذان المعنيان المفترقان فى هاتين الآيتين قد اجتمعا فى آية واحدة ؛ وهى قوله : « تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدى به من يشاء » ؛ لأن هؤلاء قد سكنت نفوسهم إلى معتقدهم ، ووثقوا به فانتفى عنهم الشك والارتياب الذى يعرض لمن كان خلافهم ممن أظهر الإسلام تعودا لحصل له حكمه دون العلم الموجب لثلج الصدور ، وانتفاء الريب والشك[1]

وأراه بهذا التدليل النقلى ، والمنطقى يصدر عن نزعة الدفاع عن كتاب الله ، ودفع ما يلق به الكائدون من شبهة التدافع والتضاد . وهى النزعة التى انتهيت إلى أنه صدر عنها فى كتابه الحجة ، وكانت سببا دفعته إلى تأليفه .

وأقرأ حديثه كذلك فى تفسيره « يوم يجمعكم ليوم الجمع » — بيوم التلاق ، ودفعه ما يوهم التضاد بين المعنى الذى ذكره فى هذه الآية وقوله تعالى : « يوم يفر المرء من أخيه[2] » .

هذه أمثلة لبيان هـــذه الطريقة التى سلكها أبو على فى تفسير القرآن بالقرآن ومظاهرها المختلفة وبما يتصل بها :

(٢) تفسير القرآن بقراءة أخرى : وقد كان ابن عباس يفسر القرآن ويستدل بقراءة على قراءة ، قال فى قوله تعالى : « ننشرها ثم نكسوها لحماً[3] » : إنشارها إحياؤها ، واحتج بقوله تعالى : « ثم إذا شاء أنشره » . وقد سلك أبو على هذه السبيل حيث يقول : مثلا —

فأما قوله : « هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق » فهو فى المعنى كقوله : « ما لهـذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها » ، وقوله : « وكل شىء أحصيناه كتابا » ، أى كل شىء من أعمالهم كما قال : « وكل شىء فعلوه فى الزبر ، وكل صغير وكبير مستطر » ، وقال : « أحصاه الله ونسوه » وقال : « وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً » ، وقال : (وهنا موضع الشاهد)

---

(١) المصدر السابق : ١/١٥٢

(٢) الحجة : ٢/٢٥ وما بعدها ن البلدية ١/٣٢٠ نسخة مراد ملا

(٣) معاني القرآن للفراء : ١٣٧

« هنالك تتلو كل نفس ما أسلفت » من التلاوة وهى قراءة حمزة والكسائى[١] .

وانظر فى ذلك صلة من قرأ يوم التناد بتفسير قوله تعالى : « يوم يفر المرء من أخيه[٢] » .

(٣) تفسير القرآن بالحديث الشريف : قال ابن تيميه : « فإن أعياك تفسير القرآن بالقرآن فعليك بالسنة ؛ فإنها شارحة للقرآن ، وموضحة له . . .[٣] » وأعان أبا على فى سلوكه هذا المسلك أنه محدِّث[٤] ومثال ذلك ماذكره فى تفسير قوله تعالى : « أفمن شرح الله صدره للإسلام . . .[٥] » ويتصل بذلك أنه

(٤) يفسر مسنداً : وهو بذلك ينحو منحى الطبرى فى تفسيره ، وذلك قول أبى على : حدثنا يوسف بن يعقوب الأزرق بإسناد عن مجاهد كلمة التقوى « لا إله إلا الله[٦] » وانظر شرحه لقوله تعالى : « مصدقاً لما بين يديه من الكتاب » فقد حدث عن أحمد بن محمد البصرى: قال حدثنا المؤمل قال: حدثنا إسماعيل عن أبى رجاء عن الحسن . .[٧] ، ويبدو أنه يحدث عن أحمد بن محمد البصرى كثيراً[٨] .

(٥) ويفسر القرآن بأقوال بعض السلف : وذلك قوله فى تفسير الكلمات المذكورة فى قوله تعالى « فتلقى آدم من ربه كلمات » سئل بعض السلف عما يقول المذنب فقال : يقول ما قاله أبوه آدم ، « ربنا ظلمنا أنفسنا . . . الآية[٩] » ، وأعانه على ذلك أنه عالم بطريق السلف المفسرين[١٠]

(٦) كما ينقل فى تفسيره عن المتأولين ، وهو إذا نقل عنهم يضيف إلى نقوله أدلة تبرز كيانه ، وتحدث عن شخصيته ؛ قال فى تفسير قوله تعالى : « الذين يؤمنون بالغيب » .

قال بعض المتأولين : أى يؤمنون إذا غابوا عنكم ولم يكونوا كالمنافقين الذين يقولون « إنا معكم إنما نحن مستهزئون » ثم قال : ويقوى ما ذهب إليه هذا المتأول قوله : « الذين يخشون ربهم بالغيب » وقوله « وخشى الرحمن بالغيب » وقال الهذلى:

أخالد ! ماراعيت منى قرابة　　　فتحفظنى بالغيب ، أو بعض ماتبدى

---

(١) الحشر: ٢٨٣/٣　　(٢) الحجة : ٣٢٢/١ مراد ملا
(٣) مقدمة فى أصول التفسير : ٢٥
(٤) تاريخ بغداد ومعجم الأدباء : ١٥٥/٧
(٥) الحجة : ١٢٤/١ مراد ملا　　(٦) الحجة : ٣١/٢
(٧) الحجة : ١٥٦/١ مراد ملا　　(٨) انظر الحجة : ٣٥٠/١ مراد ملا
(٩) الحجة : ٣٢٤/١ مراد ملا　　(١٠) الحجة : ٤٦٨/١

فالجار والمجرور فى موضع الحال أى تحفظى غائباً ، ويخشون ربهم غائبين عن مراءاة الناس ، لايريدن بإيمانهم تصنعاً لأحد ولاتقرباً إليه رجاء لمناله . ولكن يخلصون لله [١] .

وفى هذا النص السابق ما يشير إلى طريقة أخرى من طرائق تفسيره تلك .

(٧) تفسيره كلام الله بالشعر : ولست فى حاجة إلى أكثر من ذلك النص لتأييد ما أقول ، فأبو على لا يفتأ يفسر القرآن بالشعر ، فإن تلمست الأسباب التى تدفعه إلى هـذه الظاهرة وجدت تلاحق الأئمة : ابن مسعود وأبىّ بن كعب وغيرهما ، والحسن البصرى ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة، والسدى [٢] واتفاقهم على قول ابن عباس « الشعر ديوان العرب » [٣] وقد كان ابن عباس يرجع إلى الشعر فى تفسيره للألفاظ القرآنية [٤] وكان يقول : « إذا تعاجم شىء من القرآن فانظروا فى الشعر ؛ فإن الشعر عربى [٥] » ، وإلى جانب ذلك ترى أن أبا على نحوى يستشهد على مذهبه بما أنشد الشعراء ، وأنه لغوى اتصل بكتب أبى زيد ، وأطراف مما لغيره [٦] وأنه بعد ذلك متصل اتصال صداقة وعلم بأبى نصر محمد بن هبة الله [٧] الشيرازى [٨] أحد الذين رووا حديث نافع بن الأزرق وسؤاله ابن عباس عن طائفة من الألفاظ القرآنية طالباً من ابن عباس أن يستدل على معناها من الشعر العربى القديم [٩] . ويتصل باستشهاد أبى على بالشعر فى تفسير النص القرآنى .

(٨) تفسيره بأقوال اللغويين ، قال : « ومما يقوى الرفع فى آدم أن أبا عبيدة قال فى تأويل قوله : « فتلقى آدم من ربه كلمات » أى قبلها ، ثم يبنى على ذلك فيقول : فإذا كان آدم القابل فالكلمات مقبولة .. الخ [١٠]

وهو هنا كذلك يزيد بما يدل على شخصيته .

(٩) كما يفسر القرآن بالدليل العقلى فأبو على فى كتاب الحجة منطق قياسى ،

---

(١) الحجة : ١٠٦/١ ن مراد ملا
(٢) التسهيل فى علوم التنزيل لابن جزى الكلبى ٩/١ ط مصطفى محمد ١٣٥٥ هـ
(٣) الاتقان : ١٤٩/١ (٤) طبقات ابن سعد : ١٢١/٢
(٥) المعجم الكبير للطبراني : ١٢٩/٩٧
(٦) الامتاع : ١٣١/١ (٧) الشيرازيات : ٨٥ (٨) طبقات القراء : ٢٧٤/٢
(٩) الاتقان للسيوطى : النوع السادس والثلاثون : ١٤٩/١
(١٠) وقد تقدم النص فى التمثيل لظاهرة الاستطراد عنده .

لا يستمسك بالأثر فى تفسيره ؛ بل يضيف إلى ذلك المنطق والقياس ؛ فمن المعانى التى أوردها فى شرح المؤمن المهيمن أن يكون معناه المصدق أى المصدق الموحدين له على توحيدهم إياه . يدل على ذلك قوله :

« شهد الله أنه لا إله إلا هو »

ألا ترى أن الشاهد مصدق لما يشهد به ؟ كما أنه مصدق من شهد له ؟ فإذا شهد سبحانه بالتوحيد فقد صدق الموحدين(١) .

وهذا تفسير كما ترون بالدليل المنطقى الذى يجوز أن يوضع فى صورة قضايا تؤدى إلى نتيجة .

(١٠) وحينا يستهدى أبو على الحس الإنسانى فى تفسيره ، قال : وأما قوله « وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين » فليس المعنى على ما أنت بمصدق لنا ولو كنا صادقين عندك ؛ لأن الأنبياء لا تكذب الصادقين ، ولكن المعنى : « ما أنت واثقاً ولا غير خائف الكذب فى قولنا ، ولو كنا على الحقيقة صادقين عندك ؛ لما خلونا من ظنة منك فى تهمة لك بأنا قد كذبناك لفرط محبتك ليوسف ، وإشفاقك عليه ، وهذا المعنى متعالم فى استعمال الناس(٢)

هذه هى طرائق أبى على فى تناوله النص القرآنى بالتفسير ، ولست أدعى حصر هذه الطرائق ، ولكن ما ذكرته يتردد فى كتابه الحجة فى كثرة ظاهرة تدعو إلى لحظها وتسجيلها .

ومن أجل ما تعرض أبو على فى كتابه الحجة إلى تفسير كتاب الله لفظاً ونصاً اعتمد كثير من المفسرين عليه ، وأوردوا أقواله معتدين بها وقد رأيت هذا ـ مثلا ـ فى البحر المحيط لأبى حيان فى مواضع متقاربات(٣) كما اعتمد عليه ابن القيم فى كتابه « التبيان فى أقسام القرآن(٤) » كما رأيت نظام الدين الحسن بن محمد النيسابورى يستعين بأبى على(٥) .

---

(١) الحجة : ١/١٥٦ مراد ملا ، ٢/٣٩ البلدية

(٢) الحجة : ١/١٠٤ مراد ملا

(٣) انظر مثلا من الصفحات الخمسين الأولى من الجزء الأول : ١٧ و ٢٠ و ٢٢ و ٢٥ و٣٨ و٤٦ و٤٧ و٤٩

(٤) انظر مثلا التبيان : ١٠١ ، ١٢٥ ، ١٥٢ ، مطبعة حجازى ١٣٥٢هـ ـ ١٩٣٣م

(٥) انظر تفسير النيسابورى ـ غرائب القرآن ورغائب الفرقان على هامش الطبرى : ٤/١٧٦ ، ١٢/٥٢ مثلا

أبو على المحدّث والاحتجاج

كان أبو على يقول : « قد سمعت الكثير فى أول الأمر ، وكنت أستحى أن أقول : اثبتوا اسمى » [١] . وإذن فلأبى على أساتذة محدثون سمع منهم الحديث [٢] أو شيئاً منه [٣] ، وله كذلك تلاميذ أخذوا عنه : سمع من على بن الحسين بن معدان [٤] الفارسى عن اسحق بن راهويه ، كما اتصل أبو على بمحدثى زمانه ، وكاتبهم وإن لم يعدوا من شيوخه الذين سمع منهم ، من هؤلاء الذين اتصل بهم محمد بن هبة الله [٦] . وهو شيرازى [٧] . وكان محمد بن هبة الله هذا محدثاه وأحد الذين رووا حديث نافع بن الأزرق وبسؤاله ابن عباس عن أمثلة من الألفاظ القرآنية ، وطلبة من ابن عباس أن يستدل على معناها من الشعر العربى القديم [٨] . وقد رأيت أبا على يحدث عن أحمد بن محمد البصرى [٩] كثيراً [١٠] .

أما الذين رووا عن أبى على فمنهم محمد بن عبد الواحد أبو الحسن [١١] . ، ومحمد بن عبد الواحد أبو عبد الله ابن زوج الحرة [١٢] . ، وهلال بن المحسن [١٣] . والقاضى أبو القاسم التنوخى، والجوهرى [١٤] ، والأزهرى ، وعلى بن محمد بن الحسن المالكى [١٥] .

---

(١) معجم الأدباء : ٧/٢٥٥ (٢) النجوم الزاهرة : ٤/١٩١

(٣) عقد الجمان للعينى ، القسم : ٤٠٠

(٤) فى طبقات النحاة واللغويين لابن شهبة الأسدى ص ٢٩٥ سعدان بدل معدان، والصحيح ما أثبته

(٥) لسان الميزان : ١/١٩٠ (٦) انظر الشيرازيات : ٨٥

(٧) انظر طبقات القراء : ٣/٢٧٤ (٨) الاتقان : ١/١٤٩

(٩) طبقات القراء : ١/١٢٦

(١٠) انظر مثلا الحجة : ١/٢٥٠ ن مراد ملا ٤/٣١٧ ، ٦/١٣٩

(١١) تاريخ بغداد : ٢/٣٦١ (١٢) المصدر السابق : ٢/٣٦٠

(١٣) نفس المصدر : ١٤/٧٦ (١٤) لسان الميزان : ٢/١٩٥

(١٥) تاريخ بغداد : ٧/٢٧٥

هؤلاء أساتذة أبي على وتلاميذه المحدثون ، وتلكم اتصالاته بأهل التحديث في زمانه ، على قدر ما أعانتني عليه المصادر — فماذا كانت نتيجة هذه الدراسة في كتابه الحجة ؟

تجلت هذه الدراسة في الحجة — متخذة المظاهر الآتية :

أولا : — روايته الأحاديث في كتبه بأسانيدها .

ثانياً : — توثيقه متون الأحاديث أو تضعيفها .

ثالثاً : — فهمه الأحاديث فهما يتفق مع ذلك التوثيق أو التضعيف ، وتصحيحه فهم غيره لها .

رابعاً : — احتجاجه بالحديث في اللغة ، والنحو ، والصرف .

وسأضرب لهذه الأحوال أمثلة كاشفة تختصر التفصيل والاستقصاء .

(ا) مثال روايته الأحاديث في الحجة بأسانيدها قوله : « حدثنا أحمد بن محمد البصرى قال : «حدثنا المؤمل قال : حدثنا اسماعيل عن كعب عن مجاهد : «ومن الناس من يشترى لهو الحديث قال «سماعه الغناء »(١) . ، وقد أورد أبو على فى تفسير طائفة من قوله تعالى : « وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين» الإسناد الآتى : » قال أبو على: حدثنا أحمد بن محمد البصرى قال : « حدثنا المؤمل بن هشام قال : حدثنا اسماعيل ابن علية عن ابن أبي نجيح عن مجاهد فى قوله سبحانه وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين» قال . « أقله رجل ، وقال عطاء : أقله رجلان (٢) » . وقد أوردت فى الحديث عن ثقافة أبي على اسناده للحديث : « رحم الله رجلا أصلح من لسانه » فليراجع هناك (٣)

(ب) مثال توثيقة متون الأحاديث أو تضعيفها تعليقه على ما روى من أن النبي (صلى الله عليه) قرأ سورة النجم ، فأتى على قوله : « أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى » ووصل به تلك الغرانقة العُـلى ، وإن شفاعتهن لترتجى — تعليقه بقوله :

---

(١) الحجة : ١٢٩/٦ (٢) الحجة : ٣١٧/٤ ن البلدية

(٣) وانظر الحجة : ٢٣٦/١ ن مراد ملا

« هذا حديث مروى من أخبار الآحاد التى لا توجب العلم » وذهب عامة أهل النظر فيما علمت إلى إبطاله ورده ، وأن ذلك لا يجوز على رسول الله (صلى الله عليه) على وجه ما رووه ، ولو صح الحديث وثبت لم يكن فى هذا الكلام ثناء على آلهة المشركين ، ولا مدح لها . ولكن يكون التقدير . . . وإن شفاعتهن لترتجى عندكم ، لأنها فى الحقيقة كذلك . . . [1] » . وذلك أيضاً مثال فهمه الأحاديث فهماً يتفق مع توثيقها أو تضعيفها .

ومثله فهمه الحديث : « يعذب المصورون يوم القيامة » وفى بعض الحديث : « ويقال لهم أحيوا ما خلقتم » . وقال : « يعذب المصورون » يكون على من صوَّر الله تصوير الأجسام ، وأما الزيادة فمن أخبار الآحاد التى لا توجب العلم ، فلا يقدح لذلك فى الإجماع على ما ذكرنا [2] .

وقد فسر أحمد بن يحيى التذكير فيما رواه ابن مسعود : « ذكروا القرآن » بأنه خلاف التأنيث ، وناقشه أبو على فى ذلك ، وبرهن على أن المراد به الموعظة والدعاء عليه ، كما قال : « فذكر بالقرآن من يخاف وعيد » إلا أنه حذف الجار على القياس الذى ينبغى أن يكون عليه [3] . . .

(د) ومثال احتجاجه بالحديث فى اللغة قوله : « الكفر القرية سميت لاجتماع الناس فيها ، وما سترفقد جمع ، ومنه الحديث «تخرجكم الروم منها كفراً كفرا [4]» . وانظر شرحه لكلمة : أمين ، واستدلاله بالحديث على معناها [5] .

---

(١) الحجة : ١/٤٠٤ ن مراد ملا

(٢) الحجة : ١/٣٥٦ ن مراد ملا ، وقد تنبه بعض الباحثين فى زماننا إلى رأى أبى على واعتمد عليه فى جواز تصوير الأحياء ، وأن الحظر مقصور على تصوير الله تعالى تصوير الأجسام (انظر سر الزخرفة الإسلامية للدكتور بشر فارس تمهيد ٣١ — ٣٤ مطبعة المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة ١٩٥٢) وانظر مجلة الأزهر ، المجلد الثالث والعشرون جمادى الأولى ١٣٧١ هـ مقال : المسلمون والتصوير : ٤٦٨ . ولم يتفق الأستاذ الشيخ حسن مأمون مفتى الجمهورية العربية المتحدة مع أبى على فى تفسير هذا الحديث (انظر صحيفة الأخبار عدد ١٠/١٢/١٩٥٥)

(٣) الحجة : ٢/٥١ ، ٥٣ ن البلدية

(٤) المخصص : ١/٧٨ (٥) الحلبيات : ٧٢/٧٣

كذلك رأيته يحتج بالحديث فى النحو والصرف ، فقد جاء الاحاد فى الإضافة الجميع كقوله تعالى : « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها » وفى الحديث : « منعت العراق درهمها وقفيزها » (١) .

وقال : الأَدَبُّ من الجمال : الكثير وبر الوجه ، فأما قول النبي (صلى الله عليه وسلم) يخاطب نساءه ، « ليت شعرى أيتكن صاحبة الجمل الأدَبّ ، تخرج فتنبحها كلاب الحوأب » فانه ضعف الأدب بفك الادغام ليخرج على مثال الحوأب (٢) .

وأود هنا أن أعلق على ما ذكره « يوهان فك » فى كتابه العربية ، إذ يقرر أنَّ أول من اعتمد على الأحاديث من حيث هى حجة فى أمور اللغة هو النحوى ابن خروف الأندلسى ... مات فى حلب فى أوائل القرن السابع الهجرى ، وتبعه فى ذلك أشهر نحاة القرن السابع ابن مالك (٣) .

ومن قبل يوهان فك قال أبو الحسن الضائع فى شرح الجمل : « وابن خروف يستشهد بالحديث كثيراً (٤) » . وقد وفَّى صاحب الخزانة الكلام على الخلاف فى جواز الاستشهاد بالحديث على مسائل اللغة والنحو فى صدر الخزانة (٥) . ، ولم يتعرض إلى موقف أبى على فى ذلك ، ويكاد الباحثون من أهل العربية يجمعون على أن ابن خروف له فضل السبق فى الاعتداد بالأحاديث والاستشهادبها ، ويبدو أن يوهان فك تابعهم فى ذلك على النحو الذى رأيناه ، ولست أزعم هنا أن صاحبى أول من اعتمد على الأحاديث فىالاحتجاج اللغوى ، والنحوى ، والصرفى — لست أزعم ذلك ؛ لأن هذه قضية عريضة تستلزم استقصاء آثار النحاة الذين سبقوا أبا على ، ولكنى أكتفى بتقرير أن أبا على سبق ابن خروف فى الاحتجاج بالحديث والاستشهاد به فى مسائل اللغة والنحو والصرف .

وأرى أن ابن خروف قد تأثر بأبى على ؛ إذكان نسبه العلمى موصولا به ؛ فقد تلمذ ابن خروف على الخِدَبّ ، وكان أجل من أخذ منه (٦) . والخِدَبُّ

---

(١) الحجة: ٧/١٠١ ن البلدية (٢) المخصص : ٧/٧٩
(٣) العربية : يوهان فك ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار : ٢٢٦
(٤) خزانة الأدب للبغدادى : ١/٦ (٥) راجع ص ٦ وما بعدها
(٦) بغية الوعاة : ٣٥٤

هـذا هو ابن طاهر [١] . أبو بكر محمد بن أحمد [٢] . وكان للخدب عناية بايضاح أبي على ، فعلق عليه [٣] ، واهتمام الخدب بالايضاح كاف لاتصاله بأبي على ، وتفسير تأثره ، وتأثر تلميذه ابن خروف معه بالشيخ الفارسى ، وانتقال بعض منهجه إلى ابن خروف ومنه الاحتجاج بالحديث ، وقد أشرت إلى استشهاد أبي على بالحديث واحتجاجه به فى حديثى عن كتاب الايضاح .

وتعليل هذا الاتجاه عند أبي على ميسور : فهو قد جمع إلى ثقافته فى اللغة والنحو والصرف — التحديث ، وإذن فهو يدرى حرص المحدثين على رواية الأحاديث وتحرى النقل فيها ، وضبط ألفاظها ، ثم هل كان عند أبي على الأعجمى ثقة فى رواة الحديث وهم أعاجم ؟ على أية حال فالنتيجة التى أريد الانتهاء إليها هى إثبات سبق أبي على نحاة القرنين الخامس والسادس فى الاحتجاج بالحديث ، والاستشهاد فى اللغة والنحو والصرف جميعاً على الوجه الذى سلف به البيـان .

(تبويب شواهد الحجة من القرآن الكريم والشعر)

وأبو على حاضر الذهن فى إيراد الشواهد محتجاً بها ، يوردها منسوقة وكأنه ينظمها فى سلك ؛ ليستقيم أمامك الدليل لؤلؤاً فريداً ، ويظهر التدليل عقداً نضيداً .

وأكثر ما يستشهد أبو على بالقرآن الكريم ، والشعر العربى القديم .

وقسمت ما يستشهد به فى هذين : القرآن والشعر — إلى الجوانب الآتية :

أولا : فى القراءات : (ا) محتجاً لقراءة أو (ب) مقوياً جانب قراءة من القراءات .

ثانياً : فى المعنى : (ا) محتجاً لمعنى كلمة أو (ب) مقوياً معنى ذكره .

ثالثاً : فى الاعراب ، والتصريف ، والنحو ، واللغة :

---

(١) بغية الوعاة : ٤٢٩

(٢) المصدر السابق : ٤٣٢ (٣) انظر بغية الوعاة : ١٢

رابعاً : فى التعبير: وذلك حين يأتى بالشاهد ؛ ليستدل به على صحة تعبير ، وعدم جواز غيره .

خامساً : فى التدليل على قضية منطقية .

وإليكم الأمثلة الكاشفة عن كل جانب من الجوانب السابقة بالتفصيل فياهوخاص بشواهد القرآن الكريم ، وأشير بعد إلى هذه الجوانب —وغيرها— فيما هو خاص بالشعر إيثاراً للاختصار .

أولا — فى القراءات

(ا) وهو حين يستشهد بالقرآن محتجاً لقراءة يستعرض ما جاء فى القرآن من الآيات المختلفة التى يستغلها فى البرهنة على ما هو بسبيله من الاحتجاج للقراءات فتأتى هذه الآيات نصاً فيما يريد ، ولا تحتمل سواه .

ففى الاحتجاج لإثبات الألف وإسقاطها من قوله جل وعز (لسحر مبين) قال أبو على : يدل على قول من قال سحر قوله : « فلما جاءهم الحق قالوا هـذا سحر وإنا به كافرون » .

ويدل على ساحر قوله تعالى : « وقال الكافرون هذا ساحر كذاب [1] » .

(ب) وحينا يستشهد بالقرآن مقوياً جانب قراءة من القراءات ، وفى هذه الحال لا يحتج بالآية ابتداء ، وإنما يأتى بها مقوية لما ساقه من دليل قبل ذلك ، قال :

« ومما يشهد لمن قرأ (مالك) [2] من التنزيل قوله تعالى : « والأمر يومئذ لله » ، فإن قولك « الأمر له » وهو « مالك الأمر » بمعنى ؛ ألا ترى أن لام الجر معناها الملك والاستحقاق ؟ وكذلك قوله : « يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً » يقوى ذلك » والتقدير : « مالك يوم الدين من الأحكام مالا تملكه نفس لنفس » ففى هذا دلالة وتقوية لقراءة من قرأ مالك [3].

---

(١) الحجة : ٤/٣٥٩

(٢) فى توجيه قراءة مالك يوم الدين

(٣) الحجة : ١/١١ البلدية

ثانياً — فى المعنى

(ا) محتجًا لمعنى ذكره : فالدين فى قوله تعالى : « مالك يوم الدِّين » معناه الجزاء ، بدلالة قوله تعالى : « اليوم تجزى كل نفس بما كسبت » ، « واليوم تجزون ما كنتم تعملون[1] » .

والسلام فى قوله تعالى : « يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام » أى سبل دار السلام بدلالة قوله : « لهم دار السلام عند ربهم . . . » وإما أن يراد بالسلام جمع سلامة كأنه دار السلام التى لا يلقون فى حلولها عنتاً ولا تعذيباً كما قال : « الذى أحلنا دارالمقامة من فضله ، لا يمسنا فيها نصب ، ولا يمسنا فيها لغوب[2] » .

(ب) أو مقوياً معنى ذكره ، وذلك كاشارته إلى أن الله خص الإنسان بالخلق فى قوله تعالى : « اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الإنسان من علق » تنبيهاً على تأمل ما فيه من إتقان الصنعة ووجوه الحكمة كما قال : « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » .

ثالثاً — فى الإعراب ، والتصريف ، والنحو ، واللغة

(ا) فى الإعراب : كما ذكر فى إعراب (الذى) فى قوله تعالى : « اقرأ باسم ربك الذى خلق — وأنه وصف للمضاف إليه دون الأول المضاف ؛ لأنه كقوله : « هو الله الخالق البارىء[3] » .

(ب) وفى التصريف : — قولهم آمن زيد يحتمل غير وجه : يجوز أن يكون أمنته فآمن فجاء المطاوع على (أفعل) كقولك كببته فأكب ، وفى التنزيل « فكبت وجوههم فى النار » ، وفيه « أفمن يمشى مكباً على وجهه . . .[4] » .

(ج) وفى النحو : وأما الفعل من الهدى فيتعدى إلى مفعولين : يتعدى إلى الثانى منهما بأحد حرفى الجر : « إلى أو اللام » . فمن تعديه بإلى قوله : « فاهدوهم إلى صراط الجحيم » ، ومنه قوله : « واهدنا إلى سواء الصراط » ، ومن تعديه باللام قوله : « الحمد لله الذى هدانا لهذا » ، وقوله : « قل الله يهدى للحق[5] » .

---

(١) الحجة : ٢٧/١ — (٢) الحجة : ١٧٢/١–١٧٣ ن مراد ملا

(٣) الحجة : ٨/١ ن مراد ملا — (٤) الحجة : ٢٠٧/١

(٥) الحجة : ١٧١/١ ن مراد ملا

(د) وفى اللغة : قال : « وأما الخطيئة فتقع على الصغير ، وعلى الكبير . فمن وقوعه على الصغير قوله : « والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين » ومن وقوعه على الكبير قوله : « وأحاطت به خطيئته[1] » .

ويقال استوقد وأوقد ، قال تعالى : « كمثل الذى استوقد ناراً » ، « وكلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله[2] » .

رابعا — فى التعبير

وهو جانب يتصل بالصنعة النحوية ؛ ليجرى التعبير على سنن صحيح من العربية قال : « فإن قلت : أيجوز أن توقع الجملة التى من الابتداء والخبر موقع التى من الفعل والفاعل فى نحو : « سواء على أقمت أم قعدت » فتقول : سواء على أدرهم مالك أم دينار ، وما أبالى أقائم أنت أم قاعد ؟ » .

فالقول فى ذلك : أن أبا الحسن يزعم أن ذلك لا يحسن ، قال : وكذلك لو قلت : « ما أبالى أتقوم أم تقعد لم يحسن ؛ لأنه ليس معه الحرف الذى يجزم (الذى يحوله إلى الماضى) وهم يصححون ما وقع ماضياً ، ومما يدل على ما قال أن ما جاء فى التنزيل من هذا النحو جاء مع المثال الماضى كقوله تعالى : « سواء علينا أجزعنا أم صبرنا » .

« سواء عليهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم » .

« سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم[3] » .

خامسا — فى التدليل النظرى المنطقى

قال : « مثل الانذار فى أنه ضرب من العلم — قولهم « اليقين » ، فكل يقين علم ، وليس كل علم يقيناً ، وذلك أن اليقين كأنه علم يحصل بعد استدلال ونظر ؛ لغموض العلم المنظور فيه ، أو لإشكال ذلك على الناظر يقوى ذلك قوله (عز وجل) : « وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين »

---

(١) الحجة : ٣٩٤/١ (٢) ٣٢٣/١

(٣) الحجة : ٢٥٢/١ وما بعدها

ثم ذكر بعد ما كان من نظره واستدلاله ، ولذلك لم يجز أن يوصف القديم سبحانه به[١] .

أما شواهد الشعر فى كتاب الحجة فهى غزيرة متنوعة ، وكان من الطبيعى أن يستكثر أبو على من الشواهد الشعرية فى ذلك الكتاب الضخم الذى عقده للاحتجاج ، والشعر ركن مهم من أركان هـذا الاحتجاج ، وقد أورد أبو على فى الحجة من الأشعار ما لو جمع لكان كتاباً ضخماً قائماً بذاته .

كما دفع الاستطراد أبا على إلى تنويع المقاصد التى يورد من أجلها شواهده الشعرية ، فهو يورد الشاهد :

(ا) محتجاً لقراءة : كاحتجاجه على حذف حرف اللين بعد الميم ، واختياره على وصلها بحرف اللين فى (عليهم) بقول الشاعر :

لا يبعد الله أصحاباً تركتهم   لم أدر بعد غداة الأمس ما صنع

وقول الشاعر :

لو ساوفتنا بسوف من تحيتها   سوف العيوف لراح الركب قد قنع

وقول عنترة :

يا دار عبلة بالجواء تكلم

فكما حذفوهما فى هذه المواضع ، كذلك حذفوهما فى عليهم ونحوه[٢].

(ب) أو يورد الشاهد الشعرى موجهاً معنى ذكره ، وإعراباً ارتضاه[٣]

(ج) أو متحدثاً فى تصريف كلمة[٤] ، أو مسألة نحوية[٥].

(د) أو مدللا على صحة تعبير ، وعدم جواز غيره[٦].

(هـ) أو مبرهناً على أمر نظرى[٧].

(و) أو يورد الشاهد الشعرى متصلا بالحديث عن أمر فى العقيدة[٨] .

(١) الحجة : ١/٢٣٩
(٢) الحجة : ١/٥٠ ن مراد ملا (٣) انظر الحجة : ١/١٠٦ ن البلدية
(٤) انظر الحجة : ١/٧٢ ن البلدية (٥) المصدر السابق : ١/٢٠٥
(٦) نفس المصدر : ١/٢٥٢ (٧) انظر : ١/٢٤٠
(٨) انظر مثلا الحجة : ١/٢٤٣

(ز) وكثيراً ما يناظر شواهد سيبويه بشواهد أخرى يأتى بها من عنده تعزز شواهد الكتاب[١] .

(ح) أو يستشهد على صحة كلام سيبويه ، فإن قال سيبويه — مثلا : « يقال دريت الشيء ودريت به ، وتعديه بحرف الجر أكثر فى كلامهم . . . .

يقول أبو على محتجاً لذلك ، ومدللا عليه بما أنشد أبو زيد :

وأصبحت من أسماء قيس كقابض   على الماء ، لايدرى بماهو قابض[٢]

وقد يكون (ر ، ح) مما يختلف فيه استشهاده بالقرآن الكريم ، على أن هناك أمراً آخر بعد هذين ، ذلك التحدث فى أمر عروضى ، فهوكثيراًما يستشهد بالشعر له ، كاستشهاده على جعلهم الهاء المتحركة بمنزلة الألف الساكنة ، فقول الأعشى :

« رحلت سمية غدوة أجمالها »

اللام فيه حرف الروى ، والهاء وصل [٣] ، وكحديثه فى تخفيف ياء النسب فى الشعر . [٤] وهكذا استطاع أبو على بتنويع المقاصد التى يستشهد لها بالشعر — أن يصدق قول ابن نباتة : « من فضل النظم أن الشواهد لا توجد إلا فيه ، والحجج لا تؤخذ إلا منه ، أعنى أن العلماء ، والحكماء ، والفقهاء ، والنحويين ، واللغويين ، يقولون قال الشاعر ، وهذا كثير فى الشعر » ، والشعر قد أتى به ، فعلى هذا الشاعر هو صاحب الحجة ، والشعر هو الحجة [٥] .

* * *

وهو حينا ينسب الشواهد إلى قائليها من الشعراء ، أو يسندها إلى منشديها من العلماء ، وحينا يتركها غفلا من ذلك .

نسب لامرئ القيس[٦] ، والنابغة[٧] ، وزهير[٨] ، وعدى بن زيد[٩] ، ولبيد[١٠] ،

---

(١) انظر الحجة ن البلدية : ١/١٠٨ والكتاب : ١/٣٥٧
(٢) الحجة : ١/٢٤٢
(٣) الحجة : ١/٤٦ ن مراد ملا   (٤) الحجة : ١/٥٤
(٥) الإمتاع والمؤانسة : ٢/١٣٦   (٦) الحجة : ٧/١٨٥ ن البلدية
(٧) ٤/١١٦ ، ٧/٢٩   (٨) ٧/١١٦
(٩) ٤/٨٠   (١٠) الحجة : ١/٣١٤ ، ١٢٢ ، ٢٨ مراد ملا

وعنترة [١]، والأعشى [٢]، وأمية [٣] — من الجاهليين كما أنشد لأبي طالب عم النبي [٤].

ومن الأمويين نسب إلى الفرزدق [٥]، وجرير [٦]، والعجاج [٧]، ورؤبة [٨]، والأخطل [٩]، والراعي [١٠]، والكميت [١١].

وهو حين يغفل نسبة الشواهد إلى قائليها يبدو أنه على علم بهم، بدليل أن هناك عدداً من هذه الشواهد معروف قائلوها لمن له صلة ما بالثقافة العربية فكيف بأبي علي؟ من ذلك قوله: ومما جاء بغير الجار — يريد الفعل يذكر — قولها:

يذكرني طلوع الشمس صخرا   وأذكره لكل غروب شمس!

والمعروف أن ذلك للخنساء، وهو ظاهر في غنى عن الاشارة، ولكنه أغفل ذكرها، وإن كان قد أومأ إليها. بتأنيث الضمير في قولها.

واستشهاده بقول الشاعر:

« وعيد أبي قابوس في غير كنهه »، فملك أبي قابوس أضحى وقد نجز [١٢]

فذلك للنابغة وهو معروف.

وأبو علي إن شك في نسبة الشاهد أعلن ذلك، حيث يقول مثلا: ألا ترى الكميت أو غيره قال [١٣] أو يقول: وقال ساعدة أو غيره [١٤].

وقد لحظت أنه يستشهد كثيراً بشعر الأعشى [١٥] ولعل ذلك لأنه حفظ له أكثر من غيره. كما لحظت أنه يكثر من الاستشهاد برجز العجاج [١٦]، ورؤبة [١٧]، وهما الراجزان المشهوران، واللذان ورد ذكرهما كثيراً في نوادر اللغة التي اعتمد عليها أبو علي.

---

(١) نفس المصدر: ١/١٧٤، ٢٣٢ (٢) الحجة: ٧/٣٥٧ ن البلدية
(٣) الحجة: ١/٤٢٦ ن مراد ملا (٤) الحجة: ٤/٦ ن البلدية
(٥) الحجة: ٧/٢٥٧ (٦) الحجة: ٤/٣٢٨، ٦/١٩٦، ٧/١٣٩ ن البلدية
(٧) ٤/٣٣٧ (٨) ٦/١٨٢، ٧/١١٥، ٢٠٥
(٩) ٤/٣٦ ن البلدية (١٠) الحجة: ١/٢٠٠، ٢١٢ ن مراد ملا
(١١) نفس المصدر: ١/٢٢٠
(١٢) الحجة: ٦/١٥١ ن البلدية (١٣) الحجة: ١/٢٢٠ ن مراد ملا
(١٤) المصدر السابق: ١/٤١٤
(١٥) انظر مثلا من الجزء الأول: ٤٦، ٩٤، ١٤٦، ٢٠٤، ٢٠٨، ٢٢٨، ٢٣٢، ٣٣٦، ٣٩٤ ومن الجزء الرابع: ١٩، ٤٣، ١١٦، ١٣٣، ١٣٦، ١٦٦، ٢٠٠، ٢٤١، ٣٢٣، ٣٢٤
(١٦) انظر مثلا الجزء الأول: ١٧٨، ٢٩٢، ٣٤٢، ٣٦٢، ٤١٤، ٤٧٤
(١٧) انظر مثلا ٦/١٨٢، ٧/١١٥، ٢٠٥

ورأيته كذلك يذكر الروايات المختلفة فى البيت [١] وربما ذكر أقوال المحدثين من الشعراء [٢] .

* * *

وأبو على ينصب فى إيراد الشواهد حتى لينسيه ذلك جلال المقام الذى يتحدث فيه ، والمهم الذى نصب نفسه له ، وعقد كتابه عليه ، فيذكر ـ مثلا ـ الأبيات المكشوفة للنابغة فى وصف المتجردة[٣] ! .

* * *

هـذا مجمل الحديث عن شواهد أبى على ، أما الرواة الذين يسند إليهم والأشياخ من العلماء المنشدين فهو غالباً مايسميهم :

أنشد لأبى الأسود[٤] ، والخليل[٥] ، وأبى شمر[٦] ، وأبى عثمان[٧] ، ومحمد ابن السرى[٨]، وأبى الحسن[٩] ، وعلى بن سليمان[١٠]، وأبى عبيدة[١١] ، والطوسى عن ابن الاعرابى[١٢] ، والسكرى[١٣] ، والأصمعى[١٤] .

وقد لحظت أن أكثر من ينشد لهم رجلان :

أما أحدهما فأبو زيد[١٥]، وأما الآخر فأحمد بن يحيى[١٦].

وأبو حيان فى الإمتاع يكشف لنا عن سبب استشهاد أبى على بأبى زيد بهذه الكثرة الغالبة ، وذلك حيث يقول عنه : إنه لم يتجاوز فى اللغة كتب أبى زيد[١٧].

---

(١) انظر مثلا الحجة : ١/٠٥ مراد ملا
(٢) انظر مثلا : ١/١٨٢ (٣) الحجة : ١/٣١٤
(٤) ٤/١١ ن البلدية (٥) ١/٤٤ ن مراد ملا
(٦) ٦/١١٧ ن البلدية (٧) ٤/٢٨١ ، ٣١٢
(٨) ٤/٣٥٣ ، ٦/٥٤ (٩) ٤/٢٠٧ ، ٨/٩٣
(١٠) ٤/٤٥ ، ٦/١٦٠ (١١) ١/١١٠
(١٢) ١/٢١٦ (١٣) ١/٣١٢
(١٤) ٧/١٩٢
(١٥) انظر مثلا : ١/٤٢،٥٤،٦٠،٤/١٢٣،١٦١،٢١٠،٢٥٧،٦/٦١،٩٤،٧/١٧٨
(١٦) انظر الحجة مثلا : ١/٤٤ ، ٥٢ ، ١٧٦ و ٤/١٠ ، ٥١ ، ٧/١٩٠
(١٧) الامتاع : ١/١٣١

وأما تعليل كثرة استشهاد أبى على بأحمد بن يحيى فيسور ، وذلك أن أحمد بن يحيى ثعلبا كان راوية أولا ثم كان خصما لمحمد بن يزيد المبرد[١] ثانياً والمبرد خاصم سيبويه ونقض عليه ، وأبو على يقدر الشيخ ثعلباً ، ويأنس إلى الاستشهاد بما أنشد ، مع أنه لم يكن يعلم مذهب البصريين ، ولا مستخرجا للقياس ، ولا مطالبا[٢] له ، وربما كان جهل ثعلب بمذاهب البصريين سبباً فى مناقشة أبى على له فى بعض الأحيان[٣] .

* * *

المسائل البلاغية فى الحجة

يلم أبو على بطائفة من المسائل البلاغية فى الحجة[٤] فهو يتحدث عن الالتفات ، ولام الصيرورة ، والتفصيل بعد الاجمال : الاطناب بعد الإيجاز ، وخروج كل من الأمر والاستفهام عن معناه الحقيقى إلى معنى بلاغى آخر ، كما يتحدث عن ذكر الخاص بعد العام ، كما يشير إلى أن تقديم الجار والمجرور من طرق التخصيص : القصر .

وهذه أمثلة كاشفة لهذه المسائل التى ألم بها :

(ا) الالتفات : — قال : وأما قول الشاعر :

وتضحك منى شيخة عبشمية كأن لم ترَىْ قبلى أسيراً يمانيا

فإنه ينشد ترى وتراً فمن أنشده ترى بالياء كان مثل : إياك نعبد بعد الحمد لله ، وقد يكون هذا قول الأعشى : « حتى تلاقى محمداً بعد قوله : فآليت لا أرثى لها[٥] .

(ب) لام الصيرورة : — قال : وأما قوله : فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم فان قوله فلا يؤمنوا ولم يعطوا الأموال ليضلوا ويكفروا ، ولكن لما اختاروا ذلك ، فصار إليه عاقبة أمرهم كان بمنزلة قوله : « فالتقطه آل فرعون ليكون لهم

---

(١) طبقات الزبيدى : ١٦٠

(٢) طبقات الزبيدى : ١٥٥ ، ١٥٦ (٣) انظر مثلا الحجة : ١/٣٤٠ ن مراد ملا

(٤) سأشير إلى أنه يلم ببعض هذه المسائل فى كتبه الأخرى

(٥) الحجة : ٢/٦٠ ن مراد ملا وانظر ٦/١١٩ ن البلدية

عدوا وحزناً ، لما أدى التقاطهم إياه إلى ذلك ، وإن كان الالتقاط لغيره (١) .

(ح) التفصيل والاجمال (الاطناب والايجاز) : — أورد أبو علي قول المتأولين فى قوله تعالى : « والذين يؤمنون بالغيب » وقواه ثم قال : ويجوز لها وجه آخر ، وهو أن هذه الآية كأنها إجمال ما فصل فى قوله : « والمؤمنون كل آمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله » والموصوفون فيها خلاف من وصف فى قوله : « ومن يكفر بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيداً » فكفرهم بالملائكة دعاؤهم إياهم بنات كما وبخوا فى قوله : « أم اتخذ مما يخلق بنات » وقوله : « وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً » . وكفرهم بالكتب إنكارهم لها فى قوله : « وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء » وكفرهم بإرسال الرسل إنكارهم إرسالهم بنحو قوله تعالى : « ولئن أطعتم بشراً مثلكم » : « أهذا الذى بعث الله رسولا . وكفرهم بالآخرة : قولهم: لا تأتينا الساعة . قل: بلى وربى(٢) . فكل هذه الأمور غيب قد أنكروه ودفعوه ، فلم يؤمنوا به ، ولم يستدلوا على صحته ، فقال تعالى : « الذين يؤمنون بالغيب » أى بهذه الأشياء التى كفر بها هؤلاء الذين ذكر كفرهم بها عنهم .

(د) ذكر الخاص بعد العام : — وخصهم بالإيمان بالآخرة فى قوله : وبالآخرة هم يوقنون ، وإن كان الإيمان بالغيب قد شملها ، ولما كان من كفر المشركين وجحدهم إياها فى نحو ماحكى عنهم فى قوله : « وقالوا ماهى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا » فكأن تخصيصهم بذلك مدح لهم (٣) . ونظير ذلك فى أنه خص بعد ما عم قوله : « اقرأ باسم ربك الذى خلق » فعم بقوله خلق جميع مخلوقاته ثم خص فقال : خلق الإنسان من علق . فالذى وصف للمضاف إليه دون الاول المضاف ، لأنه كقوله هو الله الخالق البارىء ، ثم خص ذكر الانسان تنبيهاً على تأمل مافيه من اتقان الصنعة ، ووجوه الحكمة كما قال : « وفى أنفسكم أفلا تبصرون (٤) .

---

(١) الحجة : ١/١٠٤

(٢) المصدر السابق : ١/١٠٦ وما بعدها

(٣) المصدر السابق (٤) انظر الحجة ١/٨ مراد ملا

(ه) تقديم الجار والمجرور من طرق التخصيص (القصر) : — ويقرب من هذا قوله الرحمن الرحيم حيث أريد تخصيص المسلمين بالكرامة في قوله : « وكان بالمؤمنين رحيما [١] » . وقد شرح ذلك في موضع آخر ؛ إذ يقول في قوله : « بسم الله الرحمن الرحيم » الرحمن أبلغ من الرحيم بدلالة أنه لا يوصف به إلا الله سبحانه ، وذكر الرحيم بعده لتخصص المسلمين به في قوله : « وكان بالمؤمنين رحيما » .

(و) خروج كل من الامر والاستفهام عن معناها الحقيق إلى معنى بلاغي آخر : — قال : المراد بالامر في اهدنا سؤال واستنجاز [٢].

وقال فيقوله تعالى : « سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم » لفظه لفظالاستفهام ، ومعناه الخبر [٣] .

وجعل الاستفهام في قوله : « أم اتخذ مما يخلق بنات » للتوبيخ [٤] . ، وفي قوله تعالى : « أهذا الذى بعث الله رسولا » للانكار [٥] .

وأحياناً تكون له خطوات ذهنية في تقويم الكلمة ومدى ما يكون لها من إشعاع وذلك قوله — مثلا — وكان قول الله (عز وجل) في الكفار : « ولكن لا يشعرون » أبلغ في الذم للبعث عن الفهم من وصفهم بأنهم لا يعلمون ، لأن البهيمة قد تشعر من حيث كانت تحس ، فكأنهم وصفوا بنهاية الذهاب عن الفهم وعلى هـــذا قوله سبحانه : « ولا تقولوا لمن قتل في سبيل الله أموات بل أحياء ، ولكن لا تشعرون » فقال : « ولكن لاتشعرون ولم يقل ولكن لا تعلمون ، لأن المؤمنين إذا أخبرهم الله (عز وجل) بأنهم أحياء علموا أنهم أحياء ، فلايجوزأن ينفي الله (عز وجل) العلم عنهم بحياتهم ، إذكانوا قد علموا ذلك بأخباره إياهم وتيقنوه ، ولكن يجوز أن يقال . ولكن لا تشعرون ، لأنهم ليس كل ما علموه يشعرونه ، كما أنه ليس كل ما علموه يحسونه بحواسهم ، فلما كانوا لايعلمون بحواسهم حياتهم ،

---

(١) الحجة : ١/١٥٦ ومابعدها (٢) ١/٧٢ ن البلدية

(٣) الحجة : ١/٢٤٦ ن البلدية

(٤) انظرالحجة : ١/١٥٨صرادملا (٥) الحجة : ١/١٥٦ وما بعدها ن البلدية

وأن كانوا علموه بأخبار الله إياهم وجب أن يقال لا تشعرون ، ولم يجز أن يقال ولكن لا تعلمون على هذا الحد[1] .

هذا وقد ألم أبو على ببعض مسائل التشبيه[2] ، والاستعارة[3] . فإذا أردت التعليل لالمام أبى على بهذه المسائل البلاغية — وقد يكون بعضها من أولياته التى لم يسبق إليها — فيما أعلم — أقول إذا أردت تعليل ذلك كان الأمر ميسوراً ، فهو يرجع فيما أرى — إلى ثقافة أبى على ، وحفظه الواعى للقرآن الكريم ، والشواهد العربية ، وسرعة استحضاره الأشباه والنظائر ، والأضداد والضرائر . أقول هذا لأطبق عليه ما أورده فى الالتفات ولام الصيرورة ، والتفصيل فى موضع الإجمال فى آخره فهذه أمور أتصل الكلام فيها — أكثرها أتصل — بالشواهد المتناظرة والمتضادة ، وأود أن نرجع إليها لنرى التناظر فى الالتفات ، ولام الصيرورة ، والمضادة فى التفصيل والإجمال (الإطناب والإيجاز) .

وكذلك حديثه عن العام والخاص يرجع فيما يبدو إلى ذلك السبب ، مضافا إليه نزعته المنطقية ، واتجاهه العقلى فيما يتناوله من مسائل : فالخاص والعام اصطلاحان منطقيان ، وقد يمت حديثه فى تقويم التعبير بقوله « لا يشعرون » بدلا « لا يعلمون » إلى ذلك الفقة اللغوى لمعنى اللفظين ، وإلى ذلك النزوع العقلى المنطقى وهنا أعود إلى قوله : « ليس كل ما علموه يشعرونه » كما أن ليس كل ما علموه يحسونه » فهاتان قضيتان حمليتان ، كل منهما سالبة جزئية[4] .

ذلك — فيما أرى بعض ما هيا له أن يتناول هذه المسائل البلاغية بما تناول على النحو الذى مر بنا من قريب[5] .

وليس من شك فى أن الجرجانى تأثر بأبى على تأثرا ما ، ألم يكن ابن أخت الفارسى أستاذا للجرجانى ؟ ألم يتوفر الجرجانى على شرح الإيضاح للفارسى ؟

---

(١) الحجة : ١/١٨٠ ن مرادملا (٢) انظر ص ٢٠٤ مراد ملا

(٣) لوحة ٢٣٠ مراد ملا

(٤) انظر الاشارات والتنبيهات لابن سينا ١٦١ ، ١٦٢

(٥) اقرر ذلك معترفا له بالتقدم فى هذا الباب ، وإن كانت النظرة الحديثة لاتقر مزج المسائل البلاغية بالنزعات المنطقية .

ألم يستشهد الجرجانى بأبى على الفارسى فى غير دفعة من كتابه دلائل الإعجاز[١].
على أنِّى استنتج صلة بين شخصية عبد القاهر فى كتابه دلائل الإعجاز فى المعانى
وكتاب الشيخ أبى على الفارسى « المسائل المصلحة فيما أغفله الزّجاج من المعانى »
فعبد القاهر يهتف بفضل النحو، ويدفع عنه، ويبين مكانه فى المعانى[٢]. وأبو على
يتعقب الزجاج فى المسائل المصلحة — وأكثر هذه المسائل يدور حول مسائل
نحوية كان لها الأثر فى المعانى[٣].

المنطق وظهوره فى الحجة

يفسر أبو على لفظ المنطق بالفكر[٤]، وهو بهذا يتصل بتعريف المناطقه للإنسان
بأنه حيوان ناطق، وكان المنطق فى كتاب الحجة أكثر ظهوراً منه فى أى كتاب
آخر من كتب أبى على — التى أطلعت عليها —، وذلك أن الغرض من الحجة
التدليل والتعليل، ثم كان لا بد له أن يقيس أوجه القراءات المختلفة، ويخرجها
على ما يشبهها من الأصول المقررة، أو المسموع من كلام العرب.

ومكن لأبى على فى المنطق أنه حنفى، ثم هو معتزلى، والمعتزلى جدل[٥]، ولعله
اقتفى أثر شيخه أبى بكر بن السراج الذى درس المنطق[٦]، إلى أن البيئة العامة
كانت بيئة جدلية فلسفية يستعان فيها بالمنطق ومسائله على مقارعة الحجة، وقد قرر
ابن قتيبه من قبل أبى على أن « أرفع درجات لطيفنا أن يطالع شيئاً من تقويم
الكواكب، وينظر فى شىء من القضاء، وحَدِّ المنطق، ثم يعترض على كتاب الله
بالطعن، وهو لا يعرف معناه[٧].

ولئن كان الطاعنون يتخذون المنطق وسيلة لأغراضهم إن أبا على اتخذه وسيلة

---

(١) انظر مثلا دلائل الاعجاز : ٣٥٣ ، ٣٨٥
(٢) انظر مثلا دلائل الاعجاز ص ٦، ٢٣
(٣) انظر بحث كتاب الاغفال فى موضعه من هذه الرسالة
(٤) المخصص : ٢/١١٤ (٥) انظر يتيمة الدهر : ٣/١٠٦
(٦) الفهرست : ٩٢ (٧) مقدمة أدب الكاتب : ٣

لرد كيدهم فى نحورهم ، فكان ذلك سببا من أسباب شيوع المنطق فى كتاب الحجة بخاصة .

ولفظ الحجة (اسم الكتاب) موح بالمنطق ، فالشيء الموصل إلى التصديق المطلوب يسمى حجة[١]، ويفسر هذا الجرجانى إذ يعرف الحجة « بأنها ما دل به على صحة الدعوى »[٢] .

وتكثر الألفاظ المنطقية فى الحجة: كالاستدلال، والنظر[٣]، والأدلة والدلالة[٤]، والوجه ، والحد ، والحجة ، والقسمة ، والغلط[٥] ، والقياس ، والعلة ، والشياع ، ومعنى الجنس ، وخلاف الخصوص وأشبه الوجوه[٦] .... كما يتجلى المنطق كذلك فى هذه الاعتراضات التى يوردها ثم يدفعها أدلة يقيس عليها مارآه[٧] تتجلى المنطقية — أيضاً — فى القسمة العقلية ، فتراه يورد الأوجه المحتملة ، ثم يصححها جميعاً[٨]، أو يبطلها إلا واحدة يتعلق بها الحكم فيصححها[٩]. وأول ماعنى به أبو على من مسائل المنطق « القياس » ، وهو ما سأتناوله بالبيان فيما يأتى :

أبو على والقياس

القياس لغة تقدير شيء على مثال شيء آخر ، وتسويته به[١٠]، وعند المناطقة أن يحاول الحكم على شيء بحكم موجود فى شبيهه ، والقياس قديم عند النحاة لأولين[١١]، فهم يقولون عن عبد الله بن أبى اسحق أنه أول من بعج النحو ، ومد القياس[١٢]

---

(١) الاشارات والتنبيهات للرئيس ابن سينا القسم الأول : ٢٦
(٢) التعريفات للجرجاني : ٧٢ (٣) الحجة : ١/١٧٤ مراد ملا
(٤) الحجة : ١/١٩٠ مراد ملا (٥) الحجة : ١/١١٠ البلدية
(٦) الحجة : ١/٣٧ بلدية (٧) انظر الحجة : ١/٢٥ وما بعدها البلدية
(٨) انظر الحجة : ١/٢٣١ البلدية
(٩) انظر مثلا الحجة : ١/١٦٠ ن مراد ملا
(١٠) ارشاد الفحول للشوكانى : ١٨٤
(١١) الاشارات والتنبيهات لابن سينا القسم الأول : ٢٠٧
(١٢) طبقات الزبيدى : ٢٥

والعلل [١] ، وكذلك كان كل من عيسى بن عمر بن العلاء [٢] وجاء الخليل ومكنته ثقافته وبيئته أن يكون الغاية فى تصحيح القياس ، واستخراج مسائل النحو وتعليله[٣]، واستنبط من ذلك ما لم يستنبطه أحد[٤]، وكان لأبى زيد فضل معرفته بمقاييس النحو [٥]، وكذلك كان ليونس بن حبيب مذاهب وأقيسة تفرد بها[٦] .

أما إمام النحاة فكثيرا ما يشبه — فى الكتاب — مثالا بمثال ، ويجرى على أحدهما مايجريه على الآخر ، لاشتراكهما فى العلة[٧] وأقرأ نصه الآتى ، والحظ مقايسته بين رأى العلمية ، وأن وأخواتها لاشتراك كل فى الدلالة على معنى ، قال : « وإذا أردت رؤية العين لم يجز رأيتنى ، لأنها حينئذ بمنزلة ضربت ، وإذا أردت التى بمنزلة علمت صارت بمنزلته أن وأخواتها ، لأنهن لسن بأفعال ، وإنما يجئن لمعنى ،كذلك هذه الافعال إنما جئن لعلم أوشك ، ولم يرد فعلا سلف منه إلى إنسان يبتدئه[٨] .

ويطول بى الحديث إن ذهبت أستقصى ما أورد سيبويه فى الكتاب من أمثلة القياس ، وحسبى ماذكرت .

واستمر ظهور القياس عند النحاة — بعدسيبويه .. دليلا على براعتهم فى النحو ، ورسوخ قدمهم فيه ، فسعيد بن مسعدة يغلب عليه النحو ومقاييسه[٩] ، وكان يحي ابن المبارك اليزيدى مبرزا فى النحو ، والعلل ، ومقاييسها[١٠]، وكذلك كان كل من المبرد ونفطويه[١١] .

---

(١) تهذيب اللغة للأزهرى مصور بالمجمع اللغوى رقم ٦٢٦ لغة
(٢) انظر طبقات الزبيدى : ٣٦ فى تأويل كل من الرجلين نصب (الطير) فى قوله : إلى « يا جبال أوبي معه والطير »
(٣) نزهة الأنباء : ٢٩
(٤) انظر أمثلة من أقيسة الخليل فى الكتاب لسيبويه مثلا : ٢٧٥/١ ، ١١/٢
(٥) تهذيب اللغة : ٥ (٦) نزهة الأنباء : ٣٢
(٧) انظر مثلا : (٢١٣/١، ٤٣٠) . (٨) الكتاب : ٢٨٦/١
(٩) تهذيب اللغة : ٥ (١٠) المصدر السابق .
(١١) نفس المصدر : ١٣

وكذلك كان الكوفيون قائسين : فالكسائى هو الذى قال : « إنما النحو قياس يتبع »[١] وكثيراً ما يردد الفراء فى معانى القرآن عبارة : فأجر الكلام على هذا ، أو ابن الكلام على هذا[٢] .... ونحو ذلك . وإن كان هناك من فرق بين البصريين والكوفيين فهو فى أن البصريين كانوا يقيسون على الكثير الشائع ، أما الكوفيون فلا يرون بأساً من القياس على الشاذ الذى لا يجوز إلا فى الضرورة ويجعلونه أصلا[٣] .

* * *

هذه نبذة عابرة فى تاريخ القياس ، ومكان كل من النحاة الأقدمين السابقين لأبى على الفارسي فيه ، قدمت هذه الكلمة بين يدى الحديث عن القياس عند أبى على حتى تبدو السلسلة متصلة الحلقات ، وحتى أتبين طابع صاحبي فى تناول القياس ، وطابع النحاة السابقين .

ويبدو من القياس عند السابقين وبخاصة الشيخان : الخليل وسيبويه — أنه قياس فطرى لا أثر فيه للتعمق ، هو مجرد مشابهة شيء بشيء ، أو اعتبار هذا بذاك ، من غير مزج لذلك بالقضايا المنطقية ، أو وصله بالمسائل العقلية البحته ، ومن هنا قام قياس الأقدمين على الحس اللغوى ، وطبيعة الأساليب العربية ، وغلبت فيه الروح الفطرية على الصناعة الفلسفية أو المنطقية .

فماذا كان من أمر أبى على فى القياس ؟!

أبو على يعبر عن القياس بالتوفيق[٤] ، أو موافقة الأشباه[٥] ، ويسميه الأصل المستمر[٦] ، وهو عنده نوع من التشبيه[٧] ، وقد خطا أبو على بالقياس — فى كتابه الحجة — خطوات واسعات أبعدته عن سنن الأقدمين ، فهو :

أولا : نوّع القياس ، وتوسع فيه .

---

(١) بغية الوعاة : ٣٣٧

(٢) معاني القرآن : ١٥ ، ١٨ ، ١٣ (٣) بغية الوعاة : ٣٣٦ .

(٤) الحجه : ٦٢ من البلدية . (٥) الحجة : ٢٧٤/١

(٦) الاغفال : ١١ رقم ٨٧٤ تفسير (٧) البصريات لوحة ٧٧

ثانياً : تعمق فيه حتى أصبح عقليا يتمشى مع الصناعة المنطقية .

ثالثاً : حكم القياس فيما هو ثابت بالنقل والأثر .

تلكم مظاهر ثلاثة للقياس عند أبي علي ، فرقت بينه وبين الأقدمين ، وطورت ظاهرة القياس على يديه — في تاريخ النحو والنحويين ، وسأتناول كل ظاهرة بما يكشف عنها بأمثلة يقاس عليها ، وينقاد على وتيرتها .

أما التنوع في القياس عند أبي علي فأراه في ضربين .

(١) قياس الشبه . (٢) وقياس العلة .

وتحت كل ضرب من هذين أقسام وفروع .

(١) ففي قياس الشبه يقيس أبو علي بعض الكلم على بعض إذا انعقد بينهما شبه ، وقد رأيت أقسامه وفروعه عند أبي علي فيما يأتي :

(ا) القياس الصوتي . (ب) القياس اللغوي . (ح) القياس العروضي .
(د) القياس المعنوي . (هـ) القياس الاعرابي . (و) القياس الصرفي .
(ر) القياس الشرعي . (ح) القياس التعليمي . (ط) قياس الحذف .

وأضرب لكل من هذه الأنواع مثالا يختصر ما أريد بيانه في إجمال :

(ا) فمثال القياس الصوتي قوله : حجة من قرأ بالصاد (الصراط) أن القراءة بالسين مضارعة لما أجمعوا على رفضه من كلامهم ، ألا ترى أنهم تركوا امالة واقد ونحوه كراهة أن يصعدوا بالمستعلى بعد التسفل بالامالة ، فكذلك يكره على هذا أن يتسفل ثم يتصعد بالطاء في سراط[1]

(ب) ومثال القياس اللغوي : قوله : « قالوا سيّ » بمعنى سواء ، كما قالوا القي بمعنى قواء[2] وقالوا سيّان فتنوا كما قالوا مثلان[3] .

(ح) ومثال القياس العروضي : قال : « جعلوا الهاء المتحركة بمنزلة الالف الساكنة ، ألا ترى أن قول الاعشى :

« رحلت سمية غدوة أجمالها »

---

(١) الحجة : ١/٢٩ بلدية .

(٢) القِيُّ : بالكسر قفر الأرض كالقِوَاء بالكسر والمد .

(٣) الحجة : ١/٢٣٠ .

اللام فيه حرف الروى والهاء وصل ، فجعلت الهاء مع تحركها بمنزلة الواو والياء والهاء السواكن فى نحو :

عاذل والعتابا — ونحو حبيب ومنزلى — وإن لام لانمو ، والهاء فى نحو : وبكى النساء على حزه[١] ..

(د) ومثال القياس المعنوى قوله : « وعلى أبصارهم غشاوة » فى المعنى مثل «صم بكم عمى» وكذلك قوله تعالى: «صم وبكم فى الظلمات» ؛ لأن وصف البصير بالكون فى الظلمات بمنزلة الوصف بالعمى ، وكذلك وصفه بكون الغشاوة عليه ؛ لأنه فى هذه الأحوال كلها لا يصبح به أبصار[٢] .

وانظر إلى قياسه المعنوى فى قوله : « وقول موسى (عليه السلام) أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين فى جواب أتتخذنا هزوا ، يدل عل أن الهازىء من الجاهلين[٣] .

(ه) القياس الاعرابى : قال : « وقد دخلت لا زائدة فى مواضع كثيرة فى التنزيل وغيره .. قال تعالى : « ما منعك أن لا تسجد (كذا) وفى الأخرى ما منعك أن تسجد[٤] .

وربما اقتفى أبو على أثر أبى الحسن الأخفش فى شىء من ذلك ، فقد أجاز فى قوله : « وجزاء سيئة بمثلها، أن تكون الباء داخله على خبر المبتدأ ؛ لأنه قد جاء وجزاء سيئة مثلها[٥] ، وليس بغريب أن يكون من أبى على احتذاء للأخفش فى القياس : فقد ألف الأخفش فيما ألف « المقاييس فى النحو »[٦] .

(و) القياس الصرفى : قال: الغشاوة من الغشيان كالجباوة من جبيت فى أن الواو كأنها بدل من الياء ، وإن لم يصرّف منه فعل[٧] كما لم يصرف من الجباوة . وإن شئت قلت : إن غَشىَ يغشى مثل رَضىَ يرضى، ولام الكلمة الواو؛ بدلالة غشاوة وغشوة

---

(١) الحجة : ١/٦١ وما بعدها من البلدية (٢) الحجه (١/٢٨٠ بلديه)
(٣) الحجه : ١/١٥٠ بلديه . (٤) الحجه : ١/١٤٠ بلديه .
(٥) الحجه : ١٨٣ بلديه . (٦) الفهرست : ٧٨ وبغية الوعاة ٢٥٨ .
(٧) قال قبل ذلك : وأما الغشاوة فلم أسمع منه فعلا مصرفا بالواو .

ويكون الغشيان كعليان ودنيا ونحو ذلك (١) .

(ز) القياس الشرعي : قال : المؤمن والمسلم من أسماء المدح في الشرع ، وسوت الشريعة بين التسمية بالمؤمن والمسلم كقوله تعالى : « فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين ، فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين » (٢) .

(ح) وأما القياس التعليمي فقد رأيته يلم به في كتابه الايضاح ، ولعل ذلك مرده إلى النزعة الى صدر عنها في تأليفه ذلك الكتاب على النحو الذى بينت في مكان آخر ، ومن أمثلة ذلك القياس قوله : ما كان من الأماكن مخصوصاً فان الفعل الذى لا يتعدى لا يتعدى إليه : لا تقول : قمت بغداد ، ولا قعدت السوق ، ولا قمت المسجد ، لأن هذه الأماكن مخصوصة كزيد ، وعمرو ، وينفصل بعضها من بعض بصور وخلق ، فهي في ذلك كالإناس ، ولحومهم من الجثث المخصوصة ، فكما لا يتعدى الفعل الذى لا يتعدى إلى الإناس كذلك لا يتعدى إلى ما كان من الأماكن بمعناهم في الاختصاص (٣) .

(ط) ومن أمثلة قياس الحذف : قوله : ليت شعرى أصلها : « ليت شعرتي كما قالوا : « ذهب بعذرها » أصلها ذهب بعذرتها (٤) .

وأنتقل بعد ذلك إلى بيان الضرب الثاني من أضرب القياس عند الشيخ ذلكم هو : قياس العلة . والعلماء إذ يتحدثون عن قياس العلة يذكرون أن القياس فيه مبنى على اشتراك المقيس والمقيس عليه في العلة التي يقوم الحكم عليها . ويقسمونه أنواعاً ثلاثة : —

(ا) قياس الأولى : وفيه تكون العلة في الفرع أقوى منها في الأصل .

(ب) قياس المساوى : وفيه تكون العلة في الفرع والأصل على سواء .

(ج) قياس الأدنى : وفيه تكون العلة في الفرع أضعف منها في الأصل (٥)

وقد رأيت أبا على حين يبرهن على قضية من القضايا غالباً ما يتبع الخطوات الآتية : —

(ا) يصدر أولا تدليله بما يمكن أن أسميه (البرهان المؤسس) وهو أقرب ما يكون إلى القياس المساوى .

---

(١) الحجه : ٢٠٨ مراد ملا . (٢) الحجه : ٢٠٧/١ بلديه

(٣) الايضاح ص ٥٨/١١٢٠ نحو . (٤) الحجه : ١٧٨/١ مراد ملا .

(٥) انظر القياس في اللغه العربيه للأستاذ المرحوم محمد الخضر حسين ط ١٣٦٣ هـ / ٧٧ ومابعدها .

(ب) ثم يتبع ذلك البرهان المؤكد أو المقوى ، وقد يرقى فيه إلى القول بالأولى والأجدر وذلك هو قياس الأولى .

(ح) وربما أتى بالبرهان السلبي الذى يتجلى فى الاعتراض ورده ، وتشير هذه الخطوة إلى القياس الأدنى . وتتبين خطوات أبى على هذه من المثال الآتى ; قال :

(ا) الحجة لقول من قال : أأنذرتهم فلم يجمع بين الهمزتين ، وخفف الثانية أن يقول : « إن العرب قد رفضت جمعهما فى مواضع من الكلام ؛ من ذلك أنهما لما اجتمعتا فى أأدم ، وأأزر ، وأأخر الزموا جميعاً الثانية البدل ، ولم يحققوا الثانية ، ولما كسروا وحقروا جعلوا هذه المبدلة بمنزلة مالا أصل له فى الهمز ، فقالوا أواخر وأويخر . . . (وهذا هو الدليل المؤسس أو قياس المساوى) .

(ب) ثم قال ومن ذلك أنا لم نجد كلمة عينها همزة ، ولامها كذلك . كما وجدنا ذلك فى سائر أخوات الهمزة الحلقية كقولهم مهاه ، وفهٌّ ، ويدع اليتيم .. فإن لم يجمعوا بين الهمزتين فى الموضع الذى جمع فيه بين أخواتها وكررت دلالة على رفضهم لجمعها وإذا لم يتوال ذلك فى بنات الثلاثة فألا يتوالى ذلك فى بنات الاربعة أولى . . . (وذلك هو البرهان المقوى أو قياس الأولى) .

(ح) ثم يأتى باعتراض ويرده فى قوله : فأما نحو قأقأ ، وطأطأ ، وبأبأ الصبى أباه فقد حجز الحرف بينهما ، وإنما الذى ينكر ، تواليهما من غير أن يحجز بينهما شىء[1]. (وذلك هو ما سميته البرهان السلبي ، أو قياس الأدنى)

* * *

وهكذا يتنوع القياس عند أبى على ، وأود أن أذكر أنى لم أقصد فى تعداد هذا النوع الحصر ، فهناك ضروب من القياس تدخل فى بعض الأنواع السابقة حينا ، وتستقل عنها حينا[2] .

ولكنى أردت إعطاء صورة تؤيد هذه النزعة التى جرى عليها أبو على ، حتى يتبين فرق ما بينه وبين السابقين .

وأنتقل إلى بيان المظهر الآخر الذى يميز أبا على فى قياسه عن الأئمة السابقين : ذلكم التعمق فى القياس :

(١) الحجه : ١٨٨/١ ومابعدها مراد الملا .
(٢) راجع الاقتراح للسيوطى : ٣٩ وما بعدها (كتاب القياس)

أما تعمقه فى القياس : فيلقاك فى كثرة غامرة من كتابه الحجة ، وفى مظاهر متعددة ، فهو يقايس حتى لا يكاد يخلو احتجاج لآية من قياس — ويسلك فى قياسه سبيل المناطقة فى التدليل والتعليل ، وأكتفى بمظاهر ستة تشرح سلوكه فى تعمق القياس :

أولا : قضايا من الشكل الأول : — فتراه أحيانا يصوغ الدليل فى صورة قضية منطقية ذات مقدمات ونتيجة ، وأقرأ معى ذلك الكلام تجده يسير فيه سيراً منطقيا يؤلف قضية من الشكل الأول : قال :

وأما قولنا فى وصف القديم (سبحانه) المؤمن ، فإنه يحتمل تأويلين ، وبعد أن ذكر أحدهما قال : والآخر أن يكون معناه المصدق ، أى المصدق الموحدين له على توحيدهم إياه ، يدل على ذلك قوله « شهد الله أنه لا إله إلا هو » . ألا ترى أن الشاهد مصدق لما يشهد ، كما أنه مصدق من يشهد له ، فإذا شهد سبحانه بالتوحيد فقد صدق الموحدين[1] .

ويؤلف هذا الكلام قياسا من الشكل الأول يمكن وضعه على الصورة الآتية :

صغرى ، وكبرى ، ونتيجة .

الصغرى : الله شاهد بالتوحيد فى قوله تعالى : « شهد الله أنه لاإله إلاهو »

الكبرى : وكل شاهد مصدق لما يشهد به (أى التوحيد) كما أنه مصدق من يشهد له (أى الموحدين) .

النتيجة : فالله مصدق للتوحيد ، والموحدين .

وأقرأ تدليله على « المشابهة المعتبرة بين الهاء والياء » مشابهتهما الألف تجده كذلك قياسا من الشكل الأول[2]

---

(١) الحجه : ٢١٥/١ — ٢١٦ البلديه .

(٢) الحجه : ١٢٢/١ البلديه

ثانياً : القياس الاستثنائى الانفصالى : وأبو على مغرم بذلك القياس ، يقدمه للتدليل على كثير من المسائل ، فمثلا العامل فى حيث من قوله تعالى : « الله أعلم حيث يجعل رسالته » لا يخلو من أن يكون أعلم هذه المذكورة أو غيرها ، وأن عمل أعلم فلا يخلو من أن يكون ظرفاً أو غير ظرف ، فلا يجوز أن يكون العامل فيه أعلم هذه ودلل ، ثم انتهى من ذلك إلى أن العامل فى حيث فعل يدل عليه أعلم (١) .

ثالثاً : وهناك ما يشبه القياس الاقترانى المضمر الحملى وذلك قوله : وقول موسى (عليه السلام) أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين فى جواب « أتتخذنا هزوا » يدل على أن الهازئ جاهل (٢) .

وقوله : قوله تعالى : « وعلى أبصارهم غشاوة » فى المعنى مثل « صم بكم عمى » وكذلك قوله تعالى : صم وبكم فى الظلمات ، لأن وصف البصر بالكون فى الظلمات بمنزلة الوصف بالعمى ، وكذلك وصفه بكون الغشاوة عليه ، لأنه فى هذه الأحوال كلها لا يصح له إبصار (٣) .

رابعاً : وتراه يدفع الفارق فى القياس حتى يصح ؛ وليجرى حكماً واحداً على المتقايسين قال :

« فان قلت : إن الألف التى شبهت بها الهاء فى عليهم ودارهم لا تكون إلا ساكنة ، وهذه الهاء متحركة فكيف وفقت بينهما مع اختلافهما من حيث ذكرنا ؟

قيل : إن هذا الذى ذكرت من الخلاف بينهما لا يوجب لهما اختلاف حكم بينهما وبين الألف فيما ذكرنا ؛ لأنهم قد جعلوا الهاء متحركة بمنزلة الألف الساكنة » ، ثم أخذ يدلل على هذه القضية الأخيرة (٤) .

خامساً : ومن أسباب الغلط فى القياس تحريفه ، والجهل بقياسيته (٥) ، ومن هنا تراه لا يجعل علة ما ليس بعلة ؛ وذلك حيث يقول : « وليست الدلالة على أن ضمير الجمع المجرور أو المنصوب أصله الضم — انضمام الهاء فى هم » (٦) .

---

(١) الحجه : ١/ ١٧

(٢) الحجه : ١/ ٣٨٤ مراد ملا . (٣) الحجه : ١/ ٣٠٨ مراد ملا .

(٤) انظر الحجه : ١/ ٦١، ١٩٢ البلديه — وانظر كذلك ١/ ٣٨٨ مراد ملا .

(٥) انظر الاشارات والتنبيهات لابن سينا : ٢٨٩ — ٢٩٢

(٦) الحجه : ١/ ١٢٠ — ١٢١ بلديه

سادساً : ويرد فى كلام أبى على « العموم والخصوص الوجهى » فكل موضع جاز فيه الكسر فالضم فيه جائز[١]، وأما الانذار فاعلام معه تخويف ، فكل منذر معلم ، وليس كل معلم منذرا[٢] .

ومثل الانذار فى أنه ضرب من العلم قولهم اليقين : فكل يقين علم ، وليس كل علم يقينا[٣] .

وأنتقل إلى الفارق الثالث بين أبى على والسالفين — فى القياس وذلك : تحكيم القياس فيما هو ثابت بالأثر ; — وكتاب الحجة كله قائم على ذلك ، وقد حاول أبو على أن يجرى مقاييس العربية على القراءة ما وجد إلى ذلك سبيلا ، فهو يجرى وراء القياس إلى أبعد الحدود ، ولا يقول بالأثر المنقول إلا إذا لم يكن منه بد ، كما فعل فى تعليله إمالة حمزة ما كان منسوقا بالواو من فعل الإحياء[٤] ، وذلك حيث يقول : « ولعل حمزة اتبع فى ذلك أثرا ، لأن القراءة ليست موقوفة على مقاييس العربية دون اتباع الأثر فيها » . ثم نراه — مع ذلك — يوجه ما ذهب إليه الكسائى من ترك الفصل بين الفعل الذى قبله واو أو فاء وبين ماليس قبله من ذلك شىء ، وذلك حيث يقول : « وما ذهب إليه الكسائى . . . . هو الوجه فى قياس العربية »[٥] ، بل أحياناً إذا أعوزه القياس لا يحتج بالأثر ، فتراه يقول : « وليس له وجه »[٦].

وقد لحظت أن ما كان من القراءات موافقاً للقياس وصفه أبو على بالحسن والجمال [٧] وما لم يكن موافقاً وصفه بالقبح[٨] . ويقرر أن الحمل عليه والرد إليه ينبغى ألا يجوز ما وجد عنه مندوحة [٩] .

وإنه ليبلغ الغاية فى الاعتداد بالقياس حين يقرر أن الكتاب جاء عليه ؛ : اقرأ

---

(١) الحجه : ١/١٢٣ بلديه . (٢) الحجه ١٠٠/١٧٢ مراد ملا .

(٣) المصدر السابق ١/١٧٤ .

(٤) يذهب حمزة إلى عدم إمالة الفعل أحيا إذا كان منسوقا بالواو ، ويميل ما كان منسوقا بالفاء ، ولا يفرق الكسائى فيميل المنسوق بالفاء والواو . انظر قرة العين فى الفتح والامالة وبين اللفظين لابن القاصح سورة البقرة . (٥) الحجه : ٢٩٠ مراد ملا .

(٦) الحجه : ٧/٣٨١ البلديه .

(٧) انظر الحجه : ١/٣٦١ — ٣٨٢ البلديه .

(٨) انظر الحجه : ١/٢١٤ . (٩) الحجه : ١/٢٢٤ من البلديه .

قوله في وقف حمزة على جزء في الجر ، والرفع (١) — قال أبو علي : فان وقف بالجر والرفع أسكن الزاي في اللغة الشائعة فقال : « هذا جز ، ومررت بجز ، وإن كان ممن يقول هذا فرجٌ فنقل لزمه أن ينقل الحرف الذي ألقي عليه حركة الهمزة ، فاذا عضد هذا القياس أن يكون الكتاب عليه جمع إليه موافقة الكتاب ، وإنما جاء الكتاب فيما نرى على هذا القياس(٢) .

أرأيتم كيف يجعل الكتاب تابعاً للقياس ؟ وأن القياس هو الاصل عنده وما ثبت بالنقل والأثر هو الفرع ؛ وذلك عندي غاية ما يعتد به في أمر القياس حتى يحكمه أبو علي على هذه الصورة في كتاب الله !

* * *

وبعد فتنوع القياس عند أبي علي ، وتعمقه فيه ، وتحكيمه إياه فيما هو ثابت بالنقل والأثر كل ذلك يحقق ما روى ابن جني عنه إذ يقول : « قال له أبو علي (رحمه الله) بحلب سنة ست وأربعين ، أخطيء في خمسين مسألة في اللغة ، ولا أخطيء في واحدة من القياس (٣) .

ولا يعتذر لأبي علي من نزعته في الاحتجاج ، وتحكيمه القياس على النحو الذي بيّنت إلا ما استظهرته آنفاً من أنه حكم القياس في القراءات ؛ دفاعاً ، وحمية للكتاب الكريم أمام هؤلاء المكابرين المعاندين الطاعنين (٤) .

ولموقف أبي علي من القياس أرى أنه كتب الحجة بروح النحوي لا بروح القارئ ، فإذا أضفت إلى ذلك موقفه من القراءات الصحيحة التي تخالف مذهبه النحوي (٥) ، وكثرة تعرضه للمسائل النحوية والصرفية ، والبرهنة على ما يراه من هذه المسائل برهاناً قائماً على التدليل المنطقي في تقص واستطراد (٦) — إذا أضيف ذلك عرفنا السبب في جفوة القراء عن حجته ، وبعدهم منه ، وصدودهم عنه ، حتى عدوه كتاب نحو بما فيه من تخريج ودراية ، لا كتاب قراءات يتبع فيه التلقي والرواية .

* * *

(١) الرفع كما في قوله تعالى : لكل باب منهم جزء مقسوم » وأما جزء بالجر فلم ترد في القرآن الكريم . راجع مفتاح كنوز القرآن

(٢) الحجه : ١/٣٨٨ مراد ملا . (٣) الخصائص : ١/٤٨٣ .

(٤) انظر مطلع الحديث عن الحجة في هذا البحث . (٥) بينت ذلك في مكان آخر

(٦) ضربت أمثلة لاستطراده عند الكلام على نهجه في الحجة .

ويجدر بي — وأنا أتحدث هنا عن القياس — أن أذكر الرأى فى أمر فهمه الأستاذ أحمد أمين على غير وجهه ، وقرره فى بحث ألقاه على مؤتمر المجمع ، وناقش المؤتمرون هذا الرأى دون أن يفطنوا إلى الحقيقة فيه ، وتناقل العلماء فى كتبهم ما انتهى إليه الأستاذ أحمد أمين — خطأ — عن رأى أبي على فى القياس . والدراسة الفاحصة تقضى بالرجوع إلى كتب أبي على ، والاتصال بنصوصه فيها ، حتى نظفر بنتائج صحيحة ، ويستقيم لنا الحكم على أبي على ونظرته فى القياس ، وتقويم الرأى فيه :

فماذا قال الأستاذ أحمد أمين ؟

ألقى الأستاذ بحثاً بعنوان مدرسة القياس فى اللغة « فى الجلسة التاسعة من جلسات مؤتمر المجمع فى دورته الخامسة عشرة » .

قسم الأستاذ المشتغلين بالعلم — ومنهم اللغويون والنحاة — إلى أحرار ، وهم الذين يقيسون مالم يرد فيه نص على ما ورد فيه نص — ومحافظين يلتزمون ما ورد فى اللغة ، ولا يخرج منه بحال من الأحوال [1] ، وقرر أن من اللغويين المحافظين الذين وقفوا عند ماورد — الأصمعى وابن الأعرابى ، وأبا زيد ، واستدل على محافظتهم بأنهم لم يكونوا يستبيحون لأنفسهم أن يقولوا كلمة ، أو يشتقوا اشتقاقاً إلا عن سماع ، وكذلك جعل منهم أصحاب المعاجم كالجوهرى ، والفيروزابادى ، وابن منظور ؛ لأنهم لم يقيسوا على ما رووا [2] .

ثم جعل بجانب هؤلاء قلة من القياسيين ممثلة فى أبي على الفارسى ، وتلميذه ابن جنى ، واستدل المرحوم أحمد أمين على قياسية أبي على فنسب إليه العبارة الآتية :

« ما قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب » [3] ، وقوله : « لأن أخطئ فى خمسين مسألة بما به الرواية أحب إلى من أن أخطىء فى مسألة واحدة قياسية » ، وقول أحد تلاميذه : أحسب أن أبا على قد خطر له ، وانتزع من علل هذا العلم ثلث ما وقع لجميع أصحابنا [4] .

(١) انظر محضر الجلسة التاسعة من الدورة الخامسة عشرة ص (٢) .

(٢) انظر نهاية ص٤ من المحضر المذكور .

(٣) قائل هذه العبارة أبو عثمان المازني «ت٢٤٧هـ» لا أبو على انظر الخصائص : ٣٦٢/١ (والاقتراح : ٢٦) .

(٤) يبدو واضحا اعتماد الدكتور إبراهيم أنيس على هذه المحاضرة فى كلامه عن القياس : قابل ص ٢٠ من أسرار اللغة وص ٤ ، ٥ من محاضرة الدكتور أحمد أمين . ومن هنا اكتفى بمناقشة الدكتور أحمد أمين ؛ ففى ذلك غناء عن مناقشة من نقل عنه .

ونصوص أبي علي كاشفة عن رأيه في القياس على غير ذلك الذي انتهى إليه الأستاذ أحمد أمين ، وفيها يبدو أبو علي أقرب إلى المحافظين منه إلى المجددين ، واقرءوا نصه الذي قال في الحلبيات : « ولو لم يعاضد القياس السماع حتى يجيء السمع بشيء خارج عن قياس لوجب اطراح القياس ، والمصير إلى ما أتى به السمع ، ألا ترى أن التعلق بالقياس من غير مراعاة السمع منه يؤدي إلى الخروج عن لغتهم والنطق بما هو خطأ في كلامهم ؟ فلو أعللت استحوذ ، ولم تراع فيه السماع وقلت : « انه جاء معلا نحو استعاد ، واستفاد ، فكذلك أعل هذا المثال قياساً على الكثير الشائع ، لكنت ناطقاً بغير لغتهم ، ومدخلا فيها ما ليس منها ، فالقياس أبداً يترك للسماع ، وإنما يلجأ اليه إذا عدم في الشيء السمع ، فأما أن يترك السماع للقياس فخطأ فاحش ، وعدول عن الصواب بين . ألا ترى أنه يجوز في القياس أشياء كثيرة ؛ نحو الجر في لدن غدوة ، والضم في لعمرك في القسم ، واستعمال الماضي في يذر ويدع ، وإيقاع أسماء الفاعلين أخباراً لكاد ، وعسى ثم لا يجيء به السماع فيرفض ولا يؤخذ ، ويطرح ولا يستعمل ، ويكون المستعمل لذلك آخذاً بشيء رفضه أهل العربية كما رفضوا استعمال سائر اللغات التي ليست بلغة لهم ، وهذا طريق يؤدي سالكه إلى خلاف ما وضعت له العربية ؛ لأن هذه العلل إنما تستخرج من المسموعات بعد اطرادها في الاستعمال ، لِتُوَصِّل إلى النطق به على حسب ما نطق به أهل اللغة العربية ، وتسوى في الفصاحة بمن أدركها ، ويأمن بتمسكه بها الزيغ عن لغة الفصحاء المعربين إلى لغة من لم يكن على وصفهم ، فإذا أدى إلى خلاف ذلك وجب أن ينبذ ويطرح ؛ من حيث كان ضداً عما له وضعت هذه الصناعة ، واستخرج من أجله هذا العلم [1] .

ولهذا النص دلالات :

أولها : ما يجوز في القياس ، ولا يجيء به السماع يرفض ، ويطرح ولا يستعمل أو كما يقولون : « يحفظ ولا يقاس عليه » .

ثانيها : القياس على الشاذ خطأ ، والآخذ به آخذ بشيء رفضه أهل العربية ، وادخال فيها لأجنبي عنها ليس منها

ثالثها : يسوى أبو علي الآخذ بالقياس على الشاذ باستعمال سائر اللغات الأجنبية عن لغة العرب .

(١) الحلبيات : نحوش ورقة ٥٢ .

رابعها : السماع مقدم على القياس ، وترك السماع للقياس خطأ فاحش ، ولا يلجأ إلى القياس إلا إذا عدم السماع .

خامسها : الغرض من القياس تمكين غير العربى من النطق بما نطق به أهل العربية ، وتسويته فى الفصاحة بأهلها ، وذلك لا يكون إلا بالقياس على المسموعات المطردة فى الاستعمال .

وسادسها : أن أبا على يقف موقفاً وسطا بين المحافظين والمجددين ، بل كان محافظا فى تجديده ، فالقياس فى اللغة أمر دعت إليه الحاجة فيؤخذ به على مقدارها[1] ، ومن هنا توسط فى القياس ، فرأى أن ما لم يسمع لا يقاس عليه حتى ولو كان المقيس عليه كثيراً شائعاً ، وهذه نظرة محافظة ، فالقياس عنده على المسموع الوارد ، لا على الذى لم يرد . ثم هو بعد ذلك يرى اللجوء إلى القياس إذا عدم السماع ، فإذا جاءت الرواية لم يرد بالقياس[2] ، وهناك فريق أفسح طريق القياس ، ووسع ميدانه على وجه لم يقره أبو على ومن هؤلاء المبرد ، فقد رأى سيبويه أن أما فى قول الشاعر :

« أبا خراشة أما أنت ذا نفر » لا يذكر بعدها الفعل المضمر ؛ لأنه من المضمر المتروك اظهاره حتى صار ساقطا بمنزلة تركهم ذلك فى النداء[3] . وجوز أبو العباس المبرد فى القياس وقوع الفعل بعد أن ، ولم ير ذلك ممتنعا ، وتعقبه أبو على فى البغداديات فقال :

« فأما ما ذكر أبو العباس فى الرد من أنه لا يرى وقوع الفعل بعد أن هذه ممتنعا ، وأنه جائز عنده فى القياس فكالمغالطة ، ألا ترى أنه قد يجوز فى القياس أشياء كثيرة لا يجىء به الاستعمال . . وكذلك إظهار الفعل فى هذا الموضع لا يجوز لشذوذه عن عن الاستعمال ، وإن أجازه القياس . . . . ثم كرر رأيه الذى ذكره فى الحلبيات من أن العلل إنما تستخرج ، وتوضع بعد سماع الشىء واطراده فى الاستعمال ؛ ليوصل إلى النطق بالشىء على حسب ما نطق به أهل اللغة ، فإذا أدى إلى خلافه ، وجب أن يشذ ويطرح ، لحكم السماع فى أن يتقدم القياس ، فإذا لم يتقدمه فلا موضع للقياس . . . . . وقرر بعد ذلك أنه لا يقاس على الشاذ فى قوله :

---

(١) انظر القياس فى اللغة للأستاذ محمد الخضر حسين (رحمه الله) : ٥٢

(٢) الحجه : ١/٣٦٣ مرادملا . (٣) انظر الكتاب : ١٤٨

« فإذا لم يسمع الشيء إلا على بينه ، ولم يحفظ إلا على هيئة ، فلا معدل عنه إلى سواه ، ولا مجاوزة فيه إلى ما عداه ما لم يسمع منهم فلم يحفظ عنهم ، فعلى هذا مجرى القياس النحوى وحكمه[1] » .

فهل يعد أبو على بعد هذه النصوص الصريحة — مجدداً ؟ وهل نعتبره من اللغويين الأحرار بعد هذه القيود التى وضعها للقياس ؟ ؟ والتى حرص على ترديدها فى كتبه المختلفات ، فى البغداديات ، وفى الحلبيات ، وفى الحجة ، على أنى رأيته فى العسكريات[1] يورد أقسام الشاذ ويجعلها ثلاثة :

(ا) الشاذ عن الاستعمال المطرد فى القياس . (ب) والمطرد الاستعمال الشاذ عن القياس .

(حـ) الشاذ فى الاستعمال وعن القياس ، ثم يرفض هذه الأقسام جميعاً ، ولا يأخذ إلا بالمطرد فى القياس والاستعمال : (السماع) متفقا فى ذلك مع نظرة المحافظين[2] .

وهكذا يكرر أبو على فى كتبه رأيه فى القياس ويصور لنا هذا الرأى أبا على أقرب إلى المحافظين منه إلى المجددين ، وإذا كان الأمر كذلك فما تفسير قوله : « أخطىء فى خمسين مسألة فى اللغة ، ولا أخطىء فى واحدة من القياس ؟ وكيف لا تجعله هذه القولة من الأحرار المجددين كما ذهب إليه الاستاذ أحمد أمين ؟ »

تفسيرها ما انتهيت إليه فى غضون هذا الفصل من أنه نوَّع القياس ، وتعمق فيه ، وحكمه فيما هو ثابت بالنقل والأثر ، فخرج القراءات ، واعتبرها بما ورد فى اللغة — ، وما سمع منها ، وكانت براعته فى القياس دليلا على رسوخ قدمه فى الصنعة فأحب إلى نفسه أن يخطىء فى اللغـــة ، ولا يخطىء فى القياس حتى أنه ليتجاوز عن خطئه فى خمسين مسأله لغوية ، ثم يعدها كبيرة إن أخطأ فى واحدة من القياس . وما كان الرجل خَطَّاءً فى اللغة أوالقياس ، ولكنه أخرج العبارة مخرج ما يعتبر الناس .

وبعد ، فقد وصف الأستاذ أحمد أمين صاحبي بالحرية والتجديد ، وكنت أود

---

(١) البغداديات لوحة ٣٥،٢٦ .

(٢) العسكريات لوحة ١٣٤ .

(٣) انظر من أسرار اللغة للدكتور إبراهيم أنيس ص ٢٠ وما بعدها .

أن يكون كذلك ، لولا أن سبيلى هنا تصحيح الرأى ، وتقويم أبى على بما له وما عليه فى انصاف بعيد عن التحيز ، ومن غير محاباة أو محاماة ، مستدلا بالنصوص الواردة فى كتب الشيخ ، وبأقواله الشاهدة على نزعته ، ومما يتصل بهذا مسألة أخرى فهم فيها أبو على على غير رأيه ، ووصف فيها — كذلك بالتجديد — تلكم مارآه بعض الناس فى زماننا حول ما أسموه مشكلة الاعراب ، وفيما يلى تناول رأى أبى على بالتحقيق :

نجمت فى أيامنا هذه دعوة إلى ترك الإعراب ، واستعان أصحاب هذه الدعوة بسيبويه وصاحبى أبى على — يتكىء الداعون على نصوصهما فى تأييد ما إليه يذهبون ، وقال هؤلاء :

« إنه قد وردت آيات أسكنت فيها حركات الاعراب مثل قوله تعالى : « وبعولتهن أحق بردهن » باسكان التاء . ومثل : « وما يعدهم الشيطان » ومثل : « وإذ يعدكم الله» باسكان الدال فيهما ، ومثل « فتوبوا إلى بارئكم » باسكان الهمز . قالوا : وقد تناولها علماء القراءات بالبحث فرجعوها إلى أصولها (١) . وأوردوا نص أبى على الذى يقول فيه : « أما حركة الإعراب فمختلف فى تجويز اسكانها ، فمن الناس من ينكر فيقول : « إن اسكانها لايجوز من حيث كانت علماً للاعراب ، وسيبويه يجوز ذلك فى الشعر (٢) .

ومن الحق على — وموضوع بحثى أبو على ، — أن أتناول هذه الدعوة بالتمحيص والنقاش فأقول :

يسقط دعوى هؤلاء من أساسها أن سيبويه وأبا بكر بن مجاهد رويا عن أبى عمرو فى قوله تعالى : إلى بارئكم — اختلاس حركة الاعراب : ذلك الاختلاس الذى يسرع فيه القارىء باللفظ إسراعا يبقى على الحركة ويحذفها ، ولم يرويا الاسكان أصلا ، ووافقهما أبو على محتجاً للاختلاس لا للاسكان فى قوله تعالى : إلى بارئكم ، ويعلمهم الكتاب ، ويلعنهم الله (٣) .

وقد عقد سيبويه فصلا فى الكتاب سماه « باب الإشباع فى الجر والرفع وغير الإشباع والحركة كما هى » قال فيه : « فأما الذين يشبعون فيمططون ، وعلامتها

---

(١) انظر الرسالة الجديدة : العدد الحادى عشر /٨ .
(٢) انظر الهلال : فبراير ٥٥ مشكلة الإعراب .
(٣) انظر الحجة : ١/٣٦٦ مراد ملا .

واو وياء وهذا تحكمه لك المشافهة ، وذلك قولك : يضربها ومن مأمنك وأما الذين لا يشبعون فيختلسون اختلاسا ، وذلك قولك يضربها ، ومن مأمنك يسرعون اللفظ . ومن ثم قال أبوعمرو إلى بارئكم ، ويدلك على أنها متحركة قولهم : من مأمنك فيبينون النون ، فلو كانت ساكنة لم تحقق النون [1] » .

صحيح ورد فى كتاب سيبويه تسكين المرفوع ، والمجرور فى الشعر ، وقد جعله النحاة من أقبح الضرورات [2] .

ومثل ما قال إمام النحاة روى شيخ القراء : ابن مجاهد فقال : اختلفوا فى « بارئكم » فى كسر الهمزة ، واختلاس حركتها ، وذكر القراء الذين يكسرون ، والذين يقرءون باختلاس الحركة ، وأورد ماروى سيبويه عن أبى عمرو ، وما حدثه الشيوخ عن أبى عمرو أيضاً فى قراءته « ويعلمهم الكتاب ، ويلعنهم باشمام الميم والنون التى قبل الهاء الضم من غير اشباع ، وكذلك عن أسلحتكم وأمتعتكم ، ويزكيهم ويعلمكم ، ويوم يجمعكم ، وكذلك قراءته « يأمركم ويأمرهم وينشركم . . . وما أشبه ذلك من الحركات المتواليات . ثم أورد ابن مجاهد قول اليزيدى فى ذلك كله أن أبا عمرو كان يسكن اللام من الفعل فى جميعه . ولكنه رد ذلك بقوله : « والقول ما خبرتك من إيثار أبى عمرو التخفيف فى قراءته كلها [3] .

وجاء أبو على من بعد سيبويه وأبى بكر — وقبل أن يحتج لما ذكر أبو بكر من اختلافهم فى بارئكم » — تحدث فى الساكن والمتحرك من حروف المعجم ، وضروب كل منهما ، وقسم الحركة إلى حركة اعراب ، وحركة بناء ، وذكر أن حركة البناء لا خلاف فى تجويز اسكانها ، وأما حركة الاعراب فمختلف فى تجويز إسكانها ، قال : « وسيبويه يجوز ذلك ، ولا يفصل بين القبليين فى الشعر » وذكر — فيما ذكر — الشواهد الشعرية التى رواها سيبويه فى الكتاب [4] . ثم برهن على ما يرى سيبويه ، فجاء برهانه على جواز إسكان حركة الاعراب فى الشعر ، لا فى سعة الكلام [5] .

---

(١) الكتاب : ٢/٢٩٧ .

(٢) انظر شرح الشواهد للشنتمرى : أسفل الكتاب : ٢/٢٩٧ .

(٣) انظر الحجة : ١ : ٣٦٠ وما بعدها . (٤) انظر : ٢/٢٩٧ .

(٥) انظر الحجة : ١/٣٦٤ مراد ملا

ثم خلص من ذلك إلى الاحتجاج لقراءة أبي عمرو بالاختلاس ، واتفق مع سيبويه وابن مجاهد فقال : « لعل من رواها عن أبي عمرو بالإسكان سمعه يختلس فحسبه لضعف الصوت به والخفاء إسكاناً ، وعلى هذا يكون قوله : « ويعلمهم الكتاب ويلعنهم الله ، وكذلك عن أسلحتكم ، وأمتعتكم ، ويزكيهم ويعلمهم ، ويوم يجمعكم ، ولا يأمركم . » هذا كله على الاختلاس مستقيم ، ومن روى عنه الاسكان — وقد جاء ذلك في الشعر — فلعله ظن الاختلاس إسكاناً [1] .

وهذا أبو سعيد السيرافي يرى أن نحو « وقد بدا هنك من المئزر » مرفوع تركت ضمته استثقالا [2] . وكذلكم قرر ابن جني في الخصائص أن قراءة أبي عمرو إلى بارئكم بالإختلاس غير ممكن كسرة الهمزة ، « حتى دعا ذلك من لطف عليه تحصيل اللفظ إلى أن ادعى أن أبا عمرو كان يسكن الهمزة ، والذى رواه صاحب الكتاب اختلاس الحركة لا حذفها البته ، وهو أضبط لهذا الأمر من غيره من القراء الذين رووه ساكناً » ثم يعتذر ابن جنى من موقف القراء ، ولعله يقصد اليزيدى فيقول : « ولم يؤت القوم فى ذلك من ضعف أمانة ، لكن أتوا من ضعف دراية [3] .

أبعد هذه النصوص الصريحة يدعو الداعون إلى جواز إسكان حركة الاعراب ؟ إن سيبويه لم يرو الإسكان إلا فى الشعر ، واحتج أبو على لهذا الذى روى سيبويه ، فهل تجعل الضرورة الخاصة قاعدة عامة يؤخذ بها فى سعة الكلام ؟

إلى أن سيبويه ، وابن مجاهد ، وأبا على ، والسيرافى ، وابن جنى — ويتفق معهم ابن خالويه [4] — لا يقولون بالاسكان فى إلى بارئكم ونحوه ، ويؤولون ماورد عن اليزيدى بما رأينا ، فكيف ينسب أصحاب هذه الدعوة إلى سيبويه ، وأبى على ، ومن لف لفهما — مانسبوا ؟ وكيف يرتبون على ذلك القول بجواز ترك الإعراب ؟ ؟

وبعد : فكم كنت أود لو أن صاحبي قد سبق إلى روح التجديد — كما يقول أصحاب هذه الدعوة — وأن المجددين يجدون فى نصوصه دليلا يؤيدون به ما إليه يتجهون . ولكن النصوص كما رأينا — لا تعين على صحة مايذهب إليه هؤلاء الداعون [5] .

---

(١) الحجة : ١/٣٦٦ . (٢) شرح السيرافى على سيبويه : ٣/٦٤٩ ، ٦٥٠ .

(٣) الخصائص : ١/٧٥ . (٤) انظر الحجة لابن خالوية : ورقة ٩ وجـه .

(٥) أردت أن أبين حقيقة موقف أبي على من هذه الدعوة غير مسترسل فى التعرض إلى الدعوة ذاتها بالتفنيد ، أو التأييد ، فليس هنا لشىء من ذلك مجال .

علل أبى على وتقويمها

بعض تعليلات أبى على مصطنع ، يجتهد فيه على حسب ما يحضره فى الحال ، فيبدو عندئذ التمحل فى التعليل والاستدلال ، من ذلك طلب عضد الدولة منه تعليل نصب الاسم الواقع بعد إلا فى نحو « خرج القوم إلا زيداً » فيعلل الشيخ ، ويراجعه عضد الدولة ، فينطق أبو على بما يدل على أن تعليله من قبيل الاجتهاد فى التماس العلة ، واصطناعها ، والتمحل فيها ، وذلك إذ يقول : « هذا جواب ميدانى ، وإذا رجعت ذكرت لك الجواب الصحيح »[١] ، ويسجل أبو على نحواً من هذا على نفسه فى مسألة أخرى ، وذلك ما يحكى ابن جنى عنه « كان أبو على (رحمه الله) يقول فى هيهات : أنا أفتى مرة بكونها إسما سمى به الفعل كَصَهْ ومه ، وأفتى مرة أخرى بكونها ظرفا على قدر ما يحضرنى فى الحال »[٢] .

وهذا التعليلات — على ما فيها من صناعة — تدل على ما عند أبى على من براعة ، حيث يستطع أن يفتى بأمرين متخالفين ، ويلتمس العلة لكل منهما مع تخالفهما ، وقد برهن فى البغداديات على أن ما فى قوله تعالى « ومما رزقناهم ينفقون » — حرف[٣] ثم عاد فى الشيرازيات ، وبرهن على أنها موصولة[٤] . وإذا كانت النظرة المجددة لا تلقى بالا لهذه العلل النحوية المصطنعة[٥] ، ونرجو بحق أن يتخلى النحو عنها تخليا تاما[٦] — فإن التخريجات النظرية كانت دليلا على رسوخ القدم فى الصنعة ، فى عصر تفلسفت العلوم فيه ، وشاع ذلك التفلسف فى فروع العلم المختلفة وفيها النحو . وآية ذلك ما قال أبو على فى الألف من يا فى قول الشاعر :

فخير نحن عند النـاس منكم   إذا الداعى المثوب قال : يا لا

---

(١) نزهة الألباء : ٢١٠ . والانصاف : ١/١٧٠ — وكان الشيخ يسير مع عضد الدولة فى الميدان بشيراز .

(٢) الخصائص : ٢١٣ .   (٣) البغداديات : لوحة ٢٢ .

(٤) الشيرازيات : لوحة ١٢٩ .

(٥) انظر الرد على النحاة لابن مضاء : وإحياء النحو لابراهيم مصطفى .

(٦) انظر الاجتهاد فى النحو العربي لأمين الخولى : ١٣ .

وذهابه إلى أنها خلطت باللام بعدها ، ووقف عليها ، فصارت اللام كأنها جزء منها فصارت (يال) بمنزلة قال ، والألف فى موضع العين وهى مجهولة فينبغى أن يحكم عليها بالانقلاب عن الواو !! — وما أثار هذا التعليل المصطنع من اعجاب ابن جنى حتى يقول فيه وفى الشيخ : « وهذا أجمل ما قاله ، ولله هو ! (وعليه رحمته) ! فما كان أقوى قياسه ! ، وأشد بهذا العلم اللطيف الشريف أنسه ! فكأنه إنما كان مخلوقا له ، وكيف لا يكون كذلك ، وقد أقام على هذه الطريقة مع جلة أصحابها ، وأعيان شيوخها سبعين سنة ، زائحة علله ، ساقطة عنه كلفه ، وجعله همه وسدمه [1] .

وابن جنى يشير فى نصه هذا إلى أسـباب أخرى لبراعة أبى على فى التعليل والقياس ، فهو قد تمرس به ، زمناً طويلا ، واتجه بهمته إليه ، وعكف فارغ البال عليه ، (حتى انتزع — كما يقول ابن جنى — من العلل ثلث ما وقع لجميع أصحابه !!) [2]

وأرى أن يضاف إلى ما ذكر ابن جنى من الأسباب ثقافة أبى على العربية الشاملة ، وإكبابه على الكتاب ، مع ذكاء ، وقوة حافظة ، وسرعة استحضار .

* * *

بجانب هذه التعليلات المصنوعة — تعليلات أخرى يتهدى فيها الشيخ بالحس النفسى [3] أو بالنظر البلاغى ، كقوله فى إعراب صبيا من قوله تعالى : « كيف نكلم من كان فى المهد صبيا ؟ » أنه حال من نكلم أى كيف نكلمه صبيا ؟ وإن جعلته حالا مما فى المهد كان الأول أحسن ؛ لأنه أدل على موضع المعجزة [4] .

* * *

ومن المهم أن أذكر — وأنا فى صدد تقويم أبى على فى تعليله — أن الرجل فطن فى بعض ما علل إلى ما يقوله المحدثون من علماء اللغة والأصوات ، فقد أورد فى معرض الاحتجاج لقراءة عليهم بالكسر ، وترجيحها هذا الاعتراض :

---

(١) الخصائص : ١ / ٢٨٤ — ٢٨٥

(٢) الخصائص : ٢١٥ ولست أرى لم قدر ابن جنى الثلث ولم يزد ولم ينقص : وعلى أى أساس قاس هذا التقدير ؟ .

(٣) انظر بحث الشيرازيات وانظر لوحق ٤٣، ٧٤ من هذه المسائل .

(٤) البصريات : ٨٥ .

فإن قال قائل : « إن الضمة هى الأصل فى عليهم ، وبهم ، ونحو ذلك ، بدلالة أن علامة المضمر المجرور كعلامة المضمر المنصوب المتصل ، وأن ما جاز فيه الكسر جاز فيه الضم ، نحو بِهُـو ، وبدارِ هُو الأرض ، وليس كل ما جاز فيه الضم يجوز فيه الكسر ، تقول هذا له ، وسكنت دار هو ، ولا يجوز كسر الهاء فى شىء من ذلك ، وإذا كان استعمال الضم فيه أعم وكان الأصل ، وجب أن يكون أوجه من الكسر »

قيل : « إن كون الضم الأصل ليس مما يجب من أجله أن يختار على الكسر مع مجاورة الكسرة أو الياء ؛ لأنه قد تحدث أشياء توجب تقديم غير الأصل على الأصل طلبا للتشاكل ، وما يوجب الموافقة ، ألا ترى أن الأصل الذى هو السين فى الصراط الصاد أحسن منه ؟ ، وأن النون التى هى الأصل فى شنباء قد رفضت وترك استعمالها[1] .

وأبو على فى هـذا يلتقى مع نظرية المحدثين من علماء الأصوات تلكم ظاهرة التشاكل (Assimilation)[2] ، وفيها يتحول أحد الصوتين المتجاورين أو المتقاربين إلى صوت من نوع الصوت الآخر ، وقد قسموا ظاهرة التشاكل هذه قسمين :

(ا) فاذا تأثر الصوت الأول منهما بالآخر سمى ذلك التأثر رجعياً (REGRESSIVE)[3] .

(ب) وإذا تأثر الصوت الآخر منهما بالصوت الأول سمى ذلك التأثر تقدمياً (PROGRESTIVE) .

وأرى أبا على قد جمع فى نصه السابق نوعى التأثر المذكورين ، فكان التأثر فى قراءة عليهم وبهم من النوع التقدمى ، إذ تأثرت حركة الهاء بالياء فى عليهم وبكسرة الباء فى بهم ، فحركت من أجل ذلك بالكسرة طلباً للمماثلة .

وكان التأثر فى الصراط بالصاد وشنباء بالميم من النوع الرجعى ، حيث قلبت السين صاداً حتى تتشاكل مع الطاء ؛ لأنهما من حروف الاستعلاء والاطباق[4] ، كذلك قلبت النون ميما فى شنباء ؛ حتى تتشاكل مع الباء ، وهما حرفان شفويان[5] .

(١) الحجة : ١/٤٦ مراد ملا

(٢) انظر ص ٧٠ وتوابعها من DAWZAT LA VIE DU LANGAGE

(٣) انظر الأصوات اللغوية للدكتور إبراهيم أنيس ١٠٦ وما بعدها واللهجات العربية : ٥١

(٥) ارتشاف الضرب : ٨ والنشر ١/٢٠٢ ، ٢٠٣

(٦) ارتشاف الضرب لأبي حيان : ٥ والنشر : ١/٢٠١

والتأثر الرجعى يدل على الاستعداد ، والتأهب للنطق قبل أن يلابس المتكلم النطق بالحرف وهو عندى نوع من النشاط الفكرى والنطق معاً [١] ، وفى اللغة العربية كان التأثر الرجعى أكثر شيوعاً من التأثر التقدمى [٢] مما يدل على أنها لغة نشاط فكرى ونطق ، لأنها لغة منطوقة قبل أن تكون مكتوبة ، وذلك شىء يتصل بما يتصف به العرب من فصاحة وبيان ، وقد لحظ ذلك أبو على، وأشار إليه ، وإن لم يفصح به وذلك قوله : « قد تحدث أشياء توجب تقديم غير الأصل على الأصل ؛ طلباً للتشاكل [٣].

* * *

وأمر آخر فطن اليه أبو على ، والتقى فيه مع المحدثين ، وأقره علماء الأصوات منهم ، ذلك قوله : أواخر الآى موضع وقوف ، والوقوف رأيناه قد أوجب إعلالا فى الموقوف عليه ، وتغييراً عما عليه فى الوصل ، ويشرح ذلك فيقول : « ألا ترى أنهم قد أبدلوا من التاء الهاء فى نحو رحمة ؟ ومن الألف الياء أو الواو فى نحو أفْعَى وأفعوْ ؟ وزادوا فيه فى نحو هذا فرجّ ، وهو يجلّ ؟ ونقصوا منه فى نحو :

« وبعض القوم يخلق ثم لا يفر » [٤] .

ذلكم كلام أبى على ، فماذا قال المحدثون ؟ قالوا : « إن موقع الصوت فى الكلمة يعرضه لكثير من صنوف التطور والانحراف ، وأكثر ما يكون ذلك فى الأصوات الواقعة فى أواخر الكلمات [٥] . وأنتم ترون أن أبا على يلتقى مع المحدثين فى تقرير هذه القاعدة أولا ، وفى ضرب الأمثلة لصنوف التطور — من إبدال أو زيادة أو نقص — ثانياً [٦] .

وتوفيق أبى على فى التعليل ، والتقاؤه مع المحدثين — ربما يرجع فى بعض منه

---

(١) القراءات واللهجات العربية ـ الامالة : ٢٢٢

(٢) انظر القراءات واللهجات العربية ـ الامالة : ٢٧٠ ـ ٢٧٢ .

(٣) الحجة : ١/٦٤ مراد ملا . (٤) الحجة : ١/٣٨١ وانظر ٧/٣٥٧ من البلدية .

(٥) انظر علم اللغة للدكتور على الواحد : ٢١٤ وفقه اللغة له أيضا : ١٤٨ .

(٦) ألقى الدكتور عبد الوهاب عزام على مؤتمر المجمع فى دورته الثانية والعشرين بتاريخ ١٢/١/١٩٥٦ بحثا عن « أحكام القوافى فى الانشاد » تعرض فيه لما يعترى القوافى من حذف أو زيادة، وتبادل المؤتمرون من أعضاء المجمع الرأى فى ذلك وتعليله . وكان يختصر لهم التعليل لهذه الظاهرة ماذكره أبوعلى من أن الأواخر موضع وقوف ، والوقف يوجب تغييرا مما عليه فى الوصل .

إلى تأثره بما كان للهنود فى الاصوات من دراسات ، وبما كان للقراء فى فن التجويد من تفصيلات[١] .

العروض فى الحجة

لم يعرف عن أبى على أنه ألف فى العروض ، أو القوافى ، وإن كان تلميذه ابن جنى له فى ذلك كتاب العروض والقوافى ، ومختصر القوافى[٢] ، وأبو على مع ذلك له صلة وثيقة بالعروض ، ورجاله ، فقد التقى منذ صباه الباكر بأبى جعفر البصير الموصلى العروضى ، وكان إماما فى استخراج المعمى والعروض ، وهو الذى قال له الزجاج يوما وقد سأله عن أشياء من العروض : يا أبا جعفر! لو رآك الخليل لفرح بك[٣]

وقبل أن ينظر أبو على فى العروض كان يدلل على مسائله بما يعرف من مسائل النحو كجوابه عن خرم متفاعلن[٤]. وتدل كتب أبى على أنه اتصل بما ألف أبو الحسن الأخفش فى القوافى[٥]، كما أنه اتصل كذلك بما ألف أحمد بن محمد أبو الحسن العروضى ، وكان أماما فى العروض[٦] ، وتطالعك معرفة أبى على للعروض فى حديثه هنا وهناك فى كتاب الحجة : رأيته يسوق الشاهد الشعرى للتحدث فى قياس عروضى[٧] أو لأمر يتعلق بالقافية ، تحدث عن الروى ، والتأسيس ، والردف[٨] وفى لزوم مايلزم[٩] وفى الضرورات الشعرية[١٠] ويسوق تعليلات تتعلق بالعروض أو القافية : لم تعاقبت السين والفاء فى مستفعلن التى هى عروض البيت الأول من المنسرح ؟[١١] ولم وقعت الواو والياء ردفا فى قصيدة دون الألف[١٢]؟ كما دلل على أن الهاء فى وزن الشعر وإن كانت خفية تجرى

---

(١) التطور النحوى للغة العربية : برجستراسر (ص٥)

(٢) أنظر فهرس المخطوطات المصورة : ٤١٥ وما بعدها .

(٣) معجم الأدباء : ١٨/٢٠٣،٢٠٤ . (٤) انظر معجم الأدباء : ٢٣٥/٧ومابعدها .

(٥) انظر الشيرازيات لوحة ١٨ ولأبى الحسن كتاب القوافى فهرس المخطوطات المصورة: ٤١٦

(٦) معجم الأدباء : ٢٣٢/٤ . (٧) الحجة : ٦١/١ البلدية .

(٨) المصدر السابق : ٦٢/١ (٩) نفس المصدر : ٦٣/١ .

(١٠) الحجة: ٧٣/١. ثم انظر العسكريات: ١٣٤ (١١) الحجة : ٧٠/١ وما بعدها .

(١٢) (نفس المصدر : ٧٦/١)

مجرى غيرها من الحروف التى لا خفاء فيها[١]، وعلى أن الهمزة المخففة فى الوزن مثل المحققة[٢]، واستجازة حذف الحركة فى الزحاف[٣] ، ولفظ وسط الساكن الأوسط يستعمل ظرفاً ، فاذا اضطر الشاعر استعمله اسماً ، واستشهد على ذلك ببيت للفرزدق ، وآخر للقتال الكلابى [٤] كما رأيته يشبه فواصل الآيات بالقوافى [٥] وقد فعل ذلك الرمانى [٦] .

وكان لأبى على أثره عند المشتغلين بالعروض بعده : نقل تعليله لتعاقب السين والفاء فى مستفعلن — السابقة الذكر — الدمنهورى فى شرح متن الكافى [٧] كما نقل السيوطى فى الأشباه والنظائر كلام أبى على لابن جنى فيما يجوز من الضرورة فى الشعر ، وأورده الدمنهورى فى آخر حاشيته على متن الكافى [٨] .

وهكذا يضع أبو على لبنة فى صرح العروض الذى ابتدأه الخليل ، وانتهى إلى أبى على ، وتسلمه تلاميذه من بعده .

(موقف أبى على من القراءات التى تخالف مذهبه ، وتقويمه)

أقدم بين يدى هذا الموضوع نصوصاً من كتب أبى على ، ثم استنتج منها ما يدل على موقفه من القراءات التى تخالف مذهبه ؛ لتكون الأحكام صادرة عن بينة لا لبس فيها ولا غموض ، ثم اتبع ذلك تقويم ما يذهب إليه أبو على .

(ا) أورد أبو على فى قراءة حمزة : « واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام » قوله : « وأما من جر الأرحام فانه عطفه على الضمير المجرور بالباء وهذا ضعيف فى القياس ، وقليل فى الاستعمال ، وما كان كذلك فترك الأخذ به أحسن [٩] .

ثم أخذ يدلل على ضعف هذه القراءة فى القياس .

(ب) وقال : « وأما قول ابن عامر : « وكذلك زين لكثير من المشركين قتلُ أولادَهم شركائِهم » [١٠] . فان الفعل المبنى للمفعول به أسند إلى القتل ، فأعمل المصدر

---

(١) الحجة : ١/١٩٩ . (٢) ١ : ٢٦٧ (٣) (١/١٦٣)

(٤) الحجة : ١/٢٣٣ ـ ٢٣٤) (٥) انظر الحجة : ١/٣٠٥ البلدية

(٦) انظر النكت فى إعجاز القرآن مخطوط بالخزانة التيمورية رقم ٢٩٨ تفسير : ٣٦ ـ ٣٩ (٧) انظر ص ٦٠ (٨) انظر ص ١١٢ .

(٩) الحجة : ٣/٢٢٩ ن البلدية (١٠) الأنعام آية ١٣٣

عمل الفعل ، وأضافه إلى الفاعل . . . والمعنى « قتل شركائهم أولادهم » ففصل بين المضاف والمضاف إليه بالمفعول به ، والمفعول به مفعول المصدر ، وهذا قبيح قليل فى الاستعمال ، ولو عدل عنها إلى غيرها كان أولى [١] .

(جـ) رأى أن إعراب تقاة فى قوله : « إلا أن تتقوا منهم تقاة مصدر أوجه من إعرابها حالا مؤكدة ؛ لأن القراءة الأخرى « إلاأن تتقوا منهم تَقِيَّةً » [٢] .

(د) وقال : « ومما يجوز ذلك ويسوّغه — يشير إلى تحقيق الهمزتين فى أأنذرتهم » أن سيبويه زعم أن ابن أبى اسحق كان يحقق الهمزتين وأناس معه [٣] .

(هـ) ويقول فى العسكريات : وأما قراءة : ومن وراء اسحق يعقوب [٤] بالفتح، فلا يخلو من أن تعطفه على الباء المجرورة كأنه أراد أنها بشرت بهما ، أو تحمله على موضع الجار والمجرور على حد من قرأ « وحوراً عيناً» بعد« يطاف عليهم بكأس» والوجه الأول ليس بالسهل ؛ لأن الواو عاطفة على حرف جر ، وقد فصل بينهما وبين المعطوف بهـا بالظروف ، والآخر أيضاً كذلك ، وإن كان الأول أفحش ، وهذا كما أعلمتك إنما نجده فى الشعر [٥] .

والذى قرأ (يعقوب بالفتح) ابن عامر ، وحمزة من السبعة [٦]

هذه النصوص لها الدلالات الآتية :

١ — أن أبا على أجرى مقاييس العربية على القراءات المروية ، وأصدر أحكام القبح والحسن على هذه القراءات بمقدار مالها من جريان على القياس . فما اتفق من هذه القراءات مع تلك المقاييس كان حسنا ، ومالم يتفق كان رديئا ! !

٢ — أنه يعتد بأقوال النحاة فيأخذ بها ، ولا يعتد بالقراء السبعة إذا خالفوا فى قراءتهم مذهبه النحوى . (انظر العلة فى جواز أأنذرتهما بالتحقيق) .

٣ — أنه يأخذ بقراءة فوق السبعة مادامت دليلا على ما هو بسبيله من قضية يبرهن عليها : فقارئ « إلا أن تتقوا منهم تَقِيَّة » هو يعقوب بن اسحق الحضرمى [٧] .

---

(١) الحجة : ١٠١/٤ ن البلدية (٢) الحجة : ١٧١/١ ن البلدية
(٣) الحجة : ٢٥٦/١ ن البلدية (٤) سورة هود آية ٧١
(٥) العسكريات لوحة : ١٣٥ (٦) انظر البحر المحيط : ٢٤٤/٥
(٧) انظر النشر : ٢٣٩/٢ وإتحاف فضلاء البشر : ١٧٢

٤ — أن مسلكه فى ذلك مسلك القياس والنظر لا مسلك الرواية والأثر .

تقويم مذهب أبى على : —

أحكام الحسن وأمثاله لا ضير فيها ، ولا حرج منها ، ففى النشر لابن الجزرى مثل هذه الأحكام ، فإذا توافق قياس العربية مع القراءة المروية كان ذلك حسنا [١] .

ولا يدعى القراء أن كل ما فى القراءات من الفصاحة على أرفع الدرجات [٢] لكن الأمر الذى لا يفهم مايصدره أبو على وغيره من البصريين ، ومن لف لفهم — من أحكام القبح على قراءة ثبتت بالرواية ، وصحت بالسند ، وأن قراءةً من هذه القراءة لحن لاتحل القراءة بها [٣] ؛ لأنها لم توافق مذاهب النحاة . والوضع مقلوب بمسلك أبى على ؛ فالقراءة يحتج بها على قواعد النحاة ومقاييسهم ، لا أن تجرى مقاييس اللغة على ما روى من القراءات . إذا سمع عن العربى أخذ بما قال ، وإذا قرأ القارىء بقراءة صحيحة متصلة السند بالرسول ردت لأنها لم تسمع عن العرب ؟ وهل استقصى الرواة كل ما نطق العرب به ؟ إن شيئاً من ذلك ما كان ! وقد كان الأئمة السابقون من متقدمى أهل العربيـــة ينكرون على القارىء قراءته ويلحنونه ؛ لأنهم لم يعرفوا لها وجها من كلام العرب ، حتى إذا عرفوا وجهها أقروها . حكى أبو زيد أنه سمع عمرو بن عبيد يقرأ لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جأن « قال أبو زيد : » فخلته وقد لحن حتى سمعت العرب بعد ذلك تقول دأبه وشأبه فعلمت أن عمرا لم يلحن [٤] .

وهذه الحكاية مع دلالتها على مذهب النحاة فى تقديم ما يرويه العرب على ما يقرأ به القراء — تشير إلى أن كلام العرب لم يُتَقَصَّ كله كما تدل على صحة ما رواه القراء ، ومن المحال أن يصح فى القراءات ما لا يسوغ فى العربية [٥] . هذا إلى أن من لحنت قراءتهم كانوا موثقين ، فقد أطلق على حمزة حبر القرآن [٦] . وكان شعيب بن حرب يقول : « ألا تسألونى عن الدر . . . يعنى قراءة حمزة [٧] .

---

(١) النشر : ٤٣٢/١ (٢) انظر منجد المقرئين : ٦٥

(٣) انظر إعراب القرآن للنحاس : ٣٦٠

(٤) البصريات لوحة : ٥٨ والشيرازيات : ١٥٣

(٥) النشر : ٤٢٩/١ (٦) طبقات القراء : ٢٦٣/١

(٧) معجم الأدباء : ٢٩٢/١٠

وقال سفيان الثورى عنه : « ما قرأ حرفا من كتاب الله ألا بأثر[١] » وقد انصف المقدسى البشارى ابن عامر بما يجب له من التوثيق[٢] .

وها هو ذا ابن جنى كان أسلم موقفا من شيخه ، ومن أبي العباس المبرد ، بتاليفه كتاب المحتسب ، وتصحيحه قراءة حمزة : « واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام »حيث قال » : ليست هـــذه القراءات عندنا من الابعاد والفحش والشناعة والضعف على ما رآه فيها وذهب إليه أبو العباس ، بل الأمر فيها دون ذلك ، وأقرب وأخف ، وألطف ، ثم ذكر وجه ذلك[٣] .

وقد كان الكوفيون فى هذا أسلم موقفا من البصريين على وجه العموم ، وإنك لترى الفراء لايطعن فى القراءة ؛ بل يقول : « فى الوجه الذى يرجحه : « وإنه لأحب الوجهين إلى » ، أو نحو ذلك[٤] .

وقيض الله لمذاهب القراءة من النحاة من يحتج لها ، ويأخذ بها كابن يعيش[٥]. وابن مالك[٦] . فقد جوز الفصل بين المتضايفين بغـــير الظرف والجار والمجرور ، وقال :

وحجتى قراءة ابن عامر فكم لها من عاضد وناصر

ودلل على ذلك بوجوه :

(ا) أن الفصل فضله وهو لذلك صالح لعدم الاعتداد به .

(ب) أنه غير أجنبي معنى لأنه معمول للمضاف وهو المصدر .

(حـ) أن الفاصل مقدر التأخير ؛ لأن المضاف إليه مقدر التقديم ، لأنه فاعل فى المعنى[٧] .

والمسألة لا تحتاج إل هذه الصناعة فى التخريج فيكفى — عندى — أن تروى عن إمام ، وأن يصح سندها عن الرسول (عليه السلام) .

وقدوقف مثلهذه الوقفة المنصفة أحمد بنمنيرالاسكندرى (ت ٦٨٣هـ) فى رده على الزمخشرى[٨] . وكذلك فعل أبو حيان فى البحر المحيط[٩] . والنيسابورى

(١) النشر : ١/٢٣٠ (٢) انظرأحسن التقاسيم ١٤٢ الطبعة الثانية ط ليدن سنة ١٩٠٩

(٣) انظر الخصائص : ١/٢٩٤

(٤) انظر معانى القرآن للفراء : ٧٤ ، ٧٥

(٥) انظر شرح المفصل :٣/٧٨ (٦) الاقتراح : ١٥

(٧) النشر : ٢/٢٦٤ وما بعدها

(٨) انظر تفسير الكشاف : ٢/٤١ (٩) البحر المحيط : ٤/٢٢٩

فى غرائب القرآن [١] . والسيوطى فى الاقتراح [٢] . ومن قبل تعجب الرازى من استشهاد النحاة بالشعر المجهول ، وتركهم الاستشهاد بقراءة فى القرآن العظيم [٣] . وفى زماننا انبرى الأستاذ محمد الخضر حسين (رحمه الله [٤]) يدفع عن قراءة ابن عامر ، فلم يسلم أن الفصل فى مثل هذا مخالف للفصاحة ، وبين أن فى اللسان الألمانى يفصلون بين أداة التعريف ، والمعرف بجمل كثيرة ، وربما كان الفعل مركباً من قطعتين فيضعون القطعة الأولى فى صدر الكلام ، ويلقون الأخرى فى نهايته ، فيتفق أن يكون بين القطعتين كلمات فوق العشر ، وتراهم يفصلون بين علامة الاستقبال والفعل بجمل متعددة ، ولا شبهة أن الارتباط بين هذه الأشياء لا يقل فى شدته عن ارتباط المضاف بالمضاف إليه [٥] .

ولاشك أن الأستاذ (رحمه الله) أراد أن يقيم الدليل — مشكوراً — على صحة هذه القراءة وسوغها بالنظر إلى الأساليب المستعملة فى اللغات الحديثة ، وإن كان الأمر يقطع القول فيه بأن هذه القراءات إلى الرسول مسندة ، ومن عند الله منزلة ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً ، فلا يجوز أن يحكم القياس فيما ثبت بالنقل والرواية [٦] .

رسم المصحف ، وموقف أبى على من الاحتجاج به

ما المراد بالرسم هنا ؟ وأى مصحف يريدون ؟ يجيب أبو العباس القسطلانى هذين السؤالين فيقول : الرسم الأثر ، والمراد أثر الكتابة فى اللفظ ، وهو تصوير الكلمة بحروف هجائها بتقرير الابتداء بها ، والوقوف عليها .

والمراد بالمصحف : المصاحف العثمانية التى أجمع عليها الصحابة [٧] .

وقد وقف القدامى من المحتجين للقراءات مواقف مختلفات بالنسبة لرسم المصحف ، فمنهم من ينظر إليه ، ويعتمد عليه ، ويمنحه فضل اهتمام فى الاحتجاج

---

(١) انظر غرائب القرآن على هامش الطبرى : ٤/١٧٦ ، ٨/٣١

(٢) انظر ص ١٧ (٣) انظر تفسير الرازى : ٣/١٩٣

(٤) توفى أثناء طبع هذه الرسالة ، وكان (رحمه الله) من العلماء العاملين فى خلق متين ، وتدين قويم .

(٥) انظر القياس : ٣٠ ، ٣١ (٦) انظر مثلا الشاطبية : ٧٨ ط ١٣٥١هـ

(٧) انظر لطائف الاشارات فى علم القراءات لشهاب الدين أبى العباس القسطلانى : ٢١١

والتعليل لمذاهب القراء ، ومن المحتجين من لا يعتمد على رسم المصحف ، سالكا سبيل أهل الرأى والنظر فى التخريج والاحتجاج ، وقد رأينا قبل موقف سيبويه (١٨٠ هـ) من رسم المصحف ، وانه يحتج لأوجه القراءة بما هو مرسوم فى بعض المصاحف — غير المصحف الإمام — مسمياً أصحابها حيناً ، وحينا يغفل ذلك [١] .

وسنرى موقف الفراء (٢٠٧ هـ) من رسم المصحف ، وأنه لا يخضع فى كتابه معانى القرآن « إلى نظرة ذات اتجاه معين أو مطرد ، والملاك العام عنده فى ذلك — اتباع الرسم إذا وجد له وجهاً من كلام العرب — أحب اليه من خلافه [٢] .

وكان الزجاج (٣١١ هـ) يلح فى مواضع مختلفات من كتابه « معانى القرآن » بأن رسم المصحف لا يخالف ، ووجدته يدافع عن كتبة المصاحف من الصحابة [٣] . كذلك كان ابن خالويه (٢٧٠ هـ) يعتد بالرسم اعتداداً عظيما حتى بلغ منه فى ذلك أنه قال فى احتجاجه لمن قرأ : « ثم اتخذتم » بالإظهار : « أنه أتى بالكلمة على على أصلها ، واغتنم الثواب على كل حرف منها [٤] » .

ورأيت على بن عيسى الرمانى (٣٨٤ هـ) فى كتابه الحروف يعتد برسم المصحف؛ حتى أنه قال فى رد رواية ابن قنبل عن ابن كثير « لأقسم » على أن اللام لام القسم : وهذه القراءة فيها نظر من وجهين :

أحدهما : حذف الألف التى بعد لا ، وهى فى الإمام ثابته .

والثانى : حذف النون التى تصحب لام القسم [٥] .

أما مكى بن أبى طالب (٤٣٧ هـ) فى الكشف ، وأبو عمرو الدانى (٤٤٤ هـ) فى الموضح فقد تردد اعتدادهما برسم المصحف فى كتابيهما بكثرة ظاهرة ، حتى أشبهت عبارتهما النماذج التعبيرية تلقى هنا وهناك ، وهذا ظاهر عند الدانى فى الاحتجاج لمذاهب القراء فى ذوات الياء من الأسماء والأفعال بما هو مرسوم فى المصحف بالياء [٦] .

---

(١) انظر الكتاب : ١/٧٤ ، ٢٥٨ ، ٤٢٢ ، ٤٨١ ، وانظر البحث الخاص بسيبويه والاحتجاج فى هذه الرسالة .

(٢) الصاحبى لابن فارس : ١١

(٣) وكان كل الشيخين الطبرى وابن مجاهد يعتد برسم المصحف على النحو الذى سبق به البيان

(٤) الحجة لابن خالويه ظهر ورقة ٨ من المخطوطه

(٥) معاني الحروف للرماني لوحة رقم ١

(٦) يراجع الموضح فى هذا الباب

بينا يقف هؤلاء جميعاً هذا الموقف إذ أجد أبا على الفارسى (٢٧٧ هـ) يقف فى الجانب الآخر من الرأى ، فلا يكاد[1] يقول برسم المصحف فيما يسوقه من احتجاج ، فلم يقل برسم المصحف مثلا فى احتجاجه لا تفاق القراء على قراءة لم يتسنه فى الوصل بالهاء[2] . ، واحتجاجه — تاركا القول برسم المصحف — لقراءة « والذين اتخذوا مسجداً أضراراً » بالواو وغير الواو[3] .

وقد وعدت فى غضون الفصول المختلفة التى تعرضت فيها للعالم الكبرى لمناهج أولئك الذين سبقوا أبا على فى الاحتجاج ، أو خلفوا من بعده — وعدت ببيان الرأى الذى أذهب إليه ، وأراه صوابا ، وقد حان الآن وقت الوفاء فأقول :

« الملاك العام عندى فى هذا الأمر : أن القراءه سنه ، فما خالف منها ظاهر الخط فلا سبيل إلا إلى القراءة به مرجحين جانب النقل والرواية ، وما وافق منها الرسم فذلك نور على نور[4] » وذلك ما يشير إليه أبو شامه (٦٦٥ هـ) حيث يقول : « القراءة نقل ، فما وافق منها ظاهر الخط كان أقوى ، وليس اتباع الخط بمجرده ، واجبا مالم يعضده نقل ، فإن وافقها ونعمت[5] .

ويؤكد ما ذكره الدانى عن شيوخه عن عاصم الجحدرى قال : فى الإمام مصحف عثمان فى الحجة[6] . ولؤلؤاً بالألف ، والتى فى الملائكة[7] . ولؤلؤ خفض بغير ألف[8] .

قال الشيخ السخاوى : « وهذا الموضع أول دليل على اتباع النقل فى القراءة ؛ لأنهم لو اتبعوا الخط ، وكانت القراءة إنما هى مستندة إليه لقرءوها أى في سورة الحج بألف : « يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير »

---

(١) اخترت ذلك التعبير لأنى وجدت أبا على مرة يقول : وجه قول من أثبت فى الوصل الألف — من قوله الظنونا — الرسولا — السبيلا — أنها فى المصحف كذلك ، وهى رأس آية . ورءوس الآى تشبه الفواصل من حيث كانت مقاطيع كما كانت القوافى مقاطع الحجة : ١٤٧/٦

(٢) الحجة : ٣/١٥—٢٠ ن البلدية وانظر ١/٤٧١ ن مراد ملا

(٣) الحجة : ٣٤٧/٤

(٤) ناقشت الدانى فى الاحتجاج برسم المصحف فى رسالة الماجستير : القراءات واللهجات العربية — الإمالة : فليراجع الفصل الخاص بذلك هناك .

(٥) إبراز المعانى : ٤٠٦

(٦) س ٢٦ آيه ٢٢

(٧) س ٢٥ آيه ٣٣

(٨) المقنع ٤٢ وانظر مورد الظمآن : ٢٢

وفى فاطر بالخفض «جنات عدن يدخلونها يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤ»[١].

قال أبو عبيد : « لولا الكراهه لخلاف الناس لكان اتباع الخط أحب إلى ، فيكون فى الحج بالنصب ، وفى فاخر بالخفض ، فإنه رسم بالألف فى الحج خاصة دون فاخر [٢] يقول ذلك أبو عبيدة ، ولكنه لم يقرأ به متبعا النقل لا الرسم .

فالنقل لا الرسم هو الذى يحتج به فى هذه الكلمات التى تتصل برسم المصحف ، وإذا أردت تقويم آراء القدامى فى مواقفهم المختلفة من الرسم أقول .

« أما سيبويه فقد كان على حق فى دلاله احتج بمصحف ابن مسعود[٣] ، ومصحف أبى مثلا[٤] . لأنه احتج بما هو جائز فى العربية ، موثق بالأسانيد ، وإن خالف رسم المصحف الإمام ، ويكفى لتجويز إعرابٍ مّا أن تستشهد بما فى مرسوم المصاحف التى كانت قبل المصحف الإمام ، إذ كانت كما قلت موثقة الأسناد ، لكن لا يقرأ بها لمخالفتها المصحف المجمع عليه .

ومسلك سيبويه يبدو طبعيا ؛ إذ كانت صفته الأولى والباقية على الدهر أنه نحوى ينظر إلى المصاحف على عمومها ، محتجا بما جاء فى مرسومها ، غير مقيد بمصحف الإمام ما دامت المصاحف الأخرى كافية فى الاحتجاج على المذاهب العربية فى فنون الكلام .

وصحيح من الفراء ، والزجاج ، والطبرى أن يرفض كل مخالفة لرسم المصحف فيما يتصل بنقص[٥] أو تبديل[٦] ما هو مرسوم بالمصحف الإمام ، فهذه المخالفة المردودة عند القراء بعد الاستقرار على الصحف الإمام ، أما القراءات التى يحتملها الرسم العثمانى وكانت ترجع فى أساسها الأول إلى النقل على النحو الذى فصلت فى قول الزجاج بالأثر فلا داعى لإقحام الاحتجاج برسم المصحف فيها ، فالنص على ذلك أمر لا ضرورة له ، وأرجو أن ترجعوا إلى تفسير ذلكم فى مكانه من هذا البحث[٧].

---

(١) انظر عقيلة اتراب العقائد وشرحها تلخيص الفوائد : ٤٤ ، ٤٥

(٢) ابراز المعانى : ٤٠٦ (٣) الكتاب : ٢٥٨/١

(٤) الكتاب : ٤٨١/١ (٥) كقراءة فاذا لايؤتوا الناس نقيرا

(٦) كقراءة فاذا اطبأننتم ، كقراءة وإن كاد مكرهم لتزول منه الجبال

(٧) وتوضيح ذلك — أنى لا أرى إقحام الاحتجاج بالرسم مثلا — لقراءة من قرأ بالإمالة ذوات الياء من الأسماء والأفعال ، لأنها رسمت فى المصحف بالياء . فالاحتجاج بالنقل وحده هو العمدة فى ذلك عند أهل الأثر ، ومن هنا يجتمع فى بعض الحروف من أسباب الإمالة ==

وأقول لابن خالويه من حيث مسلكه فى الاحتجاج مثل ما قلت للزجاج ، وأزيد : أن ابن خالوية بالغ فى أن جعل ثواب الله أكبر بقراءة الإظهار فى قوله تعالى : « ثم اتخذتم » ، فان كرم الله لن يضيق بثوابه على التالين لكتابه ، والمتعبدين بما به ، ولن يكون ضيقاً حرجا بالإدغام ، وواسعاً عفواً بالاظهار ! فثواب التلاوة ثابت فى كلتا الحالين بقدر ما تخشع القلوب ، وتلين الجلود !!

وقد بدا لى أن أبا على جانب الأثر فى احتجاجه وأراد أن يحتج للقراءات بطريق النظر ؛ فقد دعت الاتجاهات العامة فى عصره أن يرد على الملحدين المجادلين فى آيات الله ، وهم لا يعتدون بالأثر ، ولا يقتنعون إلا بالرأى القائم على الحجة والدليل المنطق ، فأجرى مقاييس العربية على القراءات ، هذا داع من الدواعى الدافعة لأبى على أن يسلك مسلكه ، وشىء آخر : لقد كان معاصراً لابن مقسم (١٥٤ ﻫ) الذى قرأ — خاطئاً — بكل ما يحتمله رسم المصحف فأبعد كل هذا أبا على — فيما أرى — عن الاحتجاج بالرسم ، ووثق القراءات الصحيحة السبعة بجريانها على ركن هام من أركانها ذلك هو قياس العربية ، بجانب الآثار العربية . فإذا لم يستطع أبو على أن يجرى مقاييس العربية على قراءة من القراءات سلم مضطراً بأن القراءة سنة ، ثم هو : لا يخلى تسليمه عندئذ من الاشارة إلى أن القراءة بما يوافق القياس أحسن وأولى .

وإذا أردت تقويم اتجاهه وجدته خيراً وأحسن تأويلا من سلوك مسالك الأثر فى عصر اشتعلت فيه نيران الجدل ، وتفشته مظاهر الالحاد ، واختلفت فيه النحل ، وتفرقت فيه الأحزاب طرائق قدداً ، ثم اجتمعوا على الكيد للاسلام فكان لابد من اصطناع البراهين التى يصطنعون ، واتخاذ الوسائل التى يسلكون ، وإن كان أبو على قد غالى فى ذلك حتى لا يكاد يقول برسم المصحف ، وتجاوزه إلى قياس القراءة على العروض والقوافى . ويشفع له فى ذلك أنه كان عن كتاب الله منافحاً ، ومن هنا لم يكن غريباً أن ينال تقدير صادق الحكومة أبى العلاء فى رسالة الغفران ، فأخلاه من لوم اللائمين ؛ لأنه يمت إلى الله بكتابة الحجة وهو سبب متين [1] .

وأرجو أن يكون مفهوماً — وهذه عقيدة الفارسى — أن ليس معنى انصرافه

= مالا يجتمع فى حروف أخرى من جنسها فيميل بعض القراء ما كان سبب الامالة فيه ضعيفا ويترك ما كان السبب فيه قويا (انظر الامالة لمكى ورقة ١٤ والموضح للدانى ص : ٢٤٧ .

(١) رسالة الغفران : ١٥٤

عن الاحتجاج برسم الامام أنه لايقول به ركناً من أركان القراء الصحيحة [١] . ولكنه ترك جانب الأثر إلى غيره من الجوانب التى دعته إليها دواعى العصر الذى كان يعيش فيه .

مادة الاحتجاج عند أبى على

فى دراساتى السابقة ألممت بما يحتج به أبو على ، وأجمع هنا فى إيجاز ما تفرق فى غضون هذه الدراسات .

يورد أبوعلى شواهده من القرآن الكريم ، والشعر العربى القديم محتجاً للقراءات المختلفة ، أومقوياً جانب قراءة من هذه القراءات ، أومفسراً ، أومعرباً ، أومصرفاً ، أو متحدثاً فى مسائل النحو اللغة ، أو مستدلا على صحة تعبير وعدم جواز غيره ، أو مبرهناً عل القضايا المنطقية

وقد عرضت قبل موقفه — فى الاحتجاج — من القراءات التى تخالف مذهبه النحوى ، وقومت اتجاهه عند ذاك ، ومكانه بين السابقين فى هذا الموضوع .

أما رسم الصحف فلا يكاد أبو على يحتج به ، وقد عللت لذلك ، وقومته ، ووازنت بين موقفه هذا وموقف السالفين والذين خلفوه من النحاة والقراء .

ثم بينت أنه سبق المدرسة الأندلسية ممثلة فى ابن خروف ، وابن مالك — فى الاحتجاج بالحديث الشريف ، واعتداده به ، وعللت لموقفه هذا .

ورأيت أبا على يأخذ باللهجات المختلفة ، ويسميها اللغات ، ويحتج بها فى توجيه القراءات [٢] .

كما رأيته يعتد بالكثرة ، ويحتج بها ، ويعدها من أسباب قوة القراءة ، ويختصر الدليل على هذه النزعة عنده قوله : « حزنته أكثر من أحزنته ، وفى ترك قول الأكثر ضرب من الاستيحاش [٣] . ويروى قول أبى الحسن : فى خرقوا وخرّقوا — الخفيفة أعجب إلىّ لأنها أكثر ، وبها أقرأ [٤] . وقوله : بشهاب قبس الاضافة أكثر وأجود فى القراءة [٥] .

---

(١) أ — معروف بالضرورة ب — لأنه يقول برسم المصحف نادراً وفى هذا اعتراف به ضمنياً

(٢) انظر مثلا الحجه : ١/٧٨ ن مراد ملا .

(٣) الحجة ٤/٥ ن البلدية

(٤) ٤/٧٣ ن البلدية وانظر ٢/٢٨ فى الاحتجاج لقراءة فتلقى آدم من ربه كلمات

(٥) الحجه : ٦/٥٢

وعرفت أباعلى يقدم السماع والرواية على القياس، ثم يحاول أن يجرى مقاييس العربية على القراءات المروية فيخرجها بما يتفق مع الصناعة النحوية، وانه ليبلغ الذروة فى ذلك حيث يقول: «وإنما جاء الكتاب فيما نرى على هذا القياس [1]». وحيث يقول: «وإذا جاءت الرواية عن العرب [2]. لم ترد بالقياس» [3].

هذا وكانت عبارة سيبويه فى الكتاب بله الشواهد — مادة لاحتجاج أبى على، وإنه ليرقى فى ذلك حتى ينص على أن التنزيل جاء على الذى استعمله سيبويه [4].

فالقرآن الكريم، والحديث الشريف، والشعر العربى القديم، ولهجات العرب المختلفة، والاعتداد بالكثرة، وتقديم السماع والرواية عن العرب على القياس، وتطبيق القياس على مانقل القراء، وعبارة سيبويه فى الكتاب، كل أولئكم كان مادة الاحتجاج عند أبى على فى كتابه الحجة.

ولا أزعم أنى حصرت كل ما كان منه فى ذلك، ولكنى كدت أو قاربت بقدر ما أعاننى الجهد والتثبت فى الاستقصاء، ومع ذلك فهذه هى الظواهر الكبرى فى الاحتجاج تتردد فى كثرة تدعو إلى التقييد والتسجيل.

قيمة الحجة:

ألف أبو على كتاب الحجة للقراءات السبع التى ذكرها ابن مجاهد فى كتابه القراءات، ثم قدمه إلى عضد الدولة [5]. أشهر آل بويه، فموضوع الكتاب إذا جليل، والمهدى اليه له مكانته وسلطانه، والمؤلف له أمامته العلمية فى زمانه، وعلى هدى من موضوع الكتاب، ومكانة عضد الدولة، وامامة أبى على سار ذكر الحجة الى أن الكتاب يعد معلمة تفتح أفاقا جديدة فى فروع الثقافة الاسلامية المختلفة، وقد استظهرت من قبل أن أبا على ألفه فى فترة من الاستقرار والاطمئنان فى أخرة من زمانه، وبعد جملة صالحة عن كتبه، فجاء الكتاب مرآة لضلاعة أبى على وبراعته وتبحره وتمكنه من الثقافة الاسلامية، ودرايته، بأساليب العرب، وسنن العربية فهو يجد فيها مادة الدليل، وعنصر التدليل، فهذا قارىء يميل. وآخر لايميل، وهذا يهمز، وآخر يخفف، وهذا يقرأ الآية بالرفع مثلا، وآخر يقرؤها بالنصب وهكذا

---

(١) الحجة : ٣٤٨/١ن مراد ملا (٢) مابين الشرطتين زيادة منى للتوضيح
(٣) الحجة : ٣٦٢/١ ن مراد ملا. (٤) انظر الحجة : ٣٢٢/١ من مراد ملا.
(٥) انظر مقدمة الحجة : ١

وهكذا ... فيحتج لكل ويستشهد ، ويوردأقوال القدامى ، ويعلق،ويناقش، ويعقب بما يدل على فقهه العربية ، ويتابع أدلته دليلا بعد دليل، كأنما قدنظم ذلك كله فى سلك يعينه وفرة محفوظة ، وقوة ذاكراته ، وقدرته على جميع الأشباه والنظائر بعضها إلى بعض ، مستعيناً بالقرآن ، والحديث ، وأحكام الشرع ، وأقوال الأئمة جميعاً[١] . فجاء الحجة موسوعة جامعة لكتب مختلفة فى القراءات ، والتفسير، واللغة ، والنحو ، والصرف ، ومسائل الخلاف ، والاحتجاج لها ، والعروض ، والشواهد العربية القديمة ، مع تفسيرها وشرح لمتنها[٢] . ، ولهجات القبائل : فصحاء اليمن ، وقيس[٣]. وطيء[٤] . وأهل الحجاز عامة[٥] . وأهل مكة خاصة[٦] ومن هنا كان الحجة معتمد القراء ، والمفسرين ، واللغويين ، والنحويين ، كما أسلفت بذلك البيان .

وإذ كنا نحرص على تراثنا القديم ، ونعمل جاهدين على تتبعه فى مظانه من مكتبات العالم ، وتحقيقه ، وإخراجه إلى النور — فان كتاب الحجة لأبى على من أنفع ما خلف أسلافنا فى الثقافة العربية الاسلامية ، ثم هو يشتمل — فيما يشتمل — على كتاب القراءات السبع للامام الحافظ أبى بكر بن مجاهد[٧] . ولئن عصفت الأحداث بكثير مما للاسلام من تراث ، وطوت فيما طوته كتاب أبى بكر بن مجاهد هذا — إن كتاب الحجة يهدى إليه ، ومن أراد كتاب ابن مجاهد مستقلا فليجرده ، متتبعاً له فى أجزاء الحجة المختلفة ، وبذلك نظفر من تراثنا القديم بأثر يعد أمًّا فى أصالته ، وتفرده ، وأسبقيته ، وتوثيقه لقراءات السبعة من أهل الأمصار بالحجاز، والعراق ، والشام .

وما كاد اللغوى النحوى محمد بن عثمان بن بلبل (ت ٤١٠ هـ) يذيع الحجة ويرويه[٨] . حتى شغل به الناس قادرين منزلته ، فسمعه منه ابن بشران النحوى[٩] . وعنى به الأندلسيون عناية ظاهرة : اختصره مكى بن أبى طالب حموش القيسى (ت ٤٣٧)[١٠] . فى كتاب سماه فيما أورده ياقوت : منتخب الحجه فى القراءات

---

(١) انظر مثلا الحجه ١٠٦/١ ن مراد ملا ، ٥٦/١ ن البلدية
(٢) انظر الحجه : ٢٧٦/١ ، ١٧٧ن البلدية (٣) الحجه : ٤٨/١
(٤) المصدر السابق : ٢٤/١
(٥) انظر الحجه : ٥٠/١، ٥٦، ٧٤، ١٧٥ ، ٣٤٣٢
(٦) الحجة : ٤٤/١ (٧) كشف الظنون : ٢١٤/٢ .
(٨) انظر معجم الأدباء : ٢٤٩/١٨ (٩) انظر بغية الوعاة : ٢٢
(١٠) كشف الظنون : ٢٤٤/٢

وجعله فى ثلاثين جزءاً [١] . كما اختصره أبو طاهر اسماعيل بن خلف الأندلسى (ت ٤٥٥ هـ) [٢] . ومحمد بن شريح الرعينى (ت ٤٧٦ هـ) [٣] . وبحاشية أحد المصاحف بالخزانة التيمورية مختصر الحجة لم يعلم اسم مختصره [٤] . وتدارس الحجة عدد من مشهورى القراء ، والمفسرين ، والنحاة ، واللغويين [٥] .

وانتقلت العناية بالحجة من الأندلسيين إلى أهل الشام ؛ حتى كانوا يقرءونه ويحفظونه فى القرن السابع الهجرى [٦] . ، وكان كتاب الحجة من المصادر التى اعتمد عليها البغدادى فى خزانته [٧] .

ثناء القدماء على الحجة : —

أثنى القدماء على الحجة وأجلوه ، سواء فى ذلك المؤرخون ، والأدباء ، والنحويون ، واللغويون ، والقراء ، فأقوالهم تدل على أكبارهم له وإعجابهم به .

قال فى ذيل تجاب الأمم : « صنف فى أيام عند الدولة المصنفات الرائعة فى أجناس العلوم المتفرقة ، فمنها كتاب الحجة فى القراءات السبع ، وهو كتاب ليس له نظير فى جلالة قدر ، واشتهار ذكر [٨] .

ويرى أبو العلاء المعرى أن أبا على بكتاب الحجة حقيق أن يؤخذ بالرفق فى الأمر كله ، لأنه عمل مالم يعمل مثله الآخرون ، وذلك إذ يقول فى رسالة الغفران — وقد امترس قوم بأبى على يطالبونه : « ياقوم ! ... لاتعنتوا هذا الشيخ ؛ فإنه يمت بكتابه فى القرآن المعروف بكتاب الحجة [٩] .

وفى طبقات النحاة واللغويين : « كتاب الحجة فى تخريج القراءات السبعة من أحسن الكتب وأعظمها [١٠] » . وقال فى طبقات القراء : «وألف أبو على كتاب

(١) معجم الأدباء : ١٩/١٦٩

(٢) كشف الظنون : ٢/١٩٤ وطبقات القراء : ١/١٦٤ وبغيه الوعاة : ١٩٥ وانظر تحفه الاخوان لابن الجزرى : ٧ مخطوطه رقم ٣٠٦ تفسير بالخزانة التيمورية .

(٣) انظر الصلة لابن بشكوال : ٢١٥ مخطوطه رقم ٣٦٢

(٤) انظر المصحف ٢٦٤ قراءات وفهرست الخزانه التيموريه ١/٢٨٩ تفسير

(٥) انظر التمليكات والسماعات التى على نسخة مرادملا الجزء الأول .

(٦) انظر النجوم الزاهرة : ٦/٢٦٧

(٧) انظر إقليد الخزانه ٤٢٥ (٨) ذيل تجارب الأمم : ١٨٣ .

(٩) رسالة الغفران : ١٥٢ — ١٥٤

(١٠) طبقات النحاة واللغويين لابن قاضى شهبة الأسدى : ٢٩٥ .

الحجة شرح سبعة ابن مجاهد فأجاد وأفاد[1] ، وتقدم فى شهادة القدماء وأقوالهم فى أبى على ثناؤهم على مؤلفاته بصفة عامة[2] . هذه نظرة القدامى إلى كتاب الحجة ، وذلكم مبلغ انتفاعهم ، وحرصهم عليه ، وأما عبارة ابن جنى التى تشير إلى أن القراء رفضوا كتاب الحجة ، ولم يقبلوا عليه[3] . فإنها لا تدل على انتقاص الحجة وسوء الرأى فيه فابن جنى أبعد الناس من أن يرى هذا الرأى فى أبى على . وعبارة ابن جنى — فيما أرى تدل على أن الحجة موضوع لخاصة المثقفين من أهل العربية دون عامتهم ، ذلكم ما يفهم من قول ابن جنى : « وقد كان شيخنا أبو على عمل كتاب الحجة فأغمضه ، وأطاله حتى منع كثيراً ممن يدعى العربية — فضلا على القراء — منه وأجفاهم عنه[4]. وجفوة هؤلاء ممن يدعى العربية والقراءة عن كتاب الحجة لا يضع مكانته ، وأحسب أنه على العكس — يرفع من درجته ، ويعلى من قيمته .

وبعد: فلعل الجهود تتضافر لإخراج هذا الكتاب وتحقيقه، ونشره ، إذا لافادت الثقافة الإسلامية العربية ، وانتفع طلاب العلم به أيما انتفاع .

ولا يزال الرأى حسناً فى كتاب الحجة وصاحبه حتى هذا الزمان ذكر الأستاذ أحمد تيمور نسخة الحجة المودعة خزانة البلدية بالإسكندرية ، وأنها تنقص جزءاً ثم قال : « وقد قرأتها كلها ، واستخرجت منها فوائد عزيزة[5] . وقراءة تيمور للحجة دليل على تفطنه لهذا الكتاب ، واستخراج ما استخرج من فوائد وصفها بأنها عزيزة ، ينبه الباحثين إلى ما فى الحجة من ذخائر العربية لا تظفر بها من سواه .

وجاء فى صحيفة الأهرام ما نصه :

« ألقى الدكتور بشر فارس فى قاعة المجمع العلمى المصرى محاضرة ضمنها نصاً عربياً قديماً فى كتاب مخطوط ألفه أبو على الفارسى من أئمة العربية المسلمين فى القرن الرابع الهجرى ، خصصه لبحث مسألة التصوير فى الإسلام ، مصرحاً بأنه جائز بإجماع لا يقدح فيه اعتراض الآحاد ، والحظر فيه مقصور على تصوير الله (سبحانه وتعالى) تصوير الأجسام ، فأما غير ذلك من أنواع التصاوير للأحياء فليس محظوراً .

---

(١) طبقات القراء : ١/٢٠٧ (٢) راجع المنتظم : ٧/١٣٨

(٣) راجع المحتسب : ١/٢٣٦ (٤) المحتسب : ١/٢٨٨

(٥) مجلة الهلال سنة ٢٨/٥٠ .

وقد طلب كثير من الأدباء المستمعين طبع هذه المحاضرة إذاعة لذلك النص الفريد المفيد ، وتعزيزا للنهضة الفنية فى الشرق الحديث ، فوعدوا بإجابة طلبهم [١].

وقد يكون الباعث على ذلك توجيه الناس إلى نص من نصوص أبي على يحسم الخلاف فى جواز التصوير ، وربما كانت الغاية منه تنبيه الأذهان إلى جهد المحاضر فى البحث ، وتعمقه فى التنقيب والتنقير ، وأيا ما كان الباعث على ذلك المقال فإن فيه تسجيلا لفضل أبي على فى كل حال .

وقد ذكر المحاضر فى كتابه « سر الزخرفة فى الإسلام » أنه قدم النص [٢] بالفرنسية إلى مجلة الجمعية الآسيوية بباريس فى ١٠/١١/١٩٥٠ ، ثم بين ما للنص من شأن ، وما لصاحبه من لحولة بين علماء الإسلام [٣] .

نسخ الحجة وأماكنها :

أقدم نسخ الحجة التى أعلم نسخة كتبت فى حياة أبي على سنة ٢٧٤ هـ بخط كبير جداً كتبها العباس بن أحمد بن أبي مواس ، والذى سلم على الدهر منها مجلدتان : تحتوى المجلدة الأولى على الأجزاء (٢١ — ٣٢) وتبتدىء من قوله تعالى :

« أو المنافقين فى الدك الأسفل من النار [٤] » وتنتهى إلى قوله : « بل لله الأمر جميعاً [٥] وجاءت هذه المجلدة فى ثلاثمائة وستين ورقة كبيرة الحجم .

ويحتوى المجلدة الأخرى على الأجزاء (٣٣ — ٤٤) مبتدئة من قوله تعالى : « إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح » سورة النساء : « آية ١٦٣ ، ومنتهية بأوائل سورة الزخرف . وبلغ عدد أوراق هذه المجلدة ثلاثمائة وثمانيا وثمانين ورقة كبيرة الحجم .

وكلتا المجلدتين بشهيد على رقم ٢٦ ، ٢٧ .

تلى هذه النسخة فى القدم نسخة كتبت سنة ٣١٠ هـ بخط شرقى جميل تقع فى ستة

---

(١) صحيفة الأهرام : ١٠/٣/١٩٥١

(٢) النص يقع فى الحجة : ٢/٦٧ — ٦٩ ن البلدية ، وقد تعرضت لذلك النص عند الحديث عن أبي على المحدث

(٣) انظر نص الزخرفة فى الاسلام تمهيد ٣١ — ٣٤ . ويدعى كاتب مقال (المسلمون والتصوير) فى (مجلة الأزهر جمادى الأولى ١٣٧١ هـ المجلد الثالث والعشرون السبق فى نشر نص ابي على فى جواز التصوير لأول مرة واست هنا فى مقام تحقيق هذه الدعوى وإن كنت تهمنى إلى تنازع الناس فضل كتاب الحجة ، والاعتراف بجدوى الاتصال به على الباحثين فى الدراسات الاسلامية جمعاء

(٤) النساء : آية ١٤٥ (٥) الرعد آية ٣١

مجلدات ينقصها الخامس بمكتبة بلدية الاسكندية برقم ٣٥٧٠ ع ، وبدار الكتب مصورة منها تحت رقم ٤٦٢ قراءات وقام بمجمع اللغة العربية بتصوير نسخة منها وأودعها خزانته .

وفى مكتبة مرادملا باستانبول رقم (٦ — ٩) نسخة كاملة تقع فى أربعة أجزاء بخط طاهر بن غلبون النحوى المقرىء [١] . كتب الأجزاء الثلاثة الأولى سنة ٤٢٧ وكتب الجزء الرابع سنة ٤٢٨ . ويبدأ الجزء الأول من أول سورة البقرة إلى قوله : كن فيكون من سورة البقرة أيضاً [٢]. فى تسع وثلاثين ومائتى ورقة . وبدأ الجزء الثانى ببقية سورة البقرة وينتهى بآخر سورة الأنعام فى ست وثلاثين ومائتى ورقة . ويبتدىء الجزء الثالث بسورة الأعراف وينتهى بآخر سورة الأنبياء فى خمسين ومائتى ورقة . أما الجزء الرابع فيبتدىء بسورة الحج ، وينتهى بآخر القرآن فى أربع وخمسين ومائتى ورقة .

وعلى الجزء الأول من هذه النسخة تملكات وسماعات لرجالات من أهل العلم ترجم لهم المؤرخون ، من هؤلاء الذين ملكوا أحمد بن مكتوم (ت ٧٤٩) تلميذ أبى حيان [٣] . ويرى توقيعه على هذه النسخة بخطه ، ومن الذين سمعوا الحجة وأقرءوها زيد بن الحسن بن زيد الكندى أبو اليمن النحوى ، اللغوى ، المقرىء ، المحدث ، الحافظ [٤]. قال أبو اليمن فى ظاهرة هذه النسخة : وكتاب الحجة أحد مقروءاتى على شيخى الامام أبى محمد المعرى النحوى، عن أبى طاهر المعرى النحوى ، عن أبى عبد الله الآمدى، عن الربعى النحوى، عن أبى على الفارسى، وكتب زيد بن الحسن بن زيد الكندى أبو اليمن فى ذى الحجة من سنة ست وستمائة . وفى آخر هذه النسخة سماعات عن أبى اليمن الكندى هذا من خلق كثير منهم : علم الدين السخاوى المقرىء المفسّر النحوى اللغوى شيخ مشايخ الاقراء بدمشق ت ٦٤٣ هـ [٥] — وأحمد بن تميم بن هشام اللبلى كاتب المسائل المشكلة ، والبصريات ، والمنثورة ، والعسكريات لأبى على وأقر هذه السماعات أبو اليمن الكندى بقوله : هذا صحيح وكتب أبو اليمن الكندى بخطه [٦].

---

(١) ترجمة فى طبقات القراء : ٣٣٩/١ (٢) آية : ١١٢

(٣) ترجمته فى طبقات القراء : ٧٠/١ ، وبغية الوعاة : ١٤٠ وما بعدها

(٤) ٥٢٠ ـ ٦١٣ هـ ترجمة فى طبقات القراء : ٢٩٧/١ وبغية الوعاة : ٣٤٩

(٥) ترجمته فى طبقات القراء : ٥٦٩/١ وما بعدها وبغية الوعاة : ٣٤٩

(٦) انظر الحجة : ٤٧٧/١ مراد ملا

وهذه النسخ الثلاث من المخطوطات المصورة بالأمانة العامة للجامعة العربية (معهد إحياء المخطوطات) [١] .

هذا ورأيت بمكتبة جامعة القاهرة مجلدات أربعا من كتاب الحجة مصورة رقم ٢٤٠١٢ وتنتهى المجلدة الأولى إلى قوله تعالى « كن فيكون » [٢] وتبتدىء المجلدة الثانية من قوله تعالى : « ولا تسأل عن أصحاب الجحيم » [٣] . وتنتهى بقوله تعالى : « لما أتيتكم من كتاب وحكمة » [٤] وتبتدىء المجلدة الثالثة بقوله تعالى « وإذا أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذرياتهم » [٥] . وآخرها « فأرسل معنا أخانا نكتل وإنا له لحافظون » [٦] أما المجلدة الرابعة فتبتدىء من قوله تعالى : « وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم من أهل القرى [٧] . وتنتهى بقوله تعالى : « ثم ليقضوا تفثهم » [٨] .

وهذه المجلدة الأخيرة مكتوبة بخط نسخ واضح جميل ، وكاتبها غير كاتب المجلدات الثلاث الأولى .

ومن كتاب الحجة جزءان عتيقان كتبا فى القرن الخامس بخط عادى فى مكتبة بانكى بور [٩] ، ولعل هذين الجزءين بعض المجلدات الثلاث التى صورها معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية من مكتبة بانكى بور المذكورة رقم ١١٤ [١٠] .

وبعد : فالأمل معقود على المحققين والباحثين لتحقيق الحجة وإخراجه ونشره ، وعسى أن تتاح لى الفرصة للاسهام فى هذا العمل الجليل الذى أعرف قدره والمدى البعيد لجدواه [١١] .

---

(١) انظر فهرس المخطوطات المصورة : ١/٨

(٢) سورة البقرة : ١١٧ — (٣) سورة البقرة : ١١٩

(٤) آل عمران : ٨١ — (٥) سورة الاعراف : ١٧٢

(٦) سورة يوسف : ٦٣ — (٧) سورة يوسف : ١٠٩

(٨) سورة الحجة : ٣٩ — (٩) إقليد الخزانه : هامش ٤٢

(١٠) أخبرنى الأستاذ محمد رشاد عبد المطلب أن بالأمانة العامة للجامعة العربية (معهد إحياء المخطوطات) مجلدات ثلاثا مصورة من مكتبة بانكى بور رقم ١١٤ . قام سيادته بتصويرها فى بعثته إلى الهند سنة ١٩٥٢ مندوبا عن المعهد .

(١١) وقد حقق الله رجائى ؛ فكلفت رسمياً تحقيق كتاب الحجة بالاشتراك مع الأستاذين الجليلين : على النجدى ناصف ، والدكتور عبد الحليم النجار . والله الموفق لخدمة اللغة العربية لغة الكتاب الكريم .

الباب الثالث

دراسات مقارنة

الفصل الأول

بين الفراء والفارسي في الاحتجاج

اشتغل أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء (يرحمه الله) بالبحوث القرآنية ، فكان له غير معاني القرآن — المصادر في القرآن ، والجمع والتثنية في القرآن [1] ، واختلاف أهل الكوفة والبصرة والشام في المصاحف [2] .

وكان إلى جانب ذلك يروي الحروف ، ويجلس للإقراء ، وتروى القراءة عنه : روى الحروف عن أبي بكر بن عياش راوي عاصم أحد القراء السبعة [3] ، كما روى عن علي بن حمزة الكسائي [4] ، ومن تلاميذه الذين رووا عنه : سلمة بن عاصم ، ومحمد بن الجهم [5]. ومحمد بن الجهم هذا هو الذي روى كتاب معاني القرآن [6] .

ولعل من الأسباب التي دعت إلى اشتغال الفراء بهذه الدراسات القرآنية أنه كان مولى لبني أسد [7] من أهل الكوفة [8]، وبنو أسد ، وأهل الكوفة لهم سبق مذكور في القراءة والاقراء ، ومن مشهوريهم : زر بن حُبَيش الأسدي الكوفي (ت ٨٢ هـ) ، وأبو عمرو الشيباني الأسدي الكوفي (ت ٩٦ هـ) [9]، وهما شيخان لعاصم الأسدي مولاهم الكوفي (ت ١٢٧ هـ) [10] . ثم كان بالكوفة حمزة (١٥٦ هـ) [11] ، وتلميذه الكسائي الأسدي مولاهم الكوفي (١٨٩ هـ) [12] ، وكل هؤلاء إمام في القراءة والاقراء .

---

(١) الفهرست : ١٠٠
(٢) معجم الأدباء : ١٣/٢٠
(٣) طبقات القراء : ٣٢٧/١
(٤) طبقات القراء : ٣٧١/١
(٥) المصدر السابق
(٦) انظر معاني القرآن ص ١ ط دار الكتب
(٧) معجم الأدباء : ٩/٢٠ ، ١٠
(٨) نزهة الألباء : ٦٦
(٩) طبقات القراء : ٢٩٤/١
(١٠) ٣٤٢/١
(١١) طبقات القراء : ٢٨١/١
(١٢) طبقات : ٥٣٥/١ـ٥٤٠

وكان الفراء يعقد مجالس للاملاء أول النهار من أيام الثلاثاوات والجمع فى شهر رمضان ، وقد أملى على الناس كتابه « معانى القرآن » فى هذه المجالس من شهور سنة اثنتين ، وفى شهور سنة ثلاث ، وشهور من سنة أربع ومائتين [١] .

وذهب الفراء حاجا سنة ٢٠٦ [٢] ، وتوفى بطريق مكة [٣] سنة سبع ومائتين [٤] ، بعد دخول المأمون العراق بثلاث سنوات [٥] ، توفى الفراء وعمره ثلاث وستون [٦]، ومعنى هذا أن كتاب المعانى أملى على الناس والفراء يدرج نحو الستين : أى بعد استقراره الذهنى والمذهبى ، وإذن فهذا الكتاب : كتاب معانى القرآن يمثل المرحلة التى انتهى إليها علم الفراء فى الثقافة العربية على وجه عام . ولهذا الاستنتاج أهميته فى تقويم الآراء التى صدرت عنه : ما كان منها متصلا باتجاهاته اللغوية والنحوية ، وما كان متصلا بالبحوث القرآنية ، وهو ما سأعرض له فى هذا الفصل بالبيان

ومعانى القرآن كتاب للفراء يكشف عن مذاهب القراء من الكوفيين فى الاحتجاج فى تلك الحقبة التى سبقت عصر ابن مجاهد أولا — الى جانب ما يكشف عنه — ثانياً — من خصائص نحاتهم ، والسمات العامة لمنهجهم . وكلا الأمرين يتصل بهذا البحث الاتصال الوثيق . ثم هو بعد يمثل حلقة من الحلقات المتتابعة فى الدراسات القرآنية — سبقت أبا على الفارسى بما يقرب من قرن ونصف من الزمان .

على أن لكل من الرجلين موقفاً يخالف موقف الآخر نحو القراءات التى لم تتواتر ونحو الاحتجاج بها ، وبرسم المصحف والاعتداد به — أى فى الاحتجاج — ، وهو ما يبيحه لى الحديث عن معانى القرآن وتناول هذه النواحى منه بالبيان . هذا إلى جعل أسلوب الشيخين فى الكتابين موضعاً للموازنة والتعليل . على أن أبا على قد قرأ كتاب المعانى على ابن مجاهد :

قال ابن جنى : أخبرنا — أى أبو على — بما فى كتاب المعانى عن أبى اسحق إبراهيم بن السَّرِى الزجاج سماعاً منه ، وبمعانى الفراء عن ابن مجاهد عن الفراء [٧] :

---

(١) معاني القرآن ١ ط دار الكتب (٢) طبقات القراء : ٢/٣٦١

(٣) الفهرست : ١٠٠ (٤) وردت سنة الوفاة خطأ فى كتاب طبقات الزبيدى المطبوع أخيراً (سبع وثمانين ومائة) ولم يتنبه إليه المحقق .

(٥) نزهة الألباء : ٧٠ (٦) معجم الأدباء : ١٣/٢٠

(٧) المحتسب : ١/١٠

فاذا أضيف إلى ذلك كله مكانة كل من الرجلين فى التاريخ النحوى ، وما قرره المؤرخون من أن الفراء كان أعلم الكوفيين بالنحو بعد الكسائى (١) ، وأنه ما كان بين سيبويه وأبى على أفضل منه (٢) — إذا كان كذلك علمنا أهمية دراستى لمعانى القرآن بجانب دراستى لآثار الفارسى .

والفراء لم يقصد فى كتابه « معانى القرآن » إلى الاحتجاج للقراءات ، حقيقة هو يحتج لكثير من القراءات التى وردت فى القرآن الكريم ، ولكن احتجاجه هذا جاء تبعاً للغرض الأول الذى من أجله ألف الكتاب ، والذى بسببه أسماه : « تفسير مشكل إعراب القرآن ومعانيه » ، فان كان فى الآية مشكل إعرابى أو معنوى ، وكان توضيحه يدعو إلى توجيه القراءات فيه تعرض للاحتجاج ، ومن هنا نراه لا يلتزم الموالاة فى عرض كتاب الله ، يتحدث عن تفسير كلمة أو جملة من آية ، ثم يتخطى بعض أحرف بعدها ، ليعود إلى التحدث بعد ذلك فى تفسير مشكل أو إعرابه ، وقد تكون بالحروف التى تخطاها قراءات ، واختلف فيها الأئمة القراء ، ولكنه يتركها ، لأنها لا تتصل بالغرض الذى إليه قصد من تأليف الكتاب ، والذى ندبه إليه « عمر بن بُكير » (٣) ، فهو يتحدث عن قوله تعالى : « الحمد لله » (٤) ، وينتقل بعدها إلى الحديث عن قوله : عليهم (٥) ؛ تاركا الحديث عن القراءات فى : مالك (٦) والصراط ، مع أن فيهما قراءات (٧) .

كما يتحدث عن قراءتى الرفع والنصب فى (فيضاعفه) من قوله تعالى فى سورة البقرة : « من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له » (٨) ، وينتقل بعدها إلى قوله تعالى : « ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله » ويترك الحديث عن القراءات المختلفة فى (فيضاعفه) من حيث حذف الألف ، وتشديد العين ، ثم لا يذكر شيئاً عن القراءات فى قوله تعالى : يبسط (٩). مع أن ابن مجاهد روى أنها بالسين فيما حدث به الفراء نفسه عن الكسائى (١٠) .

وآية أنه لم يقصد إلى الاحتجاج — أيضاً — أنه يشير إلى القراء — أحيانا —

---

(١) بغية الوعاة : ٤١١

(٢) نزهة الألباء : ٢٠٩

(٣) الفهرست . ٩٩

(٤) سورة الفاتحة : ٣

(٥) ص : ٥

(٦) الحجة : ١/٤ مراد ملا

(٧) انظر الحجة : ١/٣٠ مراد ملا

(٨) ص : ١٥٧

(٩) انظر النشر : ٢/٢٢٨

(١٠) انظر طبقات القراء : ٢/٣٧٢

إشارة غير معينة ؛ فتراه يأتى بها بجملة من غير ذكر للأسماء ، وذلك إذ يقول — مثلا — والقراء تقرأ [١]، وبعضهم يقرأ كذا [٢] ، أو يقول : وبعض من قراء أهل المدينة [٣] الخ . . .

ويظهر أنه كانت له قراءة ، فتراه يقول مثلا : وفى قراءتنا [٤] ، وقد روى محمد بن الجهم عنه ما يعزز ذلك [٥] . ويبدو كذلك أن مذهبه فى القراءات لم يكتب له الاختيار من أبى بكر بن مجاهد كما كتب لأستاذيه : حمزة والكسائى [٦] .

والفراء إلى جانب ذلك مذكور بين علماء الكوفيين [٧] ، بل هو رأس الطبقة الثالثة من نحاتهم [٨] ، حتى لقب فى النحو بأمير المؤمنين [٩] .

وكان لهذه الدراسات الكوفية أثرها ومظهرها فى معانى القرآن للفراء :

(١) فهو يصطنع اصطلاحات الكوفيين التى اشتهروا بها . وأخذت عنهم .

ومن هذه الاصطلاحات : مردود [١٠] أى معطوف ، وينصب ويخفض [١١] فيما يقابل يفتح ويكسر ، ويذكر القطع ويريد به الحال ، والصفة ويريد بها حرف الجر [١٢] ، والجارى (للمنصرف) ، وغير الجارى (للممنوع من الصرف[١٣]) ، والعماد لضمير الفصل عند البصريين[١٤]، والتبيان ويريد به الاظهار عند البصريين[١٥]، وواو الصرف، وهى التى فى نحو قول الشاعر : « لا تنه عن خلق وتأتىَ مثله [١٦] .

(٢) وقد وردت فى معانى القرآن كلمة مبيوع بدل مبيع [١٧] .

(٣) ويقيس على الشواهد الفردية من كلام العرب ، ويبنى على هذه الشواهد قواعده سواء أ كانت هذه الشواهد شعراً أم نثراً ، فتراه يحتج بالبيت الذى لا يعرف قائله : كأن يقول : أنشدنى بعض العرب [١٨] ، وأنشدنى آخر [١٩] ، وأنشدنى بعضهم ، من غير تعيين القائل ولا قبيلته . وأحيانا يعين القبيلة دون تعيين القائل منها ، فيقول — مثلا — أنشدنى بعض ربيعة [٢٠] وبعض

---

(١) ص : ٧٧ — (٢) ص : ٢٠٧

(٣) انظر مثلا ١٧ ، ١٩ ، ٢٨ ، ٨٢

(٤) معانى القرآن : ٢٨ — (٥) انظر طبقات القراء : ٢/٣٨١

(٦) انظر ابراز المعانى ص ٥ — (٧) الفهرست لابن النديم : ٩٨

(٨) طبقات الزبيدى : ١٤٣ — (٩) أخبار النحويين للسيرافى : ١٢٦

(١٠) معانى القرآن : ١٧ — (١١) ١٧—٩٨ — (١٢) ٣١

(١٣) ٤٢ — (١٤) ٥١ — (١٥) ١٨ — (١٦) ٣٤

(١٧) ٣٠ — (١٨) ٣٢ ، ٤٤ ، ٧٢ ، ٢١٢ — (١٩) ٣٢ — (٢٠) ٥٦

بنى عقيل [١] ، وبعض بنى أسد [٢] ، وعكل [٣] .

وأحياناً يسمى من أنشده : كالقاسم بن معن [٤] ، وسليمان بن عيينه [٥] ، وأبو ثروان [٦] ، والمفضل [٧] ، كما ينشده يونس بن حبيب [٨] ، والكسائى [٩] .

وبعض هذه الشواهد أوردها للدلالة على أن موضع الشاهد فيها كثير فى كلام العرب [١٠] . ومن أمثلة الشواهد النثرية ما أورد من أنه سمع بعض بنى الحارث يقول : « كان به جرب فنشر . أى عاد وحى[١١]. ويرد البصريون الشواهد الفردية أو الشواهد غير المعروف قائلها ، فلا يقيسون بها ، ولا يبنون قواعدهم عليها [١٢].

(٤) وهناك ظاهرة استرعت نظرى ، ذلك أنى رأيته يشير فى كثرة إلى قراءة عبدالله[١٣] ويشير إلى قراءة أبى أقل من إشارته إلى عبدالله ، ولكنها كثيرة بالنسبة إلى ابن عباس[١٤]، والحسن البصرى[١٥]، وحمزة الزيات[١٦] ويحيى بن وثاب [١٧]، والمفضل عن عاصم أبى النجود [١٨] ، وزهير الفرقبى [١٩] ، وأبى جعفر محمد بن على ابن الحسين [٢٠] ، وعمر بن الخطاب [٢١] ، ومجاهد[٢٢] ، فالإشارة إلى هؤلاء قليلة نادرة ، ومن الملاحظ أن أغلبهم كوفيون ، ولهذا أهميته ؛ ذلك لأننا نستطيع بهذا أن نتعرف على اتجاهات قراء الكوفة ، بعد أن عرفنا اتجاهات نحاتها ، وقد رأينا من قبل كيف أن سيبويه يشير إلى تجويد قراءات أغلب أصحابها بصريون ، وقد دعوت إلى اختبار هذه القراءات ودراستها ، وهنا أدعو إلى مثل هذه الدعوة بجانب شيخ النحاة الكوفيين ، كما دعوت إليها بجانب إمام النحاة أجمعين .

هذا وتعليل الاشارة الكثيرة إلى عبد الله — وهو عبد الله بن مسعود — أمر ميسور ؛ ذلك لأنه إليه تنتهى قراءة عاصم ، وحمزة ، والكسائى [٢٣] ، الكوفيين . وقد عرَّفت بمكانة هؤلاء وأثرهم فى الشيخ الفراء . هذه واحدة ، والأخرى أنه لم يكن أحد من أهل الكوفة يرغب عن قراءة ابن مسعود [٢٤] فيما يقول حذيفة بن اليمان ،

---

(١) ٦٧ (٢) ٦٨ (٣) ١٨٢ (٤) ٦٨، ١٣٦
(٥) ٢٢٢ (٦) ٥٦ (٧) ٦١ (٨) ١٢٧
(٩) ٨٠، ٩١، ١٠٣ (١٠) انظر مثلا ص ١٢٦
(١١) ١٧٣ وانظر ص ١٥ (١٢) راجع الانصاف فى مسائل الخلاف ١/ ٢٥١، ٢/ ٣٤٦، ٢٨٠ مثلا (١٣) انظر مثلا ص ٢٨، ٣١، ٤١، ٤٢، ٤٣، ٧٣، ٧٨، ٨٧، ١٠٦، ١٥٦ الخ ... (١٤) ٧٥ (١٥) ٧٠، ٩٦ (١٦) ٧٠ (١٧) ٧٨
(١٨) ١٤ (١٩) ٤٢ (٢٠) ٨٥، ٧٥ (٢١) ١٠٠ (٢٢) ١٨٨
(٢٣) طبقات القراء : ١/ ٤٠٩ (٢٤) انظر المصاحف للسجستانى : ٣٥

فاذا اجتمع إلى ذلك أن له كتاب « اختلاف أهل الكوفة والبصرة والشام فى المصاحف »[١] فهمنا السر فى الاشارة إلى قراءة عبد الله بن مسعود هذه الاشارة الظاهرة، وأكثرهذه القراءات التى أشار إليها الفراء قراءات شاذة، وقد احتج بها، وعلى سبيل المثال لم ترد قراءة عبد الله : «إلا أن تخافوا ألا يقيما حدود الله »[٢] بين القراءات العشر[٣] . وكذلك لم ترد « وإن كان ذا عسرة »[٤] . وهذه القراءة لعبد الله . كما له أيضاً قراءة : « وأولوا العلم القائم بالقسط »[٥]، ولم ترد فى العشر أيضاً[٦] .

* * *

وهذه أمثلة توضح منهج الفراء فى الاحتجاج بالقراءات الشاذة — وهو منهج سليم[٧] — ثم هو يتفق مع منهج الكوفيين فى الاحتجاج بالمثال الواحد، والبيت الذى لا يعرف قائله، فاذا كان هذا شأنهم مع الشواهد التى قالها العرب فما بالك بقراءة منسوبة إلى قارئها، مشهور بين الناس أمرها، متصلة بالرسول فى سندها، موافقة للعربية على وجه من وجوهها ؟

ومن هنا أيضاً رأيت الفراء يجوز القراءات التى تجيزها الصنعة الاعرابية، واللغوية، فتراه يقول — فى كثرة ظاهرة — ولو قرأ قارىء بكذا — كان صوابا . . كما ذكر فى قوله تعالى : « قد كان لكم آية فى فئتين التقا فئة تقاتل »[٨] ، قرئت بالرفع وهو وجه الكلام على معنى : إحداهما تقاتل فى سبيل الله[٩] (وأخرى كافرة) على الاستئناف كما قال الشاعر :

فكنت كذى رجلين رجل صحيحة ورجل رمى فيها الزمان فشلت

ولو خفضت لكان جيداً : ترده على الخفض الأول كأنك قلت : كذى رجلين : كذى رجل صحيحة ورجل سليمة . وكذلك يجوز خفض الفئة والأخرى على أول الكلام .

---

(١) معجم الادباء : ١٣/٢٠
(٢) سورة البقرة : ٢٢٩ وانظر ١٤٥ معاني القرآن .
(٣) انظر النشر : ٢٣٨/٢
(٤) معاني القرآن ١٨٦ وانظر النشر : ٢٣٦/٢
(٥) معاني القرآن : ٢٠٠
(٦) انظر النشر : ٢٣٨/٢
(٧) سأزيد ذلك بيانا فى موضع آخر
(٨) سورة آل عمران : ١٣
(٩) معاني القرآن ص ١٩٢

ولو قلت : فئة « تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة » كان صوابا على قولك : التقتا مختلفتين [١] . . . وكما قال عند قوله تعالى : « هب لى من لدنك ذرية طيبة » الذرية جمع ، وقد تكون فى معنى واحد ، فهذا من ذلك ، لأنه قد قال : « فهب لى من لدنك ولياً » ، ولم يقل أولياء وإنما قيل « طيبة » ، ولم يقل طيباً ، لأن الطيبة أخرجت على لفظ الذرية فأنثت لتأنيثها ، ولو قيل ذرية طيبا كان صواباً [٢] .

وإذن فالملاك العام عنده — الاعتداد بالشاذ ، وتصويب القراءة ما دامت موافقة لوجه من وجوه العربية — كما رأيت — ومن هنا نراه يحتج لقراءة صحيحة بقراءة شذذت — فيما بعد — كاحتجاجه لرفع الحق ، من قوله تعالى : « ذلك عيسى بن مريم قول الحق » ، قال : رفعه حمزة والكسائى ، وجعلا الحق هو الله تبارك وتعالى) لأنها فى حرف عبد الله ، « ذلك عيسى ابن مريم قال الله » كقولك : كلمة الله ، فيجعلون « قال » بمنزلة القول ، كما قالوا : العاب والعيب [٣] .

وبعد أن أورد قول الله تعالى : « هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام والملائكة » [٤] قال : رفع — أى الملائكة — مردود على (الله) تبارك وتعالى ، وقد خفضها بعض أهل المدينة [٥] ، « يريد فى ظلل من الغمام وفى الملائكة » ، والرفع أجود ؛ لأنها فى قراءة عبد الله : هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله والملائكة فى ظلل من الغمام » [٦] .

وقد أعطانا الفراء هذا الملاك العام فى قوله : « والكتاب أعرب وأقوى فى الحجة من الشعر » [٧] كما نراه يقف من القراءات التى لا توافق مذهبه موقفاً سلبيا لا يهاجم فيه — بل يعترف به فى لطف كأن يقول : « وأنه لأحب الوجهين إلى [٨] » ، أو يقول : « والرفع أحب إلى من الجزم فى قراءة من قرأ : « لا يحزنهم الفزع الأكبر » ومن قرأ : « أنلزمكموها وأنتم لها كارهون [٩] . فأنت ترى أن كلا من الوجهين

---

(١) ص ١٩٢
(٢) معاني القران : ٢٠٨ ، وانظر فى مثل ذلك من معاني القرآن ص ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢٢ ، ٢٢١ ، ٢٢٤ (٣) معاني القرآن ص ١٠٥ (٤) سورة البقرة : ٢١٠
(٥) هو أبو جعفر يزيد بن القعقاع انظر البحر : ٢/٣٢٥
(٦) معاني القرآن : ١٢٤ (٧) معاني القرآن : ١٤٠
(٨) معانى القرآن : ٧٥ (٩) معاني القرآن : ٨٨

حبيب إليه ، ولكن أحدهما أحب إليه من الآخر . ومبعث هذا عنده ما يراه في صحة القراءات جمعاء ، وذلك قوله في سلامة من العقيدة : « ولم يجتمع في قراءتنا وفي قراءة أبي إلّا على صواب والله أعلم [١] .

* * *

وغاية ما يبدو منه إذا لم يسترح إلى قراءة أن يقول : «ولست أشتهي ذلك»[٢] أو يقول : « ولا يعجبني ذلك » [٣] ، وهنا نراه ينفي حبه وإعجابه ، ولكن ليس في قسوة البصريين الذين قالوا في قراءة لعبد الله بن عامر : « هي واهية ، والقارىء بها واهم » [٤] ؟ وقد رأينا مواقف أبي علي الفارسي نحو القراءات التي تخالف مذهبه ، وهو يتجه في سمته العامة اتجاه البصريين [٥] .

* * *

(٥) والفراء يستفتي في — معاني القرآن — روح العربية — فهذا وجه من الأوجه كثير الدوران في الكلام ، خفيف على الألسنة . ولذلك نطق به ، ويجعل الخفة ، وكثرة الدوران سبباً من أسباب الاحتجاج ، أو وسيلة إلى توجيه قراءة من القراءات [٦] .

* * *

(٦) أما القياس واستغلاله في الاحتجاج ، فواضح في كتاب معاني القرآن ، تراه مثلا يقيس خفض الدال من قوله : الحمدِ لِله على اجتماع الكسرتين في إِبِل [٧] ، ويقيس رفع الدال في قراءة من قرأ : الحمدُ لُله على المثال الأكثر من أسماء العرب الذي يجتمع فيه الضمتان مثل : الحُلُم والعُقُب . وانظر قياسه كسر الصاد في صاد على خفض النون من «رجلان» ، وفتح النون في « نون » و «القلم» على «المسلمون»[٨] .

---

(١) معاني القرآن : ١٠٦
(٢) معاني القرآن : ١٢٥
(٣) معاني القرآن : ١٤٥
(٤) الانصاف : ١/٢٠٢
(٥) انظر الفصل الخاص بذلك
(٦) معاني القرآن انظر ص ٥
(٧) معاني القرآن : ٣
(٧) معاني القرآن : ١٠

وأحياناً يعطى قاعدة عامة تنتظم مسائل كثيرة متشابهة ثم يقول : فأجرِ الكلام على هذا [1] ، أو يقول : فابن على هذا [2] .

وواضح من هذا أنه يدعو إلى القياس على الكثير الشائع ، ومعلوم من مذهب الكوفيين أنهم يقيسون أيضاً — على القليل النادر ، ولكن الفراء يعلن أنه لا يستحب القياس عليه ، وذلك ما توحى به عبارته التى ذكرها فى الجمع بين صيغة الأفعال والباء — فى قراءة من قرأ : « يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار » [3] ، حيث قال : ولست أستحب ذلك لقلته » [4] .

* * *

(٧) أما موقفه من النحاة السابقين فانا نراه يثنى على شيخ الكوفيين : أبى جعفر الرؤاسى — حيث يقول : « وقد قرأها — ألم الله — رجل من النحويين وهو أبو جعفر الرؤاسى — وكان رجلا صالحاً [5] .

وليس معنى ذلك أنه جرى على هذا الثناء لشيوخه ، فقد رأيته يتتبع أستاذه الكسائى ، يعرض آراءه ، ويردها حينا [6] ، كما رأيته يعرضها ويدلل عليها [7] .

* * *

ولا ينظر إلى البصريين ، ولا يستشهد بسيبويه إلا فى الأقل الأندر ، وأبو عبيدة — وهو بصرى — غير موثق عنده — فقد أورد فى معانى القرآن قوله : قال بعض من لا يعرف العربية إن معنى غير فى الحمد (سورة الفاتحة) معنى سوى ، وأن «لا» صلة فى الكلام ، واحتج بقول الشاعر :

فى بئر لا حور سرى وما شعر [8]

ومن لا يعرف العربية هنا هو أبو عبيدة [9] .

* * *

(١) معاني القرآن : ١٥
(٢) المصدر السابق وانظر مثلا ص ٨١، ٩٣
(٣) سورة النور : ٤٣
(٤) معاني القرآن ص ١٩
(٥) معاني القرآن ٩
(٦) انظر معاني القرآن : ٣٢
(٧) انظر : ٥٦، ٥٨
(٨) معاني القرآن : ٨
(٩) انظر اللسان (غير)

ويظهر أن أبا عبيدة قد تناولته ألسنة كثيرة بعدم التوثيق[١]، فربما كان الدافع للفراء ما فى الرجل من شخصيته، لا مذهبه فى بصريته.

وقد اتخذ موقف الفراء من رسم المصحف، والاعتماد عليه فى الاحتجاج مظاهر مختلفة ألخص معالمها الكبرى فى النقاط الآتية:

(ا) فهو حينا يعلل لرسم كتاب المصاحف «بسم الله الرحمن الرحيم» من غير ألف، ورسمهم: فسبح باسم ربك العظيم بألف[٢].

(ب) وقد تكون القراءة صحيحة خالفت رسم المصحف — المخالفة الجائزة على النحو الذى بينته فى فصل سابق — فيحتج لها الفراء[٣].

(ج) وقد يرتضى القراءة الشاذة التى تجوزها العربية وإن كانت مخالفة للرسم[٤].

(د) وقد ينفى شهوته (كذا) قراءة صحيحة؛ لأنها مخالفة للرسم[٥].

(ه) ويحتج لرجوع الكسائى عن قراءة إلى أخرى بموافقتها قراءة العامة، والكتاب[٦].

* * *

وهو — كما ترى — اتجاه لا يخضع لنظام معين، أو نظرة مطردة، إذ هو حينا يرتضى ما يخالف الرسم، وأحيانا يشير إلى موافقة الكتاب فيحتج برسمه. على أن الاتجاه — فى أغلبه — يدل على أنه معتد بالرسم إذا وجد له وجها من كلام العرب[٧] وذلك يجعله بين أهل الأثر، ويبعده عن أصحاب القياس والنظر.

* * *

هذا والمترجمون للفراء يقولون: «أنه كان يتفلسف فى تصانيفه»[٨]، ولعل صحبته لثمامة بن الأشرس أثرت فى ذلك[٩]، وقد ألف الفراء كتاب «الحدود»، ولا أستطيع أن أحكم على أسلوبه فيه لأنى لم أطلع عليه، إلا أن اسمه يوحى بمنطق،

---

(١) طبقات انظر الزبيدى: ١٩٢
(٢) ص ٢
(٣) معانى القرآن: ٨٨
(٤) معانى القرآن: ٩٦
(٥) معاني القرآن: ١٢٥
(٦) معاني القرآن: ٢٠٢
(٧) الصاحبي: ١١
(٨) بغية الوعاة: ٤١١
(٩) نزهة الألباء: ٦٨

وقد أورد ابن النديم مسائل هذا الكتاب ، وهي تعاريف لأبواب العربية والنحو ، فلعله كان في هذه التعاريف جامعاً مانعاً كما يقول المنطقيون .

على أني — فيما قرأت — من معاني القرآن للفراء لم أجد نصاً يشير إلى هذا التفلسف ، وربما كان ذلك — إن صح — في كتبه الأخرى ، وربما كان السبب في بعده عن التفلسف في معاني القرآن — ميله إلى الايضاح الذي دعت إليه دواع أفصلها فيما يلي [1] :

يبدو أن الفراء آثر — في كتابه معاني القرآن — البيان والايضاح في أسلوبه متأثراً بما يصطنعه المؤدبون ، فقد حدثنا المترجمون أنه كان مؤدباً لولدى المأمون[2] ، إلى أن كتابه معنون بتفسير المشكل .... وما أحوج مثل ذلك إلى الأسلوب السهل حتى يزيل من إشكاله ، ويفتح المغاليق من أقفاله ، وسبب ثالث أراه دعا الفراء إلى أن يسلك أوضح المسالك ، ذلك أنه ألف الكتاب مملياً على خلائق كثير من الناس ، وقد هم أبو بريدة الوضاحي أن يَعُدُّهم فلم يضبط عددهم [3] ، وموقف الاملاء على مثل هؤلاء و أكثر الناس — من العامة — يدعو إلى التبسط في المقال ؛ مراعاة لمقتضى الحال .

وكان في طبيعة الفراء سماحة ، كان أكثر مقامه في بغداد ، فاذا كان آخر السنة أتى الكوفة ، فأقام بها أربعين يوماً يفرق في أهله ما جمعه [4] ، كما كان في خلق الفراء إسجاح ، وذلك ما تحدثني به عبارة « أبي بريدة » عندما خزن الوراقون كتاب المعاني عن الناس ليتكسبوا به ، وأغلوا نسخه حتى جعلوه درهما عن كل خمسة أوراق ، وشكا الناس إلى الفراء فدعا الوراقين وكلمهم في ذلك ، وقال عبارته التي أستنتج منها سماحته « قاربوا الناس تنفعوا ، وتنتفعوا [5] » ، ورجل هذه نزعته في الخير ، وذلك حبه لمقاربة النـاس — خليق بأن يزيل عنهم فيما يمليه الغموض والالباس ، تقرأ ذلك أيضاً في عبارته التي يهدد بها الوراقين عندما أبوا عليه دعوته في مقاربة الناس : إني أريد أن أملي كتاب معانٍ أتم شرحاً ، وأبسط قولا من الذي أمليت قبلا [6] .

---

(١) الفهرست : ١٠٠
(٢) نزهة الألباء : ٦٧
(٣) معجم الأدباء : ١٢/٢٠
(٤) بغية الوعاة : ٤١١
(٥) معجم الأدباء : ١٢/٢
(٦) معجم الأدباء : ١٣/٢٠

ولوقوفه موقف المعلم الموضِّح نراه يحيل الكلام على صورة حوار .

قال — فى قوله تعالى « فلم تقتلون أنبياء الله من قبل » [١] — يقول القائل « إنما تقتلون » للمستقبل فكيف قال . من قبل ؟ . . . ثم أخذ يجيب بضرب الأمثلة الموضحة من القرآن الكريم والشعر [٢] ، وربما قال فى نهاية حديثه عَنْ مشكل ... : وفى هذا بيان [٣] .

ومن أجل ذلك وردت قواعد عامة فى كلام الفراء ، كأنه يريد بهذه القواعد تيسير الأمر على الناس بضم أشتات العلم فى قواعد وتطبق على مسائل متعددة كأن يقول « وإن جاءك تشبيه جمع الرجال موحداً فأجزه [٤] » أو يقول . وإن العرب لتجمع بين الحرفين وإنهما لواحد إذا اختلف لفظاهما كما قال عدى بن زيد .

وقدمت الأديم لراهشيه [٥] وألفى قولها كذباً ومينا

وقولهم . بعدا وسحقا ، والبعد والسحق واحد .

وكأن يقول ..... وقد تجعل العرب « ما » فى بعض الكلام للناس ، وليس بالكثير [٦] .

وبعد ، فكثير من الباحثين ينسبون إلى ابن السراج أنه أول من وضع أصول العربية والنحو فى كتابه الأصول ، وقد ذكر شيئاً من ذلك محققو كتاب « سر صناعة الاعراب » فى مقدمته [٧] ولابد هنا أن نعترف « ليحيى بن زياد الفراء » فى هذا الميدان ، وأنه سبق ابن السراج فى وضع أصول العربية بنحو قرن من الزمان ، ولعل هذه القواعد العامة — وأمثالها كثير ، فى كتاب معانى القرآن . بعض هذه الأصول التى قررها الفراء . على أن المؤرخين من الوراقين يذكرون أن لأبى زكريا يحيى بن زياد الفراء كتابا فى أصول النحو . قال . أبو بريدة الوضاحى أمر أمير المؤمنين الفراء أن يؤلف ما يجمع به أصول النحو وما سمع من العرب [٨] . ومن هنا

---

(١) سورة البقرة : ٩١
(٢) معانى القرآن ص ٦٠
(٣) معاني القرآن : ٣٦
(٤) معانى القرآن : ١٥
(٥) معانى القرآن ص ٣٧
(٦) معانى القرآن ١٠٢ وانظر فى هذه القواعد العامة ص ١٤، ٢٢، ٣٠، ٣٤، ١٠٣، ١٤٢ مثلا .
(٧) ص ٦
(٨) معجم الأدباء : ٢٠/١٢

قال أحمد بن يحي ثعلب « لولا الفراء لما كانت اللغة ؛ لأنه حصلها وضبطها . . ولولا الفراء لسقطت العربية [١] .

ويقولون مثل هذه العبارة فى الأصول لابن السراج [٢] .

فهذه نماذج من أصول العربية للفراء فى كتابه معانى القرآن ، وإذا كان علم ابن السراج فى الأصول قد بسطه ابن جنى فى كتابه « الخصائص » ولخصه السيوطى فى كتابه الاقتراح فان دراسة هذه الكتب تفتح لنا آفاقا جديدة فى التعرف على مذاهب الكوفيين ممثلة فى (شيخ النحاة الفراء) ، ومذاهب البصريين ممثلة فى ابن جنى .

* * *

وبعد فهذا عرض سريع لكتاب معانى القرآن للفراء بعامة وفى الاحتجاج للقراءات بخاصة ، أضعه حلقة فى سلسلة تاريخ الاحتجاج ، ومعالمه الكبرى ، كما أعده كاشفاً عن منهج الكوفيين فى هذا السبيل ، كما عددت « الكتاب » كاشفاً عن منهج البصريين ، وعلى ضوء هذين نستطيع أن ندرس ما سميته من قبل .

« نحو القراءات » ، وهو ما أرجو أن يتجه إليه الباحثون .

---

(١) نزهة الألباء : ٦٦ (٢) انظر نزهة الألباء : ١٦٩

الفصل الثانى

بين الزجاج فى معانى القرآن وتلميذه أبى على فى الاحتجاج

هناك أسباب كثيرة تدعونى إلى إقامة الدرس حول معانى القرآن لأبى اسحق ابراهيم بن السرى بن سهل الملقب بالزجاج (ت ٣١١ ﻫ)، فالزجاج شيخ لأبى على الفارسى، وقدسمع الفارسى من شيخه كتاب المعانى(١)، فلابد أن يكون هناك تفاعل بين الرجلين، هذا إلى أن معانى القرآن للزجاج يمثل حلقة من هذه الحلقات المتتابعة فى الدراسات القرآنية، ونحو القراءات، وهو أمر يتصل بموضوع هذا البحث اتصالا وثيقاً، وقد عرضت من قبل لهذا الجانب من نحو القراءات ممثلا فى دراستى لكتاب سيبويه، ثم تكلمت عن اتجاه الفراء الكوفى فى معانى القرآن، ووجدت هناك طابعاً خاصاً تناولته بالبيان، ودعوت وأنا أصحب سيبويه فى الكتاب، والفراء فى المعانى إلى اختبار هذا النحو القرآنى: والآن أضيف حلقة جديدة إلى هذه الحلقات فتمتد سلسلة الدراسات إلى الزجاج فأتعرف هذه الناحية عنده، كما سيكون كتاب الموضح للدانى حلقة أخرى تمثل نظرة القراء إلى النحو والنحاة، وأرجو بعد ذلك كله الدعوة إلى النظر فى هذا التراث: فهؤلاء شيوخه، وتلك مدارسه، فلعلنا نظفر بنحو موثق مدعوم الأسانيد من القراءات الصحيحة.

والمطلع على ثبت الكتب التى أضافها الزجاج إلى المكتبة العربية يرى أنها متصلة فى الأعم الأغلب باللغة، والنحو، والصرف، والأدب، والعروض، والقوافى جميعاً(٣).

ولم يترك أثراً متصلا بالدراسات القرآنية إلا كتابه «معانى القرآن» على ما علمت من كتب التراجم وعلى الرغم من ذلك، يظهر أن الزجاج اشتهر به دون غيره من كتبه الأخرى، حتى إن أبا بكر الخطيب البغدادى فى تاريخه لا يعرفه إلا به: فيقول: «إبراهيم بن السرى بن سهل ... صاحب كتاب معانى القرآن»(٤)، ويأتى بذكر كتبه الأخرى فى اشارة مجملة حيث يقول. «وله مصنفات حسان فى الأدب»(٥) ولا يزيد

(١) المحتسب: ١/١٠
(٢) تاريخ بغداد: ٦/٩٢
(٣) الفهرست لابن النديم: ٩١
(٤) تاريخ بغداد: ٦/٨٩
(٥) المصدر السابق: ٦/٩٠

وقد أورد ياقوت فى معجمه قوله : « قرأت على ظهر كتاب المعانى : ابتدأ أبو اسحق باملاء كتابه الموسوم بمعانى القرآن فى صفر سنه خمس وثمانين ومائتين ، وأتمه فى شهر ربيع الأول سنة إحدى وثلاثمائة [1] ، وأود أن أسوق النصوص الآتية وهى كاشفة عن حلقات التأليف فى معانى القرآن وكيف ألف الزجاج فى المعانى مندفعاً ببعض شيوخه فى ذلك .

(ا) قال صاحب طبقات المفسرين [2] : ومن تآليف اسماعيل بن اسحق [3] ... كتاب معانى القرآن وإعرابه خمسة وعشرون جزءا ، و .... ، وكتاب المعانى المذكور كان ابتدأه أبو عبيد القاسم بن سلام ، بلغ فيه إلى الحج ، والأنبياء ، ثم تركه فلم يكمله . وذلك أن الامام أحمد بن جنبل كتب إليه يقول : « بلغنى أنك تؤلف كتابا فى القراءات أقمت فيه الفراء ، وأباعبيدة ، أئمة يحتج بهم فى معانى القرآن فلا تفعل ، فأخذه إسماعيل ، وزاد فيه زيادة وانتهى إلى حيث انتهى أبو عبيده ، وتوفى فجأة ... سنة ٢٨٢ هـ » .

(ب) وأود كذلك أن أضيف إلى هذا النص ما يأتى :

أولا — كانت هناك صلة مودة وتعاطف بين المبرد شيخ الزجاج وإسماعيل ابن اسحاق [4] .

ثانياً — يشير أبو اسحق الزجاج إلى اسماعيل بن اسحق هذا مثلا عند الاحتجاج لقراءة « واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام » .

ثالثاً — آخر ما سمع من الزجاج قوله : « اللهم احشرنى على مذهب أحمد ابن حنبل [5]

رابعاً — يخطىء الزجاج الفراء فى معانى القرآن ، ويهاجم أبا عبيدة على النحو الذى سأشرحه بعد فى هذا الفصل .

وأظننى بعد تلك القرائن أستطيع أن أستنتج السبب الذى من أجله ألف الزجاج معانى القرآن مبتدئاً فيه بُعيْدَ الوقت الذى توفى فيه اسماعيل بن إسحق ، محققاً توجيهات ابن حنبل لأبى عبيد القاسم بن سلام .

---

(١) معجم الادباء : ١/١٥١
(٢) ورقة : ٤٥
(٣) قاضى بغداد ت ٢٧٢هـ (المصدر السابق)
(٤) معجم الأدباء : ٦/١٣٥
(٥) معجم الأدباء : ١/١٣٠

هذا وكتاب معانى القرآن للزجاج مخطوط بدار الكتب تحت رقم ١١١ م تفسير ، وما فى الدار منه إلا جزء واحد من سورة النساء إلى آخر هود .

وفى الأمانة العامة للجامعة العربية (معهد المخطوطات) أفلام لأجزاء مختلفة من معانى القرآن للزجاج[1] . وأمضى بعد ذلك إلى بيان خصائص هذا الكتاب ، ومقدار ما بين الزجاج وأبى على من تخالف أو اتفاق

خصائص معانى القرآن للزجاج

أولا — فى تفسير اللفظ القرآنى ، وقد رأيت أبا إسحق يسلك طرقا مختلفات فى تفسير اللفظ القرآنى ، وأن أبا على يشترك معه فى بعض منها ، متأثرا بشيخه فيها ، غير مطفئ ، ذلك شخصية أبى على ، فهو وإن كان قفى قفو أستاذه — محتفظ بما له من سمات ، تبدو فى تناوله هذه اللغويات ، كما تبدو فيما تراه من إضافات وتعقيبات .

وفى بعض آخر ينفرد أبو إسحق ، ولا يجرى أبو على فى سننه ، مما يجعل ذلك طابعا خاصا للزجاج ، يدل عليه ، ويشير إليه ، ويميزه عمن عداه . وابدأ ببيان السمة المميزة لأبى إسحق فأقول :

الاشتقاق

وأبو إسحق مولع ولعا شديدا بالاشتقاق : يجعل للفظ معنى أصيلا تؤخذ منه وتدور حوله معانى الألفاظ التى تمت له باتفاقها معه فى بعض الحروف ، ومتصرفه منه ، وهكذا يأخذ أصلا من الأصول يجمع بين معانيه ، وإن اختلفت صيغه ومبانيه ، وهو ما سماه ابن جنى الاشتقاق الصغير [2] .

فاذا ما تعرض الزجاج مثلا لشرح « فريضة » من قوله تعالى : « . . . فريضة من الله ، إن الله كان عليما حكيما »[3] قال : أصل الفرض فى اللغة القطع ، الفرضة : الثلمة تكون فى النهر ، والفرض : الحز الذى يكون فى المسواك يشد فيه الخيط ،

---

(١) انظر فهرس المخطوطات المصورة : ٤٥

(٢) الخصائص : ١/٥٦٢ (٣) سورة ٤ آية ١١

والفرض فى القوس : الحز الذى تشدفيه الوتر ، والفريضة فى سائر ما افترض ما أمر الله به العباد لجعله أمراً حتماعليهم قاطعاً ، وكذلك قوله : « وقد فرضتم لهن فريضة » أى جعلتم لهن قطعة من المال .

وإذا ما شرح لفظ كِفْل فى قوله تعالى : « ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها » [1] . قال : الكفل فى اللغة النصيب ، وأخذ من قولهم : « أكفلت البعير » إذا أدرت على سنامه ، أوعلى موضع من ظهره كساء ، وركبت عليه ، وإنما قيل له كفل ، واكتفل البعير ؛ لأنه لم يستعمل الظهر كله ، إنما استعمل نصيب من الظهر ، ولم يستعمل كله .

والزجاج يشير إلى طريقته فى الاشتقاق من أنه يأخذ أصلا من الأصول يجمع بين معانيه وذلك إذ يقول : « قد استعز المرض على المريض إذا اشتد وجعه وكذلك قول الناس : يعز على أن تفعل : أى يشتد ، فأما قولهم : قد عز الشيء إذا لم يوجد، فتأويله : قد اشتد وجوده أى صعب أن يوجد ، والمآب واحد » .

وألق بالك معى إلى قوله : « والمآب واحد » تر فيه إشارة إلى نزعته فى الاشتقاق، وتأصيل الأصول لمعانى الكلمات .

وقد رمى به ولعه بالاشتقاق على هذا النحو إلى ترجيح جانبه على ما عداه من التأويلات ، فاذا كانت هناك عدة تأويلات ، وكان بعضها يرجع فى معناها إلى أصل من أصول الاشتقاق رجح هذا الجانب ، ونبه عليه : أورد فى قوله تعالى : « وكان الله على كل شيء مقيتا » [2] .

قال بعضهم : المقيت : القدير . وقال بعضهم : « المقيت : الحفيظ » ثم يختار هذا التأويل بدليل قوله : « وهو عندى — والله أعلم — بالحفيظ أشبه » ثم بين سبب الاختيار بقوله : هو بالحفيظ أشبه ؛ لأنه من القوت مشتق : يقال قت الرجل أقوته قوتا إذا حفظت عليه نفسه بما يقوته . والقوت اسم ذلك الشيء الذى يحفظ نفسه ، ولا فضل فيه على قوت الحفظ . فمعنى المقيت — والله أعلم — الحفيظ الذى يعطى الشيء قدر الحاجة من الحفظ . قال الشاعر :

أَلِىَ الفضلُ أم علىَّ إذا حو سبتُ إنى على الحساب مُقِيتُ

(١) سورة ٤ آية ٥٨

(٢) سورة النساء آية (٨٥)

وهكذا كان ولع الزجاج بالاشتقاق ، وقد وجه حمزة بن الحسن الأصبهانى فى كتابه الموازنة — نقداً لاذعاً إلى أبى إسحق حيث قال : « كان الزجاج يزعم أن كل لفظتين اتفقتا ببعض الحروف وإن نقص حروف إحداهما عن حروف الأخرى فان احداهما مشتقة من الأخرى[1] ، فيقول : « الرجل مشتق من الرجل ، والثور إنما يسمى ثورا لأنه يثير الأرض ، والثوب إنما سمى ثوبا لأنه ثاب لباساً بعد أن كان غزلا (حسيبه [2] الله !) ، ثم أورد حمزة سؤال يحيى بن على بن يحيى المنجم — الزجاج عن الاشتقاق للجرجير ... ولم سمى الحبل جريرا ، وتعليل تسمية الجرة والمجرة ، والجرجور .... وقد ناقشة يحيى بن على فى تعليله تسمية الفصيل المجر الذى يشق طرف لسانه لئلا يرتضع أمه بقوله — أى الزجاج — « لأنهم جروا لسانه حتى قطعوه » فقال يحيى ينقض عليه : « فان جروا أذنيه فقطعوهما تسميه مجرا؟ قال الزجاج : لا يجوز ذلك ! قال يحيى بعد أن رمى الزجاج بمناقضة العلة التى أتى بها : « ومن لم يدر أن هذا مناقضة فلا حس له [3] » وهكذا رمى الزجاج بهذه النكراء .

ويظهر أن الزجاج قد اشتهر بهذا المذهب شهرة تجعله يجادل فيه ، ويسأل عنه ، ثم يكون موضع المفاكهة والتندر : حكى ابن العلاف الشاعر : « ... يلزمه أن يقول .. والدب مشتق من الدب ، والعذب من الشراب مشتق من العذاب ، والخريف من الخروف ... والخنفساء من ... والخنثى من الأنثى ... والمخنث من المؤنث ... (ضرط ابليس على ذا من أدب [4] !!)

والحق أن خصوم الزجاج غالوا فى مهاجمته على النحو الذى ترى ، وعندى أن الزجاج على صحة من المذهب فى بعض ما رأى ، لكن لا على أن يمعن ويتعمل ،

---

(١) المراد من الاشتقاق هنا مجرد الأخذ كما نص على ذلك المحقق لمعجم الأدباء

(٢) معجم الأدباء : ١/١٤٤

(٣) معجم الادباء : ٢/١٤٦ (٤) معجم الادباء : ١/١٤٧

حاشية : وقد بقيت أثارة من هذا التندر فى أهل زماننا هذا ، سمعت بعض المشتغلين بالعلم يقول : « آن كادر الموظفين مشتق من الـكدر » وما أبعد ما اشتقوا : لفظا أعجميا من آخر عربى ، ويظهر أن شيئاً من ذلك كان عند الاقدمين ، فقد نبه ابن السراج فى رسالته عليه ، وحذر إياه حيث يقول : « مما ينبغي أن يحذر كل الحذر أن يشتق من لغة العجم ، فيكون بمنزلة من ادعى أن الطير ولد الحوت » (المزهر للسيوطى : ١/٢٠٥ ط صبيح)

ويتلمس العلاقة البعيدة فى اشتقاق كلمة ، وارتباط معنى بمعنى ، فهذا يرمى به إلى جانب من التكلف يؤدى به إلى خطأ وانتقاض كانا موضع التعقب والتندر والتهجم من الخصوم .

* * *

وإذ قد قومت مذهب الزجاج فى الاشتقاق ، وذكرت موقف القدامى منه ، وقلت كلمة الإنصاف فى هؤلاء وهؤلاء ، أود أن أذكر الأسباب التى أراها دعت الزجاج إلى انفراده بما انفرد من الامعان فى الاشتقاق ، والتكلم فيه على هذه الصورة الواسعة :

ربما كان الباعث على هذا المذهب عند الزجاج أنه كان ضعيف العلم باللغة [١] فأراد أن يستر ضعفه ، وأن يستوعب معانيها على هذا الوجه المقرب ، بإيجاد هذه العلاقات والترابط بين الألفاظ والمعانى ، وهو أسلوب يأخذ به طلاب العلم أنفسهم لحفظ ما يحصلون ، ويصطنعها بعض المعلمين لتقريب ما يلقون إلى من يعلمون ، وقد كان الزجاج معلماً لأولاد بنى ما رقة [٢] ثم ولد عبيد الله بن سليمان [٣] .

على أن شيئاً من ذلك يتصل — فيما بدا فى — بصناعته الأولى ، حيث كان يخرط الزجاج [٤]، ومايلازم هذه الصناعة من أخذ شىء من شىء ، واشتقاق فروع يشكلها من أصول ، والمرء مشدود إلى بيئته يشير إليها ، وتدل عليه ، وتعمل عملها فى حديثه وتصرفه حتى لا فكاك له من ذلك ، لاسيما إذا علمنا أن الزجاج جمع بين خراطة الزجاج ، وتلقى العلم فى وقت واحد ، يأخذ من الأولى ؛ ليرد على أستاذه المبرد ما وعده به أن يعطيه كل يوم درهما [٥] .

ولا يدفع بعض هذه التعليلات ما كان من مؤلفات فى الاشتقاق للأئمة السابقين كالأخفش [٦]، والأصمعى [٧] ، وأحمد بن حاتم [٨] ، والمبرد شيخ الزجاج [٩] ،

---

(١) الفهرست : ٩٠ (٢) معجم الادباء : ١/١٣١
(٣) الفهرست : ٩٠
(٤) وفيات الأعيان : ١/٣٢
(٥) تاريخ بغداد : ٦/٩٠ ، نزهة الألباء : ١٦٦ ، ومعجم الادباء : ١/١
(٦) الفهرست : ٧٨ (٧) المصدر السابق : ٨١
(٨) ٨٣ (٩) الفهرست : ٨٨

كما كان لابن دريد [1] ، وابن سراج [2] وللرماني الاشتقاق الصغير ، والاشتقاق الكبير [3] . كما أفرد النحاس وابن خالويه الاشتقاق [4] بالتأليف أقول : « لا يدفع ما عللت — شيء من ذلك ؛ لأن تعرض الناس للزجاج بما تعرضوا — وقد سقت طرفاً منه — يجعل للزجاج طابعاً خاصاً — وقد أشرت إليه — في تناوله الاشتقاق ، مميزاً له عن غيره من الأئمة اللغويين ، متصلا فيما يتصل بالحياة التي اضطرب فيها الزجاج ، والظروف التي أحاطت به ، ووجهته ، وأثرت فيه .

---

(١) الفهرست : ٩٢　　(٢) الفهرست : ٩٣
(٣) الفهرست : ٩٥　　(٤) المزهر : ١/٢٠٤ ط صبيح

(*) وبهذه المناسبة أقول : « إن الباحثين من المحدثين المحققين يذكرون لابن دريد أنه بدأ النجاح الكبير لفكرة الاشتقاق بتأليف كتاب الاشتقاق ، وأن ابن فارس قد تأسى به . (انظر مقدمة كتاب مقاييس اللغة تحقيق الاستاذ عبد السلام هرون ٢٣) ويفهم من هذه العبارة أن المؤلفين القدامى — قبل ابن دريد — كانت لهم بحوث في الاشتقاق ، ولكنها لم تبلغ الدرجة العليا من النجاح وذلك الكلام يحتاج إلى تعقيب ، فطبيعة الاشياء تدعونا إلى الاعتداد بالتطور التاريخي لهذا الامر ، وبناء الخالفين على أصول السالفين من اللغويين ، فأبو عمرو ابن العلاء (١٥٤ هـ) ، يسأل أعرابيا عن اشتقاق الخيل — وسؤاله دليل على مشغلة الناس في ذلك الوقت بالاشتقاق — فيجيب الاعرابي أنه استفاد الاسم من فعل السير ، ويفسر أبو عمرو ذلك بأنه مشتق من الخيلاء والعجب ، ويقول : ألا تراها تمشي العرضنة خيلاء وتكبرا (طبقات الزبيدي ٢٩) .

وأبو زيد الانصاري (٢١٤ هـ) يقول : سميت « منى » منى لما يمنى فيها من الدماء (المزهر ١/٢٠٥) والاخفش (٢١٥ هـ) «طبقات الزبيدي ٧٦» يسمعه أبوعثمان يقول: «اشتقاق الدكان من الدكدك ، وهي أرض فيها غلظ وانبساط ، ومنه اشتقاق ناقة دكاء ، إذا كانت مفترشة السنام في ظهرها أو مجبوبته (المزهر ١/٢٠٥)

ومنذ الاخفش يتجه العلماء إلى التأليف في الاشتقاق وأفراده بالبحوث ، وقد قرر الاستاذ « عبد السلام هرون » أن الكلام في الاشتقاق قديم ، فقد أشار إلى المؤلفين القدامى فيه ، (مقدمة مقاييس اللغه انظر ص ٢٣ جـ ١) ولكنه يغفل ما أردت الإشارة إليه هنا في هذا الفصل وهو مشاركة أبي اسحق الزجاج في هذا الباب على هذه الصورة التي تستحق التسجيل ، والتي عرضت أمثلة لها في تفسيره اللفظ القرآني ، وأرجو بعد ذلك ألا ينسب إلى ابن دريد أنه بدأ النجاح الكبير في الاشتقاق ، وينسى أبو اسحق الزجاج (ت ٣١١) وهو معاصر ابن دريد (٣٢٤ هـ). ويذكره المؤرخون في كتب الطبقات سابقا عليه

وربما كان الأستاذ مدفوعا إلى ما رأى بأن الكتب المؤلفة في الاشتقاق طواها الزمن ، وامتدت إليها يد الضياع ، خلا كتاب ابن دريد في الاشتقاق المعروف في أيدي الناس (الكتاب مطبوع في جوتتجن سنة ١٨٥٤ م) فهل تلتمس المعذرة بعد أن أورد الزجاج هذه=

أما أبو على فلم يحفل بهذا الاشتقاق فى تفسير الألفاظ القرآنية التى عرض لها فى كتابه الحجة ، وإنما كان يعتاده ، ولا يعول عليه ، حتى لأستطيع من ذلك أن أخلص إلى النتيجة التى أريد تسجيلها وهى : « أن تفسير اللفظ القرآنى بطريق الاشتقاق طابع خاص تميز به الزجاج ، وفصل عنه تلميذه الفارسى ، ولم يشأ أبو على أن يحذو حذو شيخه فيه » .

وربما كان السبب فى ذلك أن أبا على تأثر أكثر ما تأثر فى اللغة بكتب أبى زيد الأنصارى[1] ولم يكن الاشتقاق — على ما يبدو — قد ظهر فى صورة واضحة المعالم فى ذلك العهد عهد أبى زيد ، وإنما كان الكلام فيه تنفاً تروى ولم تبلغ درجة الرشد والاكتمال . وأمضى فى بيان بقية خصائص كتاب معانى القرآن للزجاج .

ثانياً : تفسير اللفظ القرآنى أولا بالقرآن : وهذه ذات شعبتين :

١ — فإما أن يكون اللفظ المفسر لاحقاً للفظ المفسر فى آية واحدة ، فيستدل بذلك على هذا بطريق الاستنتاج كما فى قوله تعالى : « يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت ، وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيداً[2] . قال: الطاغوت : الشيطان بدليل قوله تعالى : ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيداً . وفى قوله تعالى : « وقال ربكم أدعونى أستجب لكم ، إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين » قال : ادعونى : أعبدونى والدليل أن الذين يستكبرون عن عبادتى » .

= الطائفة الصالحة من الاشتقاق فى كتابه معاني القرآن ؟! وأى الشيخين المتعاصرين بدأ النجاح الكبير فى نظرية الاشتقاق إذا سلمت جدلا ، بعدم الاعتداد بجهود السابقين ؟! صحيح أن بعض العلماء — وربما دفعهم التحامل — لم يرضوا عن منهج الزجاج فى الاشتقاق — كما أشرت إلى ذلك من قبل — ولكن هذا لايدعو إلى عدم الاعتداد به ، وإغفاله حتى لايشار إليه ، مع أنه يمثل مرحلة كبرى من المراحل التى خطاها السابقون فى هذه السبيل ، ومما يزيد فى أهمية هذه المرحلة — عند الزجاج — أنه يكاد يلتزمها فى تفسير اللفظ القرآنى ، فى كتابه المعانى . هذا وقد عرضت فى مكان آخر أبى بكر محمد بن السرى الملقب بابن السراج — وهو معاصر كذلك لابن دريد — وبينت تأسى ابن فارس به ، ودعمت ما رأيت بالنصوص ، وانتهيت إلى أن ابن السراج هو الأصل فى الحديث عن الاشتقاق على صورة رضى عنها العلماء المشهورون بالادقاق (كابن جنى فى خصائصه ٥٢٦/١) راجع ص ٢٩٣ وما بعدها من هذا البحث .

(١) انظر الامتاع : ١٣١/١ (٢) سورة النساء آية : ٤٠

وفى هذا النوع يبدو المنطق ، ولكنه لا يكون فى شكل قصية كما يفعل أبو على الفارسى .

٢ — وإما أن يكون اللفظ المفسر فى سورة ، واللفظ المفسر فى أخرى ، وذلك هو الأكثر ، كما فى قوله تعالى :

(ا) بث فيها رجالا كثيراً ونساء : معنى بث : نشر . يقال : « بث الله الخلق » وقال (عز وجل) « كالفراش المبثوث » فهذا يدل على بث .

(ب) الدليل على أن المحصنات هن العفائف قوله « ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها » أى أعفت فرجها[1] .

والأصل فى هذين القسمين ما ذكره أبو اسحق من أن القرآن كله كالسورة الواحدة ، ألا ترى أن جواب الشيء فيه يقع وبينهما سور ، كما قال (جل وعز) جواباً لقوله : « وقالوا : يأيها الذى نزل عليه الذكر إنَّكَ لمجنون » فقال : « نون والقلم وما يسطرون ما أنت بنعمة ربك بمجنون » .

ومما يجدر ذكره أن أبا على تأثر بشيخه أبى اسحق الزجاج فى مسلكه هذا تأثراً واضحا على الفرق بين الرجلين فى ظهور مسحة المنطق عند أبى على[2] ، وخفوتها عند الزجاج ، ولكن أباعلى متأثر بشيخه فى هذا على أية حال .

كما يفسر اللفظ القرآنى ثانياً بالشعر العربى ، وأقوال الأئمة اللغويين من شيوخه أو من تأسى بهم من السابقين ، وذلك قوله : « الكلالة سوى الولد والوالد » ، والدليل على أن الأب ليس بكلالة قول الشاعر :

فإن أبا المَرْء أحمى له ومولى الكلالة لا يغضب

وقد يمزج فى الشرح بين الاشتقاق ، وأقوال الأئمة ، والاستشهاد الشعرى كما فى قوله « العزة » المنعة وشدة الغلبة ، وهو مأخوذ من قولهم : « أرض عزاز » قال الأصمعى العزاز النَّقَلَ من الأرض الصلب الحجارة الذى يسرع منه جرى الماء والسيل ، فتأويل العزة الغلبة والشدة التى لا يتعلق بها إذلال ، قالت الخنساء .

كأن لم يكونوا حمى يتقى إذ الناس إذ ذاك من عز بزا

أى من قوى غلب وسلب .

وهكذا تراه يبنى على قول الأصمعى ، ويرجع المعنى فى العزة إلى ما ذكره وهو

(١) كتاب معانى القرآن : سورة النساء (٢) راجع فصل المنطق عند الفارسى

فى إيراد الشواهد قصير الباع ، ضيق النفس ، فلا يورد فى الكثير الغالب إلا الشاهد الواحد ، على العكس من أبى على تلميذه الذى يطول نفسه فى ذلك إلى أمد بعيد .

ثم ترى أبا على يناقش هذه الشواهد ، ويعقب عليها ، بما يظهر من شخصيته ، ثم يضيف هو إلى ماروى الأقدمون — شواهد من محفوظه تنثال على لسانه انثيالا يدل على حافظة قوية وذاكرة حاضرة ، ودقة نادرة فى استحضار الشواهد المتعددة فى الموضع الذى يتحدث فيه .

ثالثاً : وقد رأيت الزجاج مستهاماً بأقوال اللغويين ، يحكمهم ، ويرتضى حكومتهم فى :

(ا) اختيار القراءات .

(ب) وفى التفسير القرآنى .

(ج) وفى مسائل الفقه .

(د) ويعد مذاهب اللغويين أقوى فى الرد على الملحدين .

(ه) وأنهم منزهون عن الوهم الكتابى فى رسم المصحف .

وأضرب لكل واحدة من هذه مثالا يختصر ذكر نظائره ، ويغنى عن الحصر والتفصيل .

(ا) قال محكِّما اللغة فى اختيار القراءات : (زبورا) القراءة فيه بفتح الزاى وضمها ، وأكثر القراء على فتح الزاى ، وقد قرأت جماعة زبورا منهم الأعمش وحمزة . فمن قرأ زبورا بفتح الزاى فمعناه كتابا وهذا الوجه عند أهل اللغة ، لأن الآثار كذا جاءت زبور داود ، كما جاء توراة موسى ، وإنجيل عيسى .

(ب) وقال فى الأخذ بأقوال اللغويين فى التفسير القرآنى :

وقال بعضهم : إلا ليؤمنن به أى سيؤمن بعيسى إذا نزل لقتل الدجال ، وهذا بعيد فى اللغة ، لأنه قال : « وإن منهم إلا ليؤمنن به » المعنى ما أحد منهم إلا سيؤمن به قبل موته ، والذين يبقون إلى ذلك الوقت إنما هم شرذمة منهم ، ولكنه يحتمل أنهم كلهم يقولون : « إن عيسى الذى ينزل لقتل الدجال نحن نؤمن به فيجوز على هذا ، والله أعلم بحقيقته .

(ج) وقال فى اختياره مذاهب اللغويين فى مسائل الفقه :

« يجوز أن يكون أو فى قوله تعالى : « هدياً بالغ الكعبة أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك [١] صياماً » — وهو الأجود فى اللغة — للتخيير ، فان شاء أهدى ، وإن شاء أمسك الهدى ، وأطعم بدله ، أو جعل مثل ذلك صياماً ، لأن أو للتخيير . وقال بعضهم : كأنه ان لم يقدر على الابل والغنم فينبغى أن يطعم أو يصوم ، والذى يوجبه اللفظ التخيير وأهل الفقه أعلم بالسنة فى ذلك إلا أنى أختار على مذهب اللغة أنه مخير .

(د) وعنده أن العلم باللغة يمكن منه الرد على الملحدين :

قال أبو اسحق : « وهذا موضع أعنى تعلم ما فى نفسى ، ولا أعلم ما فى نفسك » يلبس به أهل الالحاد على من ضعف علمه باللغة ، ولا يعلم حقيقة هذا إلا من اللغة :

قال أهل اللغة : « النفس فى كلام العرب تجرى على ضربين : أحدهما قولك : « خرجت نفس فلان ، وفى نفس فلان أن يفعل كذا وكذا .

والضرب الآخر : معنى النفس فيه جملة الشىء ، ومعنى حقيقة الشىء ، تقول « قتل فلان نفسه » ، وأهلك فلان نفسه ، فليس معناه أن الاهلاك وقع ببعضه ، إنما الاهلاك وقع بذاته كلها ، ووقع بحقيقته . ومعنى تعلم ما فى نفسى . أى تعلم ما أضمره ، ولا أعلم ما فى نفسك : لا أعلم ما فى حقيقتك ، وما عندى علمه . فالتأويل : « أنك تعلم ما أعلم ، ولا أعلم ما تعلم ويدلك عليه إنك أنت علام الغيوم . فانما هو راجع إلى الفائدة فى المعلوم ، والتوكيد أن الغيب لا يعلمه إلا الله (جل ثناؤه) .

هـ — فى تنزيه أهل اللغة الأولين عن الوهم فى الكتابة :

قال بعضهم : المقيمين عطف على الهاء والميم : المعنى لكن الراسخون فى العلم منهم ومن المقيمين الصلاة يؤمنون بما أنزل إليك . وهذا عند النحويين ردىء ، لأنه لا يعطف بالظاهر المجرور على المضمر المجرور إلا فى الشعر ، وذهب بعضهم إلى أن هذا وهم من الكاتب ، وقال بعضهم فى كتاب الله أشياء ستصلحها العرب بألسنتها ، وهذا القول عند أهل اللغة بعيد جداً ؛ لأن الذين جمعوا القرآن أصحاب

(١) المائدة آية ٩٥ .

رسول الله ، وهم أهل اللغة ، وهم القدوة ، وهم قريبو العهد بالاسلام ، فكيف يتركون فى كتاب الله شيئاً يصلحه غيرهم ؟ وهم الذين أخذوه عن رسول الله وجمعوه ؟ وهذا ساقط من لا يعلم بعدهم ، وساقط عن من يعلم لأنهم يقتدى بهم ، فهذا مما ينبغى أن ينسب إليهم (رحمة الله عليهم) . والقرآن محكم لا لحن فيه ، ولا فيه شىء تتكلم العرب بأجود منه فى الاعراب ؛ كما قال الله (جل وعز) : «تنزيل من حكيم حميد» . وقال : « بلسان عربى مبين » .

وقد لحظت فى أكثر هذه النقاط أنه يعترف بالأثر إلى جانب اعتداده باللغويين كأن يقول :

فى (ا) الآثار جاءت فى الزبور .

وفى (ج) أهل الفقه أعلم بالسنة .

وفى (ه) والصحابة هداية وقدوة ، والقرآن محكم .

على أنه إلى القول بالأثر على النحو الذى ترى إلى الجانب اللغوى أميل ، فاذا حكى أهل اللغة فى اللفظ وجهين ، ووافق على أحدهما أصحاب الأثر — كان المرجع عنده — حينئذ — فى الاختيار الأثر من اجتماع المحدثين : قال : القراءة الدَّرَك بفتح الراء ، والدرْك بتسكين الراء . . . واللغتان حكاهما جميعاً أهل اللغة ، إلا أن الاختيار فتح الراء لاجتماع المدنيين والبصريين عليها ، وإن أحداً من المحدثين ما رواها إلا الدرك بفتح الراء ، فذلك اخترنا الدرك .

ويبعد أبو على كثيراً عن منهج شيخه أبى اسحق فى ذلك ، فهو لا يستهيم بأقوال اللغويين على النحو الذى يبدو عند الزجاج ، ولا يخلط القول بالأثر مع أقوال اللغويين فى الاحتجاج . ولعل ذلك فيما يبدو لى — أثر من آثار شخصية كل من الشيخين ، فالزجاج ينطوى تحت الأئمة اللغويين السابقين ؛ لأنه كان ضعيف العلم باللغة كما يقرر ابن النديم[1] . فهو مغلوب على أمره بجانبهم ، والمغلوبون مولعون بالجرى وراء الغالبين ، سنة الله فى خلقه أفراداً وجماعات من السابقين ، واللاحقين[2] .

هذا إلى أن الزجاج كان مشهوراً بحسن الاعتقاد وجميل المذهب[3] ، وأنه كان

---

(١) الفهرست : ٩٠

(٢) انظر مقدمة ابن خلدون

(٣) تاريخ بغداد : ٨٩/٦

من أهل الدين المتين [1] ، والقول بالأثر يتصل إلى حد ما بمتانة الدين ، وحسن اليقين .

على أن القول بالأثر عند الزجاج له مظاهر أخرى أتناولها فيما يرد من حديث ؛ إذ تعد سمة من سماته ، وخصيصة من خصائصه فى كتاب معانى القرآن .

رابعاً : قول الزجاج بالأثر : ويتجلى ذلك فى شعبتين

(ا) القراءة سنة .

(ب) ورسم المصحف لا يخالف .

وأبدأ بالمظهر الأول ، حيث كان كذلك فى حقيقة الواقع ، وأضرب أمثلة فى نواح ثلاث : فى اللغويات ، والاعراب ، والصرفيات ، أعرضها فى اختصار يحمل التفصيل :

القراءة سنة فى اللغويات :

قوله (عزوجل) : «وآتوا النساء صدقاتهن نحلة» : يقال : « صَداق المرأة ، وصَدقة المرأة ، وصدقة المرأة ، وصداق المرأة مفتوح أولها . والذى فى القرآن جمع صَدقة . ومن قال : صُدْقة قال صُدُقاتهن ، كما يقول غرفة وغرفات ، ويجوز صُدْقاتهن ، وصُدَقاتهن بضم الصاد وفتح الدال ، ويجوز صَدُقاتهن .

وبعد أن أورد اللغات الجائزة فى هذه الكلمة نبه على ما ورد منها فى سنة القراءة ، وصحيح الرواية ، حيث يقول : «ولا يقرأ من هذا إلا بما قد قرىء به ، لأن القراءة سنة « لا ينبغى أن يقرأ فيها بكل ما يجيزه النحويون ، وأن تتبع ، فان الذى روى من المشهور فى القراءة أجود عند النحويين ، فيجتمع فى القراءة بما قد روى الاتباع وإيثار ما هو أقوى حجة إن شاء الله » .

وبعد أن أورد أنه يجوز فى عبد الطاغوت : عبُد الطاغوت ، وعُبُد الطاغوت قال : « ولا تقرأن بهذين الوجهين ، وإن كانا جائزين ؛ لأن القراءة لا تبتدع على وجه يجوز ، وإنما سبيل القراءة اتباع من تقدم » .

* * *

القراءة سنة فى الإعراب :

بعد أن وجه الرفع والنصب فى « غير » من قوله تعالى : لا يستوى القاعدون

---

(١) وفيات ٣١/١

من المؤمنين غير أولى الضرر . . . « قال : » ويجوز جر غير على الصفة للمؤمنين أى لا يستوى القاعدون من المؤمنين الأصحاء والمجاهدون ، فالرفع والنصب القراءة بهما كثير ، والجر وجه جيد إلا أن أهل الأمصار لم يقرءوا به ، وإن كان وجهاً جيداً ؛ لأن القراءة سنة متبعة .

فى قوله تعالى : « لكن الله يشهد بما أنزل إليك » قال : « القراءة الرفع مع تخفيف لكن ، والنصب جائز ... إلا أنه لا يقرأ بما يجوز فى العربية إلا أن تثبت به رواية عن الصحابة أو قراء الأمصار » .

* * *

القراءة سنة : فى الصرفيات :

قال بعد أن ذكر القراءات فى هزؤا : وفيها وجه آخر لا يجوز القراءة به ، لأنه لم يقرأ به وهو : هُزاً مثل هدى .

وانظر قوله « فى أن يمسسكم » : ولو قرئت أن يمسكم قرح كان صواباً ، ولكن لا تقرأ به لمخالفة الصحف ، ولأن القراءة سنة .

* * *

(ب) رسم المصحف لا يخالف :

وهو يقول برسم المصحف ، ويتخذه حجة فى تحذيره القارئ قراءة من القراءات تخالفه ، وإليك ثلاثة من الأمثلة يغنى إيرادها عن الحصر والتفصيل :

رسم المصحف فى اللغويات :

قال : فاذا اطمأننتم : أى سكنت قلوبكم ، ويقال اطمأن الشىء إذا سكن ، وطمأنته إذا سكنته ، وقد روى اطبأن بالباء ، ولكن لا تقرأ بها ؛ لأن المصحف لا يخالف ألبتة .

رسم المصحف فى الاعراب :

قال : « وأما رفع يؤتون فى قوله تعالى : « وإذا لا يؤتون الناس نقيرا » فعلى فلا يؤتون الناس نقيرا إذاً . ومن نصب فقال فاذا لا يؤتوا الناس جاز ذلك فى غير القراءة فأما المصحف فلا يخالف .

تعليق : قرأ بها ابن مسعود [1] !

---

(١) انظر البحر المحيط : ٢٧٣/٣

رسم المصحف فى الصرفيات :

قال : « وأما من يرتدد فهو الأصل ؛ لأن التضعيف إذا سكن الثانى من المضاعفين ظهر التضعيف نحو قوله : «إن يمسسكم قرح» ، ولو قرئت أن يمسكم قرح كان صواباً ، ولكن لا تقرأن به لمخالفة المصحف . ولأن القراءة سنة .

* * *

ويبدو أنه ضرب صفحاً عن الاعتداد بمصحف أهل الشام ذلك قوله فى الآية : « ما فعلوه إلا قليل منهم » رفع قليل على البدل من الواو : المعنى : ما فعله إلا قليل منهم . والنصب جائز فى غير القرآن » يذهب إلى أن النصب لا يجوز فى القراءة لما فى ذلك من مخالفة رسم المصحف ، مع أن ابن مجاهد نص على أن قراءة النصب لابن عامر ؛ لأنها كذلك فى مصاحف أهل الشام (١) .

وعندى : أن رسم المصحف راجع فى حقيقة الواقع إلى سنة القراءة ، وصحة الرواية ، فهو يندرج فيها ، ويدخل تحتها ، وقد تنبه هو نفسه إلى ذلك حيث يقول : قوله تعالى : « ولا يجدون عنها محيصا » أى لا يجدون عنها معدلا ولا ملجأ . يقال « حصت عن الرجل أحيص » ، ورووا : جضت عنه أجيض بالجيم والضاد المعجمة بمعنى حصت ، ولا يجوز ذلك فى القرآن ، وإن كان المعنى واحداً والخط غير مخالف ، لأن القرآن سنة متبعة لا تخالف فيه الرواية عن النبى (صلى الله عليه وسلم وأصحابه) ، والسلف ، وقراء الأمصار ، بما يجوز فى النحو واللغة ، وما فيه أفصح مما يجوز ، فالاتباع فيه أولى .

وأرجو أن أرجع بكم إلى ما كان من الفراء فى معانى القرآن ، فقد جوز فى غير قيد ولا تحذير — القراءة بما يتفق هو والأوجه الاعرابية ، واللغوية ، والصرفية ؛ وقد رأينا أن ذلك قد ورد فى كتابه فى كثرة غامرة (٢) .

ونرى هنا الزجاج يجوز ذلك فى العربية ، ويحذر القارئ إياه فى القرآن ، فلعل ذلك الموقف من أبى اسحق البصرى يجبه به الفراء الكوفى فيما جوز واختار ، ويحقق

---

(١) كتاب القراءات لابن مجاهد . الحجة ٣ وانظر المقنع للدانى ١١٠ والنشر ٢/٢٥٠ والاعلان بتكملة مورد الظمآن لابن عاشر ٣٨

(٢) راجع ذلك فى هذا البحث

إشارة ابن حنبل التى بها أشار [١]، ثم هو دليل على الصرامة التى نوهت بها ، وأشرت إليها ، واشتهر بها البصريون ، إذ لايجوزون كثيراً مما يجوز الكوفيون .

كما أود أيضاً أن أشير إلى أن أبا على لا يقول بالرسم ، ولا يتخذه سبباً من الأسباب التى يحتج بها [٢]، ثم هو كذلك لا يقول بأن القراءة سنة إلا إذا ضاقت عليه سبل التعليل ، ولم يستطع أن يخرج القراءة على وجه من وجوه القياس ، وعند ذلك يلقى هذه العبارة مضطرا ، ومع ذلك يشير إلى أن القراءة بما يجرى على سنة القياس أجدر وأولى [٣].

* * *

خامساً : المذهب البصرى والزجاج :

والمذهب البصرى غالب على أمره يجوده ، ويعتد به ، ويدفع عنه ، ويحتج له ، ويهجم القراء المخالفين ، فيضعف قراءتهم بالخطأ فى العربية ، بل بالخطأ العظيم فى الدين ، ويسم مذاهبهم بالرداءة ، ويرميهم بالقبح والنكير ، وذاك تناقض ظاهر مع قوله بالأثر ، وبعدٌ عنه كبير .

وأود أن تقرأ قوله فى تخريج قراءة حمزة: والأرحامِ فى قوله تعالى : واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحامِ : قال : القراءة الجيدة نصب الأرحام : المعنى ، واتقوا الأرحام أن تقطعوها . وأما الجر فى الأرحام فخطأ فى العربية [٤] لايجوز إلا فى اضطرار شعر ، وخطأ أيضاً فى أمر الدين عظيم .. ثم أخذ يذكر العلة ، ويوجه الخطأ فى العربية ، والخطأ فى الدين .

ثم اقرأ كلامه فى تأويل قراءة وكذلك زين لكثير من المشركين قتلُ أولادَهم شركائهم » : وقد رويت شركائهم بالياء فى بعض المصاحف ، ولكن لا يجوز إلا على : زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركائهم فيكون : شركائهم من نعت أولادهم، لأن أولادهم شركاؤهم فى أموالهم .

ويجوز شركائهم ، لأنها إنما رويت أنها وجدت فى بعض المصاحف بالياء ، فيكون فى موضع رفع ، وتبدل من الهمزة الياء كما روى بعضهم فى رداءان ردايان !! وهذا ردىء جداً ، ومخالف للمصحف المجتمع عليه ، فلا تقرأن به ، ولاتلتفت إليه .

---

(١) راجع صدر هذا الفصل (٢) انظر ذلك فى فصل ابن خالويه وأبى على

(٣) راجع مثلا الحجة : ٤/١٠٩ نالبلدية (٤) الكوفيون يجوزون ذلك انظر الانصاف

وهكذا يغفل الإشارة إلى قراءة ابن عامر جملة ، وفى قراءة تتفق مع مذهب النحاة الكوفيين[1] ويذهب فى تجويز شركائهم برسم المصحف ، ثم يشير إلى رداءة هذه القراءة بهذه الإشارة التى يتبعها بالنهى عن القراءة بها ، والالتفات إليها ! !

وقال فى قراءة يهدى من قوله تعالى : « أم من لا يهدى : قرأ بعضهم بإسكان الهاء والدال ، وهذه القراءة مروية إلا أن اللفظ بها ممتنع ، فلست أدرى كيف قرئ بها وهى شاذة ؟ ! وقد حكى سيبويه أن مثلها قد يتكلم به .

وأقول : « أما بعضهم الذى أشار إليه بأنه قرأ بها ، فهم أهل المدينة إلا ورشا[2]، فكيف يشذذها مع أنها مروية ؟ ثم ما باله يعجب فلا يدرى ؟ !

والعجب منه هو : يردد دائماً القراءة سنة متبعة أو نحواً من ذلك بما فى معناه كما سبق ، ويتخذ ذلك سبيلا إلى التحذير من قراءة جازت فى العربية ، ومذاهب البصرية ، ولم يرد بها أثر . فهل تراه يعد نحاة البصرة هم النحاة ، وقراءهم هم القراء ، ولا شىء غير هؤلاء وهؤلاء ؟ !

ذلك أثر من آثار بصريته ، ومظهر من مظاهر عصبيته ، ومن هنا وقف من القراء الكوفيين موقف التجهم والتضعيف ، وهو معهم يشدد النكير على غير موقفه من القراء المدنيين ؛ فقد رأيناه من قبل يتعجب من قراءتهم (لا يهدى) بإسكان الهاء والدال على شذوذها فى رأيه هو، ويتلمس لهم وجهاً من كلام سيبويه ، ولا يزيد . أما الكوفيون فإذا أورد قراءتهم يهدى بكسر الهاء والياء وهى قراءة لعاصم قال : وهى رديئة لثقل الكسرة فى الياء .

وتسأل نفسك ! أى القراءتين أثقل فى النطق : آلقراءة المدنية وفيها التقاء الساكنين؟ أم القراءة الكوفية ومبعث الثقل فيها الكسرة فى الياء ؟ لا شك أن قراءة المدنيين أثقل وأصعب ، فكيف يرى القراءة الكوفية — مع سهولتها موازنة بالمدنية — بالرداءة ؟ ! هى العصبية تعمى البصائر ، وتعصب الأنظار ! ! (ألا قاتلها الله) .

وقد دفعت بصريته المتعصبة إلى أن يتجاهل قراءة كوفى مثل الكسائى — وربما جهلها — وذلك قوله : والعين بالعين . بعد أن وجه الرفع فيها قال : ولا أعلم أحداً قرأ بها ! ! ولا يقرأن بها إلا أن تثبت بها رواية صحيحة » .

---

(١) يجوز الكوفيون الفصل بين المضاف والمضاف إليه بغير الظرف والجار والمجرور فى سعة الكلام

(٢) انظر البحر المحيط : ١٠٦/٥

وقد قرأ بها الكسائي[1] ، فهل جهله الزجاج أو تجاهله ؟ إن هذه القراءات كانت شائعة في عصره ، فابن مجاهد سبع السبعة، وألف كتابه حوالي عام ٣٠٠هـ[2]، والزجاج حي يرزق ، ثم ما قوله ولا يقرأن بها إلا أن تثبت بها رواية صحيحة !؟ ألا يصح عنده ما يروى الكسائي ؟ أم لأنه كوفي يتجاهله ، ويتجاهل قراءته ؟ !

ثم اقرأ معي قول الزجاج : « و ن تلووا أو تعرضوا » قرأ أبو عاصم ، وأبوعمرو بن العلاء، وأهل المدينة تلووا بواوين ، وقرأ يحي بن وثاب ، والأعشى وحمزة بواو واحدة تلوا . والأشبه على ما جاء في التفسير مذهب أهل المدينة وأبي عمرو لأنه جاء في التفسير : إن لوى الحاكم أو أعرض . . ثلاثة بعددهم : عاصم ، وأبو عمرو ، وأهل المدينة ، فإذا ما حكم بالجودة عز عليه أن يذكر عاصماً فيقتصر على ذكر أهل المدينة ، وأبي عمرو، ويسكت عن عاصم ! ! والنص أمامكم أود أن تراجعوه .

لاشيء عليه أن يختار قراءة البصريين ، كاختياره مثلا قراءة «الدَّرَك الأسفل» بالفتح على الدَّرْك بالسكون وهي قراءة الكوفيين[3] ، أما أن يسكت عن الإشارة بجودة قراءة الكوفيين فلا تعرف إلا استنتاجا ، وأما أن يصفها بالرداءة حيناً ، والبعد عن الدين حيناً . . . فشيء من ذلك لا أوافقه عليه ! بل يجب أن يوجه من أجله اللوم إليه ، اما ابوعلي وموقفه من القراءات التي تتخالف هي ومذهبه النحوي، فقد اشرت إليه آنفاً في موضعه المقسوم .

* * *

سادساً — تعرض الزجاج للنحاة الكوفيين :

رأينا تعرض الزجاج للقراء الكوفيين ، ورأينا كيف شدد عليهم النكير ، وإذا كان ذلك موقفه من قرائهم الذين رووا القراءة بالسند المتصل عن رسول الله فلا شك أن موقفه من نحاتهم يكون أشد وأنكى :

١ — تراه يخطئ القراء في حكايته « أن لام الأمر قد فتحها بعض العرب في نحو قولك ليجلس ، فقالوا : لَيجلس ففتحوا ، وهذا خطأ لا يجوز فتح لام الأمر لئلا تشبه لام التوكيد . ثم يعتذر من شذوذ حكاية بعض البصريين ، وأنهم عنده صادقون في الرواية ، الا أن الذي سمع منهم هو الذي أخطأ ! ! قال :

(١) البحر المحيط : ٣/٤٩٤ (٢) الحضارة الاسلامية لمتز : ١/٣٢١
(٣) النشر : ٢/٢٥٣

« وقد حكى بعض البصريين فتح لام الجر نحو قولك المال لزيد . . . وهذه الحكاية فى الشذوذ كالأولى ، لأن الإجماع والروايات الصحيحة كسر لام الجر والأمر ، ولا يلتفت إلى الشذوذ خاصة إذا لم يروه النحويون القدماء الذين هم أصل الرواية . وجميع من ذكرنا من الذين رووا هذا الشاذ عندنا صادقون فى الرواية إلا أن الذى سمع منهى مخطئ .

(ب) كما يخطئ الكسائى فى قوله : والصابئون نسق على ما فى هادوا[1] . . . فى قوله تعالى : «إن الذين آمنوا ، والذين هادوا ، والصابئين ، والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر ، وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ، ولا هم يحزنون » . كما يخطئه فى قوله : ان أشياء أشبه آخرها آخر حمراء ، ووزنها عنده أفعال ، وكثر استعمالهم فلم تصرف قال : « وقد أجمعوا على أن قول الكسائى خطأ فى هذا ، وألزموه ألا يُعرِّف أبناء ، وأسماء .

(ج) ويرى الفراء ، والكسائى معاً بالتقصير فى التعليل فى اعراب خيراً من قوله تعالى « فآمنوا خيراً لكم[2] » من قوله تعالى : يأيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم فآمنوا خيراً لكم وان تكفروا فإن لله ما فى السموات والأرض وكان الله عليما حكيما » .

(د) ويهاجم الكوفيين جملة ، وذلك عند قوله (تعالى) : « ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون» قال : «ذلك» : الكاف فيه للمخاطبة واللام زائدة كسرت لالتقاء الساكنين ، ولم يذكر الكوفيون كسر هذه اللام فى شىء من كتبهم ، ولا عرفوه ، وهذه من الأشياء التى كان ينبغى أن يتكلموا فيها ؛ إذ كان ذلك إشارة إلى كل متراخ عنك — إلا أن تركهم الكلام أعْوَدُ عليهم من تكلمهم ، إذ كان أول ما نطقوا به فى فعل (كذا) قد نقض سائر العربية ، ثم قال : وقد بينا ذلك قديماً .

وكان بودى أن أعرف بيانه ! فأنى لى ذلك ؟ !

* * *

سابعاً — استغلاله العروض فى التعليل :

ويبدو ذلك فى قوله : فأما « والليل إذا يسر » فحذفت الياء : لأنها رأس آية ،

---

(١) سورة المائدة آية : ٦٩ (٢) سورة النساء آية : ١٧٠

ورءوس الآى الحذف جائز فيها ، كما يجوز فى أواخر الأبيات [1].

وقد كان الزجاج على علم بالعروض ، وصاحب اختيار فيه [2] ، ألف فيما ألف كتاب القوافى ، وكتاب العروض [3] ، ومن هنا رأيت يتعرض للرجز مستطرداً ، تحدث عن أصله فى اللغة ، وأورد رأى الخليل فيه ، وأدلته على ما رأى ، وتعقيب الأخفش على رأى الخليل ، وذلك حيث يقول :

أصل الرجز فى اللغة تتابع الحركات فمن ذلك قولهم: ناقة رجزاء ، إذا كانت ترتعد قوائمها عند قيامها ، ومن هذا رجز الشعر ؛ لأنه أقصر أبيات الشعر ، والانتقال من بيت إلى بيت سريع نحو قوله :

يا ليتنى فيها جـذع   أخب فيهـا وأضع

ونحو قولهم « صبرا بنى عبد الدار » ونحو قولهم : « ما هاج أحزاناً وشجوا قد شجا » .

* * *

وزعم الخليل أن الرجز ليس بشعر ، وإنما هو أنصاف أبيات وأثلاث ، ودليل الخليل فى ذلك : ما روى عن النبى (صلى الله عليه وسلم) :

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلا   ويأتيك من لم تزود بالأخبار

قال الخليل : لو كان نصف البيت شعراً ما جرى على لسان النبى (صلى الله عليه وسلم) « ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلا » . وجاء النصف الثانى على غير تأليف الشعر ؛ لأن نصف البيت لا يقال له شعر ، ولا بيت ، ولو جاز أن يقال لنصف البيت شعر لقيل لجزء منه شعر ، وجرى على لسانه فيما روى :

أنا النبى لا كذب   أنا ابن عبد المطلب

قال بعضهم إنما هو (لا كذب) . أنا ابن عبد المطلب بفتح الباء على الوصل .

قال الخليل : فلو كان شعراً لم يجر على لسان النبى (صلى الله عليه وسلم) قال الله : « وما علمناه الشعر وما ينبغى له » ، أى وما يتسهل له .

قال الأخفش : كان قول الخليل إن هذه الأشياء شعر ، قال : وأنا أقول : إنها ليست بشعر . وذكر أنه ألزم الخليل ما ذكرناه أن الخليل اعتقده . . .

---

(١) أنظر تفسير قوله تعالى : (وسوف يؤت الله المؤمنين أجراً عظيما) من معانى القرآن للزجاج .

(٢) نزهة الألباء : ١٦٦   (٣) الفهرست : ٩١

وتناول الزجاج للعروض على كل حال فى معانى القرآن — يبدو قليلا ، فلم يتوسع فيه .

أما أبو على فقد ذهب فى ذلك إلى مدى بعيد تناولته بالبيان فى موضعه .

والزجاج يعتمد اعتماداً ظاهراً على سيبويه ، ولا غرو فى ذلك ، فقد كان للكتاب أهلا .

قال ابن كيسان عندما قصده أبو بكر مبرمان ليقرأ عليه كتاب : « اذهب إلى أهله » يشير بذلك إلى الزجاج[1] .

ويظهر من عبارة الزجاج التى يقول فيها : إذا تأملت الأمثلة من كتاب سيبويه تبينت أنه أعلم الناس باللغة[2] . يظهر من عبارته تلك أنه كان يقرأ ، ويتفحص ويمحص ، ويستخرج .

(ب) ويثنى على المازنى ، ويقف منه موقف التقـــدير اذ يقول : « وقد فسر المازنى هذا تفسيراً مقنعاً » يشير الى عطف الظاهر على المضمر فى حال الجر ، وكونه لا يجوز الا بإظهار الجار .

(حـ) كما يأخذ بأقوال الخليل، والأصمعى، والأخفش

(د) ويشير الى أبى اسحق اسماعيل بن اسحق حيث يقول : فى بيان خطأ قراءة والأرحام فى أمر الدين : «ورأيت أبا اسحق اسماعيل بن اسحق يذهب الى أن الحلف بغير الله أمر عظيم ، وأن ذلك خاص لله (عز وجل) على ما أتت به الرواية » .

وأبو اسحق هذا هو الأزدى ، اسماعيل بن اسحق بن اسماعيل بن حماد (٢٠٠ — ٢٨٢[1] هـ) والذى أدركه الزجاج ، ولعله نظر اليه فى التأليف فى معانى القرآن ، فله فيه كتاب[2] ، وكان من أعلام القضاة ببغداد[3] ، وأنت تلحظ أنه ينقل عنه فى النص السابق ما يتصل بالحلف والإيمان ، وهو ما يأخذ به القضاة الخصوم فى صدر المقاضاة ، على أن له صلة الحكاية عن المبرد[4] ، واذ كان المبرد أخص شيوخ الزجاج صلة به ، فمن حقه أن يعطى فضل بيان ؛ اذ كانت هذه الصلة سببا فى مهاجمة أبى على الزجاج فيما أرى :

---

(١) طبقات الزبيدى : ١٧١

(٢) المصدر السابق : ٧٣

(١) المذكور فى اول هذا الفصل

(٢) انظر طبقات المفسرين ورقة ٤٥

(٣) المرقبة العليا : ٣٢

(٤) طبقات الزبيدى : ١٠٨

(ا) فقول المبرد على مذهب العربية حسن فى رأى الزجاج ، وذلك قوله : مهيمن فى معنى مؤتمن ، إلا أن الهاء بدل من الهمزة ، والأصل مؤتمنا عليه كما قالوا : هرقت الماء وأرقت الماء ، وكما قالوا : إياك وهياك .

(ب) والمبرد من أهل النظر : وذلك حيث يقول الزجاج : « اختلف أهل النظر فى تفسير قول عيسى : « وإن تغفر لهم » فقال بعضهم : « إن تغفر لهم كذبهم على » وقالوا : عيسى لا يجوز أن يقول : إن الله يجوز أن يغفر الكفر ، وكأنه على هذا القول إن تغفر لهم الحكاية فقط هذا قول أبي العباس محمد بن يزيد ، ولا أدرى أشىء سمعه ، أم استخرجه ؟ .

فانظر قوله أولا اختلف أهل النظر ، ثم قوله أخيراً هذا قول أبي العباس . .

(ج) ويذكر أدلته ، ويصوبها بأدلة أخرى [1] .

(د) وفى الأقل الأندر يغلطه : قال أبو العباس محمد بن يزيد فى إعراب كان من قوله تعالى « إنه كان فاحشة ومقتاً » جائز أن تكون كان زائدة ، فالمعنى على هذا إنه فاحشة ومقت ، وأنشد فى ذلك قول الشاعر :

فكيف إذا حللت بدار قوم وجيران لنا كانوا كرامِ

قال أبو اسحق « هذا غلط من أبي العباس ؛ لأن كان لو كانت زائدة لم تنصب خبرها ، والدليل على هذا البيت الذى أنشدوه «وجيران لنا كانوا كرام» ولم يقل كانوا كراما .

وموقفه منه على هذه الأنحاء صورة من مواقفه منه فى حياته العامة : فالزجاج أقدم أصحاب المبرد قراءة عليه ، وكان من يريد أن يقرأ على المبرد يعرض عليه أولا ما يريد أن يقرأه [2] ، وكان الزجاج يخدم المبرد فى أموره [3]، وكان لا يخليه من التفقد ، والمبرد هو الذى أسمى الزجاج لبنى مارقة معلماً لأولادهم بالصراة ، ويرد عنه فى غيبته [4] ، ويرد على ثعلب فى الفصيح [5] وثعلب خصيم المبرد [6] ، وقد ظل وفياً له إلى أن مات [7] ، وبعد الممات ، أما تغليطه فى الأقل الأندر فقد كان كذلك

---

(١) انظر فى معانى القرآن إعراب المبرد اللاتي فى قوله تعالى: «من نسائكم اللاتي دخلتم بهن» سورة النساء آية ٢٢ .

(٢) الفهرست : ٩٠
(٣) بغية الوعاة : ١٧٩ وما بعدها
(٤) معجم الأدباء : ١/١٣٧
(٥) نزهة الألباء : ١٧٦
(٦) طبقات الزبيدى : ١١٣
(٧) تاريخ بغداد : ٦/٩٠

صورة من علاقته به ، فقد مرت بالزجاج فتيرة انقطع فيها عن بر أستاذه ، وعن إجرائه عليه ما كان تعوده منه [١] .

وشخصية الزجاج ظاهرة كل الظهور فى كلامه عن الاشتقاق ، وتناوله تفسير الكلمات على هذا النمط الذى أشرت اليه من قبل ، حتى أصبح المتصل دراسة بالزجاج يستطيع أن يميزه بذلك ، اذ كان مما يطالع القارىء فى كتابه كثيراً .

وهو أحياناً يسرد الأقوال من غير تعليق ، تراه يورد أقوال الشيوخ السابقين فى تفسير قوله تعالى : « فانكحوا ما طاب لكم من النساء » . فيذكر قول مجاهد ، ثم يقول : وقال غيره ثم يقول : وقال بعض المفسرين قولا ثالثاً ، وقال أهل البصر من أهل العربية . . . فهو يكثر من النقول إكثاراً يخفى شخصيته الباحثة أو المعقبة [٢] .

وحينا يعلق ، ولكنه مع ذلك لا تبرز له شخصية واضحة [٣] .

وأحياناً يعطى حكما من غير تعليل ، فيورد الأقوال فى تفسير قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله ، والكتاب الذى نزل على رسوله » ثم يقول : « والتأويل الأول أشبه » ولكنه لا يبين لم كان كذلك ؟

وأحيانا ينبض كلامه بشىء من الذاتية . ولكنه لا يكون دافقاً ولا قويا ؛ كأن يورد الأوجه الاعرابية فى موضع من فى قوله تعالى : « لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم » ثم يقول : « وفيها وجه آخر لا أعلم النحويين ذكروه » وانظر كلامه فى توجيه المعنى من قوله تعالى : « هل يستطيع ربك » ، « وهل تستطيع ربك » وهو كلام قريب لا يدل على غور بعيد .

هذا وللزجاج اختيار فى بعض مسائل النحو [٤] ، ولكن ذلك ليس بالكثير . وقد وقف من أبى عبيدة موقفاً يشبه موقف الفراء منه فى معانى القرآن يغلطه [٥] ، ويجهله ، فيروى عنه أنه لا يعرف عدد أجزاء الجزور فى قسمة الجزور ، ويرى غير ما يراه ، فقد قال أبو عبيدة المائدة فى معنى مفعولة ، ولفظها فاعلة ، وقال الزجاج :

---

(١) طبقات الزبيدى : ١٣٣

(٢) وانظر قوله فى تفسير قوله تعالى : فنردها على أعقابها

(٣) انظر رأيه فى تبديل الجلود فى قوله تعالى : كلما نضجت جلودهم

(٤) انظر الانصاف ص ١٩ ، ١٥٥ ، ١٦٧ ، ١٧٦ ، ٤٠٦

(٥) انظر الكلام على ومن يرتد

والأصل عندى فى مائدة أنها فاعلة من ماد يميد إذا تحرك فكأنما تميد بما عليها »[1].

وقد علمت موقف الفراء من أبى عبيدة ، وكذلك يكون هنا ذلك التعليل ، وأضيف إليه : أن أبا عبيدة لم يكن بارعاً فى الاشتقاق الذى برع فيه الزجاج ، حتى رووا عنه أنه قال عندما سئل عن اشتقاق كلمة « منى » : قال فى سخرية : لم أكن مع آدم حين علمه الله الأسماء فأسأله عن اشتقاق الأسماء [2] ، ولعلكم معى أن القول بما قال أبو عبيدة يهدم نظرية الزجاج فى الاشتقاق . ثم إشارة ابن حنبل إلى أبى عبيدة وعدم توثيقه له .

هذا وقد وجدت للزجاج أصولا فى العربية ، ولكنها لا تكثر كثرتها عند الفراء من قبل ، وهى تعد بذرة لهذه الأصول التى ملأ بها تلميذه الزجاجى كتابه الجمل فيما أرى . مثل هذه الأصول .

١ — الموات كلها يخبر عنها كما يخبر عن المؤنث .

٢ — لا ينوب الواحد عن الجماعة إلا أن يكون من أسماء الفاعلين ، فلو كان حسن القوم رجلا لم يجز عنده .

٣ — كلام العرب موضوع على الايجاز والتخفيف ، لا على التثقيل ، ولهذا خطأ قول من قال: ان أصل سدُس : سدْس .

٤ — الحال يستقبل بها .

وبعد فهل أستطيع بعد الذى ذكرت أن أجمع أوجه التخالف بين أبى على الفارسى وشيخه الزجاج فى كتابه معانى القرآن فيما هو خاص بالاحتجاج ؟

الزجاج يحتج لقراءات غير القراءات السبعة التى ذكرها ابن مجاهد فى كتابه المترجم بقراءات الأمصار ، ويدخل فى الاحتجاج الأثر ، ويقول برسم المصحف ، ولا يوثق قراءته ؛ فتراه يقول قرأ بعضهم كذا ... على حين أن الفارسى يلتزم فى الأعم الأغلب تخريجها على وجوه القياس ، كما يسند كل قراءة يحتج لها إلى الإمام القارئ بها :

---

(١) فى قوله تعالى : هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء

(٢) المزهر : ١/٢٠٥ ط صبيح

والزجاج لايستطرد ؛ بل هو معتدل فى إيراده الاحتجاج على خلاف مع الفارسى فى ذلك ، وقد رأينا أن الزجاج يورد الشواهد على قلة ، وكان فيها قصير الباع ، وأنه يحكم الاشتقاق ، ويأخذ به ، كما أن مسائل المنطق وقضاياه خافتة عند الزجاج ، ومن هنا كان أسلوبه سمحاً سهلا لا أثر للتعقيد فيه ولا الالتواء ، وربما كان سبب ذلك أيضاً اتصاله بالمبرد الأديب ، وروايته الأخبار والأشعار على أبى نواس ، والعباس بن الأحنف ، وابن المعتز ، وقد كانت صلة الزجاج بالمبرد قوية على النحو الذى بينت ، والمبرد قد نقض على سيبويه الكتاب ، فكان أن تعصب أبو على الفارسى لسيبويه ، ورد على المبرد فى كتبه ، وأنصف منه إمام النحاة ، وأصاب الزجاج شرر من هذه الخصومة . فكان كتاب الاغفال للفارسى ألفه فيما أغفله الزجاج من معانى القرآن

الفصل الثالث

بين أبى بكر بن السراج، وأبى على فى الاحتجاج

فى الصدر الأول من كتاب الحجة لأبى على الفارسى يطالع القارئ العبارة الآتية :

« وقد كان أبو بكر محمد بن السرى شرع فى تفسير صدر من ذلك — يشير إلى الاحتجاج لوجوه القراءات — فى كتاب كان ابتدأ بإملائه ، وارتفع منه بعض (كذا) ما فى سورة البقره من وجوه الاختلاف[1] ، فمن محمد بن السرى هذا الذى سبق الفارسى فى الاحتجاج ، وبنى عليه أبو على ؟ محمد بن السرى هذا هو أبو بكر محمد ابن السرى بن السراج[2] ، وهو أحد الأشياخ الذين أخذعنهم أبو على[3] ، ودرس له فيما درس كتاب الجمل ، وكتاب الموجز[4] ، وسمع منه الكتاب[5] ، وابن السراج معدود من مشهورى النحاة[6] ، مذكور بكتابه فى « أصول النحو » الذى ظفر بثناء العلماء عليه حتى زماننا هذا[7] ، حتى قال الزبيدى فى طبقاته : « هو غاية من الشرف والفائدة[8] » ، وقالوا : « ما زال النحو مجنوناً حتى عقله ابن السراج بأصوله[9] » ، ولم يتعرض ابن الجزرى لمحمد بن السرى فى طبقات القراء حتى أتمكن من معرفة مكانة الرجل بين القراء.. نعم ! ورد فى طبقات القراء من اسمه ابن السراج ، ولكنه المتوفى سنة تسع وأربعين وسبعمائة[10] ، وبدهى أن ابن السراج الذى عناه أبو على لا بد أن يكون متقدماً عليه ، وهناك آخران بين القراء عرفا بالسراج أحدهما[11] أحمد بن مسعود أبو العباس[12] ، والآخر محمد بن اسحق بن ابراهيم بن مهران ابن عبد الله ، وليس فيهما من اشتهر بأبى بكر ، أو من كان اسمه محمد بن السرى .

---

(١) الحجة للفارسى : ١/١

(٢) تاريخ بغداد : ٥/٣١٩ فى ذكر من اسمه محمد واسم أبيه السرى .

(٣) نزهة الألباء : ١٦٩

(٤) معجم الأدباء : ٧/٢٣٩

(٥) بغية الوعاة : ٤٤

(٦) نزهة الألباء : ١٦٩

(٧) انظر مقدمة سر صناعة الاعراب

(٨) طبقات الزبيدى : ١٢٢

(٩) معجم الأدباء : ١٨/١٩٨

(١٠) طبقات القراء : ٢/٢٠٦

(١١) طبقات القراء : ٢/٩٧

(١٢) طبقات القراء : ١/١٣٨

محمد بن السرى السراج غير معدود فى طبقات القراء ومع ذلك فله فيما يقول المؤرخون من الوراقين — كتاب احتجاج القراءة[١]، ويسميه ياقوت : احتجاج القراء[٢]، ويشير أبو على إلى أن لابن السراج كتابا فى القراءات ، وأنه اطلع عليه[٣] وإذن فللرجل مشاركة فيما هو متصل بالقراءات ، وإن كان غير معدود فى القراء ، ويظهر أن انتهار الزجاج إياه حتى هم بضربه لخطئه فى مسألة نحوية[٤] جعله يشغل بالنحو ، ويعكف عليه دون ما سواه ، كما عكف سيبويه لأجل ذلك من قبل على الدراسات النحوية ، بعد أن كان يطلب الحديث فى حلقة حماد بن سلمة[٥] .

وإذا كان ابن السراج قد توفى سنة ست عشرة وثلثمائة[٦] ، وكانت وفاته فى سن مبكرة[٧] ، وإذا علمنا أن أبا على انتقل من بلاده إلى بغداد سنة ٣٠٧[٨] هـ ، وأنه سمع الكتاب على ابن السراج[٩] ، فمعنى هذا أن اتصال أبى على بابن السراج كان اتصالا مبكراً فى صدر الشباب من أبى على[١٠] ، منذ أوائل نزوله بالعراق .

ويشهد بما كان عليه ابن السراج من الذكاء — ما تركه من كتب أثنى عليها العلماء واتصلت مع ذلك بفنون مختلفة : فى القراءة ، والنحو ، واللغة ، والأدب ، والخط[١١] مع أنه لم يعمر طويلا ، فلم تطل مدته ، ومات شابا[١٢] .

وكان الشيخ أبو بكر عظيم الثقة بتلميذه أبى على ، وآية ذلك أن الشيخ يتقدم للتلميذ راغبا إليه بإتمام الموجز بعد أن عمل نصفه — بما ينقله من كلام فى الأصول والجمل[١٣] . وإذن فقد تأثر أبو على بابن السراج فى دراساته النحويه منذ باكورة الشباب ، يقرأ عليه الكتاب ، وينقل من كتاب ابن السراج فى الأصول ليتم كتاب الموجز ، ثم يجلس أبو على للدرس ليقرأ عليه الناس كتاب الجمل ، وكتاب الموجز لشيخه ابن السراج[١٤] ، وكان من هؤلاء الذين يقرءون على أبى على هذين الكتابين على بن عيسى الرمانى[١٥] ، كما يتأثر أبو على بابن السراج فى الدراسات القرآنية ،

(١) الفهرست : ٩٣
(٢) معجم الأدباء : ١٨/٢٠٠
(٣) انظر كتاب الحجة : ١/٣٣٦
(٤) الفهرست : ٩٢
(٥) طبقات القراء : ٦٦
(٦) نزهة الألباء : ١٦٩
(٧) بغية الوعاة : ٤٤
(٨) وفيات الأعيان : ٣٦١
(٩) معجم الأدباء : ١٨/٢٠١
(١٠) ولد أبو على سنة ٢٨٨
(١١) انظر معجم الأدباء : ١٨/١٩٨
(١٢) بغية الوعاة : ٤٤
(١٣) رسالة الغفران : ٣٠٨ تحقيق ابنة الشاطىء
(١٤) معجم الأدباء : ٧/٢٣٩
(١٥) المصدر السابق

إذ يطلع على كتابه فى القراءات[١] ، ويقفو أثره فى الاحتجاج للقراء[٢] ، ولعله تأثر به فى الناحية الأدبية كذلك ، فقد كان ينشد ما يرويه أستاذه على ما أورد ياقوت[٣] . وسنراه واضح الشخصية فيما يعرض لابن السراج فى الاحتجاج معقبا ، أو شارحا ، أو ناقداً مفنداً .

ومهما يكن من أمر فى كون ابن السراج غير معدود فى طبقات القراء ، فإن القدر الذى تركه لنا فى الاحتجاج — على ضآلته — يتيح لنا فرصة التعرض لمنهجه بالحديث عنه — وأقول على ضآلته ، لأن الرجل (رحمه الله) احتج لاختلاف القراء فى أم الكتاب ، ثم انتقل منها إلى سوره البقرة ، ووصل فيها إلى آخر قوله تعالى : « ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين » ثم أمسك .

ولقد أراد أبو على الفارسى أن يطلع الناس على منهجه فى الاحتجاج ، وما أوتى من قدرة عليه ، وتمكن فيه ، إلى جانب احتجاج ابن السراج ، فالتزم فى القدر الذى ترك ابن السراج — أن يسند إليه ما فسر من ذلك فى كتابه[٤] ، ثم يشير إلى أن الحكاية انتهت عن أبى بكر ، ثم يبدأ هو بالاحتجاج بقوله : قال أبو على ... وبذلك أتاح أبو على للدارسين بما أسند إلى ابن السراج ، وأورد من كلامه فى الاحتجاج أتاح لهم التعرف على خطة ابن السراج ، واختبار منهجه وموازنته بمنهج أبى على ، وعقد دراسة مقارنة بينهما ، توضح خطة الرجلين ، ومقدار ما بينهما من تشابه ، أو اختلاف فى القدر الذى اشتركا فيه من الاحتجاج ، ولهذه المقارنات مكانتها فى الدراسات القرآنية بعامه ، وما هو متصل منها بالاحتجاج للقراء على وجه خاص ، وهو ما أنا فى سبيلى إليه الآن .

ولست بحاجة إلى بيان الأسباب الداعية إلى تأليف ابن السراج فى الاحتجاج ، فقد تعرضت لشىء من ذلك — على وجه عام — فى الفصول السابقة ، وذكرت أنى سأفرد للكلام عن منهج ابن السراج فصلا خاصا أتعرف فيه عليه ، إلا أنه مما يستحق الذكر فى مقامى هذا أن أذكر أن المبرد (٢٨٥ هـ) شيخ أبى السراج[٥] الف فى احتجاج القراءة[٦] ، وقد كان اتصال ابن السراج بالمبرد ، وصحبته له

---

(١) الحجه : ١/٣٣٦ نسخه البلدية (٢) الحجه : ١/١ نسخه مراد ملا
(٣) انظر معجم الادباء : ١٧/١٩٧ (٤) انظر الحجه : ١/١
(٥) انظر تاريخ بغداد : ٥/٣١٩ (٦) الفهرست : ٨٨

مبكرة كذلك ؛ إذ يحكون أن ابن السراج كان أحدث أصحاب المبرد سناً[1] ، فتأثر الشاب الناشىء بأستاذه الشيخ ، فكان احتجاجه للقراءة كما احتج أستاذه ، وإلى جانب ذلك كانت هناك صحبة بين أبي بكر بن السراج ، وشيخ القراءة والإقراء ببغداد ، وهو ابن مجاهد (٣٢٤ هـ) الذى سبع السبعة ، وأطلق عليه شيخ الصنعة[2] ، وقد أشار إلى هذه الصحبة التى انعقدت بين الشيخين — ابن الأنبارى فى نزهة الألباء ، فى حكاية طريفة عند ترجمته لابن السراج[3] . كما أن لأبى حاتم السجستانى وكثيراً ما ينقل عنه ابن السراج — كتاباً فى القراءات[4] ، وللزجاج أستاذ ابن السراج مشاركته كذلك فى التأليف القرآنية إذ له : معانى القرآن[5] ، ويسميه ابن الأنبارى « المعانى فى القرآن[6] » فهذه أسباب خاصة دافعة لابن السراج إلى أن يؤلف فى الاحتجاج بجانب هذه الأسباب العامة التى فصلتها فى مكانها تفصيلا[7] .

وأبو بكر بن السراج يستهدى الحس فى الاحتجاج ، فتراه يستريح إلى القراءة الخفيفة على اللسان الحسنة فى السمع والأكثر دوراناً على الألسنة ، وذلك اختياره القراءة بالصاد فى « الصراط » حيث يقول :

« للقارىء بالسين أن يقول هو أصل الكلمة ، ولو لزم لغة من يجعلها صاداً مع الطاء لم يعلم ما أصلها » ، ويقول من يقرأ بالصاد : « إنها أخف على اللسان ، لأن الصاد حرف مطبق كالطاء يتقاربان ؛ ويحسنان فى السمع » ، وبعد أن أورد الحجة لمن قرأ بالزاى ، والحجة لمن قرأ بالمضارعة التى بين الصاد والزاى قال : « والاختيار عندى الصاد للخفة والحسن فى السمع ، وهو غير ملتبس . . . ومع ذلك فهى قراءة الأكثر ، ألا ترى لمن من رويت عنه القراءة بالسين منهم قد رويت عنه بالصاد ؟ ثم قال : « وأما القراءة بالمضارعة التى بين الصاد والزاى فعدلت عن القراءة بها ؛ لأنه تكلف حرف بين حرفين وذاك أصعب على اللسان[8] . . . » .

وقال فى موضع آخر بعد أن أورد القراءات المختلفة فى (عليهم) ، واحتج للقارئين بها : « والاختيار عليهم بالكسر ، لأنها أخف على اللسان ، وهى قراءة

---

(١) بغية الوعاة : ٤٤

(٢) طبقة القراء : ١/١٣٩

(٣) نزهة الالباء : ١٦٩

(٤) الفهرست : ٨٧

(٥) الفهرست : ٩١

(٦) نزهة الالباء : ١٦٦

(٧) انظر الفصل الخاص بذلك

(٨) الحجه : ٣٠ نسخه مراد ملا

الاكثر[١] — وقال فى موضع آخر : من أثبت الياء فى (فيه هدى) لايجوز له أن يدغم ، لأنه لم يلتق حرفان ، ومع ذلك فهى من الحروف التى يكره إدغام بعضها فى بعض لثقل ذلك[٢] .

هذه النظرية الفنية من ابن السراج فى حاجة إلى تعليل . حقيقة ، تنبه سيبويه من قبل إلى أن العرب جرت على ألسنتهم لهجات بعينها دعاهم إليها التماس الخفة فى الانسجام الصوتى[٣] . ومن قبل سيبويه ، كان لشيخه الخليل جولات فى هذا الباب[٤] .

ولكن أليس من تعليل لهذا الاتجاه عند الخليل ، واختيار ابن السراج من القراءات ما خف على اللسان ، وارتاحت إليه الآذان ؟ !

وهذا ابن جنى يقرر أن الحذاق المتقنين من النحويين يحيلون فى عللهم — على الحس ، ويحتجون فيه بثقل الحال ، وخفتها على النفس[٥] ، ثم يكرر هذا المعنى فى صفحات متتابعة من الباب الذى عقده لعلل العربية أكلامية لى أم فقهية[٦] ؟ ولكن لم كان ذلك الاختيار من ابن السراج ، والتعليل من الخليل ! ! السبب عندى أن كلا منهما قد اشتغل بالموسيق ؛ فالخليل له معرفة بالإيقاع والنغم[٧] ، وألف فيه كتاب الإيقاع والنغم[٨] ، كما أن ابن السراج كان يشتغل بالموسيق[٩] ، فليس ببعيد إذن أن يستريح الى القراءة التى يكون لها وقع موسيق على الآذان بما فيها من خفة على اللسان . وأن ينبه الى ذلك فى احتجاجه بوضوح وبيان .

* * *

واذا كان لابن السراج جهد مذكور فى دراسة كتاب سيبويه ، واستخراج مسائله ، وعقد أصوله[١٠] ، فلا غرابة ان رأيناه فى احتجاجه — وتلك صلته بالكتاب — ينظر الى سيبويه ، ويستمد منه التعليل ، وذلك حيث يقول - مثلا - فى حجة من قرأ عليهمو فكسر الهاء ووصل الميم بواو — وهو قول ابن كثير ونافع

---

(١) الحجه : ١/٣٨ نسخه مراد ملا
(٢) الحجه نسخه مراد ملا : ١١٨ (٣) انظر مثلا الكتاب لسيبويه ٢/٢٠٩٢ وماحواليها
(٤) انظر اللسان : ٣/٢٢٥ و٩/٣٤٩ (٥) ص ٦/٤٦ الخصائص
(٦) المصدر السابق انظر ٤٧ ، ٤٨ ، ٥٠ ، ٥٥ ، ٥٤ ، ٥٩ ، ٦٢ ، ٧٠
(٧) بغية الوعاة : ٢٤٤ (٨) المصدر السابق : ٢٤٥ والفهرست . ٦٥
(٩) الفهرست : ٩٢ (١٠) انظر نزهة الالباء : ١٦٩

فى أحد قوليه — قال سيبويه : « قال بعضهم : عليهمو أتبع الياء ما أشبهها وترك ما لا يشبه الياء ولا الألف على الأصل[١] .

* * *

وإذا كان ابن السراج قد درس المنطق[٢] ، فإنا نرى ملامح هذه الدراسة فيما أورد من احتجاج ، فهو يذكر بعض اصطلاحات المناطقة كالجنس[٣] ، والعموم ، والخصوص ، قال : الوصف بالملك أعم من الوصف بالملك . . . ثم قال مبيناً أن فيهما عموماً وخصوصاً مطلقاً . . . فكل ملك مالك ، وليس كل مالك ملكا .

* * *

وإذا كان ياقوت قد أورد قوله عن ابن السراج : أنه عول على مسائل الاخفش والكوفيين[٤] فإنا نراه يروى عن الاخفش كثيراً ، ويعتمد عليه فى الاحتجاج[٥] .

كما رأيت ابن السراج يعتمد كثيراً على ما يحكيه أبو حاتم[٦] ، وأبو حاتم هذا هو أبو حاتم السجستانى (ت ٢٥٥ ﻫ) إمام البصرة فى النحو ، والقراءة ، واللغة والعروض ، قال ابن الجزرى : وأحسبه أول من صنف فى القراءات[٧] ، فلعل ابن السراج اعتمد على ما كتب فى هذا الشأن .

وهو وإن كان يعتمد على ما اتصل بهم دراسة ، فيحكى عنهم ، وينظر اليهم ، ويروى نقولهم ، نراه يقف من هؤلاء موقف الناقد المفند ، كأن يقول :

« رواية من روى عن أبى عمرو وغيره أنه كان يشم ويدغم فى قوله تعالى : فيه هدى :[٨] هذا محال ، لا يمكن الادغام مع شىء من هذا ، وذلك أنه لا فصل بين الحرفين إذا أدغما بحال من الأحوال لا بقطع ولا حركة ، ولا ضرب من الضروب ، وإنما يصيران كالحرف الواحد للزوم اللسان لموضع واحد ، وإنما كان أبو عمرو يختلس ويخفى فيظن به الادغام ، وكيف يكون متحرك مدغم ؟ فيجب أن يكون متحركاً ساكناً »[٩] .

---

(١) الحجه : ٣٦ نسخه مراد ملا (٢) الفهرست : ٩٢
(٣) الحجه نسخه مراد ملا ٤/١ (٤) معجم الادباء : ١٩٨/١٨
(٥) نسخه مراد ملا انظر ورقه ١٢٠
(٦) انظر مثلا ورقه ٣٠و٣٨و١٢٨و١٢٠ (٧) طبقات القراء : ٣٢٠/١
(٨) سورة البقرة آيه ٢ (٩) الحجه ١ ورقه ١٢٠ نسخه مراد ملا

ونلحظ هنا أيضاً تدليله المنطق ، وذلك يتصل بدراساته المنطقية التى أشرت إليها قبل .

هذا ويذكر المترجمون لأبى بكر بن السراج أنه عول على مسائل . . . الكوفيين وخالف أصول البصريين فى مسائل كثيرة [١] ، وقد ظهر أثر ذلك فى اعتداده برسم المصحف ، وتلك نظرة كوفية رأيناها عند الفراء فى معانى القرآن[٢] ، كما يعتد بكثرة الدور على الألسنة ، وهذه أيضاً يعتد بها الأئمة الكوفيون[٣] ، وإن أردت الدليل على اتجاه ابن السراج الكوفى فاقرأ قوله : « الاختيار فى فيه الكسر بغير ياء ولا إدغام ، وحكى عن أبى حاتم أن ذلك قراءة العامة ، قال أبو بكر : « وهو الأخف ، وخط المصحف بغير ياء ، قال : وأكره الادغام ، لأن من كسر فالياء يريد ، ومن أثبت الياء لم يجز له أن يدغم ، لأنه لم يلتق حرفان ، ومع ذلك فهى من الحروف التى يكره ادغام بعضها فى بعض لثقل ذلك [٤] .

ومع أنه يختار بعض القراءات ، ويكره البعض الآخر فهو معترف بها جميعاً محتج لها كذلك ، « ولولا ذلك ما جازت القراءة به ، ولابد للمعانى من أن تتقارب[٥] .

ثم الحظ اختياره للقراءة لأنها كثيرة الدور على ألسنة أكثر العرب فى قوله : والاختيار عندى الصاد (فى الصراط) للخفة ، والحسن فى السمع . . . ومع ذلك فهى قراءة الأكثر ، ألا ترى أن من رويت عنه القراءة بالسين منهم قد رويت عنه بالصاد [٦] ؟

ذلك أثر دراساته الكوفية ، وأخذه بآراء الكوفيين ، واتجاهات مدرستهم فى البحوث القرآنية ، ورسم المصحف لا يقول به أبو على كما بينت ذلك فى فصل آخر.

ومن أثر اختلاط الدراسات الكوفيـة بنحوه البصرى استعماله منجزمة (بدل ساكنة[٧]) ، وذلك اصطلاح كوفى[٨] . ثم هو إلى جانب ذلك يورد أقوالا لأحد

---

(١) معجم الادباء : ١٨/ ١٩٨ (٢) انظر معاني القرآن ص ٢ و١٤
(٣) انظر مثلا معانى القرآن ٤ و٥
(٤) الحجه : ١/ ١١٨ نسخه مراد ملا (٥) نسخه مراد ملا ورقه ٦
(٦) الحجه : ١/ ٣٠ نسخه مراد ملا (٧) ١/ ٤٦
(٨) انظر معانى القرآن للفراء ص ٢٢٣

ابن يحي ثعلب يحتج فيها للكسائى ، وهذا الى جانب دلالته على نزعته الكوفية — يدل على أن الخلاف بين المدرستين لم يكن فى المسائل النحوية حسب ؛ بل تعداه إلى احتجاج كل مدرسة لشيوخها فى القراءات ، أورد ابن السراج فى الاحتجاج لقراءة الكسائى مالك بألف : « وقال أحمد بن يحي : من حجة الكسائى أنه يقال : ملك الناس، مثل سيد الناس ، ورب الناس ، ومالك يوم الدين ، ولا يقال سيد يوم الدين، فاذا كان مع الناس (١) ما يفضل عليهم كان ملك ، وإذا كان مع غير الناس كان مالك (٢) .

وأودهنا أن أنصف ابن السراج، وأرد اليه فضل السبق فى التحدث عن الاشتقاق الصغير ، ذلك لأن الأستاذ أحمد أمين (رحمه الله) قال فى ظهر الاسلام ما نصه : « ومن خير ما ألف فى اللغة أيضاً (٣) فى ذلك العصر كتاب مقاييس اللغة لابن فارس المتوفى سنة ٣٩٥ ، وقد نحا فيه نحوا جديداً ، وقد استخلص من معانى الكلمة المختلفة معنى واحداً ، أو معنيين جعله أساساً للكلمة ، ونقص عليه ، وبيّن أن الاشتقاقات المختلفة تدور حوله . مثال ذلك « وجب . قال الواو والجيم والباء أصل واحد يدل على سقوط الشيء ووقوعه ، ثم يتفرع ، يقال وجب البيع وجوباً — حق ووقع ، ووجب الميت سقط ، والقتيل واجب ، وفى الحديث : « إذا وجب فلا تبكين باكية » أى إذا سقط . وقال الله فى النسك « فاذا وجبت جنوبها » قال قيس :

أطاعت بنو عوف أميرا نهاهم عن السلم حتى كان أول واجب

ووجب الحائط سقط (٤) .

فأنت ترى أن الأستاذ أحمد أمين وصف ابن فارس فى كتابه مقاييس اللغة بأنه « نحا نحواً جديداً فيه » ، ثم بين ذلك النحو الجديد بأن يؤول المعانى كلها إلى معنى واحد ، أو كما قال : يريد أن يصب الكلام المتشعب فى « برشامة » واحدة (٥) وأرى أن ابن فارس (٣٩٥ هـ) لم يكن مبتدعاً ذلك ابتداعاً ، فقدسبقه فيه ابن السراج ، والزجاج ، ولكن ابن السراج ينفرد بأنه ألف كتاباً فى الاشتقاق

---

(١) فى نسخة مراد ملا وما يفضل ليهم والتصحيح عن نسخة البلدية : ١/٤

(٢) نسخة مراد ملا ١/٤ (٣) فى الكتاب (غير) والصحيح ما أثبته

(٤) ظهر الإسلام ٢/٩٣

(٥) مؤتمر المجمع اللغوى الدورة الخامسة عشرة ، من الجلسة التاسعة ص ١٦ (١٩٤٨/ ١٩٤٩) .

كما يقول ابن جنى (ت ٣١٦ هـ) ، واقرأ معى كلام أبى بكر فيما أورد من الاحتجاج لقراءة من قرأ ملك يوم الدين ، وأنه يختار هـذه القراءة قال : « الاختيار عندى ملك يوم الدين ، والحجة فى ذلك أن الملك والملك يجمعهما معنى واحد ، ويرجعان إلى أصل: وهوالربط والشد ، كما قالوا : ملكت العجين أى شددته ، وقال الشاعر :

ملكت بها كفى فأنهرت فتقها يرى قائم من دونها ما وراءها

يصف طعنة ، يقول : « شددت بها كفى » ، والاملاك من هذا : انما هو رباط الرجل بالمرأة ، وكلام العرب بعضه مأخوذ من بعض ، فقد يكون الأصل واحداً ثم يخالف بالأبنية ، فيلزم كل بناء ضربا من ذلك الجنس ، مثال ذلك : العدل يشتق منه العدل ، والعديل ، فالعدل ما كان متاعاً ، والعديل الانسان ، والأصل انما هو العدل ، فكذلك مالك وملك ، فالملك الذى يملك الكثير من الأشياء ، وشارك غيره من الناس بأن يشاركه فى ملكه بالحكم عليه فيه ، وأنه لايتصرف فيه إلا بما يطلقه له الملك ، ويسوسه[١] به الخ ...

وقد أورد ابن فارس فى كتابه مقاييس اللغة كلاما فى مادة ملك ينظر فيه إلى قول ابن السراج [٢] . فهأنتم أولاء ترون سبق ابن السراج فى هـذا الباب ؟ وكيف ساق الأمثلة من كلام العرب وقد ساقها بعد ابن فارس ؟ وكيف أورد شواهد الشعر كما أورد ؟ أيجوز بعدذلك أن نطمئن إلى مايقول الأستاذأحمد أمين : « ان ابن فارس نحا نحواً جديداً فى كتابه مقاييس اللغة » [٣] ؟ على أننى وجدت ابن قتيبة — وهو سابق لابن السراج — يرجع المعانى المختلفة للفظ الواحد إلى أصل واحد نشأت منه وتفرعت عنه ، فقد ذكر — مثلا — كلمة القضاء وبين معانيها المختلفة التى تصير إليها ثم ختم بحثه بقوله : وهذه كلها فروع ترجع إلى أصل واحد[٤] . فلعل الأستاذ أحمد أمين (رحمه الله) يرى أن ابن فارس أول من ألف كتابا نحا فيه هـذا النحو الجديد، ولكن هذا مردود أيضاً لأن ابن السراج « قدقدم رسالته فيه ، . . . . . ، ولم يأل فيه — كما يقول ابن جنى — نصحاً ، وإحكاما ، وصنعة ، وتأنيساً [٥] إلى أن الكلام فى الاشتقاق قديم يرجع العهد به إلى زمان الاصمعى ، وقطرب

---

(١) الحجة نسخة مراد ملا : ١/٤ (٢) انظر مقاييس اللغة ١/٦
(٣) ظهر الإسلام : ٢/٩٣ (٤) المشكل : ٣٤٣
(٥) الخصائص لابن جنى : ١/٥٢٦

وأبى الحسن الاخفش وكلهم قد ألف فى هذا الفن[1] . ولم يتنبه رجال بجمع اللغة العربية إلى سبق ابن السراج وإحكامه وصنعته ، ذلك أنه لم يناقش أحد منهم — فيما أعلم — السيد محمد رضا الشبيبى فى تقريره أن ابن فارس فى مقدمة أئمة مدرسة القياس بما ألف من كتاب المقاييس فى اللغة[2] .

ومن تمام الحديث أعرض لخطة كل من الرجلين : ابن السراج ، وأبى على ؛ ليتجلى الفرق واضحاً بين المنهجين .

فابن السراج يبدأ ببيان أوجه القراءة فى اللفظ الذى وقع فيه الاختلاف بين القراء ، ثم يعين قراءة كل قارىء من القراء السبعة فى ذلك اللفظ ، ثم يحتج لكل فريق من القراء اتفق على قراءة فى الحرف المختلف عليه ، ويعتمد فى احتجاجه على :

(أ) دليل نقلى ويشمل :

١ — النقول التى سمعها من شيوخه ، وقد تصل هذه النقول إلى قارىء من القراء السبعة بطريق السند .

٢ — ما اتفقوا على قراءته فيما يشبه هذا الحرف المختلف عليه فيحتج لقراءة ملك يوم الدين لأن الله قال : « ملك الناس ، والملك القدوس » ويحتج لقراء مالك يوم الدين بأن الله قال : « قل اللهم مالك الملك » .

(ب) دليل يمكن أن نسميه دليلا عقلياً — أو معنوياً — وهنا يعرض للمعنى الذى عليه الآية مقروءة بالوجه الذى يحتج له .

(ج) — ثم يذكر ما يختار من القراءة ، ويحتج لاختياره احتجاجاً يكشف عن شخصيته هو .

(د) ثم يذكر رأى الفريق الآخر ويذكر احتجاجه معترفا بحسن ما ذهب إليه « إذ لولا ذلك ما جازت القراءة » .

(ه) ثم يقوى جانب ما اختار ، ويضعف الجانب الذى ترك .

وبدهى أن الخطوات التى قبل الاحتجاج — وهى أوجه القراءة فى اللفظ الذى وقع فيه الاختلاف ، وتعيين قراءة كل قارىء من الأئمة السبعة — هذه الخطوات من عمل ابن مجاهد ، بل هى « كتابه فى القراءات[3] » ، وقد سار أبو على هـذا النهج

---

(١) المزهر : ١/٣٥١

(٢) الدورة الخامسة عشرة للمجمع اللغوى ص ١١ من الجلسة التاسعة .

(٣) الفهرست : ٤٧

الذى سار عليه ابن السراج فيما هو خاص بعرض قراءات القراء واختلافهم فى فرش الحروف [(١)] .

وتبدو خطوات ابن السراج السابقة من هذا المثال :

اختلفوا فى إثبات الألف وإسقاطها من قوله عزوجل : «مالك يوم الدين» [(٢)]، فقرأ عاصم والكسائى مالك بألف ، وقرأ الباقون ملك بغير ألف ، ولم يمل أحد الألف فى مالك .

(١) قال أبو بكر محمد بن السرى : « قال أبو عمرو فيما أخذته عن اليزيديين : أن « ملك » يجمع « مالكا » أى ملك ذلك اليوم بما فيه ، ومالك إنما يكون للشىء وحده ، تقول « مالك هذا الشىء » وقال الله عز وجل : « قل اللهم مالك الملك » [(٣)] للشىء بعينه ، فملك يجمع مالكا ، ومالك لا يجمع ملكا ، وقال الله عز وجل : « ملك الناس » [(٤)] و « الملك القدوس » [(٥)] .

قال : وحكى أن عاصما الجحدرى قرأها ملك بغير ألف ، فقال محتجاً على من قرأ مالك بالألف يلزمه أن يقرأ : « قل أعوذ برب الناس » : قال هرون : قد ذكرت ذلك لأبى عمرو ، فقال : نعم ! أفلا يقرءون « فتعالى الله المالك الحق » [(٦)] ، قال : وقال بعض من اختار القراءة بملك أن الله قد وصف نفسه بأنه مالك كل شىء بقوله : « رب العالمين » ، فلا فائدة فى تكريره ذكر ما قد مضى ذكره من غير فصل بينهما بذكره معنى غيره قال : وقال : « وإن الخبر عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بقراءته ملك يوم الدين أصح إسناداً من الخبر بقراءته مالك ، وأن وصفه بالملك أبلغ فى المدح قال : وهى قراءة أبى جعفر ، والأعرج ، وشيبة بن نصار ، وقال أحمد ابن يحيى : « من حجة الكسائى أنه يقال : ملك الناس ، مثل سيد الناس ، ورب الناس ، ومالك يوم الدين . ولا يقال سيد يوم الدين ، فاذا كان مع الناس وما يفضل عليهم كان ملك ، وإذا كان مع غير الناس كان مالك » .

---

(١) تعبير القراء يقصد به الألفاظ التى وقع الاختلاف فى قراءتها فى القرآن الكريم. انظر النشر : ٣٠٦/٢

(٢) سورة الفاتحة

(٣) سورة آل عمران

(٤) سورة الناس

(٥) سورة الحشر

(٦) سورة طه

قال : وقال من احتج لمالك ، وكره ملك : أن أول من قرأ ملك : مروان بن الحكم ، وأنه قد يدخل فى المُلك مالا يجوز ولا يصح دخوله فى المِلك ، قالوا : « وذلك أنه صحيح فى الكلام أن يقال : « فلان مالك الدراهم والطير ، وغير صحيح أن يقال فلان ملك (الدراهم والدنانير) .

(ب) قالوا : فالوصف بالمِلك أعم من الوصف بالمُلك ، والله مالك كل شىء ، قالوا : والمعنى أنه يملك الحكم يوم الدين بين خلقه دون سائر الخلق الذين كانوا يحكمون بينهم فى الدنيا . « قالوا : « وقد وصف الله « (عز وجل) نفسه بأنه مالك الملك ، فقال : « قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء ، ولا يقال « هو مَـلِكُ الملك » ، قالوا : فوصفه بالمِلك أبلغ فى الثناء وأعم فى المدح من وصفه بالمُلك .

وقرأ (مالك) من متقدمى القراء قتادة ، والأعمش . وقال أبو عبيدة فى قوله : « ملك يوم الدين » معناه الملك يومئذ ليس ملك غير ، ومن قرأ مالك أراد به أنه يملك الدين والحساب لا يليه سواه قال : وكذلك يروى عن عمر .

(ج) قال أبو بكر : الاختيار عندى « مَـلك يوم الدين » ، والحجة فى ذلك أن الملك والملك يجمعهما معنى واحد ، ويرجعانَ إلى أصل ، وهو الربط والشد ، كما قالوا : ملكت العجين أى شددته . وقال الشاعر :

ملكت بها كفى فأنهرت فتقها ... يرى قائم من دونها ما وراءها

يصف طعنة يقول : شددت بها كفى ، والاملاك من هذا إنما هو رباط الرجل بالمرأة . وكلام العرب بعضه مأخوذ من بعض ، فقد يكون الاصل واحداً ثم يخالف بالأبنية ، فيلزم كل بناء ضرباً من ذلك الجنس ، مثال ذلك العدل ، يشتق منه العدل ، والعديل ، فالعدل ما كان متاعا ، والعديل الانسان ، والأصل إنما هو العدل ، فكذلك مالك وملك ، فالملك الذى يملك الكثير من الأشياء ، ويشارك غيره من الناس بأن يشاركه فى ملكه بالحكم عليه فيه ، وأنه لا يتصرف فيه إلا بما يطلقه له الملك ويسوسه به ، ويجتمع مع ذلك أن الملك يملك على الناس أمورهم فى أنفسهم وجميع متصرفاتهم (ااا) ، فلا يستحق اسم المَلك حتى يجتمع له ملك هذا كله ، فكل مَـلِكٍ مالك ، وليس كل مالك مَلكا . وأما قوله (عز وجل) مالك الملك « فان الله (عز وجل) يملك ملوك الدنيا ، وما ملكوا ، وإنما تأويل ذلك أنه يملك ملك الدنيا ، فيؤتى الملك من يشاء ، فأما يوم الدين فليس إلا ملكه ، وهو ملك الملوك

(جل وعز) يملكهم كلهم ، وقد يستعمل هذا فى الناس ، فيقال : فلان ملك الملوك وأمير الأمراء ، يراد بذلك أن من دونه ملوكا وأمراء ، فيقال ملك الملوك، وأمير الأمراء ولا يقال ملك الملك ، ولا أمير الامارة ، لأن أميرا وملكا صفة غير جارية على فعل ، ولا معنى لاضافتها إلى المصدر . وأما إضافة ملك إلى الزمان فكما يقال: «ملك عام كذا ، وملوك سنة كذا ، وملوك الدهر الأول ، وملك زمانه، وسيد زمانه ، وهو فى المدح أبلغ، والآية إنما نزلت بالثناء والمدح لله تعالى، والصفة له ، ألا ترى قوله تعالى : « الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم » فالربوبية والملك متشابهان .

(د) قال : وللمختار لمالك أن يقول : قرأت مالك لأن المعنى يملك يوم الدين وهو يوم الجزاء ، ولا يملك ذلك اليوم أن يأتى به ، ولا سائر الأيام غيرالله . وهذا ما لا يشاركه فيه مخلوق فى لفظ ولا معنى ، فيقال : هذا الذى قلت حسن ، ولولا هذا المعنى وما يؤيده ما جازت القراءة به ، ولا بد للمعانى من أن تتقارب ، والملك فى ذلك اليوم أيضاً لا يكون إلا لله ، فهو متفرد بهذا الوصف ، ويقوى ذلك قوله لمن الملك اليوم ؟ لله !! [1] ، وقوله « والأمر يومئذ لله » .

(هـ) فان احتج المختار لمالك بما روى من أن أول من قرأ ملك مروان بن الحكم ، احتج عليه من الأخبار بما يبطل ذلك ، ولعل القائل لذلك أراد أن أول من قرأ فى ذلك العصر ، أو من ضربه ، لأن القراءة بذلك أعرض وأوسع من ذلك بحسب ما انتهى إلينا . انتهت الحكاية عن أبى بكر .[2]

وهكذا نرى ابن السراج يمزج فى احتجاجه بين الأدلة المنقولة عن شيوخ القراءة واللغة ، والأدلة العقلية التى يناقش بها هذه النقول النقلية ، ثم تظهر شخصيته واضحة فيما يختار من الأوجه المختلفة ، ومايدل به على ذلك الاختيار ، وهو بعد ذلك منظم فى عرض الفكرة ، معتدل بين الايجاز والاطناب ، ثم ان إطنابه لايسلك إلى نوع من الاستطراد الذى يبعد بك عن النقطة الأصلية التى توجه بالاحتجاج لها والتحدث فيها .

فأين هذا من خطة أبى على التى ترمى بك إلى ناحية من الاستطراد والاحتجاج الذى يخلطه أو يقدم له ، ويحشوه ، ويفرع فيه ، ويدحوه ، بذكر مسائل فى النحو والصرف ، والعروض ، واللغة ، والاعراب ، حتى يبلغ الملال منك مبلغاً يضيع معه الاحتجاج الذى وسم كتابه به ، وآية الفرق ما بين الخطتين أنك إذا قرأت كلام

---

(١) سورة المؤمن

(٢) الحجة نسخة مراد ملا ورقة ٣ وما بعدها

أبي بكر بن السراج أدركت من أول وهلة الموضوع الذى يتحدث فيه ، والحرف المختلف عليه ، والذى يحتج له دون أن يكدك أو يجهدك . على حين أنك لو قرأت كلام أبي على الفارسى لا تصل فى سرعة ويسر إلى إدراك القراءة التى يحتج لها ، والموضع المختلف عليه الذى يتحدث فيه ، وقد ضربت مثالا لاستطراده فى موضع آخر من هذا البحث ، ولكن من الموضح أن أشير إلى ما تبعه فى الاحتجاج لاختلاف القراءة فى « ملك ومالك » حتى يبدو الفرق بينه وبين ابن السراج واضحاً .

بدأ أبو على الاحتجاج لمن قرأ باسقاط الألف أو اثباتها فى مالك يوم الدين ببحث لغوى فى معنى أملاك المرأة ، ومعنى الملك للشىء فيذكر أنه اختصاص من المالك به ، وخروجه عن أن يكون مباحاً لغيره ، ثم يستطرد فيذكر معنى الاباحة ، ويقرن ذلك بقولهم : باح السر ، وباحت الدار ، ويستدل على أن التمليك معناه التشديد بقول أوس بن حجر :

فملك بالليط الذى تحت قشرها كغرقىء بيض كنه القيض من عل

ثم يأخذ فى إعراب الذى ، وأنه فى موضع نصب بأنه مفعول به لملك ، ولا يكون فى موضع جر على أنه وصف لليط ، ويذكر السبب فى ذلك التوجيه و . . . . . ، وتسأل نفسك : ما علاقة الاحتجاج لاختلاف القراءة فى إسقاط الألف من مالك أو اثباتها بالحديث عن موضع الذى من الاعراب فى قوله : فملك بالليط الذى تحت قشرها ؟ ، وبالحديث [1] عن الاضافة إلى يوم الدين فى كلتا القراءتين ؟ وبانتصاب أياما فى قوله : « يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون أياما — على أنه مفعول به على الاتساع ، وكان فى الأصل ظرفاً ! ؟ وبتقدير المحذوف فى قوله : «الحج أشهر معلومات[2]» ، و«موعدكم يوم الزينة [3]» ؟ ، وبالعامل فى قوله : «الله يعلم حيث يجعل رسالته[4]» ، ، وباعراب يوم فى قوله تعالى : « وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة [5]» ، وفى قول الشاعر :

حميت عليه الدرع حتى وجهه من حرها يوم الكريهة أسفع [6] .

---

(١) نسخة البلدية ١/٩
(٢) ١/١٠
(٣) ١/١٤
(٤) ١/١٧
(٥) ١/١٩
(٦) ١/٢١

وفى قوله تعالى : ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون [١]؟ . وبتعلق الباء فى قولهم بامامهم من قول الله : « يوم يدعو كل أناس بامامهم [٢] » ، وبالعامل فى إذا من قوله تعالى : فاذا نقر فى الناقور [٣] ، وباعراب الشهر فى قولة تعالى : «فمن شهد منكم الشهر فليصمه [٤]» ، وبالحديث عن حذف ما يعلم [٥] ؟ ، وبالعامل فى الصفة [٦] ، وبالحكم الشرعى فى قول من قال : « المرأة التى أتزوجها فهى طالق [٧] وما صلة هذا كله — وهو بعض ما أورد — بالاحتجاج لاختلاف القراء فى إسقاط الألف أو إثباتها من مالك ؟ ولكنها خطة أبى على فى الاستطراد ، وسأتحدث عن هذا ، وعن دلالته ، وآثاره فى مكان آخر .

ولم يشأ أبو على أن تنمحى شخصيته بجانب شخصية ابن السراج ، وقد كان هذا الجولان الواسع المدى كافيا وحده على شخصيته — ولكنه إلى ذلك نراه ، يعقب ، أو يكمل ، أو يشرح كلام ابن السراج ، فيضيف أدلة جديدة من القرآن والشعر تفسر اتجاهه ، وتؤيد ما ذهب إليه ، فاذا قال ابن السراج . أن الله (سبحانه) وصف نفسه بأنه مالك كل شىء بقوله : رب العالمين ، فلا فائدة فى تكرير ذكر ما قد مضى — عقب الفارسى على ذلك [٨] ، ثم نراه — كذلك — يقوى قراءة رآها ابن السراج ضعيفة [٩] ، وإذا قال ابن السراج : « لم يمل أحد الألف من مالك [١٠] » قال أبو على : « الامالة فى مالك لا تمتنع فى القياس [١١] » ، وأحيانا يعنف أبو على حتى ليقول على رأى شيخه ابن السراج : « إنه ليس بمستقيم [١٢] » .

* * *

وقد وصل ابن السراج إلى آخر قوله تعالى : « ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين » ، ولم ينبه أبو على إلى ذلك ، ولم ترد إشارة إلى انتهاء ابن السراج ، ولكن القارىء [١٣] يدرك أن روح ابن السراج قد اختفت بما فيها من وضوح المحجة ، وإيراد الحجة ، والاعتدال فى سوق الكلام ، يدرك هذا دون حاجة إلى الإشارة إليه ؛ ليستقل أبو على بالاحتجاج ، وليخلص له وحده الميدان [١٤].

---

(١) ١/٢٢ (٢) ١/٢٢ (٣) ١/٢٤ (٤) ١/٢٥
(٥) ١/٢٥ (٦) ١/٢٨ (٧) ١/٣٥
(٨) نسخة البلدية : ١/١٠ (٩) البلدية : ١/١١
(١٠) نسخة البلدية : ١/٣ (١١) نسخة البلدية : ١/٢٨
(١٢) انظر الحجة : ١/١٢٠ و ١٢٢ و ١٢٤ وانظر : ٢٠٠
(١٣) المتصل بكتاب الحجة (١٤) نسخة البلدية ابتداء من ١ـ٢٠٥

الفصل الرابع

بين أبي علي الفارسي، وأبي عبدالله بن خالويه في الاحتجاج

تلمذ أبو علي الفارسي لأحمد بن موسى بن مجاهد، كما تلمذ أبو عبد الله بن خالويه له أيضاً [1]، وكل من الفارسي وابن خالويه يؤخذ عنه القراءة، ويكون له تلاميذ من القراء: فأبو علي يروى عنه عرضا عبد الملك بن بكران النهرواني [2]، كما يروى عن ابن خالويه عرضا أبو علي الحسين بن علي الرهاوي [3]، وكان لكل تآليف في الدراسات القرآنية، والذي يهمني منها في هذا البحث — الآن — كتاباهما المسميان باسم «الحجة».

وقد كانت الدوافع إلى الاحتجاج للقراءات كثيرة: عامة وخاصة كما ذكرت من قبل، ومن هذه الدوافع أستطيع أن أفسر تآليف كل من أبي علي الفارسي، وابن خالويه — ومعهما ابن السراج — في الاحتجاج، وأخص من هذه الدوافع — العامة والخاصة — أن كلا من الفارسي وابن خالويه عاشا في عصر واحد؛ إذ توفي الفارسي (٣٧٧ هـ)، وتوفي ابن خالويه (٣٧٠ هـ) [4] وإذن فقد تأثرا بهذه العوامل التي دفعت العلماء إلى الاحتجاج في هذا العصر، إلى أن كلا منهما قرأ على ابن مجاهد الذي سبع السبعة كما يقولون [5]، ومعنى هذا أن طريق الاحتجاج لقراء الأمصار قد مهد بعمل شيخهما الجليل ابن مجاهد (رحمه الله).

وكان بين أبي علي الفارسي وابن خالويه منافسة في بلاط سيف الدولة بحلب، [6] كما كانت هذه المنافسة كذلك في بلاط عضد الدولة، فكلاهما يقدم له كتبه: ابن خالوية يؤلف له كتابه «الجدول في القراءات على ما يذكر ابن الجزري [7]، والفارسي يذكر اسم عضد الدولة في صدر كتابه الحجة، ويدعو له بالعزة والبسطة والنصر والتمكين [8].

وعلى الرغم من هذه المنافسة فأنا لا أملك من الأقوال ما يجعلني أفسر تأليف

(١) طبقات القراء: ٢٣٧/١
(٢) طبقات القراء: ٢٠٧/١
(٣) المصدر السابق: ٢٣٧/١
(٤) معجم الأدباء: ٢٠٤/٩
(٥) ابراز المعاني ٥
(٦) انظر المسائل الحلبيات ورقة ٣٣ مخطوط ٥ نحوش
(٧) النشر: ٢٣٧/١
(٨) الحجة: ١/١

كل من ابن خالويه وأبى على فى الاحتجاج — بالمنافسة التى كانت بينهما ، لسبب قريب : هو أنى لست أعرف على التحديد أى الرجلين سبق بالتأليف فى الاحتجاج ولو كنت أعرف شيئا من ذلك لكان من المرجح عنـــدى أن المتأخر منهما — فى الاحتجاج — نافس المتقدم ، ولكن هذا غير مستبين ، فالقول به ضرب من إرسال الكلام إرسالا لا يقوم على بيِّنة ، ولا ينهض به دليل .

على أن هناك خيطا دقيقا أستطيع أن أمسك به ، للاهتداء فى هذه المسألة ، فابن جنى فى كتابه المحتسب يقرر أن أبا على لم يكن واضح العبارة فى كتابه الحجة ، وأن ذلك كان سببا فى بعد القراء عنه ، وعدم الفهم له ، وأن ابن جنى — من أجل ذلك — قد تخفف فى عبارته تخففا يجعل كتابه قريبا من أفهام القراء ، حبيبا إلى منهجهم الذى ألفوه : أسلوبا ، واختصارا ، ووضوحا[1] .

وابن خالويه فى مقدمة كتابه الحجة — يومىء إيماء خفيا إلى هذا الذى ذكره ابن جنى ، فيؤلف ابن خالويه كتابه : قاصد قصد الابانة فى اقتصار من غير إطالة ، ولا إكثار ، محتذيا لمن تقدم فى مقالهم ، مترجماً عن ألفاظهم واعتلالهم ، جامعاً ذلك بلفظ جزل ، ومقام واضح سهل ، ليقرب على مريده ، ويسهل على مستفيده[2] .

فابن خالويه بهذه السهولة التى تحاشاها أبو على فى كتابه الحجة يحقق للمريدين الفوائد ، ويسهل على المستفيدين المراد .

ذلك هو الخيط الدقيق الذى أشرت إليه من قبل ، وهو على أية حال — لايدل دلالة صريحة على أن ابن خالويه قد نافس أبا على فى الاحتجاج . نعم ! وهو يشير إلى ذلك فى خفاء .

* * *

هذا ومن المهم أن أشير إلى أن كتب التراجم لا تذكر لابن خالويه كتاباً باسم الحجة ، والذى ذكره ابن الأنبارى فى نزهة الألباء من كتب القرآن والقراءات : «كتاب البديع فى القراءات » ، وكتابا فى « إعراب سور من القرآن » ، وكتاب البديع معروف أخرجه المستشرق (ج . برجستراسر) ، وهو فى شواذ القراءات . وكتاب الاعراب يسميه ياقوت : إعراب ثلاثين سورة[3] ، على أن كتاب الحجة لابن خالويه مخطوط تحت رقم (١٩٥٢٣ ب) دار الكتب ، وهـذه النسخة هى التى اعتمدت

(١) انظر المحتسب لابن جنى

(٢) الحجة لابن خالويه ٣ (٣) معجم الأدباء : ٢٠٤/٩

عليها فى هذا البحث . ولابن خالويه كتاب القراءات مخطوط نسخة كتبت سنة ٦٠٠ هـ يقول فى أوله : هذا كتاب شرحت فيه قراءات أهل الأمصار ، ولم يعد ذلك إلى ما يتصل بالاعراب من تفسير مشكل ، أوغريب حروف القراءة الشاذة[١] . ولعله كتابه الموسوم بالحجة !.

* * *

ومهما يكن من أمر فان الذى يعنينى هذه الدراسة المقارنة التى أتعرف فيها منهج كل من أبى على الفارسى وابن خالويه فى الاحتجاج ، وما كان بينهما من توافق فى ذلك المنهج ، وما كان بينهما من خلاف .

والملاك العام الذى التزمه ابن خالوية بينه فى مقدمه كتابه إذ يقول : « وبعد : فانى تدبرت قراءة الأئمة السبعة من أهل الأمصار الخمسة[٢] المعروفين بصحة النقل واتقان الحفظ ، المأمونين على تأدية الرواية واللفظ — فرأيت كلا منهم قد ذهب فى إعراب ما انفرد به من حرفه مذهبا من مذاهب العربية لا يدفع ، وقصد من القياس وجها لا يمنع ، فوافق باللفظ والحكاية طريق النقل والرواية ، غير مؤثر للاختيار على واجب الآثار ، وأنا بعون الله ذاكر فى كتابى هذا ما احتج به أهل صناعة النحو لهم فى معانى اختلافهم ، وتارك ذكر اجتماعهم وائتلافهم فيه ، معتمد على ذكر القراءة المشهورة ، ومنكب على الروايات الشاذة المنكورة[٣] .

وهو بهذا التقديم يشير إلى منهجه فى تناول هذه القراءات ، والاحتجاج لها ، بعد ثنائه على أصحابها اتقان حفظ ، وأمانة رواية ، وأستطيع أن أحدد منهجه فى النقاط الآتية :

فهو أولا — سيسلك مسلك النحاة فى الاحتجاج للقراءة .

ثم هو ثانياً — سيحتج للقراءات المشهورة ، ويقصد بهذه قراءات الأئمة السبعة : « نافع، وابن كثير ، وعاصم، وحمزة، والكسائى ، وأبى عمرو، وابن عامر[٤] » ، وهم الذين وثقهم ابن مجاهد ، وإن كان ابن خالويه لم يشر إليه فى هذا التقديم .

---

(١) مراد ملا ٨٥ ، ٣٢٥ ق ، ١٤ × ١٠ سم ص ١٢ فهرس المخطوطات المصورة .

(٢) يقصد مكة والمدينه والبصرة والكوفه ودمشق (٣) الحجه لابن خالوية : ١

(٤) انظر إبراز المعانى : ٥

ثم هو ثالثاً — ينكر قراءة غير السبعة ، فلا يتعرض لشيء منها ، ويعدها شاذة منكورة . « وسنرى أن ابن جنى » وقف من هـــذه القراءات موقفاً آخر سأوضحه عند الكلام على منهجه فى الاحتجاج للقراءة الشاذة فى كتابه « المحتسب »

فهل تراه التزم هذا المنهج ؟ أما من حيث سلوكه مسلك النحاة فلم يكن ذلك منه على اطراد ، فقد تردد بين مسلكهم حينا ، ومسلك القراء حينا آخر . سنراه يهاجم القراء فى القراءات التى تخالف مذاهب النحاة . وذلك مسلك نحوى[١] ، ونراه مثلا ـ يحتج برسم المصحف[٢] ، وذلك مذهب أهل الأثر الذى يخالف مذاهب النحاة أهل القياس ، والنظر ، وقد كان مضطراً إلى أن يسلك مسلك غير النحاة ، لأن تخالف القراءات لا يرجع إلى الأوجه الإعرابية حسب ، بل إلى أسباب أخرى تعرضت لها فى صدر الكلام على الاحتجاج للقراءات[٣] .

وهو بعد وفَّى بما ذكره من حيث الاحتجاج لقراءات الأئمة السبعة ، وإن كنت قد وجدت بينه وبين أبى على بعض التخالف اليسير فى الحروف التى احتج لها ، وسأشير إلى ذلك قريباً[٤] .

على أنه وإن شذذ ما تجاوز السبع من القراءات ، نراه ينكر بعض ما ورد من القراءات التى رواها الأئمة القراء الثقاة ، شأنه فى ذلك شأن أهل الصنعة من النحاة .

وأنتقل بعد ذلك إلى عرض نصوص أستنبط منها أوجه التخالف ، وأوجه التوافق بين الإمامين فى الكتابين :

أولا : رسم المصحف :

(ا) قال ابن خالويه : قوله تعالى : « إن الله على كل شيء قدير[٥] » ، قرأه حمزة باشباع فتح الشين ووقفه على الياء قبل الهمزة ، وكذلك يفعل بكل حرف سكن قبل الهمزة . والحجة له فى ذلك أنه أراد صحة اللفظ بالهمزة وتحقيقها على أصلها ، لجعلها كالمبتدأ ، وسهل ذلك عليه أنها فى حرف عبد الله مكتوبة فى السواد شاى بألف . . . [٦] » وصحيح ما قال ابن خالويه :

---

(١) سأسوق أمثلة لذلك فى حينه إن شاء الله

(٢) سأعرض لذلك بما يوضحه فى هذا الفصل بعد قليل

(٣) انظر الفصل الخاص بذلك (٤) انظر ص ٣٢٤ من هذا الكتاب

(٥) آية سورة البقرة

(٦) وجه ورقه (٦) الحجه لابن خالويه

جاء فى المقنع للدانى ما نصه : قال محمد بن عيسى : « رأيت فى المصاحف كلها شيء بغير ألف ما خلا الذى فى الكهف (س ١٨ آ ٢٣) يعنى قوله : « ولا تقولن لشاى » قال وفى مصحف عبد الله رأيت كلها بالألف (شاى[1])

(ب) وقال فى الاحتجاج لمن قرأ اتخذتم بالإظهار « ثم أتى بالكلمة على أصلها واغتنم الثواب على كل حرف منها !![2] »

(ج) وقال فى موضع آخر : « لم اتفقت القراء على قوله خطايا كم هنا (البقرة) واختلفوا فى الأعراف ، وسورة نوح ؟ فقل : لأن هذه كتبت بالألف فى المصحف فأدى اللفظ ما تضمنه السواد ، وتينك كتبتا بالتاء من غير ألف[3] »

(د) وقال : قوله تعالى : « أتتخذنا هزؤا » تقرأ هزؤا وكفؤا بالضم والهمز وجزءا بإسكان الزاى والهمز ، والحجة فى ذلك اتباع الخط ، لأن هزؤا وكفؤا فى المصحف مكتوبان بالواو ، وجزءا بغير واو ، فاتبعوا فى القراءة تأدية الخط[4] .

(هـ) وقال ابن خالويه : قوله تعالى : « لم يتسنه » يقرأ وما شاكله (ما أغنى عنى ماليه ، سلطانيه ، وما أدراك ما هيه[5]) باثبات الهاء ، وطرحها فى الإدراج .

فالحجة لمن أثبتها أنه اتبع الخط ، فأدى ما تضمنه السواد . والحجة لمن طرحها أنه إنما أثبت لتبين بها حركة ما قبلها فى الوقف ، فلما اتصل الكلام صار عوضاً منها ، وميزانها فى آخر الكلام كألف الوصل فى أوله ، وكان بعض القراء يتعمد الوقوف على الهاء ، ليجمع بذلك موافقة الخط ، وتأدية اللفظ . وبعضهم يثبت بعضا ، ويطرح بعضا بغير ما علة . . .[6] »

وقال أبو على الفارسى[7] : فأما قراءة ابن كثير ، ونافع ، وأبى عمرو ، وعاصم ، وابن عامر هذه الحروف كلها باثبات الهاء فى الوصل فإن ذلك مستقيم فى قياس العربية فى يتسنه ، وذلك أنهم يجعلون اللام فى يتسنه الهاء ، فإذا وقفوا وقفوا على اللام ، وإذا وصلوا كان بمنزلة لم يتقه زيد ، ولم يجبه عمر . . . » ثم قال أبو على :

---

(١) المقنع : ٤٥

(٢) المخطوطة ظهر ورقه (٨)

(٣) المخطوطة ظهر ورقه (٩)

(٤) الحجة لابن خالويه ظهر ورقة (١٠)

(٥) نسخة البلدية انظر الحجه للفارسى : ١٧/٣

(٦) الحجة لابن خالويه وجه ورقة ٣٠ (٧) نسخة البلدية الحجة : ١٥/٣

قال أحمد بن موسى «ولم يختلفوا فى كتابيه ، وحسابيه أنها بالهاء فى الوصل ، فاتفاقهم فى هذا دلالة على تشبيههم ذلك بالقوافى ، وذلك أنه لا يخلو من أن يكون لهذا التشبيه ، أو لأنهم راعوا إثباتها فى المصحف ، فلا يجوز أن يكون لهذا الوجه ، ألا ترى أن تاءات التأنيث أو عامتها قد أثبتت فى المصحف هاءات ، لأن الكتابة على أن كل حرف منفصل من الآخر ، وموقوف عليه ، فلو كان ذلك للخط لوجب أن يجعل تاءات التأنيث فى الدرج هاءات لكتابتهم إياها هاءات ، ولوجب فى نحو قوله : « إخواناً على سرر متقابلين[1] » أن يكون فى الدرج بالألف ؛ لأن الكتابة بالألف ، فإذا لم يجز هـــذا علمت أن الكتابة ليست معتبرة فى الوقف على هذه الهاءات ، وإذا لم تكن معتبرة علمت أنه للتشبيه بالقوافى .

ولإثبات هذه الهاءات فى الوصل وجيه فى القياس ، وذلك أن سيبويه حكى فى العدد أنهم يقولون ثلاثه أربعه ، وقد أجروا الوصل فى هـذا مجرى الوقف على التاء التى للتأنيث . . . وترك القياس على هذا أولى من القياس عليه ؟ لقلة ذلك وخروجه مع قلته على القياس ، وإذا جاء الشيء خارجا عن قياس الجمهور والكثرة فى جنس لم ينبغ أن تجاوز به ذلك الجنس[2] .

* * *

من هذه النصوص أستطيع أن أستنتج أن ابن خالويه[3] مولع بالاحتجاج برسم المصحف ، وهـذا أمر يقربه من مسلك أهل الأثر ، والتعبد بما رسم الكاتبون فى السواد — على حد تعبيره — والدليل على أنه يسلك طريق أهل الأثر — كذلك — ما قاله فى موضع الاحتجاج لمن قرأ ثم اتخذتم بالاظهار :

أنه أتى بالكلمة على أصلها ، واغتنم الثواب على كل حرف منها !! [4]

ونرى أبا على الفارسى فى نصه الذى عرضت ينفى أن يكون إثبات الهاء فى المصحف من قوله تعالى : « كتابيه وحسابيه . . . » سبباً فى اتفاق القراء على قراءتها

(١) آية ٤٧ سورة الحجر
(٢) الحجة للفارسى نسخة البلديه ٣/١٥ــ٢٠
(٣) الحجه لابن خالوية وجه ورقة (٣) ووجه ورقة (١١)
(٤) الحجة لابن خالوية ظهر ورقة (٨)

بالهاء فى الوصل ، ثم يبرهن بهذا القياس الذى أورد على ما اتجه إليه ورآه من أنهم أثبتوها فى الوصل تشبيهاً لها بالقوافى . . .

إلى أن لإثبات الهاء فى هذه الأحرف — وجيهاً من القياس . . . (١)

ثانياً : المنطق والقياس ومدى ظهوره عند كل :

قال أبو على : اختلفوا فى قوله تعالى : « فأزلهما الشيطان عنها » فقرأ حمزة فأزالهما بألف خفيفة ، وقرأ الباقون : « فأزلهما » مشدداً بغير ألف . قال أبو بكر أحمد ؛ « وروى أبو عبيد أن حمزة قرأ فأزالهما بالإمالة وهذا غلط ، وحجة حمزة فى قراءته « فأزالهما الشيطان عنها » أن قوله عز وجل ؛ « ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها » تأويله أثبتا فثبتا ، فأزالهما الشيطان ، فقابل الثبات بالزوال الذى هو خلافه ، ومثل ذلك قوله (عزوجل) « وأوحينا إلى موسى أن أضرب بعصاك البحر فانفلق (٢) » تأويله فضرب فانفلق ، ومثله : « فمن كان منكم مريضاً أو به أذى من رأسه ففدية (٣) » أى فحلق فعليه فدية ، ونسب الفعل إلى الشيطان ، لأن زوالهما عنها إنما كان بتزيينه ، ووسوسته ، وتسويله ، فلما كان ذلك منه سبب زوالهما عنها أسند الفعل إليه ، ومثل هـــذا قوله عز وجل ؛ « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » فالرمى كان للنبى عليه السلام حيث رمى فقال ؛ « شاهت الوجوه » إلا أنه لما كان بقوة الله وإرادته نسب إليه ، ومما يقوى قراءته قوله فأخرجهما مما كانا فيه » ، فقوله فأخرجهما فى المعنى قريب من ازالهما ، ألا ترى أن إخراجه إياهما إزالة منه لهما عما كانا فيه . فان قال قائل : « ما تنكر أن يكون فاعل أخرجهما لا يكون ضمير الشيطان ، ولكن المصدر الذى ذكر فعله كقولهم : « من كذب كان شراً له » — فالدلالة على فاعل أخرجهما ضمير الشيطان قوله فى الأخرى : « يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة » ففاعل أخرجهما الشيطان كما بين ذلك فى هذه الآية . ويقوى قراءته أيضاً تأويل من تأول أن أزلهما من زل الذى هو عثر ؛ ألا ترى أن ذلك قريب من الازالة فى المعنى ؟

فان قال قائل : فانه إذا قرأ فأزالهما كان قوله بعد : فأخرجهما تكريراً ، فالقراءة الاخرى أرجح ، لأنها لا تكون على التكرير ، قيل : إن قوله عزوجل : أخرجهما

(١) نسخة البلدية . انظر الحجة للفارسى : ٣/١٥ — ٢٠
(٢) سورة الشعراء آية ٦٣ (٣) سورة البقرة آية ١٩٦

ليس بتكرير لا فائدة فيه ، ألا ترى أنه قد يجوز أن يزيلهما عن مواضعهما ، ولا يخرجهما مما كانا فيه من الدعة والرفاهية ، فاذا كان كذلك لم يكن تكريراً غير مفيد ، وعلى أن التكرير فى مثل هذا الموضع لتفخيم القصة ، وتعظيمها بألفاظ مختلفة ليس بمكروه ولا مجتنب ؛ بل هو مستحب مستعمل كقول القائل : أزلت نعمته ، وأخرجته من ملكه ، وغلظت عقوبته ، وقالوا : « زال عن موضعه وأزلته » ، وفى التنزيل : « إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا » وفيه : « وان كان مكرهم لتزول منه الجبال » .

حجة من قرأ فأزلهما الشيطان « أن أزلها يحتمل تأويلين : أحدهما : كسبهما الزلة ، والآخر أن يكون : أزل من زل الذى يراد به عثر . والدلالة على الوجه الأول ما جاء فى التنزيل من تزيينه لهما تناول ما حظر عليهما جنسه بقوله : « ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة » إلى قوله : « لمن الناصحين » وقوله عز وجل : « فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ما ووري عنهما من سوآتهما » وقد نسب كسب الانسان الزلة إلى الشيطان فى قوله عز وجل : « إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا » واستزل وأزل كقولهم استجاب وأجاب ، واستخلف لأهله وأخلف ، فكما أن استزلهم من الزلة المعنى فيه كسبهم الشيطان الزلة ، كذلك قوله : فأزلها الشيطان والوجه الآخر أن يكون فأزلها من زل عن المكان إذا عثر فلم يثبت عليه ، ويدل على هذا قوله عز وجل : « فأخرجهما مما كانا فيه ، كما أن خروجه عن الموضع الذى هو فيه انتقال عنه إلى غيره ، كذلك عثاره فيه وزلته » [1] .

فما الذى قاله ابن خالويه فى الاحتجاج لاختلاف القراء فى هذا الحرف ؟ كل ما كان منه أن قال : قوله تعالى : فأزلهما يقرأ باثبات الألف والتخفيف ، وبطرحها والتشديد . فالحجة لمن أثبت الألف أن يجعله من الزوال والانتقال عن الجنة . والحجة لمن طرحها أن يجعله من الزلل [2] . ثم مضى بعد ذلك إلى الاحتجاج لما اختلف فيه القراء بعد ذلك .

ولكننا إذا أردنا أن نضع أيدينا على القياس عند أبى على فى احتجاجه لاختلاف القراء فى أزلهما . « رأيناه يقابل مقايساً قوله تعالى : ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها — أى أثبتا فثبتا فأزلهما الشيطان — يقابل ذلك بقوله تعالى :

(١) الحجة نسخة مراد ملا ورقة ٣٠١٠ وما بعدها (٢) الحجة لابن خالويه ظهر ورقة ٧

وأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق » أى فضرب فانفلق » ، وبقوله تعالى : « فمن كان منكم مريضاً أو به أذى من رأسه ففدية أى فحلق فعليه فدية . » ، ورأيناه كذلك يعقد القياس بين اسناد الفعل إلى الشيطان ؛ لأن وسوسته كانت سبباً فى زوال آدم وحواء عن الجنة — وإسناد الرمى الى الله تعالى ؛ لأنه كان بقوة الله وإرادته [1] . ونراه أيضاً — يقايس — مبرهنا — على أن فاعل أخرجهما ضمير الشيطان فى قوله تعالى : فأخرجهما مما كانا فيه بقوله تعالى : يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة » .

ثم نراه يعتبر التكرير فى قوله تعالى «فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما» — بالتكرير فى قول القائل : «أزلت نعمته» ، وأخرجته من ملكه ، وغلظت عقوبته .

ثم انظر كيف يبرهن — على القراءة الأخرى : فأزلهما — إذ يتأول هذا الحرف على أنه من زل عن المكان إذا عثر فلم يثبت عليه ، ويقيس الخروج فى قوله تعالى : « فأخرجهما مما كانا فيه » على العثار من حيث أن الخروج عن الوضع انتقال عنه إلى غيره كالعثار [2] .

وبعد فالقياس شائع عند أبى على ، وقد عقدت فصلا تحدثت فيه عن القياس عنده بالتفصيل [3] ، ولكنى أردت بعرض هذين المثالين أن أبين اختلاف المنهجين بين الامامين فى حرف ؛ لتكون الموازنة أوضح ، ولتتبين طريقة كل منهما فى جلاء. ومن المهم أن أقول : « إن هذا المنهج هو السمة العامة لكل ، ومن الحق أيضاً أن أقرر ، أن ابن خالويه تبدو عنده فى القياس لمحات خافتات ، تعد فلتات نادرات [4] ، ثم هى لا تكون فى مثل ذلك الاستطراد الذى رأيناه عند الفارسى ، حيث يسلك القياس إلى قياس ، وهذه الفلتات لندرتها لا تبنى عليها الأحكام .

ثالثاً — العروض واستغلاله فى الاحتجاج :

ومن الظواهر البادية عند أبى على الفارسى استغلاله العروض ومسائله فى الاحتجاج ، ولا أثر لذلك فى كتاب الحجة عند ابن خالويه ، فالفارسى يقيس على العروض [5] ، ويتحدث عن الروى ، والتأسيس ، والردف [6] ، وفى لزوم

---

(١) الحجة نسخة مراد ملا ورقة ٣١٠

(٢) الحجه للفارسى نسخة مراد ملا ورقة ٣١٢

(٣) راجع الفصل الخامس بذلك

(٤) انظر مثلا وجه ورقة ٣٠

(٥) الحجة نسخة البلدية : ٦١/١

(٦) الحجه :١/٦٢

مالا يلزم [١] ، ولم تعاقبت السين والفاء فى مستفعلن التى هى عروض البيت الأول من المنسرح [٢] ، ويسوق الشواهد على الضرورات الشعرية [٣] ، واستجازة حذف الحركة فى الزحاف [٤]. وقد عقدت فصلا تحدثت فيه عن كل ذلك وغيره فى تفصيل، ثم قومت منهج الفارسى فى استغلاله العروض [٥] .

رابعاً — الاصطلاحات وتعددها عند الفارسى :

وعلى سبيل المثال أذكر أن ابن خالويه يلتزم فى حديثه عن الأحرف التى وقعت الإمالة فيها من القراء — يلتزم قوله : يقرأ بالإمالة والتفخيم [٦] ، ولكن أبا على يتحدث عن الإمالة : أسمائها ودرجاتها ، كالكسر [٧] ، والإجناح [٨]، والبطح [٩]، والإضجاع [١٠] ، والإمالة [١١] الشديدة ، وأشباع الإمالة [١٢] ، والقارىء لا يفتح ولا يكسر [١٣] وبين الفتح والكسر ، وبين الكسر والتفخيم [١٤] ، وبين الإمالة والتفخيم [١٥] ، ويسمى عدم الإمالة فتحاً [١٦] ، ونصباً [١٧] ، وتفخيما [١٨] وهكذا يراوح أبو على فى تعبيره بين الاصطلاحات المختلفة ، وقد تعرضت لهذه الاصطلاحات عند كلامه على مذهبه النحوى .

خامساً تدفق أبى على فى إيراد الشواهد ، ولا شىء من ذلك عند ابن خالويه :

وربما كان السبب فى مثل هذا ونحوه من ابن خالويه أنه أخذ على نفسه الاختصار ، والتزام الاقتصار من غير اطالة ولا إكثار [١٩] ؛ وبمثل هذا أعلل .

سادساً — نسبة القراءات المختلفة إلى أئمتها عند الفارسى كما يذكر أسانيدها ، وتجاوز ابن خالويه عن ذلك .

فأبو على يروى عن القصبى [٢٠] باسناده عن عبد الوارث عن أبى عمرو واليزيدى [٢١] ، ويحكى عن أبى هشام بإسناده عن سليم عن حمزة ... ، ويحدث

---

(١) ١/٦٣ (٢) ص ٧٠ وما بعدها (٣) ٧٣ (٤) ١/٢٦٣

(٥) راجع الفصل الخاص بذلك (٦) انظر ورقات ٣،٥،٦،٧ من كتاب الحجة لابن خالويه وص ١٥ من بحثى القراءات واللهجات العربية : الامالة

(٧) ٢/١٤٦ (٨) ١/٣٧٣ (٩) ٧/٣٨٣ (١٠) ٢٨٢ (١١) ١/٣٧٣

(١٢) ١/٣٧٣ (١٣) ١/٣٤٨ (١٤) ١/٣٧٦

(١٥) ١/٣٤٨ (١٦) ٢/٥٤٨ (١٧) ١/٣٠٤

(١٨) ١/٣٦١ و٢/١٥٣ (١٩) ظهر ورقة ١

(٢٠) لم اجد القصبي متقدما على الفارسى والقصبى الذى وجدته متأخر توفى سنة ٥٤٠ انظر طبقات القراء ١/٦٦ (٢١) الحجة : ١/٣٨٠

عن أبي بكر بن مجاهد بسنده عن وهيب بن عبد الله ... ، عن الحسن بن المبارك عن عمرو بن الصباح عن حفص عن عاصم ... ، ويحدث عن وهيب [1] بن عبدالله المروذى عن الحسن بن المبارك عن أبي حفص ... كما يحدثه سهل أبو عمرو عن أبي عمرو عن عاصم ... ويخبره محمد بن الفرج عن محمد بن إسحق عن أبيه نافع ... ويحدثه أبو سعيد البصرى الحارثى عن الأصمعى عن نافع [2] ... وهكذا ، ولكن ابن خالويه يروى القراءات ، ويحتج لها ، دون أن يذكر أسانيدها ، ولمنهج أبي على قيمة : هي توثيق هذه القراءات ، بذكر أسنادها المتصلة بالقراء السبعة الذين اتصل سندهم برسول الله (صلى الله عليه وسلم) وفى ذلك — ضمناً — دفاع عن هذه القراءات ، وأنها تنزيل من حكيم حميد .

سابعاً — اللغويات عند كل من الإمامين :

وهذه تذكر على نحو واسع متقص فى الحجة لأبى على ، وعلى الرغم من أن المترجمين يذكرون ابن خالويه بأنه لغوى [3] ومن كبار أهل اللغة [4] ، ووصفه الدانى بأنه حافظ للغة [5] ـ على الرغم من ذلك فابن خالويه لا يتعرض للغويات على صورة واسعة شاملة [6] ، وتعرض أبي على الفارسى للمفردات اللغوية وشرحها ، والاستشهاد لها من كتاب الله ، والشعر ، وكلام العرب ، وما نقل الأئمة وما رووا ـ من أمثال سيبويه ، وأبي زيد ، وأبي عبيدة ، أقول تعرضه على هذه الصورة له قيمة فى تفسير القاموس القرآنى ، وفى تاريخ تطوره منذ أبي عبيدة فى مجازه حتى الراغب الأصفهانى فى مفرداته ، وتعليله ، وقد خصصت فصلا لذلك وفى تقويمه ، وتعليله ، ولعل ابن خالويه لم يتعرض لشىء منه مع شهرته اللغوية ؛ لأنه التزم كما قلت الاختصار . . . ويتصل بذلك أنك تجد أبا على .

ثامناً — يهتم بتفسير القرآن الكريم : ذلك لأن أبا على أراد أن يوجه إعراب الكلمات التى وقع الاختلاف فيها ، وغيرها مما هو متصل بها ، ويدعوه الاستطراد إلى التعرض لها ـ كما وجه معنى كل قراءة احتج لها ، فأسلمه ذلك إلى

(١) الموجود فى طبقات القراء وهب ٢/٣٦١ (٢) انظر الحجة نسخة مرادملا ١ ورقة ٣٨٢
(٣) طبقات القراء : ١/٢٣٧ (٤) نزهة الألباء : ٢٠٧
(٥) معجم الأدباء : ٩/٢٠٢
(٦) انظر تعرضه الموجز لهمز النبيئين والصابئين الحجة ظهر ورقة ١٠ وانظر وجه ورقة ١٤ فى أفعل وفعل .

التفسير ، ومن هنا كان الفارسى يمثل حلقة من السلسلة المتتابعة فى هـذا الميدان ، وهو ما ذكر بالتفصيل فى الفصل المعقود لذلك : منهجه ؟ وكيف استقى من المفسرين قبله ؟ وكيف تأثر به من بعده ؟ ومما يستحق التسجيل أن محمد بن على أحمد الداودى المالكى لم يذكر الفارسى فى طبقات المفسرين(١) مع أنه ذكر ابن خالويه ويتفرع على ذلك .

تاسعاً : تقرير أن أبا على يستخدم القرآن استخداما يدعو إلى الدهشة ويدل على اليقظة الذهنية الدقيقة فى توجيه الإعراب ، والاحتجاج ، انظر مثلا قوله : فأما النون والياء فى قوله « نكفر ويكفر عنكم من سيئاتكم ويدخلكم(٢) » فمن قال : ويكفر فلأن ما بعده على لفظ الافراد ، فيكفر أشبه بما بعده من الافراد منه بالجمع .

وأما من قال : نكفر على لفظ الجمع ، فإنه أتى بلفظ الجمع ، ثم أفرد كما أتى بلفظ الأفراد ، ثم جمع فى قوله تعالى : « سبحان الذى أسرى بعبده » ثم قال : « وآتينا موسى الكتاب(٣) » . وهذا قليل من كثير ما أورد فى هذا الباب ، وقد نجد شيئاً من ذلك عند ابن خالويه ، ولكنه يأتى فى قلة نادرة ، تطالعك فتحس كأنها جاءت إليك بعد غيبة طويلة ، فتجد لها فى نفسك غربة ؛ لأنها وردت عليك بعد انقطاع عنك ، على حين تأتى عند أبى على فى كثرة غامرة أولا ، ثم هى تدل على عمق ويقظة ذهنية ثانياً ، ولاشىء من ذلك تحسه عند ابن خالويه ، وأكتفى بما ذكرت فى فصل « الشواهد » عند أبى على دالا على منهجه وطابعه فى إيراد الآيات القرآنية ، وإليك بعض أمثلة لابن خالويه فى هذا الباب تحدثك عن طابعه من السطحية فى الاحتجاج بآيات الكتاب ، والضعف ـ كذلك ـ قال : قوله تعالى « قل فيهما إثم كبير » قرىء « كبير » بدليل قوله : وإثمهما أكبر ولم يقل أكثر ، و « كثير » بدليل قوله : « ولا أدنى من ذلك ولا أكثر (٤) » .

وقال : قوله تعالى: من موَصٍّ بالتشديد من وَصّى بدليل قوله : « وماوصينا به إبراهيم » ، و « من مُوصٍ » بالتخفيف من أوصى ، ودليله قوله « يوصيكم الله(٥) » .

ومثال الضعف عند ابن خالويه احتجاجه لقوله تعالى : « فأمتعه قليلا » أمتعه

---

(١) ظهر ورقة ١٦ (٢) كذا عبارته وجه ورقة ١٤
(٣) مخطوط بدار الكتب رقم ١٦٨ تاريخ (٤) سورة النساء آية ٣١
(٥) نسخة البلدية : ٤٢/٣

يقرأ بتشديد التاء وتخفيفها . فالحجة لمن شدد تكرير الفعل ومداومته ، ودليله قوله : « ومتعناهم إلى حين » ، والحجة لمن خفف أن تكرير الفعل لا يكون معه « قليلا » فلما جاء معه بقليل كان أمتع أولى به من متّع ، على أن أفعل وفعّل يأتيان فى الكلام بمعنى واحد كقولك أكرمت وكرمت ، ويأتيان والمعنى مختلف كقولك : أفرطت وفرطت ، وتأتى فعلت لما لا تأتى له أفعلت كقولك كلمت زيداً ، ولا يقال أكلمت ، وأجلست زيداً ، ولا يقال جلست .

فأنت ترى أنه ذكر وجهين للاحتجاج آخرهما لا يستقيم مع الاحتجاج[1] الأول بل هو يسقطه ، والأولى أن يقتصر على قوله : أن أفعل وفعل يأتيان فى الكلام بمعنى واحد .

وقال : قوله تعالى : « أن ينزل الله » : يقرأ بالتشديد والتخفيف . حجة من شدد أنه أخذه من نزل ينزل ، وحجة من خفف أنه أخذه من أنزل ينزل والحجة لهما (أى للكسائى وحمزة) فى ترك التشديد فى قوله : « وينزل الغيث » فى لقمان ، « وهو الذى ينزل الغيث » فى عسق قوله « وأنزلنا من السماء ماء طهورا » فمضارع أنزل ينزل بالتخفيف فاعرفه[2] !! » .

وأراه فى هذا يفسر الماء بالماء !! وأية دقة فى أن مضارع أنزل هو : يُنْزِل حتى يدعو إلى معرفتها !! ؟ وانظر استدلاله بالقراءة على قراءة أخرى كلامه فى قوله تعالى : « ولا تسأل[3] » . ومثل ذلك استدلال كلّ بالحديث الشريف[4]

عاشراً — شخصية كل :

وأبو على ظاهر الشخصية بما يعلق أو يعقب[5] ، أو ينشىء من الأدلة إنشاء ، وما يورد من الشواهد بعد شواهد الشيوخ[6] ، أو بما يتفهم من نصوص الأئمة السابقين ، فهو — كما يقول المحدثون — يفهم ما بين السطور ، ويضع النقط على الحروف . وتعليقاته وتعقيباته تدل على عمق فهم ، وبعد غور[7] ، وقد تعرضت لذلك فى تفصيل فى البحث الذى عقدته عن شيوخه فليراجع . ولم يكن ذلك من

(١) الحجه لابن خالويه وجه ١٨ (٢) وجه ورقة ١٣ (٣) ظهر ورقة ١٣

(٤) انظر لابن خالويه الحجة ظهر ورقة ١٥ ولأبي على الفارسى : ٢/١٢٠ نسخة البلدية

(٥) الحجة نسخة البلدية : ٣/٢٢ (٦) نسخه البلدية : ٣/١٥، ٤٤

(٧) الحجة نسخة البلدية : ٣/٢٢

ابن خالويه بالضرورة ؛ لأنه لم يتعرض لأقوال الأئمة الذين سبقوه أو عاصروه حتى تتاح له فرصة التعقيب أو التعليق أو النقد . . . وأكبر الظن أنه لو تعرض لأقوالهم ما استطاع أن يقف منها موقف الفارسى ، أقول ذلك مستنتجاً إياه من المواطن الأخرى التى تعرض فيها الرجلان إلى الحديث عنها ، واختلفا فى المنهج عمقاً عند الفارسى ، وسطحية عند ابن خالويه .

وقد وجدت : حادى عشر : أن ابن خالويه يتعرض لمذاهب القراء من حيث الأداء ، فهو يتعرض للمد ومقداره ، والتنوين بغنة وبغيرها ، والوقف فى حروف لم يتعرض لها أبو على ، قال ابن خالويه : قوله تعالى : « يا بنى إسرائيل » كان ابن كثير يمد إسرائيل أكثر من مد بنى ، والحجة له فى ذلك أن مد بنى لأجل استقبال الهمزة فهى مد حرف لحرف ، والمد فى إسرائيل من أصل بنية الكلمة لا لأجل غيرها ، وسوّى الباقون بين مدتيهما ؛ لأنهما فى اللفظ سيان[1] » .

ولم يذكر أبو على شيئاً من اختلاف القراء فى ذلك

وقال ابن خالويه : قوله تعالى : « من يقول » يقرأ مدغماً بغنة ، وبغير غنة ؛ لأن النون والتنوين يدغمان عند ستة أحرف يجمعها قولك « يرملون » ، ويظهران عند ستة أحرف ، وهى الهمزة ، والهاء ، والعين ، والحاء ، والغين ، والخاء ، ويخفيان عند سائر الحروف فالنون الساكنة ، والتنوين يدغمان فى اللام ، والراء بغير غنة ، وفى الواو كذلك فى قراءة حمزة ، ويدغمان فى الميم والنون بغنة لاغير[2] ، فالحجة لمن أدغم فى اللام ، والراء ، والياء ، والواو ، بغير غنة أن اللام ، والراء حرفان شديدان ، والغنة من الأنف فبعدت منهما ، والياء ، والراء ، رخوتان فجرتا مع النون والتنوين فى غنة الخياشيم . واتفقوا على إدغام النون ، والتنوين عند الميم بغنة لاغير ؛ لمشاركة الميم لهما فى الخروج من الخياشيم ، واستدلوا على ذلك بأن المتكلم بالميم والنون الساكنة لو أمسك بأنفه لأخل ذلك بلفظهما[3] ، ولم أر أبا على تعرض لهـــذا الإدغام ، وفصل الكلام فيه على النحو الذى فعل ابن خالويه ، بل إنه لم يذكر هذا الاختلاف فى ذلك الحرف من حيث الغنة أو عدمها . ثم انظر تعليل ابن خالويه لوقف حمزة بالتاء على مرضات ، وهيهات هيهات ، ولات ، واللات ، والتورات ويا أبت[4] ، على حين أن أبا على لم يتعرض لشىء من ذلك ، إذ بعد أن أتم

(١) الحجة لابن خالويه ظهر ورقة ٨
(٢) الحجة لابن خالوية ٤
(٣) الحجه وجه ورقة ٤
(٤) ظهر ورقة ١٧

احتجاجه لاختلاف القراء فى قوله تعالى : « لا رفث ولا فسوق ولا جدال » انتقل إلى اختلافهم فى السلم[1]

هذا وهناك ناحية اختلاف بين المنهجين فى الشكل ، أذكرها ؛ إتماماً لسمات الاختلاف بين كل : ذلك أن أبا على الفارسى ينتقل من حرف إلى حرف بقوله : « اختلفوا » ثم يذكر قراءات الأئمة واختلافهم فى هذا الحرف بالتفصيل ، ويذكر الأسانيد المختلفة لتوثيق هذا الاختلاف ، أما دلالة الانتقال من حرف إلى حرف عند ابن خالويه هو لفظ : قوله تعالى « ومن النادر أن يعين القارىء وقراءته فى الحرف المختلف فيه

* * *

أما عن النواحى التى اتفق فيها الإمامان فهى أولا : فى أن كلا منهما يحتج للقراء السبعة ، وثانياً : أن كليهما يتعرض للقراءات التى تخالف مذهبه النحوى بالتوهين والتضعيف . وربما بدا ابن خالويه فى ذلك أعنف من أبى على ، وتعليل ذلك عندى ـ أن أبا على واسع الأفق ، ماهر فى القياس ، قوى فى الاحتجاج ، عالم بمذاهب العرب ، دارس لكتاب سيبويه فى إتقان . قد أكب عليه ، وتفرد به كما يقول أبو حيان[2] ، فقاس على ما فيه ، وقد مكنه ذلك كله من الاعتراف بصحة القراءات ـ فى الأعم الأغلب ـ التى تخالف مذهبه ، وإن كان يتبع ذلك بأحكام الجودة أو الحسن ، أو التنبيه على موافقة القياس للقراءات التى تتفق وما يذهب إليه . وقد تعرضت فى تفصيل إلى بيان ذلك الموقف من أبى على فى فصل خاص عقدته له فلتراجع الاستشهادات هناك ، وأسوق هنا بعض الأمثلة لكل للتدليل على ماأقول . قال ابن خالويه : « وأدغم أبو عمرو وحده الراء فى اللام من «يغفر لكم» وما شاكله فى القرآن ، وهو ضعيف عند البصريين[3] .

وقال : أما ماروى عن أبى عمرو من إمالة قوله : « فلما رأى القمر» وما شاكله فغلط عليه ؛ لأن الإمالة من أجل الياء ؛ فلما سقطت الياء سقطت الإمالة ... ... فإن كانت هذه الرواية صحت عنه ، فإنما أراد أن يعلم أنه كذلك يقف ، وفى هذا بعض الوهن ، ولكنه عذر له ، والمشهور عنه فى ذلك الفتح[4] .

---

(١) نسخة البلدية ٢/١ انظر ورقة ٣١٩ (٢) الامتاع / ١٣١
(٣) الحجة لابن خالوية وجه ورقة ١٠ (٤) آخر وجه ورقة ٩

وجاء فى كتاب الحجة لأبى على : فإذا سقطت الياء فى الوصل لساكن لقيها لم يمل الراء كقوله : «حتى نرى الله جهرة » ، « والنصارى المسيح» ، «ويرى الذين » قال أبو على : هذا الذى ذهب إليه أبو عمرو مذهب ، وللعرب فى هذا مذهبان : أحدهما : ألا يميلوا بالفتحة نحو الكسرة ؛ لأن إمالتها إنما كانت لتميل الألف نحو الياء ، فلما سقطت الألف لالتقاء الساكنين صحح الفتحة ، ولم يملها لسقوط الألف التى كانت الفتحة تمال لتميلها ، قال سيبويه : « قالوا لم يضربها الذى تعلم [1] » فلم يميلوا لأن الألف قد ذهبت . والآخرة أن يميل الفتحة نحو الكسرة ، وإن كانت الألف قد سقطت ، لأن الألف كما كان حذفها لالتقاء الساكنين والتقاء الساكنين غير لازم صارت الألف كأنها فى اللفظ . وقد روى أحمد بن موسى هذا الوجه الثانى أيضاً عن أبى عمرو فقال : « روى عبد الوارث وعباس بن الفضل عن أبى عمرو أمالة ذلك كله استقبله ساكن أو لم يستقبله ، قال أحمد : المعروف عن أبى عمرو ترك الإمالة فى مثل « نرى الله جهره » وقد حكى هذا الوجه أبو الحسن ، وحكى الأول الذى حكيناه من سيبويه فقال : إن شئت تركت الامالة على حالها ، قال ، وذلك نحو « فلما رأى القمر » ، « وفى القتلى الحر » ، « وهدى للمتقين » .

وهكذا تبدو رحابة صـــدر أبى على ، التى اعتمدت على سعة علمه بأقوال النحاة والقراء على السواء وقد فقد ذلك ابن خالوية — على ما يبدو فى كتابه

وإن كنت فى شك مما قررت فاقرأ كيف يعنف ابن خالويه بمخالفة القراء للقياس ويضيق صدره بما يقولون ، ثم انظر كيف يقف أبو على منهم محتجاً لمذاهبهم فيما يتلون : قال بن خالويه [2] : فأما إمالة الكسائى (رحمه الله) قوله (تعالى) فى آذانهم من الصواعق [3] . فإن كان أماله سماعاً من العرب فالسؤال عنه وبل (كذا) ، وإن كان أماله قياسا فقد وهم ؛ لأن ألف الجمع فى أمثال هذا لا تمال ، ويلزمه على قياسه أن يميل قوله تعالى : « أنبئهم بأسمائهم [4] » ، « ويطاف عليهم بآنية [5] » . وإمالة هذا محال » .

أما ما جاء فى كتاب الحجة لأبى على فقد قال : اختلفوا فى قوله (عز وجل)

---

(١) الكتاب /٢
(٢) الحجة لابن خالوية ظهر ورقة ٥
(٣) سورة البقرة آية : ٩٩
(٤) سورة البقرة آية : ٣٣
(٥) سورة الانسان آية : ١٥

« فى طغيانهم وفى آذانهم[1] » قال أبو عمر العدوى ، ونصير بن يوسف النحوى : كان الكسائى يميل الألف فى طغيانهم ، وآذانهم ، وقال غيرهما : كان يفتح ، وقال أبو الحرث الليث بن خالد ، وغيره : كان الكسائى لايميل هذا وأشباهه ، والباقون يفتحون . . . وبعد أن احتج لامالة طغيانهم قال : وأما « فى آذانهم » فجازت فيها الامالة ، كما جازت فى قوله مررت ببابه[2] ، لمكان كسرة الإعراب . وهى فيه حسنة جائزة ، والإمالة فى طغيانهم أحسن[3]

وقد بينت الرأى الذى إليه انتهيت فى موقف النحاة من القراءات التى تخالف مذاهبهم فى مكان مستقل[4] ، مؤرخاً لنظرتهم تلك ، ذاكراً ما رأيته وجه الحق فيما إليه يذهبون .

* * *

وبعد ، فكتاب الحجة لابن خالويه لا يخلو من ميزة ، لأنه يوفى بحاجة المتخلفين من الراغبين فى التعرف على مذاهب القراء والاحتجاج لها فى سرعة وسهولة ، ثم يقنعهم هذا المنهج المتخفف الذى لايكلفهم عنتاً ولا إرهاقا ، ولا يكلفهم من أنفسهم مشقة ولا عسراً ، أما أولئك الذين يستريحون للتقصى الذى ينقع الغلة ، وأولئك الذين يتعمقون ويستريحون لهذا النوع من الاستيعاب ، وماأخذه ، أبو على على نفسه من نواحى منهجه التى أشرت إليها فى إجمال هنا ، وتفصيل هناك — فلا يعدلون بكتاب الحجة بديلا ، ويجدونه خيراً مقاما ، وأحسن تأويلا .

على أن لكتاب الحجة للفارسى هنات ، وعليه مآخذ ، وفيه سقطات ، وقد تحدثت عن هذه منذ حين .

---

(١) سورة البقرة آية : ١٥ ، ١٦ (٢) الكتاب لسيبوية : ٢/٢٦١
(٣) الحجة لأبي علي نسخة مراد ملا ٢٠٦/١ (٤) انظر ص ٢٤٠ من هذا الكتاب.